

موجز تاريخ العالم

تأليف
ه. ج. ويلز

ترجمة
عبد العزيز توفيق هاريد

مراجعة
محمد مأمون نجما





موجز تاريخ العالم

تأليف
ه. ج. ويلز

مراجعة
محمد أمين نجما

ترجمة
عبد العزيز توفيق داوود



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
في صها بيا حسن محمد وأولاده
٩ شارع صها بيا القاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

ز	فهرس الخرائط
ط	مقدمة المترجم
م	مقدمة المؤلف
٣	الفصل الأول : العالم والفضاء
٦	الفصل الثاني : العالم والزمان
٩	الفصل الثالث : بدايات الحياة
١٢	الفصل الرابع : عصر الاسماك
١٥	الفصل الخامس : عصر مستنقعات الفحم
١٩	الفصل السادس : عصر الزواحف
٢١	الفصل السابع : الطيور الاولى والثدييات الاولى
٢٧	الفصل الثامن : عصر الثدييات
٣١	الفصل التاسع : القردة العليا وأشباه الإنسان
٣٦	الفصل العاشر : الإنسان النياندرتالى والرويدي
٤١	الفصل الحادى عشر : الإنسان الحقيقى الاول
٤٥	الفصل الثانى عشر : الفكر البدائى
٤٩	الفصل الثالث عشر : بدايات الزراعة
٥٤	الفصل الرابع عشر : حضارات العصر الحجري الحديث البدائية
٦٠	الفصل الخامس عشر : سومر ومصر فى العصور الاولى ونشأة الكتابة
٦٤	الفصل السادس عشر : الشعوب المترحلة البدائية
٦٨	الفصل السابع عشر : أول شعوب البحرية
٧٣	الفصل الثامن عشر : مصر وبابل وآشور
٧٩	الفصل التاسع عشر : الآريون البدائيون

٨٣	الفصل العشرون : الإمبراطورية البابلية الاخيرة وإمبراطورية دار الاول.
٨٩	الفصل الحادى والعشرون : تاريخ اليهود القديم
٩٥	الفصل الثانى والعشرون : كهان وأنبياء فى بلاد اليهودية
٩٩	الفصل الثالث والعشرون : الإغريق
١٠٥	الفصل الرابع والعشرون : الحرب بين الإغريق والفرس
١٠٩	الفصل الخامس والعشرون : بلاد الإغريق إبان مجدها
١١٢	الفصل السادس والعشرون : إمبراطورية الإسكندر الاكبر.
١١٦	الفصل السابع والعشرون : متحف الإسكندرية ومكتبتها
١٢١	الفصل الثامن والعشرون : حياة جوتا ما بوذا
١٢٦	الفصل التاسع والعشرون : الملك آسوكا
١٢٨	الفصل الثلاثون : كوفوشىوس ولاهوتسى
١٣٣	الفصل الحادى والثلاثون : ظهور روما على مسرح التاريخ
١٣٨	الفصل الثانى والثلاثون : بين روما وقرطاجنة
١٤٣	الفصل الثالث والثلاثون : نمو الإمبراطورية الرومانية
١٥٤	الفصل الرابع والثلاثون : بين روما والصين
١٦٠	الفصل الخامس والثلاثون : حياة الرجل العادى فى عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة
١٦٦	الفصل السادس والثلاثون : التطورات الدينية فى ظلال الإمبراطورية الرومانية
١٧٢	الفصل السابع والثلاثون : تعاليم يسوع
١٧٧	الفصل الثامن والثلاثون : تطور المسيحية الذهبية
١٨٢	الفصل التاسع والثلاثون : البرابرة يشطرون الإمبراطورية إلى شطرين : شرقى وغربى
١٨٧	الفصل الأربعون : الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية
١٩٢	الفصل الحادى والأربعون : الإمبراطوران البيزنطية والساسانية
١٩٧	الفصل الثانى والأربعون : أسرتا « سوى ، وتانج » بالعين
٢٠٠	الفصل الثالث والأربعون : محمد والإسلام

- ٢٠٤ الفصل الرابع والأربعون : عهد عظمة العرب
- ٢١٠ الفصل السادس والأربعون : الحروب الصليبية وعصر السيادة الباباوية
- ٢٢٨ الفصل السابع والأربعون : الأمراء الممارضون والصدع الأعظم
- ٢٣٦ الفصل الثامن والأربعون : فتوح المغول
- ٢٤١ الفصل التاسع والأربعون : النهضة الفكرية للأوروبيين
- ٢٥٠ الفصل الخسون : إصلاح الكنيسة اللاتينية
- ٢٥٤ الفصل الحادى والخسون : الإمبراطور شارل الخامس
- ٢٦٢ الفصل الثانى والخسون : عصر تجارب سياسية وملكيات عظمية وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا
- ٢٧٥ الفصل الثالث والخسون : إمبراطوريات الأوروبيين الجديدة فى آسيا و١ وراء البحار .
- ٢٨٠ الفصل الرابع والخسون : حرب استقلال أمريكا
- ٢٨٦ الفصل الخامس والخسون : الثورة الفرنسية وعودة الملكية فى فرنسا
- ٢٩٣ لفصل السادس والخسون : السلم الأوروبى المقلقل بعد سقوط نابليون
- ٢٩٨ الفصل السابع والخسون : نمو العرقان المادى
- ٣٠٧ الفصل الثامن والخسون : الانقلاب الصناعى
- ٣١١ الفصل التاسع والخسون : تطور الآراء السياسية والاجتماعية المعاصرة
- ٣٢٣ الفصل الستون : امتداد رقعة الولايات المتحدة
- ٣٣١ الفصل الحادى والستون : ألمانيا تصبح دولة عظمية
- ٣٣٤ الفصل الثانى والستون : الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية
- ٣٤٠ الفصل الثالث والستون : العدوان الأوروبى على آسيا ونهوض اليابان
- ٣٤٥ الفصل الرابع والستون : الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤
- ٣٤٨ الفصل الخامس والستون : عصر التسليح فى أوروبا والحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨
- ٣٥٤ الفصل السادس والستون : النظام الجديد بالروسيا
- ٣٦٢ الفصل السابع والستون : عصبة الأمم

صفحة

٣٦٧	الفصل الثامن والستون : اخفاق عصبة الأمم
٣٧٩	الفصل التاسع والستون : الحرب العالمية الثانية
٣٩٣	الفصل السبعون : أزمة التكيف البشرى
٣٧٩	الفصل الحادى والسبعون : من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ العقل البشرى فى أقصى توتره
٤١٤	جدول تاريخى زمنى
٤٢٨	فهرس أبجدى الكتاب

فهرس خزانة

رقم الخريطة	رقم الصفحة	عنوان الخريطة
١	٣٩	خريطة تقريبية لمعالم أوروبا وآسيا الغربية
٢	٥٧	علاقات الاجناس البشرية
٣	٨٥	العلاقة بين الإمبراطورية الميديه والبابلية الثانية
٤	٨٧	إمبراطورية دارا
٥	٩١	فلسطين
٦	١٤١	امتداد سلطان روما وأحلافها حوالى ١٥٠ ق. د.
٧	١٥٧	الإمبراطورية والبرابرة
٨	٢٠٥	اتساع رقعة الدولة الإسلامية فى ٢٥ عاما
٩	٢٠٧	الإمبراطورية الإسلامية سنة ٧٥٠ م
١٠	٢١٤	حدود ممتلكات الفرنجة فى عهد شارل مارتل
١١	٢١٦	أوروبا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م
١٢	٢٣٧	إمبراطورية جاتكيزخان عند وفاته سنة ١٢٢٧
١٣	٢٤٠	الإمبراطورية العثمانية عند وفاة سليمان القانونى ١٥٦٦
١٤	٢٧١	أوروبا الوسطى بعد صلح وستفاليا (١٦٤٨)
١٥	٢٧٧	ممتلكات بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وأمريكا فى ١٧٥٠
١٦	٢٨٣	امتداد الاستيطان فى أراضي الولايات المتحدة فى ١٧٩٠
١٧	٢٩٦	أوروبا بعد مؤتمر فيينا
١٨	٢٣٢	أوروبا من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١
١٩	٣٣٨	الإمبراطورية البريطانية سنة ١٨١٥
٢٠	٣٥٠	الإمبراطوريات الأوروبية وراء البحار يناير ١٩١٤

موجز تاريخ العالم

مقدمة المترجم

كان طبيعياً وقد ترجمت المعالم ، أن يتجه الفكر إلى شقيقه الموجز ، ذلك أن ، المعالم ، ليس سفرأ يسجل التاريخ ويدون أحداثه لحسب بل هو قوة دافعة تكاد تجذله من صنائع التاريخ ، فهو بما جمع من دهرات ومذاهب وتعاليم من بنات أفكار مؤلفه ، يعد من المحور التي تتحول عندها أحداث هذا الكوكب . وبموجب القارئ ما به من تبصرة أن حجب عنه البصر بأدور الدنيا ، وتنوير لمن أحاطت به سدة الظلمات ، بحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذي عليه نعيش ، تعدد إقليما واحداً بل قطراً واحداً ، استغفر الله بل قرية واحدة ، يجب أن يقوم فيها من التكافل والتحاب والتماطف ما يقوم في كل ريف ، ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنافر ما ينبغي أن يزول من الريف السعيد الذي ترفرف عليه ألوية الرئام وبموجب القارئ أيضاً ، بالكتاب من نظرة عامة بولوجية إنسانية إلى سكان هذه الدنيا ترجو أن تعمهم المساواة والإخاء والصفاء ، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أسمر ولا استمرارى ولا مستعمر ولا استغلالي ولا مستغل ، بل الكل في حظ الحياة سواء . والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع ، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى .

كان طبيعياً وقد ترجمت المعالم بما حوى من ذم الدول القرب خاصة بريطانيا وفرنسا ونمى على سوء تدبيرها ، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطلائع البشر وسوء استغلالهم للوارد البشرية . أقول كان طبيعياً أن يتجه الفكر إلى هذا الموجز الذي تجده بين يديك هسى أن يفيد به من لم يقع كتاب المعالم في يده .

كان هذا الموجز عندي منذ كنت طالباً بمدرسة المعلمين ، وترادفت نفسى على ترجمته ونافى ظروفي إلا أن تحول دون ذلك . بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كله . وإن ألمت به في بعض ما تيسر لي من وقت الفراغ للمسامات وصلت بين نفسى وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التي انتهلت فيها به منذ ١٩٤٠ - ١٩٤١

ترجمت المعالم، غاطلت آراء الكتّاب منذ ذلك الوقت من مهجة اللحم والدم، وإذا
 هي قطعة من حياى الفكرية . وبفضل هذا المؤلف لمظلمت قطعة من حياى الإيمان
 بالمجالس النيابية الدستورية . وجرى فى المروق بجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية
 والحرية العامة ، وذلك فضلا عما كان يغاطل الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليزى
 الذى كان منذ جدائنا يمتصب السلطان فى هذا البلد المسكين ، وفنلا عما هيجت به
 النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستعمار الأجنبى والاستغلال:
 استغلال الأجنبى للدمرى واستغلال الفنى للفقير واستغلال الإقطاعى للضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . وز . بعد انقطاع الصلة به
 فترة ما بين المعالم والشروع فى نقل الموجز ، وزاد من شعور السعادة إحساسى بأنى
 أقرب لقارىء منه لا جديداً إن عز عليه فى المعالم ارتياده لعظم سمته ، لقد سهل عليه
 فى الموجز وروده ، وسررت أنى وجدت آراء الرجل فى الكثير من الآخرين مبنوثة
 فى الصغير . فقلت أنى أقدم لقارىء العربية أفكار الرجل نفسها فى ثوب موجز أتيق
 يستطيع تناوله سامتة ما عن لهوقت فراغ فى ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب
 المتناول ، ولا يفرتك قوله فى مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة للمعالم . إذ الواقع
 الذى لا مرية فيه أنه خلاصة من نظر إليهم زارية جديدة . وإلا ففهم طرب المراف
 الجليل فى الكتّابن كليما بنشوء الحضارات وإشادته بالبدائيات التى أثرت فى الثقافة
 والفكر الإنسانى ، وانظر إليه فى الكتّابن كليما وهو يدق البشائر فرحا بالكتابة
 وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدي يونان ، وصمود منار العلم البطالى
 بالإسكندرية ، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكم تحزنه الحروب ويشقيه
 ما تمرد به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدنية عن التقدم ، وإذا أهانج
 النصر فتناقل أرقامها حتى تردد فى الآذان رذات المراتى الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف فى الكتّابن من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل
 مضيع لمجهود البشرية مبدد لها فى أتون الحديد والنار . فإن كان القارىء المصرى
 الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب أن يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التى
 دعا إليها الإسلام فى أوج مجده الأولى الحضارة ومسايرة ركب التقدم والحرية ودعت
 إليها انتفاضة مصر فى مدهورتها الفنية عام ١٩٥٢ ، فذلك حسبى وغاية ما أرجو .

وفي الكتاب آراء المؤلف قد تتخالف رأينا ولكننا أبقيناها في موضعها عملاً
بحرية الرأي ومن قبيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٢ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح
فقد أبقيناها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية ، أما رأى الإسلام في هذه القصة
فمعلوم لا يحتاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبيل وفاته وأضاف إليها
فصولاً عن الحرب العظمى الثانية (أكلنا ما ينقصه من حلقات) وضمنه أمانيه الخالصة
البشرية محذراً إياها عواقب أخطائها وموضحاً لها سبيل النجاة ٩

مصر الجديدة في ١٤ يونية ١٩٥٨
عبد العزيز توفيق جاور

مقدمة المؤلف

الفرض من هذا الموجز لتاريخ العالم أن يقرأ من أوله لآخره قراءة سريعة متتابعة كما لو كان إحدى الروايات . إذ يقدم إلى القارئ بأبسط الطرق وأحبا بياناً بممارفنا التاريخية الرائعة مجردة من التفاصيل والتعقيدات . كما يراد منه أن يحصل القارئ على تلك الصورة الكلية لتاريخ التي يتكون منها السكل الذي لا بد منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ قطر بالذات . وهو توطئة نافعة مهد للقارئ الاضطلاع بمطالعة شقيقه الأكثر جلاء واستيفاء الموسوم *Outline of History* ، (١) لنفس المؤلف . ومع ذلك فإن الغاية الرئيسية منه هي سد حاجة القارئ العادي الكثير المشاغل ، الذي يضيق وقته عن الانقطاع لدراسة تفصيلية لما في المعالم ، من خرائط ومصورات زمانية ، والذي يرغب في تجديد ما يبق في مخيلته من صورة زاوية مضمحلة للغامرة العظمى للجنس البشرى .

وليس كتابنا هذا ملخصاً للعالم ، ولا صورة مركزة لما فيه . ذلك أن كتاب المعالم - في حدود الهدف الذي رسم له مركز تركيزاً ليس ورامه زيادة لمستزيد ، وكل ما في الأمر ، أن هذا الكتاب تاريخ أكثر تسمياً أقيم على خطه أخرى وحرر تحريراً جديداً ؟

٥٥٠ ج . و ل ز

(١) وقد نقله إلى العربية مترجم هذا الكتاب تحت اسم « معالم تاريخ الإنسانية » ونشره لجنة التأليف والترجمة والنشر .

اسم هذا الكتاب بالإنجليزية

A Short History Of The World

by

H. G. Wells

ترجمة المؤلف:

هو هربرت جورج ولز ١٨٦٦ - ١٩٤٦ . الكاتب والتي القاص لعصر الإنسانية العلمى . ولد فى بروملى (كنت) أبوه لاعب كريكت محترف .

حصل على بكالوريوس العلوم فى ١٨٨٨ . تولى التدريس بضع سنين ثم نشر
و آلة الزمان ، فى ١٨٩٥ ، وهى محاولة لإنشاء القمص العلمى ، أردفها بقصص
أخرى علمية أشهرها الرجل الحفى . ثم أخذ ينتج الروايات النفسية والاجتماعية
مثل « كيبس » و « تونو بنجاي » وه تاريخ المستر بول وه مكيا فيلى الجديد ،
(١٩١١) و « الزواج » (١٩١٢) . والروايات التالية تمكس اهتمامه
بالاشتراكية الفابية وهى « اليوتوبيا العصرية » (١٩٠٥) و « الأشياء الأولى
والأخيرة » كما توضح أيضاً اهتمامه بعالمنا الذى جده استخدام وسائل العلم
الحديثة . ثم أصدر أثناء الحرب العظمى « المستر بريلنج يتنبأ بالعواقب » (١٩١٦) .
ثم التفت ولز بعد ذلك إلى التاريخ وأنتج فى ١٩٣٠ « معالم تاريخ الإنسانية »
[الذى ترجمه كاتب هذه السطور] وهوسفر ضخم استعرض فيه المفارقة البشرية
بأكملها وحللها تحليلًا فلسفياً وافياً وهذا الكتاب الذى يكله « عمل الحياة »
بالاشتراك مع جوليان هكسلى وولده ج . ب . ولز (١٩٢٩) كما يكله « علم
الإنسانية وثروتها وسعادتها » (١٩٣٢) يكون ثالثاً ضخماً كان الهدف منه
تزويد لسان القرن العشرين بمذهب جديد هو الإيمان بالأخوة البشرية وبوحدة
العالم . وظل ولز ما عقب ذلك من السنين مشغل البال بما يجنيه القدر ، البشر
وأنتج كتاب « مصير الإنسان الحق » وأخذ يدعو جميع الطبقة المفكرة فى العالم
إلى القيام « بمؤامرة علنية » . وكان آخر كتاب أصدره هو « العقل فى أقصى
توتراته » (١٩٤٤) . فأما الرجل نفسه فيعوره كتابه « تجربة فى كتابة السيرة
الذاتية »

موجز تاريخ العالم

(٢ - تاريخ العالم)

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال براء بتورها للنقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين ، لم يكن مداه يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث في العالم قبل ذلك فكان أمراً غريب فيه الأساطير والظنون بهم وغيره ، وكان الناس في شطر كبير من العالم المتمدن ، يستفدون ويلفتون أن العالم قد خلق على حين بئذ في عام ٢٠٠٤ ق . م . وإن اختلف الثقافات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث في غريب تلك السنة أو ربيعها ١١ وقد لم هذا اليوم الخاطئ . العجيب في دقة تحديده على المبانة في تأويل العهد القديم ، البراني ، وأولاً حرفياً أو بالأحرى على اقترانات وتفسيرات لا هوقة رائداً بتسفس ، ولقد على مملو الأديان منذ أمد بعيد على مثل هذه الأفكار ، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذي نعيش فيه كان — فيما نوحى به جميع الظواهر — موجوداً طوال حبة هائلة من الزمان . ربما لم تكن لها بداية ، ومن البديهي أن تلك الظواهر ربما انطوت على شيء من انحداع والتضليل . على غرار ائمة اللامائية التي تترأى لنا عن حجرة وضعت بها مرايا متقابلة في كل من طرفها . أما القول بأن العالم الذي فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام . فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماماً .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروي . أي أنه كرة مضغوطة قليلاً على نمط البرقالة ، ذات قطر طولها ثمانية آلاف من الأميال تقريباً . وكما شكلها الكروي مرفوعاً لده عدد يسير على الأقل من نخباء الناس ، منذ قرابة ٢٠٠ سنة . ولكن الناس كانوا قبل ذلك لا زمن يظنون أنها منبسطة . كما كانوا يذهبون في شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى بتدريج يوم خرافية . ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها (الذي هو أقصر من قطرها الاستوائي بأربعة وخمسين ميلاً تقريباً) مرة في كل أربعة عشر ساعة ، وأن ذلك هو السبب في تعاقب الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة في كل

عام في مدار يضاوى متعرف قليلا ومتغيرا بسيطا . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال في أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجما ، هي القمر ، على مسافة متوسطها ٢٣٩,٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس ، فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد واورهه ، على بعد ٢٦,٠٠٠ ، ٦٧ من ملايين الأميال ؛ وفيما وراء مدار الأرض وبفض النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجما ، هي السيارات الصغرى (الكويكبات) *Plauetoids* ، يوجد اثني عشر والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ١٤١ ، ٤٢٠ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢ ، ٢٧٩٢ مليون ميل عن الشمس ، ولا شك أن من العسير حتى الأفهام تصور هذه الأرقام المتدرة : ملايين الأميال . وربما يمر الأمر على خيال القارئ تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكمن أدنى إلى الصغر .

فإذا نحن دلى هذا الاعتبار صغرنا لأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذرع قطرها تسعة أقدام . وعلى مبة ٢٢٣ ياردة ، أى ما يقارب خمس ميل تشرق أربعا أو خمسا من الدقائق مشيا دلى الأقدام ، وعند ذاك يكون القمر فى حجم حصة صغيرة على بعد قدمين ونصف من الأرض . ثم يأتى بين الأرض والشمس الكركبان انداخليان ، عطارد واورهه ، على بعد ١٢٠ ياردة ، ٢٢٣ ياردة من الشمس . ثم يمتد من حوله هذه الاجرام فراخ يمتد حتى يبلغ المربخ وهو وراء الشمس بـ ٤٩٠ ياردة ، المشتري وهو على ما يدانى الميل ، ونطره قدم واحد ثم يحى زحل وهو أصغر قليلا وعلى مسافة مائين ؛ فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتى اللاشية والدم لولا بعض جزئيات صغيرة وقطع متفلة من البخار الخفيف تمتد إلى آلاف من الأميال ؛ ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا المقياس نفسه على بعد ٥٠٠,٠٠٠ ميل .

وربما أمانتنا تلك الأرقام على تكوين صورة من الخواء الدريع الذى يعم الفضاء الذى فيه تتوالى سرية الحياة .

ذلك أننا فى كل هذا الخواء الدريع الذى يعم الفضاء لا نلم بقينا بوجد الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التي لا نفوس في باطنها لا كثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التي تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضية ، كما أنها لا تفلو إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما بقي بعد ذلك من فضاء لا حده ولا نهاية يشكون — حسبما يبدو — من خواء وعدم .

وأعمق ما بلغه النفوس في أحماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع في أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلا . . . سقا إن الإنسان قد صعد في الجو إلى سبعة أميال بالمناطيد ، إلا أنه كابد في سبيل ذلك آلاماً ذريعة . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صفار الطيور وحمضرات التي حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

الفصل الثاني

العالم والزمان

ذهب العلماء في السنوات الحسنة الأخيرة مذاهب شتى وعمت في تقدير عمر الأرض وأصلها . ولست ادعى هنا أننا سننل بهو جر تلك الآراء ، وذلك لأننا حتى أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية ، والحق أن علوم الطبيعة والفلسفة لا تزال حتى الآن بعيدة من الاكتمال بعداً يجعل كل ما بذل في مضمارها مجرد افتراضات تخمينية . والاتجاه العام للعلماء يجزع كل يوم إلى زيادة العمر المقدر للأرض . وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته كدور كوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بليونين (٢٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) من السنين . وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيراً ، ولكنها مدة يعجز الخيال تماماً عن تصورهما .

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة مسعفة من وجودها المنفصل دوامة هائلة من المادة المنتشرة في الفضاء . ويكشف لنا المرقب (التلسكوب) في أجزاء مختلفة من المجرات عن غمامات لولبية منيرة من المادة ، هي السدم الحلزونية التي تبدو في دوران مستمر حول مركز . ويظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوماً أحد تلك السدم الحلزونية ، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالي ، وواصل ذلك التحول التركيزي دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقرها يميزان في تلك الحقبة البعيدة من الماضي السحيق ، الذي ترجمناه بالأرقام ، وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتيهما الحالية ، إذ كان بعدهما عن الشمس أقل ، لذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد ، وللهما كان عند ذلك متوهجين أو منضمرين السحاب ، وكانت الشمس نفسها شعلة في السماء أكبر كثيراً مما هي عليه الآن .

ولو أننا استطعنا أن نحرق آماد ذلك الزمان السرمدي ، لنرى الأرض في تلك المرحلة المبكرة من تاريخها لشهدنا منظرأ أشبه بإطلال أتون العصر ، أو سطح

دائق من اللابة المنصهرة قبل أن يبرد وتصلب . منه بأى مشهد آخر محاصر .
ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء الموجود قد استحال إلى بخار
مستتر في جو عصف من الأبخرة الكبريتية والندية . ولعلنا نجد من دون
هذه الأبخرة بمرأ دلائلنا من المواد الجهرية المنصهرة . وإن وحيج الشمس
والنور لير ماوراء كسبهم من لافع الأب هيرجو من صلب نارية .
وتعاقب السنين ما يونا في إثر ما يونا يأخذ ذلك للشهد الناري البركاني في
فقدان إظهار النتائج ببطء تدريجي وتصلب أبخرة الماء إلى الأرض معاراً فيل
تركزها في الجو . وتظهر على سطح ذلك البحر المنهر كتل عظيمة من زبد
الصخور الآخذة في التصلب ثم تبيط دون السطح ليحل محلها كل أخرى طافية .
وتتدفع الشمس والقمر عبر السموات في سرعة متعائلة وقد أخذنا يزدادان
بدلاً ويصغران حجماً . وعند ذلك تكون سرعة الدور — نظراً لصغر
حجمه — قد بردت بالعدل إلى ما دون التوهج ، ثم يأخذ على التوالي يحجب
ضوء الشمس عن الأرض ويكسبه إليها في سلسلة متعاقبة من الكسوف
والبدور الكاملة .

وعلى هذا النحو من البطء الذريع في خلال الزمن السري الذي أخذت الأرض
تزداد قرباً من حالها التي نعيش عليها اليوم ، حرقاء في النهاية وهو بدأ فيه البخار
يتكاثف محبباً في الهواء البارد نوعاً ، ثم تساقط أول المطر بعدنا انشيشاً (١) على
ما تحته من الصخور الأولى . وتنتفي آلاف لاحصر لها من السنوات يظل أثناءها
الجزء الأكبر من مياه الأرض بعاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من
التيارات الساخنة التي تصاب على الصخور الآخذة في التبلور من تحتها ، كما توجد
البرك والبحيرات التي تحمل تلك التيارات إليها حثاثة الأرض وتلقى فيها بالرواسب .
ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها الإنسان
أن يفت على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ما حوله ويعيش على ظرها . ولو أنه قدر لنا
أن نوزر الأرض في تلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كل ضفة من الصخر الشبيه
باللابة دون أن نمش على أى أثر لثرية أو أية بقية لنبات ، في جو مكهر بالزوابع .

(١) اللابة (Lava) هي المادة القارية التي تتلذذها البراكين من فوهاتنا .

(٢) التشفيع : صوت النبيان ، وذلك لأن المطر عندما يهطل بالصخور الساخنة يتغير
على الفور :

وربما تعرضنا آنذاك لعصف رياح حارة عنيفة تفوق أعنف ما نعرف من
العواصف الهوجاء ، ولنفجأتنا من المطر انهمارات لا تتأق اليوم لأرضنا
الأكثروداحة والأشد جفافاً ، ولوجدنا ماء ذلك المطر المنهمر يتدافع حوالينا
هكراً بحطام الصخور ويلتقي بهتة ببعض في سيول جارفة تنهت الحوافق الفائرة
والرديان وهي متدفقة إلى البحار الأولى تتودعها رواهبها .

ولا بد أننا كنا نلح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر
السما ، كما كنا نشهد في أعقابها حين تمر وفي أعقاب القمر حركة مد يوى قوامها
الزلازل والارتفاعات والانبثبات في القشرة الأرضية . ولا بد أن القمر الذى
يطل الآن على الأرض بوجه واحد لا يتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئياً
كاشفاً الوجه الذى يداوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغابت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حنة ،
وبطؤت سرعة القمر فى السماء ، خفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد الماء
فى البحار الأولى وجرى جملة إلى المحيط الذى أصبح منذ ذلك الحين دثاراً لسكوكبنا .
ومع ذلك فلم تكن ثمة حياة على الأرض ، فكانت البحار خاواً من الأحياء ،
والصخور جرداء قاحلة .

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذى نستقي منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على التذكريات وتتماثل إلى ما سبقت الأول هو الآثار والحفريات التى خلفتها الكائنات الحية فى الصخور الطباقية . ذلك بأن الطفال والإردواز والحجى الجبرى والرمى كلها تحتفظ لنا بالعظام والأصداف والألياف والجذوع والفوا كروآثار الأقدام والحدوش وما إليها ومما آثار المد والجزر منذ أقدم العصور ، والحدوش التى أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فلتة بعد فلتة بطريق المحس المضى عن هذا السجل الجبرى . وذلك أمر يعد اليوم من المعلومات العادية . ولكن الصخور الطباقية (الرسوبية) لا تحتفظ طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أتيق ؛ بل إنما تتفكك والتوت وتتهرب وتخرج ثم اختلطت كل نحو ما يصيب صحف مكتبة منيت مرارا وتكرارا بالنهب والحريق ، ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استندت فى سبيل ذلك أعمار كثيرة تقاى أصحابها فى الإخلاص لذلك العمل . ويقدر المدى الزمانى الكامل الذى يمثلته سجل الصخور بليون وستائة مليون سنة — ١٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سنة .

والجيولوجيون (علماء طبقات الأرض) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الآزوية » Azotic ، أى التى لا يندوفها أى أثر للحياة . وتوجه مساحات مترامية من هذه الصخور الآزوية عارية جرداء فى شمال أمريكا ، وهى بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجى بأكمله . ولذا لم يكن على سامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهى أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التى انقضت منذ أن تمازى اليابس والماء الأول مرة على ظهر الأرض ، لم يخلف لنا أثر للحياة ، حثا لا تزال توجه على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخدشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات آثار لأى كائن حى .

فإذا صعدنا درجات السجل بعد ذلك ، بدت علامات الحياة المائية وأخذ عددها يتزايد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار النادرة باسم الزمن الباليوزوى Palaeozoic السلى .

وأول الدلائل على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة ودينية لحميا ، مثل أحصاف أسماك بحرية صغيرة وجذوع لحوانات نباتية (١) ، ورموس لها تشبه الأزهار وأشباه بحرية ، وآثار لمركبات ديدان البحر والفشريات وبقايا لها . وتظهر منذ زمن مبكر جدا مخلوقات معينة تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبيت أى المثلثة القصور (٢) . وبعد ذلك ببضعة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية ، وهى كائنات أين حركة من كل ماشده العالم من قبل ، كائن حى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم تحظ أية واحدة من المخلوقات بضخامة الحجم وأكبرها صنف من العقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام ، ليس هناك أى دليل يشهد على وجود أى نوع من الحياة فى البرباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أسماك ولا كائنات فقارية . وجميع النباتات والكائنات التى عثفت لنا بقاياها عن تلك المدة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه عذبة أو مياه مالحة التى يتماورها المد والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شيئا لنبات وحيوان الصخور المتكونة فى الزمن الجيولوجى (الباليوزوى) السفل العتيق ، لوجدناه على أحسن صورة من كل النواحي إلا فى الحجم فى نظرة من الماء ، أخذها من بركة صخرية وسفرة مزودة آسنه ، ثم لتفحصها تحت الميكروسكوب (المهر) ، فأنجده هناك من الفشريات والأسماك الحارث الضئيل والحيوانات النباتية وأطحاها ب يكون ذائبة أخذتلك الأصناف الأولى المتجوية الأكبر حجما التى كانت فى يوم من الأيام أسماها بلطف الحياة على دكركتها الأرض .

ومع ذلك فى الأخير أن تذكر أنه يحتمل أن صخور زمن الباليوزوى السفل قد لا تزودنا بشئ ما يمثل أو بدايات الحياة على كوكبنا . فإذ لم يكن للمخلوق عظام

(١) مثل ذلك الأسفنج والمران واسمها الطبي للريجات Zoonphytes .

(٢) المثلثة القصور Trilobite هى حريات من العصر الباليوزوى السفلى العتيق للحيوانات ذات قشور ثلاث ويدول قمار وهى من فصيلة الصناك Arachnida .

أو أجزاء أخرى صلبة. وإذا لم يكن مكثسيا بقشرة صدفية أو ذا حجم كبير واف
ورثقل كاف ليطلع على الطين آثاراً بارزة للأقدام والروب المطروقة ، فن غير
المحتمل تخاف آثار حفرية بعده تال على وجوده . ويوجد في العالم اليوم مئات
الآلاف من أنواع من المخلوقات آهنية الهشة الأجسام التي لا تصور عقل إمكان
تركها أي أثر بطوع الجولوجي الذي انشور عليه . ولعل المادى السحق لهذا العالم
كان يبلغ بلايين الملايين من أنواع تلك المخلوقات التي عاشت وتكاثرت وازدهرت
ثم بات من ذير أن تترك أدنى أثر لها . وربما كانت مياه البحار والبحيرات
الذبذبة الضحلة في ذلك الزمن ، المسمى بالآزوى azoic ، زاهرة بعينات
لا آخر لها من أنواع الكائنات الذبذبة ، شب الهلامية ، والمجردة من الإحشاف
والهظام ، وحيات أخرى لا-صر لها من النباتات الرغوية منتشرة فوق الصخور
والشواطىء الأرضية للبحر والجزر والمنصورة بضياء الشمس . ولم يصل السجل
الصخري حياة الفأرة بعد إلى درجة الكمال ، مثله في ذلك مثل دقاتر أحد
المصارف من حيث دهم وقتها بحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للصرف ، ولا
يتيسر لأي نوع من الأنواع أن يتطبع على السجل حتى يأخذ في تكوين بحارة .
أو شويك أو ذرة أو جذع متكس^(١) ، ينفذه على هذه الصورة للمستقبل .
على أنه يحدث أحياناً أن يوجد الجرافيت في صخور سابقة في عصرها على تلك
التي تحمل آثان الحفريات ، والجرافيت الذي يسمى عادة باسم الرصاص
الأسود -- صورة من الكربون غير المركب ، ويرى بعض أبحاث أنه ربما
فصله عن مركباته النشاط الحيوى لكائنات حي مجمولة .

(١) الككس : هو المادة الجيرية التي تتكون منها الهظام والحجار .

الفصل الرابع

عصر الأسماك

كان الماثنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف .
الاعوام ، أن النباتات والحيوانات بأزواعها المختلفة إنما هي أشياء ثابتة ونهائية .
وأنها خلقت جميعاً كما هي عليه الآن تماماً ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث
عندما شرع الناس يتقنون في سجل الصخور ويدرسونه أن تزعم هذا الاعتقاد
بسبب الاشتباه أن كثيراً من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ،
ثم تمت هذه المتغيرات بدورها حتى أصبحت امتداداً بما يسمى النشوء العضوي
والارتقاء ، وتوحيب الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها
الحيوانية والنباتية ، ينحدر بعمليات تغير بطيئة دائمة ، من صورة سلفية غاية في
البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريباً ، كانت موجودة أثناء العصور
السحيقة فيما يسمى بالبحار الآزوية .

وقديماً كانت مسألة النشوء والارتقاء المضطربة ، مثار مجالادت ألوية كثيرة
بين الناس على غرار المسألة المتعلقة بصير الأرض ، حتى لقد آتى على الناس حين من الدهر
كانوا يظنون فيه أن الامتداد في النشوء والارتقاء العضوي Organic Evolution
لا يستقيم — لعله لا نعلها — وتعاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة .
وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أشد الناس تمسكاً بالمعتقدات الكائوليكية الصحيحة
والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لا يتخرجون من قبول هذا الرأي الاحدث
والاشتمال القائل بأن لجميع الكائنات الحية أصلاً مشتركاً . إذ لا يلوح أن الحياة
نشأت فجأة على ظهر التبراء . بل إن الحياة قد نمت . ولا تزال تنمو . انقضت
عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان بكل الخيال دون تصور ما ، والحياة
تطور من مجردة في المصلح المختل بمياه المد والجزر إلى بحرية الحرية
والقوة والإدراك .

تسكون الحياة من أفراد ، وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل النقط
والشكل ، ولا هم يمثلون البلورات غير المحددة وغير المتحركة المكونة من المادة

فهم الحية ، ثم إن لهم خاصيتين تميزين لآلة ماوكم فيها أية مادة في عالم الجسد ، ذلك أنهم يستطيعون أن يمتثلوا في أنفسهم مادة أخرى ويحولوها إلى جزء منهم كما أنهم يستطيعون أن ينتجوا لأنفسهم خلفاء لهم يأكلون وهم كذا ولون وهم يشبهونهم أو ينشعروا أفرادا آخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن انتشعروا بهم مع ذلك نوعا ما . وإن هناك آلة أداة توفيقية وعاطفية بين الفرد وقبيله ، كما أن هناك قارعا فرديا بين كل والد وكل مولود له ، ولهذا صحيح في كل نوع من الأنواع وفي كل مرحلة من مراحل الحياة .

ورجال العلم لا يستطيعون حتى الآن أن يبينوا لنا ما الذي يوجب على الفرد أن يتماثل والده وما الذي يوجب عليه أن يتماثل بها . ولكن نظرا لأن الفردية يمتنع فيها التشبه والاختلاف في وقت واحد ، فإن من المعقول وإن ثبت علميا أنه إذا تغيرت الظروف التي يمتزج فيها النوع ، ووجب أن يطرا على النوع بعض تغيرات مناسبة . ومرد ذلك أن أي جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد ذوي طبع فوارقهم الفردية قدرة أكبر على التكيف بالظروف الجديدة التي لا بد للنوع أن يعيش فيها . (وهدد آخر) فوارقة فردية تجعل من السهل عليه توهاما أن يعيش . والقسم الأول يكون أطول في الجلة عمرا وأكثر تسلا . القسم الثاني ، وهكذا يتطور مستوى النوع جيلا بعد آخر في الاتجاه للأمام . وهذه العملية التي يطلق عليها الانتخاب الطبيعي ، ليست نظرية علمية بقدر ما هي نتيجة حتمية لحقائق التراث والفوارق الفردية . قد تكون هناك عوامل كثيرة تعمل علما في تعديل النوع أو إبادة أو حياته ، دون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأي . ومع ذلك فالرجل الذي يتأمله أن ينكر سريان عملية الاختيار الطبيعي هذه في الحياة منذ بدايتها . لا بد أن يكون إما جاهلا بالحقائق الأولية للحياة وإما غير أهل للتفكير العادي .

ولكن كثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة . وغالبا ما تكون نظراتهم تلك عظيمة الدفع ، ولكن أحدا منهم لم يصل إلى أية معلومات بآلة محددة ولا فرض علمي يركن إليه عن الصورة التي بدأت بها الحياة . على أن جميع أشتات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفينة المنضجثة الغالية الملوحة والمرصعة لنور الشمس . وأنها انتهت على أسواحل - حتى بلغت مندفعة تعاقب المد والجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه المستشفرة .

كان ذلك العالم الغابر عالم مدوجور ومحارات قوية . ولا بد أن إداة الأفراد لم تكن قد حددت قافى التيارات لها إلى الشواطىء ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعا إلى عرض البحر وفرقا فيه في غور لا تفصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجنذور والبقاء ، وتشجيع أى اتجاه لتكوين قشرة خارجية وخلاف بقى الفرد المتخلف على الشاطئ . شرالجناف المفاجىء ، ومنذ البداية البعيدة كان أى اتجاه شعورى للذوق يجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهده إلى التخلص من الظلمة في أعماق البحر وبجأله أو إلى التلوى فراوا من التوهج الشديد في الاضحال (١) الخطرة .

ولعل أول المحارات والندروح الواقعة لأجسام الكائنات الحية وقيادات لها من الجناف لا من أعضائها . ولكن لوحظ أن الاسنان والأظافر تظهر في حقبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم القرب ثمانية الأولى . وانقضت عصور طريفة ومثل هذه المخلوقات هي صاحب السيطرة في الحياة . ثم يظهر بعد ذلك في قسم من الصخور البازوية يسمى بالاسم السيلورى Silurian ، (الذى يمتد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة) طراز جديد من الكائنات مزود بالاعين والاسنان والقدرة على السباحة بشكل قوى لم يستبق له مثيل . ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات الدمرد الفقري ، وهو أقدم الأسماك ، أول الفقاريات المعروفة .

(١) الاضحال : جمع ضحل وهو الماء القليل القور .

الفصل الخامس

عصر مستقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماماً كما هو واضح . فإن شواخ الصخور والأراضي الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح في أشعة الشمس ومياه المطر ، أما التربة بمعناها الصحيح فلم تكن موجودة - إذ لم توجد حتى آنذاك أية ديدان أرضية تساعد على تفتيت جزيئات الصخور وتحولها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك أمر مطلقاً يتطلب أو يحث بحري . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناوت هذا العالم الصخري الوجود هو امل تغيرات عظيمة في المناخ وأسباب هذه التغيرات المناخية في غاية التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح . ولعل من أسباب ذلك تعذر شكل مدار الأرض . والتوزيع التدريجي في ميل محور الدوران ، وغير أشكال القارات بل ربما أيضاً ما ألم بحرارة الشمس من تقلبات ، لعل هذه الأسباب مجتمعة قد ضاقت فتارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد ، وإن أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشر مناخ دافئ أو معتدل أمد ملايين من السنين على سطح الكوكب . ولوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطني العظيم ، فتردفت إبان ضئع ملايين من السنين عمليات رفع منخفضة من سلاسل متلاحقة من الثوران البركاني والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال وممالك القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقاً والارتفاعات ارتفاعاً ، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يعقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبي ، تعاقب فيها الأميع والمطر والأهوار على تفتيت ارتفاعات الجبال ، وحمل مقادير ضخمة من التربة لتلأ أغوار البحار وترفع قاعها فتسلم بذلك زعمتها مع زيادة ضخامة البحر وانتشاره فوق قعر متزايد من اليابسة . وكل من عهد في تاريخ العالم اجتماع فيه الارتفاع والعمق ، أو تجاوز فيه الانخفاض الاستواء ، ويجب أن يبعد القاري عن ذهنه كل فكرة ترحى بأن سطح الأرض على يرد باطلاً إذ ما شأن وجدت قسرها فبعد أن بلغت درجة ذلك القدر الكبير من البرودة ، كفت الحرارة الباطنية عن أن تؤثر في أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثاراً لفترات تكاثر أثناءها الثلج

والجليد بوفرة عظيمة ، وهي والصخور الجليدية ، التي حدثت حتى في العصر الآزوي نفسه (مع شدة قنمه) ولم تمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة جداً إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك ، في فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات النسيجة الضحلة . ولا شك أن الأنماط الأول من الأشكال التي بدأت عندئذ في الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطورا نادرا خفياً إبان عشرات ملايين من السنوات ولكن هافت الآن فرءتها .

ولاشك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية في غزوها هذه اليابسة ، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقت خطى النبات في هجرته . وأول مشكلة وجب على النبات حلها هي مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم غوصياته (1) Friends التي يدفع بها نحو ضياء الشمس عندما تنسحب المياه التي يظفر عليها ؛ والمشكلة الثانية هي صعوبة الحصول على الماء — الذي لم يمد آنذاك تريبا في متناول اليد — من الأرض الموحشة في أسفر إلى أنسجة النبات . وقد حلت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التي صلب بها هود النبات وأوصلت الماء إلى أوراقه . وعلى حين بنته يكتظ سجل الصنوبر بأضرب جنة من النباتات الخشبية للمستنقعات ، كان الكثير منها ضمن الحجم ، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأسوخ (2) الهائلة وما أشبهها وسأيرت زحف هذه النباتات من الماء مصرا بمد عصر أمرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والدود ذو الآلب رجل ، وأوائل الحشرات البدئية مخلوقات قريبة منه بالنوع العتيق المسمى ملك الكجوربا (3) King-Crab واله ارب البحرية التي تحولت إلى أقدم الناكب والمقارب الأرضية ، وسرعان ما وجدت حيوانات فخارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيراً جداً . فهناك رعاشات (4) (Dragon Flies) ربما بلغ امتداد جناحيها تسعاً وعشرين بوصة .

-
- (١) الخوصان Froeds وتسمى أيضا الفرووات هي نباتات بنائية لم يتأخر فيها الساق من الورق فهي صيفان ووقية أو متوقفة .
 (٢) الأسوخ هو ما يسمى بذييل الفرس .
 (٣) هو متكون بحري عريض له درع شكل حدوة الحصان وهو آخر من تبقى من فصيلة .
 (٤) وتسمى بالبرمان أيضا وهي حفرة زلمية الألوان ذات إصبع هفافة الجناحين .

وقد استعاضت هذه الرتب (orders) والجناس (genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تنفس الهواء الذائب في الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعاً مضطرة أن تفعله . ولكن ملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تنكسب ، بطرائق متنوعة، القدرة على تزويد نفسها بما يعوزها من رطوبة حيثما دعت الحاجة، فإن رجلاً له رنة جافة تماماً لا منجاة له اليوم من الاختناق، إذ لابد لبطوح رسته من أن تكون رطبة لكي ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه في جميع الحالات أحد أمرين : فإما أن يتكون الخياشيم القديعة الطراز غطاء يوقف عملية البخر، وإما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة لتنفس تندس في صميم الجسم وترطبها لإفرازات مائية . ذلك أن الخياشيم القديعة التي كان السمك الذي يمد سلفاً للسلسلة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة لتنفس على البر . وقد حدث في هذا القسم من ملكة الحيوان ، أن ثمانية العوم هي التي أصبحت عضواً جديداً متأصلاً لتنفس هو الرنة . والحيوانات المعروفة باسم البرمائيات . وهي الضفادع وسندل الماء الحالية، تبدأ حياتها في الماء ، وتنفس بالخياشيم، ثم يحدث بعد ذلك أن الرنة تتولى عملية التنفس إذ تطور على نفس النمط الذي يحمل ثمانية العوم عند كثير من الإحماك، كمنوف الزور شبيه بالكيس، فيبرز الحيوان إلى الأرض، وتضمحل الخياشيم وتختفي شقوق الخياشيم (تختفي جميعاً إلا تنوءاً في شق واحد من شقوق الخياشيم، يصبح فتحة الأذن وطلبتها) وعندئذ لا يستطيع الحيوان البرمائي أن يعيش إلا في الهواء ، ولكن لابد أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكي يبيض بيضه ويبتغ نوعه .

وكانت جميع الفقاريات المنتنسة لهواء في هذا العصر حصر المستنقعات والنباتات تنكسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريباً أشكال ذات قرني بسندل العصر الراهز، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم، حقا إنها كانت حيوانات برية . غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش في الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرب منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى في ذلك العصر برمائية هي الأخرى مثل حيوانه تماماً، ولم يكن شيء منها قد أنتج حتى ذلك الحين ثمراً ولا حبا يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ما قد يجلبه الندى والمطر . إذ لم يكن أمامها فيما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها Spores^(١) في الماء إن قدر لها أن تتوالد .

(١) البوغ : Spore جسم أو (بذرة) . فرد الخلية منتج بنهر نشاط جنسي .
(٢ — تاريخ العالم) .

ومن أمتع نواحي ذلك العلم الجليل ، والتشريح المقارن ، اهتمامه بتدقيق التكييفات المعقدة المدعشة التي حدثت للكائنات الحية وفق ما يستلزمه العيش في الهواء لجميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هي قبل كل شيء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع ما يملأ الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا في تضاعفها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو في الرحم قبل الميلاد ، في مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تتمحى قبل خروج الجنين .

والعين التي هي في السمكة عارية متصلة بالماء ، ينمها من الجفاف في الأشكال الحيوانية العليا جفون وغدد تفرز الرطوبة . وتتموجت الصور الخافتة في الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن . وذلك لتلاحظ في كل عضو من أعضاء الجسم قريبا تمديدات وتكيفات مائلة لهذه ، فضلا عن توفيقات أخرى مائلة لمواجهة الهواء وظروفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هذا ، أي عصر البرمائيات ، عصر حياة في المستنقعات والبرك ، وعلى الشواطئ المنخفضة في تلك المياه . وكان هذا هو أقصى انتشار لبيئة الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لا تزال مقفرة تماما من كل حياة . . . لقد تعلبت الحياة أن تنفس الهواء ، ولكن كانت لا تزال متصلة في الماء موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتوالد وتنتج سلالة نوها .

بقضل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لعصر تكبرن الطبقات الفحمية ، وجاءت في أعقابها دورة مترامية من مصور جناف وعمرة ويمثلها في سجل الصخور رواسب سبكة من الحجر الرمل وأضرابه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تنقلب تقلباً شديداً فثمة آماد طويلة من ازدهار القارص ، قرب عليها هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات المستنقعات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحداث عهداً ، بدأت فيها عملية المضط والتقدم (١) التي منعت العالم معظم رواسب الفحم في هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تتعرض لأسرع التبدلات أثناء فترات التغير ، كما أنها إنما تتلقى أئمن ما تتعلم من دروس إبان المهن والشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو الدفء والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية قائمة متصلة . ووجدنا في السجل بقايا حيوانات فقارية تبيض بعداً ، لا يتفتح عن أبي ذبببات تحتاج إلى العيش فترة ما في الماء ، بل هو شيء ارتقى في سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد الناضج من أبناء جفسه قربا يستطيع السخبر معه أن يعيش في الهواء منذ اللحظة الأولى التي يتفصل فيها ويستقل بوجوده ، لقد ذهبت الحياشيم تماماً ، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كرحلة من مراحل الجنين .

هذه المخلوقات الجديدة المجردة من مرحلة الذبببات هي الزواحف . وصحب تطورها تطور للأشجار الحامة للذور ، والتي كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البحيرة . فكانت هناك آنذاك حرازيات شبيهة بالتخيل وكثير من أشجار المحروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك العن نباتات ذات أزهار ولا عشب

(١) التقدم أو المددة أو التدرج : اكتساب الأحياء غير المددة خصائص المادف .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وتزايد كذلك في ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الحنافس ، وإن لم يكن التحل عذً ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لاشك أن الدعامة الأساسية لجميع الأشكال الجهرية للحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه العصور التراجمية من العصر والشدة . ولا يمكن يعموز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف المواتمة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجز تحف عصر ابعده عصر ومع كثير من التقلبات . وتكاثت خزكان القشرة الأرضية التي لم ترح تتعاقب بغير حصر ، وتنيزات مدار الأرض وتقلب زاوية الميل المتبادل بين المدار والمحور زيادة ونقصاناً ، وراحات تعمل جميعها على إيجاد فترة عظيمة من الدفء الواسع النطاق ويروى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربى على مئتي مليون من الأعوام . وهي تسمى باسم الزمن الميزوزوى ، تفرقها لما عن الزمنين الآزوى والباليزوى السابقين لها والمتفوقين عليها تماماً في الضخامة (وبمجموعهما ألف وأربعمائة مليون سنة) وتمييزها أيضاً عن الزمن الكاينوزوى (أى فترة الحياة الجديدة) الذي جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن . كما أنها تسمى أيضاً باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حد يمت على الدهشة وقد انتهى ذلك العصر منذ حوالي ثمانين مليوناً من السنين .

وأجناس الزواحف قليلة نسبياً في العالم اليوم ، كأن توزعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعاً من الفئة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التي كانت صاحبة السلطان في العالم في عصر الرواسب الفحمية . إذ لا يزال لدينا الثعالبين والرسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكى (Alligator) والتماسيح المادية والنحالى (١) ، وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الدفء على مدار السنة ، فهي لا تستطيع أن تتحمل التفرض البارد ، والراجع أن جميع زواحف الزمن الميزوزوى قد كابدت الأهوال لنفس هذا السبب . كانت حيوانات ما ينمو في البيوت الزجاجية الدافئة ، تعيش بين نبات ما يربى في تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تكن تتحمل

(١) النحالى : *lizards* دوية ملساء تشى مشياً سريعاً ثم تقف وتسمى أيضاً المظاہنة والطادة وجها عظام ومظاہيا ومظاہيات (التجدد) .

صعبا . ولكن العالم كان قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الحقة الحقيقي ، والمختلف تماما عن حيوان ونبات الطين والمستنقعات في العصر السابق من عصور ادهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً في تلك العصور ، فهناك تراسات وسلاحف كبيرة ، وتماشيح ضخمة وكثير من السحالي والثعابين ، ولكن كان هناك هذا ذلك عدد من عائلات من المخلوقات المعجبة التي اختفت الآن تماماً من هذه الأرض . فثم أنواع جمة من كائنات تسمى الدناصير : [الطيايا المبهولة] . وكان النبات قد شرع في الانتشار حيث ذ فوق مافي العالم من المستويات المنخفضة . فحكاثر النصب (البرص) وأجام السرخس ومماثلها ؛ وفي هذه الوفرة من الحشرات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحف المختلفة بالأعشاب (Herbivorous) تمشي وترعى ، وأخذ حجمها يتزايد باطراد كلما تقدم الزمن الميزوزوي إلى ذروته ومن هذه الوحوش ما تفوق في حجمه على كل حيوان برى عاش على ظهر البسطة قبلها ؛ فهي تضارع الحيتان في حجمها فكانت العظاءة مزدوجة العائق (الديلودركس كارنيجيا Dipleoeces Carnegiei) مثلاً تمتد أربعة وعثمانين قدماً من البوز إلى الذيل ، كأن العظاءة الماردة (الجبجيات صور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها مئة قدم ، وكان يعيش على هذه الوحوش حشد من الطيايا المبهولة (الدناصير) آكلة اللحوم (Carnivorus) المتناسبة معها حجماً . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو العظاية الجبارة (الثيرانصور) وتصفه بأنه قد بلغ الغاية في شناعة الزواحف .

وبينا كانت هذه المخلوقات الضخمة ترعى وتمتقب بعضها بعضاً بين النيقان الوردية (Frends) والنباتات الدائمة الخضرة للأجام الميزوزجية ، إذ قبية أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه المضرب - ولا جود لها الآن - تتأثر الحشرات وتمتقب بعضها البعض ، باده بالوثب واليهو طثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الغابة وسيفانها الوردية . وتلك هي الثيرودا كتيل (أي ذوا الأصبع المنحني) (١) . وهو أو الكائنات الطيارة ذات العمود الفقري ؛ ووجوده يشير إلى فوز جديد أحزته الثرى النامية للحيوانات الفقارية .

(١) وهي إحدى الخريبات : وأخنة طيارة لها جمجمة كبيرة كجمجمة الطيور وعظامها الطيرانية .
يشمل بالأصبع الخامس الطويل .

و فضلا من ذلك فإن بعض الإراخف أخذت في العودة إلى مياه البحر . فإن طوائف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة ، عادت إلى اجتياح البحر الذى خرجت منه أسلافها ، هي عطايا نهري الموز (المزوسور) وأشباه العطايا (البليوسور) وعطايا البحر المندثرة (الإكثيوسور) . وبعض هذه يقارب في حجمه حيتا نزال الرامة ، وي لوح أن الإكثيوسور كان حيوانا تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البليوسور طراز من حيوان ليس له الآن ما يماثله . لجسمه كان يدينا ضخمًا له مجاذيف هريرة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف في المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبيا فمضروبة فوق ربة كالشبان هائلة لا تكاد تدانيها ربة البجعة . والظاهر أن البليوسور كان يعم ويبحث عن الطعام تحت الماء ويتغذى كالفعل البجعة ، أو يتربص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بهيمة .

تلك هي أهم أنواع الحياة الموجودة في البر طوال الزمن الميزوزوى . ففى تعتبر - بمقاييسنا البشرية - تقدما فاق كل شيء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجما وأوسع انتشارا وأعظم قوة ونشاطا ، وأحقل بالحياة (كما يقول الناس) من أى شيء شهدته العالم قبلها . أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكاثر هائل لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت في البحار الضحلة أضرب هائلة المدد من مخلوقات تقبى أم الحبر ذات محار مقسم إلى تجاويف . معظمها حلزوني ، وهي العمونى (١) بأنواعها ، والعمونى أسلاف قديمة في بحار الزمن الباليوزوى . ولكن هاتقد حل الآن عصر مجده . غير أنه انقرض كله ولم يبق منه اليوم أى كائن يمثله ، وأدى الكائنات شبيها به في الوقت الحاضر هو التوفى الأولوى (٢) ، الذى يعيش في المياه المدارية ، ثم ظهر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر نسلا وأشد تكاثرًا وذو قشور أخف وأرق من تلك الأغلفة الشبيهة بالدرقات والشبيهة بالأسنان التى كانت متشرة حتى آنذاك ، فأصبح هو النوع السائد في البحار والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

(١) العمونى Ammonites صنف حفرى منسوب للاح حرون .

(٢) التوفى الأولوى Nautilus صنف من الحيوانات البحرية جميل العدف

الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الوفير والزواحف الحاشدة التي كانت تخرج في ذلك الصيف العظيم الأول للحياة: أهي الزمن الميزوزوي، وبينما كانت العناصر تعود ذلك العصر في مراهي السلفاس وسهول المستنقعات الحارة، والتي ردا كتيل بلاسما. الغابات برفرة أجنحت، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته ونميقه، وهو يتعقب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار التي لم تزال بعد مجردة من الزهر، كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى في عدد أشكالها، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة وتحوز قوى خاصة وتعلم دوساً معينة من الاختلال عادت على نوعها بالخير العميم عندما حل أخيراً اليوم الذي شرعت فيه الشمس والأرض تتنشق بسماحتهما البسامية .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة، وهي مخلوقات صغيرة من طراز الاديصور، قد أكرمتها المنافسة وتعقب الأعداء لها على المغاضة بين أمرين: إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفي هذه القبائل التي ابتليت بالحن تطور طراز جديد من القشور؛ قشور دملت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنايب الريش، وسرعان ما تغيرت تلك الأنايب وأصبحت بدايات لجة للريش. وكانت هذه القشور تشبه بأنايب الريش ترقد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافاً حافظاً الحرارة أكثر من أي غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أتاحت لها أن تنزول المناطق الأكثر برودة والتي كانت قبل ذلك غير مأهولة. وربما صبت تلك التغيرات زيادة في اهتمام هذه المخلوقات ببعضها فن الجلي أن معظم الزواحف لا تنمي بعضها أقل عناية، بل ترك لتتولى قصبه الشمس والوقت المناسب ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجديد من شجرة الحياة أخذت تتكسب عادة حراسة بعضها والحفاظ على دقة بوساطة حرارة أجسامها .

وفضلاً من هذه التكييفات وفق البرودة، كانت تجري تكييفها باطنية أخرى جعلت هذه المخلوقات - وهي الطيور البدائية - دفينة الدم مستغنية عن الاصطلاء والاستدفاء. ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك، وأن أطرافها الامامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاذيف تكاد تشبه ما يوجد في طائر البطريق. (البحريون) وإذا نظرت إلى طائر الكيوي النيوزيلندي ذلك الطير البدائي المسمى في بدايته وجدت به أيضاً أطرافاً بسيطة جداً، ورايته لا يطير ولا يبدو عليه أنه يتحرك عن سلف طيار. ذلك أن الريف ظهر في عملية تطور الطير قبل الأجنحة. ولكن ما كاد الريش يتطور، حتى أصبح من المحتم أن يؤدي إمكان انتشاره إلى انتشار أخيراً إلى ظهور الجناح، وإنا لنعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له في فك أسنان من نوع أسنان الزواحف، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق، ولا مراء أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيرودا كليل في الزمن الميزوزوي. ومع هذا فالطيور لم تسكن بالمتنوعة ولا الوفيرة في الأزمنة الميزوزوية فلو تهيأ لإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوي نموذجي، لسا راياماً كبيرة دون أن يرى شيئاً يسمى بالطير أو يسمع له صوتاً، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كليل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات.

و ثم شيء آخر لعل عليه لا تقمان على أي أثر له هو الثدييات. والراجع أن الثدييات الأولى كانت موجودة لعدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم، ولكنها كانت من الصغر والصغالة والآنزواء بحيث كان من الصعب أن يلحظها المشاهد.

والثدييات الأولى - شأن الطيور الأولى - غزوات دفعتها المنافسة والمطاردة إلى تختم حياة حافلة بالبداء بدو بالتكيف مع البرد. وفيها أيضاً اتخذ القشر شكل قشرة الريشة، ثم تطورت إلى غلاف حافظ للحرارة، ثم ألت بها أيضاً بعض تبديلات، تنمى في نفس الاتجاه والتنوع وإن اختلفت في التفاصيل، وأصبحت على أثر هادفينة الدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء. فبدلاً من الريش طورت الثدييات الشعر، وبدلاً من حراسة بيضها واحتضانه، كانت تحتفظ به دافئاً مصوناً باستبقائه داخل أجسامها حتى يفارب النضج. وأصبح منظمها ولوداً بصفة نهائية وأخذ يخرج صغارها إلى الدنيا حية، وحتى بدميلاد صغارها ظلت تنجح إلى الأبد بما لها من ثباتها في القيام على الرقابة والتنظية.

وجعل الثدييات اليوم، إن لم تكن كلها، ذات أمداء وترضع صغارها . ولا يزال هناك حيوانان ثدييان يبيضان البيض وليس لهما أمداء بالمعنى الصحيح، وإن غدا صغارهما بإفراز مغذي يخرج من تحت جلدهما، وهما البلاتيب البطي المقارو والإخيدنا (١) والحيران الأخير يبيض أيضاً يشبه الجملد، ثم يعضه في كيس أسفل بطنه . وبذلك يجعله أينا ذهب وهو في دفء وأمان حتى يفقس .

وكما أن الزائر للعالم الميزوزوي يبحث أيا ما رأسيه قبل المشور على طائر، فربما اضطر أيضاً إلى البحث عن آثار الحيران الثديي دون جدوى. ما لم يكن يعرف بالضبط أين يبحث عنه . ولا شك أن كلامنا عن الطيور والثدييات كانت تبدو في العصر الميزوزوي مخاوف غريبة الأطوار ثأوية الدرجة غير ذات أهمية .

ربقدر أهل العلم عصر الزواحف بثمانين مليون سنة ، فلو فرض أن كائنات أوتي ذكاء الإنسان وعقله ليحرق العالم طول ذلك الأسديع الذي لا يكاد يتصوره عقل، فكأن كانت الوفرة والحيرات وضياء الشمس تلوح له عند ذاك أبدية راسخة تقدم ... ولم يكن ذلك الرغد الذي يشرخ فيه الديصور وتلك الكثرة الوفيرة التي بلغتها العظايا الطائرة يبدو أن مطمئنين إلى الأيام أتم حدث بعد ذلك أن أخذت التقلبات الحفوية المتواصلة والقوى المتجمعة في العالم تقلب ظهر المجن لذلك الاستقرار شبه الأبدى ذلك أنه الخطأ أخذ يدبر ظهره للحياة . ففي عصر بعد عصر وفي آماد من السنين بعد آماد ، مع فترات من التوقف لأجرم . وفترات من التكمور والتدهور ، اتجه العالم صوب تغيير حائل بالشدائد والتطرف ، فتبدل مستوى سطح الأرض تبديلاً عظيماً وتعدل توزيع الجبال والبحار تمدد بلا شاملاً . وشاهد ذلك كله أنا نجد في سجل الصخور أثناء فترة إدبار الزمن الميزوزوي الطويل الكثير الوفرة والتمام ، شيئاً مفزاه الواضح في التغيرات المتواصلة للظروف ، وهو حدوث تقلب ضيف في أشكال الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة وغريبة . فإن التباين والاختلاف القديم للكائنات الحية أخذت تظهر إزاء الخطر المحدق بنوعها المهدد بإبادتها أقصى ما لديها من قدرة على التغير والتكيف . فتوافع العمق مثلاً أنتجت في هذه الصفحات الأخيرة من الزمن الميزوزوي عدداً غير آمن الأشكال الجببية . والظروف المستقرة لا تدعو إلى مثل ذلك الاستحداث ، فالمتحركات

(١) الإخيدنا Echidna ويسمى الصلاد وهو حيوان من الثدييات المسكية يسكن أستراليا

لا تتطور في ظلها ، بل تتوقف ، إذ أن أجسين الأنواع تكيفاً يكون موجوداً بالفعل .
فإذا وافق ظروف جديدة فالطراز المادى هو الذى يقاس ، والشيء المستحدث هو
الذى ربما أتيت له فرصة أحسن البقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم نجيء فترة انقطاع في سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات
والواقع أن هناك ستاراً مسدداً يجب كل شيء حتى معالم تاريخ الحياة نفسها ، فإذا
ارتفع ذلك الستار فأتية إذاً بصر الزواحف . قد ولى ، وإذا بالدينصور والبسيروسور
والإيغثيوسور والثيروداكسيل ، وجميع أجناس العمودى وأنواعها التى لا يحصرها عدد
قد اختفت تماماً . لقد هادت جميعاً - على أرضها المدهشة الوفرة - ولم تخط أى أثر
بعدها . فقد قضى البرد عليها جميعاً . ولم يبق منها شيئاً أقصى ما استحدثته بنفسها من
تغييرات لعدم كفايته ؛ فهي لم تصب ظروف البقاء ، وذلك لأن العالم مر فى دور من
المناخ المتطرف يتجاوز قوة احتمالها ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة الميزوزوية
وهنا نشهد أمامنا منظر اجديداً ، إذا استولت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأسا
وعلمك خيرية جديدة أشد قوة .

ولاشك لا يزال به أثر الزمهرير والجذب ذلك الذى يفتح به هذا المجد الجديد
من سفر الحياة . فإن الحزازيات والخروطيات^(١) الاستوائية طلت عليها إلى حد كبير
أشجار تنفض أوراقها للهلاك من ثلوج الشتاء ، كما أن نباتات وشجيرات ذات
أزهار قد ظهرت ، وأخذت أنواع متزايدة من الطيور والثدييات تستولى على تراث
كرة عظيمة من الزواحف .

(١) الخروطيات: Conifera نية من النبات من أمثال الصنوبر

الفصل الثامن

عصر الثدييات

كان مطلع الزمن الكايونوزوى الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض، حافلا بالارتفاعات في القشرة الأرضية والنشاط البركاني الشديد - وذلك هو الأوان الذى دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة : الألب والملايا، كما دفعت سلاسل جبال الروكي والانديز التي يشهونها بالعمود الفقري، وذلك أيضاً هو الأوان الذى ظهرت فيه المعالم الإجمالية لمحيطاتنا وقاراتنا الراهنة، وفي ذلك الأوان أيضاً اتخذت خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيامنا هذه وتقدر المدة التي تفصل عصرنا وأوائل الزمن الكايونوزوى بما يراوح بين أربعين وثمانين مليوناً من السنين .

كان مناخ العالم صارماً قاسياً عند بداية الزمن الكايونوزوى، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل في دور جديد من أدوار الارتفاع والهبوط . فثبت أن تحول بعده إلى دور جديد من البسر والإحمال ؛ ومرت الأرض في سلسلة من الدورات المفرطة البرودة ، هي المصورات الجليدية التي يلوح أنها تخرج منها الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات المناخية ليست في الوقت الحاضر من الكفاية بحيث تمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات في الأحوال المناخية التي يجتازها لنا القند . وربما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضياء الشمس ، أو نلتكس نحو زمهرير عصر جليدي آخر ؛ وربما كان النشاط البركاني ورفع الكتل الجبلية أخذاً في الزيادة وربما في النقصان . فلنستأذنى عن ذلك شيئاً ، إذ يجوزنا القدر الكافي من العلم .

وبابتداء هذه الفترة تظهر الاعتشاب بأنواعها ، ويظهر المرحى في العالم لأول مرة وباكتمال تطور النوع الثديي الذي كان منسوراً فيما سلف .، يظهر عدد من

الحيوانات الشائقة الآكلة للشعب، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة للحوم تأتي تعيش على تلك .

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط ، عن الزواحف الآكلة للعشب والآكلة للحوم التي ازدهرت قبل ذلك بصورة ودهور ثم بادت من الأرض . وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطليعة في هذا العصر الجديد الثاني من أحصر النفس والوفرة ، الذي شرع يبدأ آنئذ ، إنما كانت فقط تكرر العصر الأول ، مع قيام الثدييات الآكلة للعشب والحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير ، ومع حلول الطير محل التيرودا كليل وهكذا على أن هذا إنما يكون مقارنة سطحية بحتة . ذلك أن تغير الدنيا لا ينهى ولا يقف عند حد فهو يتقدم تقدماً أبدياً ، واثار يخ لا يمسد نفسه أبداً ، وليس هناك أية مماثلات تتطابق صورها بالضبط تماماً . والفروق بين صورتي الحياة في الزمن الميزوزوي وشقيقه الكاينوزوي أعظم كثيراً من أوجه التشابه .

وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للفترتين . وهو يأنشأ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد ، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات (وحياء الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف ، والزواحف باستثناء القليل النادر منها - تترك بعضها بنفس وحده . فالزاحف الصغير لا يعرف والديه أدنى معرفة ، وحياته العقلية - كما هو الواقع - تبدأ وتنتهى بغيراته الخاصة . وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره ، ولكن ليس بينه وبينها أى اتصال ، وهو لا يفقهها أبداً ، ولا يتعلم عنها أبداً ، كما أنه غير قادر على القيام بأى جهد مشترك معها . لحياته حياة فرد منعزل ولكن نشأت مع أوضاع الضار وتقليلها - وهما منميزات السلالتين الجديديتين الثدييات والطيور - حالة جديدة هي إمكان التعلم بالحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرهما من الأعمال الجمعية ، والهيمنة والإرشاد المشترك . لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم .

والمنح عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوي لا يفوق في الحجم إلا قليلاً منح الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشاطاً ، ولكن كلما قلنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث ، وجدنا زيادة عامة ثابتة في سمة الفراغ النحى (١) في كل قبيل وسلافة من

(١) سمة الفراغ هي حجم المنح ومدى اتساع الجمعية من المائل .

سلالات الحيوانات الثديية . مثال ذلك ، أننا نلاحظ في مرحلة مبكرة نسبياً وجود وحوش تشبه الكركدن . فإنا نجد في أبكر عرود تلك الفترة عظوقاً هو التيتانوميروم . الراجح أنه كان شديد الشبه بالكركدن المصري في عاداته وحاجاته ، ولكن فراخه عنه لم يصل إلّا عشر ما خلفه الحى .

ويحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفرق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ولكن ما كادت القدرة على التفاهم المتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابطين الصغار والكبار عظيمة جداً . لذا لا نلبث أن نجد عدداً من أنواع الثدييات التي تعيش فيها بدايات حياة اجتماعية حقّة ، وتعيش بجمعة في أسراب وقطعان ورعلا ن وهي تلاحظ بعضها بعضاً ، وتقلد بعضها بعضاً وتلتقي التحذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم ذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف والأسماك قديماً وجدت في أسراب وأفراخ ، ولكن مرد ذلك أنها فقت بكيمات وعملت الظروف المتشابهة على استبقائهم ، أما الترابطين حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع فلا ينشأ فقط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل يدهم مدافع داخلي . وهي ليست مجرد كائنات منفدابة ، وجدت صدقة في نفس الأما كن في نفس الأوقات ، بل هي تحب بعضها بعضاً ولذلك فهي تتواجد معاً .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لا يستطيع تجاهله من الناحية الماطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة الملحة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف من شهوات ومخاوف وكراهية . ولنا بمستطيعين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة ، فدوافعنا موازنات وتنافس وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة إن الثدييات والطيور تصف بكبح النفس واعتبار الحقوق الآخرين . ونجاوب اجتماعي أي ضبط النفس مما يبلغ انخفاض مرتبة فإله شبيه بما نحن عليه . ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشئ العلاقات مع جميع أنواعها تقريباً . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأنت بالحركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلية أليفة نفهمها ونفهمنا ونفهمها . وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وإن تسألنا وتعلم .

إن ذلك التفرع الاختياري للبحر ، الذي هو ام حقائق الزمن الكاينوزوى يسجل وجود ارتباط جديد بين الافراد واعتماد بعضهم على بعض . كما أنه البشير الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذى سنحدثك به من قورنا .

وكما انكشف لأبصارنا المزيد من صفحات الزمن الكاينوزوى تزايدت درجة المشاهدة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن اليتانثيرات (Uintatheres) واليتانثيرات (Titanotheres) الضخمة القبيحة الشكل قد انقرضت وهوى وحوش ضخمة قبيحة ليس بها حياة هذا العصر ما يشبههم أخير . أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقى بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشمة مضحكة حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجملة وحشاته وفيلته وغلباه وكلايه وأسوده وبيوره (١) . أما الحصان فنشروه وتطوره فقرأ مطورهما واضحة بوجه خاص في صفحات السجل الجيولوجى . فإن لدينا سلسلة كاملة نوعها ما من أشكال الحصان تبدأ بكزور الزمن الكاينوزوى بسلف صغير يشبه الثاير (٢) ، ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها في شيء من الضبط ، هى سلسلة الالاما والجل .

(١) الير وجه البيور Tiger : ضرب من الأسد غلط وليس هو الفركا نسبة للامة
(٢) فايير Tapir أحد اندييات آكلة اللحم يحب الخنزير موثاة أمريكا الوسطى والجنوبية
وجزائر الهند الشرقية .

الفصل التاسع

القرود والقردة العليا^(١) واشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويعملون على رأس هذه رتب الثدييات العليا التي تحتوي على اليمور والقرود والقردة العليا والإنسان . والأصل في ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا دخل فيه لأي صفات عقلية .

والواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا في السجل الجيولوجي . ذلك أنها في الغالب حيوانات تعطن الغابة كاليمور (الهبار) أو القردة التي تعيش في الأماكن الصخرية الجرداء كالبايون (الرباح) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وضغطه الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات كأسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولستنا نعلم أنه حدث في عهد مبكر من الزمن الكاينوزوي ، أي منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه اليمورية الأولى ، وكانت أصغر عما رآه تخصصاً من أخلاقتها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالمي العظيم الذي ساد الدنيا في الزمن الكاينوزوي الأوسط . وكان مصيره مصدر الصيفين العظيمين الآخرين في تاريخ الحياة : صيف مستنقعات الفحم ، والصيف الهائل الذي هو عصر الزواحف ، والبرقة الثانية دارت الأرض دورتها وانتهت نحو عصر جليدي . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل لقررة من الزمن ثم تلتج مرة ثانية وكانت أفراس البحر ترتفع في المأخى الدفء بين نباتات خضنة شبه مدارية ، وكان بير هائل له ناب مثل السيف هو البير المسيف ، يتصيد فرائسه في المنطقة التي يذللها

(١) القردة العليا هي أرق أنواع القرود التي تشبه الإنسان ولا ذيل لها أو سكاك .

الصنفون اليوم ذهاباً وجيئة في شارع قليت بلندن (١) . ثم جاء عصر مكفر قارص
فصور أشد برداً وزمهريراً . فأدى ذلك إلى غربة (٢) كثير من الأنواع وإبادة كثير
غيرها ، وظهر في المشهد خريف صوفي مكيف للبخار البارد ، كإظهار الماموث وهو ابن
هم ضمن قليل ذو صوف غزير ، وظهر ثور المسك القطبي وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي ، وأخذ شبح الموت الثلجي في العصر الجليدي يزحف
نحو الجنوب قرناً بعد قرن فامتد في إنجلترا حتى داني منطقة التامز ووصل في أمريكا
إلى نهر الاميغو : ثم جاءت آماد أكثر دفئاً ذر بها بعض آلاف من السنين ، ولكن
أعقبتها ارتكاسات نحو البرد المرير .

ويطلق الجيولوجيون على هذه الأدوار الثوبية اسم العصر الجليدي الأول والثاني
والثالث والرابع ، كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصوره بين الجليدية ...
ونحن إنما نعيش اليوم في عالم لا يزال ين من آثار الجذب والجراح التي خلفها ذلك
الشتاء الرهيب . والعصر الجليدي الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستائة ألف سنة ، على
حين بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى زمهريره المرير منذ خمسين ألف سنة تقريباً .
وفي هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين الثلوج القارسة عاشت على كوكبنا هذا أول
الكائنات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن الكاينوزوي الأوسط كانت قد ظهرت قرود عليا متعددة ،
ذات خواص شبه إنسانية كثيرة في الفك وعظام الساق ، ولكننا لا نعثر على أية آثار
لخلاقات نستطيع أن نتخنها بأنها : إنسانية على وجه العموم ، إلا عند اقترابنا من هذه
الأصهر الجليدية ، وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر المتقنون في أوروبا ، في
رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون والمليون من الأوام :
على ظرائف وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت بيد مخلوق ذي مهارة يدوية
يريد أن يطرُق أو يحدِّش أو يقاتل بالحد المشعور .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى (Eoliths) . وليس في

(١) هو حي الصحافة بالأساسة البريطانية .

(٢) الغربة : إزالة ما لا يخبر به .

أوربا أية مقام ولا أية بقايا أخرى لذلك المخلوق الذي يمنع تلك الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب . وبما يكن قدر ما يحتاجنا من يقين أو شك في شأنه ، فلذلك لم يكن الإقتراد غير إنساني تماماً ، وإذ يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء مثري في تريال تريال ، بجزيرة جاوة ، وبين وكلم يهود إلى ذلك العصر نفسه ، على أطلعة من ججمة وأسنان ودظام مختلفة لنوع ما من الإنسان قردى ، له وعاء مسمى (١) أكبر من وعاء أى قرد واقى يعيش الآن ، ويلوح أنه كان يصيد منهيب القادة ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى المنتهب القادة (*Pithecanthropus erectus*) ، كما أن هذا للتدار الضئيل من عظامه هو كل ما بقيه خيالنا من الدون حتى الآن في تصوره لصناعات الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لا نعلم بعد ذلك في المجلد على أى جزء آخر من كائنات شبيهة إنسانى إلا عدمه نبالغ ولا يثارب عمرها ربع مابوز سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً معارداً كلما تقدمنا في مطالعة صناعات المجلد . ففى لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الموهرة ، بل هى أدوات حسنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلاً عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان المسمى ثم ظهرت بعد ذلك في حفرة رملية قرب هيدلبرج ، عظمة فك مفردة تنتمي إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الموهرة ، مجردة من اللقمة مجرداً تماماً ، وهو أقل كثيراً من أية عظمة فك حنة إنسانية ، ولكنها أضيق ضيقاً يرجح به أن لسان صاحبها لم يكن يستطيع أن يتحرك في فم بالذوق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشاً خشناً كالإنسان قديماً ، وربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسواً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أشد الأشياء استثارة لرغبتنا في الاستطلاع . وكأننى بالانظر إليها شبه المنظر إلى الماضى من خلال عتبة معيبة ، والمعلمون بواسطتها (١) الرماء المخى (*Brain Case*) هو الجمجمة ، وتسمى في علم الأحياء بالطبقة ويسمى أساسها من الداخل بالقول المخى .

جلى لحة واحدة منشأة بحيرة لذلك المخلوق ، وهو يذلف متاقلا خلال البرية الباردة
الموحشة ، ويسلق المرتضات ليتجنب البير المسيف ، ويرقب البكر كدكن الصوفى فى
الغابات ، وإذا بالوحش يخفى عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نحصيه . ومع ذلك
فإن تربة الأرضى ملوءة بوفرة بتلك الآلات غير القابلة للبلى التى تحتها ليتضع بها .
ورثة بقايا أخرى أشد قذرة وغمرضا ، وجدت فى «بلنداون» بمقاطعة ساسكس فى
طبقة يقدر عمرها بما يراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفا من السنين ، وإن جنح
بعض الثغاة إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمة فك
«ميدلبرج» .

وهذه البقايا هى جزء من جمجمة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيرا من جمجمة أية
قردة عليها موجودة فى الوقت الحاضر ، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزى ، وربما
كانت تابعة لنفس المخلوق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم الفيل على شكل
المضرب ، تتجلى فيها العناية فى الصنع ، وقد ثقب فيها ثقب واضح لاشك فيه .
وهناك أيضا عظمة غدة الفزال عليها قطوع وحروز كأنى توجد على قائم العدد (١) . ثم
لاشئ بمد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك المخلوق الذى كان يجاس وبثقب
العظام ١٩ .

لقد سماه رجال العلم باسم «إلسان الفجر» (Eoanthropus) ، وهو يختلف عن
خوى قريابه ، فهو مخلوق مختلف جدا عن المخلوق الهيدلبرجى ، وهن أى تردد راقب آخر
يمش اليوم ، وليس هناك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحصباء
والرواسب التى انقضى عليها مئة ألف سنة فصاعدا تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم
عن آلات الطران وما شابه من أحجار . ولم تعد هذه الآلات مجرد أدوات
حجرية أولية ، غير مذبذبة إذ لا يثبت علماء الآثار (الاركيولوجيون) أن ينسوا
فيها : المكاشط والمخاريز ، والمكاكين ، والنبال ، وأحجار القذف والباط اليدوية ..

(١) قائم البد أو صبا الحساب : Tally قطعة من الخشب تغتش فيها خدوش للدلالة
على الأرقام .

فمن إننا ندمو كثيرا من الإنسان . وسنصف لك في الفصل التالى أحجب هذه الأنواع المؤذنة بظهور البشر ، وم التيا ندرتاليون ، القوم الذين كانوا . تقريبا — وليسوا تماما — أناسا حقيقين .

ولكن لعل من الخير أن نذكر هنا بمتهى الوضوح ، أنه ليس بين رجال العالم من يرى أن أيا من هذين الخلقين : إنسان هيدالرج ، وإنسان الفجر ، هو السلف المباشر للإنسان العصرى ، وإنما هما — مهما دنت قرابتهما — أشكال تمت إليه بالقرى .

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالي والروديسي

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقبل بلوغ العصر الجليدي الرابع أوجه ، عثوق بلغ من قوة مشابهة للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضعة سنوات مضت بشرية تماما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكية ضخمة من الآلات الكبيرة التي كان يصنعها ويستخدمها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلجئ إلى الكهوف اتقاء للبرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزا خشنا ثم يرتديها . كان يسرا يستعمل عيانه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologists) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تكن من الإنسان الحق في شيء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك قوية بارزة وجباه منخفضة جدا وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن إبراهيم مما يتقابل والأصابع كإبراهيم الإنسان ، وقد خلفت أعتاقهم على وضع خاص لا يسمح لهم أن يدفعوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولعلم كانوا يعيشون في استرخاء وروءوسهم مدلاة إلى أسفل منحنية إلى الامام . وعظام فكاهم المديعة الذقن تماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تختلف فكاك الإنسان مخالفة ظاهرة ملحوظة . وبين أسنانهم والأسنان البشرية يوزن بعيد . فإن أضراسهم أشد تعقيدا من أضراسنا ومن هجب أنها أشد تعقيدا من أسناننا وليست دونها في التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسنان الطويلة التي لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشياء الإنسان هؤلاء تلك الأنياب التي للسكان الإنساني العادي . على أن سمة جاجهم إنسانية تماما ، ولكن المخ أكبر في المؤخرة وأخفض في المقدم من المخ الإنساني . وكان لمقدراتهم ومكانهم العقلية ترتيب آخر منابر . فهم ليسوا أسلافا للسلالة الإنسانية ، إذ يختلفون عن الأروءة الإنسانية من الناحيتين العقلية والجشائية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال وبعض

أما كن أخرى ، ولذا أطلق على هذا الجنس العجيب من الإنسان الأول اسم إنسان
نياندرتال ولعله ظل يقطن أوروبا مئات كثيرة بل آلاف من السنين .

وفي ذلك الزمان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جداً عما هما عليه في
تأخر من الحاضر . فكانت أوروبا مثلاً مغطاة بجليد يمتد جنوباً حتى نهر التايمر ،
ويترغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا ، ولم يكن هناك مضيق (إنجلز) (بحر المانش)
يفصل بين بريطانيا وفرنسا ، أما البحر المتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين
عظيمين ، وربما احتوت أجزاءهما الأكثر انخفاضاً على مجموعة من البحيرات
سبحاً أن بحراً داخلياً عظيماً كان يمتد من البحر الأسود الحالي عبر روسيا الجنوبية ،
ويترغل إلى آسيا الوسطى وكانت أسبانيا وكل مالا بنطية الجليد فعلاً من أجزاء
أوروبا — تتكون من مرتفعات جرداء باردة ، مناخها أشد قسوة من مناخ
عبرادور ، ولم يكن الإنسان ليجد المناخ المعتدل إلا حين يصل إلى أفريقيا الشمالية .

وكانت تتنقل عبر السهوب الباردة بأوروبا الجنوبية بما جوت من ثبات قطبي
حتتار ، مخلوقات شديدة التحمل للبرد من أمثال الماموث الصوفي والخرتيت
الصوفي والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مراء تتعقب النباتات نحو
التيال في الريح ونحو الجنوب في الخريف .

ذلك هو المشهد الذي كان الإنسان النياندرتال يتجول بين ظهرايه ، متلقياً
من الغذاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والشمار
والجذور ومن المحتمل أنه كان نباتياً في معظم أمره يعضغ الساليج والجذور .
ذلك أن أسنانه المسطحة المحكمة ترضى بنذاء يظن فيه النبات . ولكننا نرى في
لهوفه أيضاً عظاماً نهائية طويلة لحيوانات كبيرة . وقد كسرت لاستخراج
ما بداخلها من نخاع ومن البديهي أن أسلحته لم تكن كبيرة الجهدى في القتال مع
الوحوش الضخمة ونجهاً لوجه ، ولكن يظن أنه كان يهاجمها بالحراش عند المماز
الصعبة للأبوار ، بل حتى يحفر لها الحفائر ليوقبها . ويحتمل أنه كان يتعقب الفطنان
ويقترب أى فرد منها يموت في القتال ، ولعله قام بدور إيجى آوى إزاء البير
المسيب الذي كان لا يزال حياً في أيامه . ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح في
أثناء عن العصر الجليدى وبشدة البرودة إلى مهاجمة الحيوانات بدو . . .
طويلة من التكيف للنبات . . .

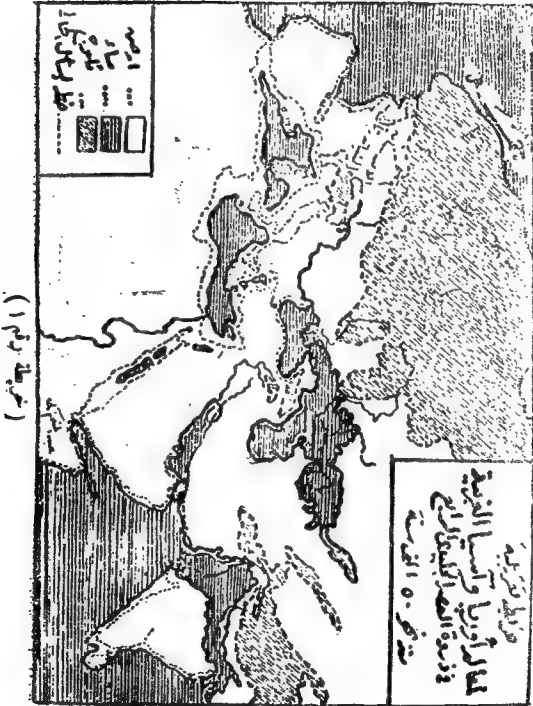
ولسنا نستطيع أن تتخيل هيئة هذا الإنسان النياندرتالي . وأكبر الشك أنه كان غزير الشعر جداً ذو هيئة غير إنسانية حقاً . بل لما أتى شك من أنه كان يمشي منتصب القامة ، ولعله كان يستعمل يديه بالإضافة إلى قدميه لمخل جسمه . والراجح أنه كان يمشي في الأرض بمفرده أو في جماعات عائلية صغيرة ، ويدل تركيب فكه على عدم قدرته على الكلام بالصورة التي نفهمها .

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين وهم أعلى ما شهدت القارة الأوروبية من حيوان ؛ ثم حدث منذ حوالي ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الشرق قليلاً أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس من كائنات تمت إليهم بالقرى ، ولكنه أكثر ذكاء وأوسع معرفة ؛ ثم إنه يتكلم ويتعاون بعضه مع بعض — فطردوا الجنس النياندرتالي من كرفه ومنتجعاته ، وتصيدوا نفس الطعام الذي كان يأكله ، ولعلمهم قد قاتلوا سابقهم هؤلاء البشر وأعلموا أنهم القناء . هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشرق (علماً بأنهم في الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبادوا النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة ، كائنات من نفس دمنا وجنسنا ، وهم الإنسان الأول الحق . وآية ذلك أنه بجانبهم (أو معهم) وإبائهم وأبنائهم وأحفادهم هي من الناحية التشريحية نفس مالدينا . وقد عثر الباحثون في كهف هند كرومانيون وفي آخر قرب جريمالدي على عدد من الهياكل العظيمة هي أقدم ما تعرف إلى اليوم من البقايا البشرية الحقة .

وبذلك يدخل جنسنا في سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية ،

في تلك الأيام أخذ العالم يصبح أشبه بآلمنا وإن بقي المناخ شديداً قاسياً . وقد أخذت ثلاثج البصر الجليدي في التراجع بأوروبا ؛ وشرقاً ما أخذت هولانـ الة بفرنسا وأسبانيا مكانها لامتزاج عظمية من الحيول كلما تكاثرت الكلا على السهوب ، وأخذ الماموت يزداد ندرة في جنوب أوروبا حتى تراجع في النهاية نحو الشمال تراجعاً مطلقاً . . .

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيقي أولاً ، ولكن حدث في صيف ١٩٢١ ، أن اكتشفت ججمة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمي قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبية ، ججمة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان — وهي في خواصه المعقدة



بين النياندرتال والسكان الإنساني الحقن ، وبهذا الرعاء الخفى هل أن منه أكبر في المقدار وأصغر في المؤخرة من مخ النياندرتال ، كما أن الجمجمة منتصبة فوق العمود الفقري على شاكلة إنسانية تماماً . وكذلك الأسنان والعظام فإنها إنسانية بحتة ، أما الوجه فالراجح أنه كان شبه قردي له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة . أجل إن ذلك المخوق إنسان حق ولكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردي ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الروديسي أوثق شها بالإنسان الحقن من الرجل النياندرتال .

والراجع أن هذه الجمجمة الروديسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكشفات قد تكون منها في النهاية قائمة طويلاً من أجناس شبه إنسانية همرت هذه الأرض في الفترة الزمنية الباطلة الممتدة بين بدايات العصر الجليدي وبين ظهور الإنسان الحقن ورثها جميعاً ، ولعل أيضاً مييدها جميعاً ، وربما لم تكن الجمجمة الروديسية نفسها مفروطة القدم ، إذ أن الأطباء لم يصلو حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشأن همرتها المحتمل ، وربما كان هذا المخوق شبه الانساني يعيش في إفريقيا الجنوبية حتى أرملة حديثة جداً .

الفصل الحادى عشر

الإنسان الحقيقى الأول

إن أقدم ما يعرفه العلم فى زماننا هذا الملاحظات والآثار لبشر لا ينطرق الشك إلى تواترهم لذوات أفسنا ، هب عليه فى أوروبا الغربية ، وخاصة فرنسا وأسبانيا ، فقد اكتشفت فى كل هذين القطرين عظام وأسلة وخدوش على العظام والصخور قطع من العظم المحنورة ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور ، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر . وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المختلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين .

ومن البديهي أن ما لدينا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا . يوم يتواجد العدد الكافى من المتقنين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ؛ ويوم يتاح للعلماء الآثار تارتيد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيحصونها فى شئ من التفصيل . فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب يهتم بهذه الأمور ويستمتع بحرية الارتداد ، وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص الحرس كله من أن نستتج أن الإنسان الحق الأول امتدزت به أوروبا الغربية أو أنه ظهر بتلك المنطقة .

وربما انطلوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق بنطيا اليوم البحر ، على روائب تحوى بقايا إنسانية هبة أكثر عهداً وأقدم عهداً من أى شئ هب عليه حتى يؤمننا هذا إلى أن تكلم من آسيا وإفريقيا . ولا أذكر أمريكا ، إذ لم يترقها . عداس واحد على أى شئ يعود إلى الحيوانات العليا ، سواء أ كانت من الفردة العليا أو أشباه الإنسان أو التبايعر تالين ، أو الإنسان الأول الحقيقى . ذلك أن هذا التطور الذى تناول الحياة ، يطوح أنه شئ اقترع أمره على العالم القديم وحده تقريباً ، والثامر أن السكائنات الإنسانية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضي الذي يخترقه الآن مضيق بيرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجري القديم .

ويبدو أن الكائنات الحقيقية الأولى التي نعرفها في أوروبا ، كانت تتسبب بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماماً أحدهما عن الآخر . وكان أحد هذين المنصرين من طراز راق جداً فهو طويل القامة كبير المنح . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها الفخى فراغ من الرجل المتوسط في هذه الأيام . كما أن أحد هياكل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولا . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سمي هذا الشعب باسم الكروماني نسبة إلى كهف كرومانيون الذي وجدت فيه أولى بقاياه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راق . فأما المنصر الثاني الذي عثر على بقاياه في غار جر بالدي ، فكان هنصر ذاقنيات شبه زنجية (نجرديية) (١) لاشك فيها . وأقرب الأحياء إليهم هم شعبا البوشمن والهوتنتوت بجنوب إفريقيا . ولعله يشير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلا منذ ابتداء قصة الإنسان المعرف إلى منصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؛ وقد يجعل المرء منا إلى أن يفترض بنير أساس على أن المنصر الأول كان على الأرجح أسمر أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثاني كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة ، وأنه جاء من الجنوب الاستوائي .

هؤلاء المتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة بلغ من اتصافهم بالبهاشية البشرية أنهم كانوا يتقبون الودع ليصنعوا منه الفلاند ، وينقشون أجسامهم ، ويصنعون القنايل من العجر والعظام ، ويخدشون الصور على الصخور والعظام ، ويرسمون على جدران الكهوف الملساء ، وعلى سطوح الصخور التي تمنحهم رسوماً للحيوان وماشاهيه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تتم في الغالب بقدرة كبيرة . وقد صنعوا أنواعا كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنفاً كان للرجل

(١) النجرديي Negroid هو المنصر الذي يشابه الزنجي في الشكل . (١٠) (الترجم)

التي اندر تالي . وبمناخنا الآن مقادير عظيمة من أدواتهم ، وتداييلهم الصغيرة . وما خفوا من صور على الصخور إلى خير ذلك .

وكان أقدام هؤلاء المتوحشين ضيادين ، أهم ما يصيدونه الحصان البري . وهو السيسى الصغير المسمى الذي كان يعيش في تلك الأزمان . كانوا يتعقبونه في مسيره وراء المرعى وكذلك كانوا يتتبعون الجاموس البري ، فيزونه . وقد عرفوا الماموث . فلم يتم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لذلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقعونه في الحبال ويقتلونه .

وكانوا يصطادون بالحراب وبالنفذ بالأحجار ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنما في شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة عنقورة لراس حصان ورسم أو اثنين كأنهما يتلنان حصاناً ملجأ ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الحبول الصغيرة في ذلك العصر . تلك المعلقة لم تكن لتستطيع أن تعمل رجلاً ، ولو فرض أنهم استلوا الحصان ، فراجع أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . وما ليك فيه ولا ترجحه أنهم تعلموا طريقة الاقتداء بطن الحيوان وهي شيء غير طبيعي أو يسكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دمي من العيين فلم يتم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع القنار . ولما لم تكن لهم أدوات طبخ ، فلا بد أن طبخهم كان بدائياً أو لا وجود له البتة . وما كانوا يعرفون من الزراعة شيئاً ، ولا شيئاً من أي نوع من أنواع صنع البلال أو القماش المنسوج . ولو لا ما كان لهم من أودية من الجلد أو القراء . ولما كان قولهم أنهم من المتوحشين المرأة المنقوشة البشرة .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أديم من لعرقة من البشر يتعبدون على جنوب أوروبا المنبسطة دهرًا لعه مائة قرن ، ثم أخذت تذيبات المناخ تقل فيهم فقلما وتبدل من أحوالهم ، فإن مناخ أوروبا أخذ يتحول قريبا جدا . فربما أصبح أكثر اعتدالاً وطرًا فترجع فزائل الرنة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البري والحصان . وظلت الغابات على البثور ، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البري ، وظهر في الأدوات وصفاتها تميز صعب هذا التغير في استعمالها ، وثبات العديد من الآثار

والبحيرات ذات أهمية كبرى للإنسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة ، يقول دى مورتييه : « إن الإبر العظمية في هذا العصر أجود كثيراً من المتأخرة عنها في الزمن ، حتى ما كان منها في الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلاً إبر يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة » .

ثم انتقل إلى جنوب أسبانيا منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صخور رائعة جداً ، وسما على سطوح الصخور المكتشفة . هذا الشعب هو الأزيلون (نسبة إلى كهف دازيل *Mead's Aul*) وقد عرفوا القوس ويولوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ، وكانوا يرسمون رسوماً مشرقة ، ولكنهم حوّلوا رسومهم إلى لوح من الرمزية - فالرجل مثلاً يمثل عندهم بخط رأسى من خطين أفقيين أو ثلاثة - وفي ذلك ما فيه من تلويح بزوغ فكرة الكتابة . وكثيراً ما نجد بإزاء رسوم تعاطلية تمثل الصيد علامات كائى على قائم العد ، وثم رسم يمثل رجلين يطردان النمل من خليته بالنخاع .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسبهم الباليوليثيين أهل العصر الحجري القديم لجرد أنهم نحسوا الأدوات ، ثم بزغ في أوروبا منذ عشرة آلاف أو اثنتى عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لا أن يندع الآلات الحجرية بلحسب بل أن يصقلها ويحشد لها ، كما أنه شرع في الزراعة . وبذلك أقبلت بد حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليثى) .

وقد يشوق القارئ أن يعلم أنه كان هناك أقل من قرن مضى في صقع ناه من العالم ، هو جزيرة تسمانيا ، تنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجشاق والدهنى أخفض من أى من هذه الاجناس البشرية الأولى التى تركت آثارها في أوروبا . لقد قطع هذا الشعب التسمانى عن بقية الجنس البشرى منذ آماد طويلة بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن حوامل التنبيه والتحسّن . ويروح أنهم انقطعوا بدل أن يتطوروا . ويرتقوا . وعندما اكتشفهم المكتشفون الأوروبيون ، وجدوهم يعيشون حيشاً خفيضاً يقتلن بالخيار والصيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل منتجات ، ولا أشك أنهم وجاه حقيقيون من نفس نوعنا ، وليكن تموزهم المهاره اليدوية والمواهب الفنية التي كان الإنسان العنق الأول يملكها .

الفصل الثاني عشر الفكر البدائي

لنطلق الآن أفكارنا العنان لتجول في عالم الخيال بضع خطوات متممة في فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإساليته في تلك الأيام الأولى للغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفهم كانوا يفكرون في تلك الأيام الحقيقية من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سفلت وقبل ابتداء أو ان البذار والحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب بدون الانطباعات والأفكار الإنسانية . لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركز إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرها في إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلية البدائية وإعادة تركيب أجزائها معا ، منوعة جداً . ففي العصر الحديث . يلوح لنا أن علم التحليل النفسي قد ألقى قدراً عظيماً من النضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذي يتفحص الطريقة التي بها تكشف المواقف الانسانية والعاطفية في الطفل . أو تمدل أو تنطلي بأشياء أخرى ، حتى يتيسر فكيفها وفهم حاجات الحياة الاجتماعية (١) ؛ وثمة مصدر آخر للإستنتاج ذاتي القلطوف ، وهو دراسة أفكار وعادات المتوحشين الذين لا يزالون يعيشون في هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التحضر (٢) والجنود العقلي تجده في الفوكلور (الأدب الشعبي) وفي الحزبيلات والتجزيات غير المحقولة المميقة الرسوخ في النفوس والتي لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية المتقدمة ، ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها ما يكثُر عدداً ويزيد كماً اقربنا من عصرنا الراهن لغواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقاً له وجديراً بالتسجيل والتخلي .

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب : « مدخل إلى علم النفس الحديث » ترجمة المترجم .

إن شئت تصميلاً لنظريات التحليل النفسي .

(٢) التحضر : تحول الشيء إلى حضرة من الحضرة . وهو هنا بمعنى مجازي هو التجديد

والتحضر العقل ويقاد القديم على الجديد (المترجم) .

والراجع أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة التفكير
الاطفال أضحى أنه كان يفكر في مجالسة من الخيالات . فكان يستدعي إلى مخيلته
الصور العقلية الأشياء أو كانت الصور العقلية (١) تقدم نفسها لعقله ، كما أنه
يتصرف حسباً تخليه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأختية . وذلك هو مايفعله
في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم . ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما
هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الإنسانية وهو لم يادب دوراً كبيراً في الحياة
الإنسانية إلا في غضون الثلاثة الآلاف سنة الأخيرة . بل إن أولئك الذين
يضطرون أفكارهم حقاً في هذه الأيام أنسها وينظمونها فعلاً ليسوا إلا أقلية ضئيلة
من الناس . ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والمخاطبة .

ومن المحتمل أن أقدم ماظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لفص
الإنسان الحق ، كانت تتكون من جمهرات عائلية صغيرة . وكما أن قطمان
ورعائل الثدييات الأولى نشأت من هائلات طلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ،
فمن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى فعلت مثل ذلك . ولكن قبل حدوث ذلك
كان الأمر يقتضي أن تفيد بصورة ما أناليات الفرد البدائية . وكان لابد من بسط
فكرتي ، الخوف من الأب واحترام الأم ، حتى تتغلبا في حياة السكبار ، وكان
لابد من تخفيف غير الرجل السهل الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما
يكبرون . وكانت الأم من الناحية الأخرى هي الناصح الطبيعي والدمي الفعري
الصغار . وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريق التفاعل بين الفريزة
التي تدفع الصغار إلى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما
يشبون - وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها . وهناك عالم من
علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتي عبقرية عظيمة هو د . ج . ج .
أنتكينز ، راح في كتابه « القانون البدائي » ، يوضح إلى أي حد يمكن نسبة
القانون العرفي لدى المتوحشين - (وهو تلك المحظورات « Tabue » التي هي
حقيقة بارزة في الحياة القبلية) - إلى ذلك التوفيق العقلي بين حاجات الحيوان
البشري البدائي وبين حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور . وأظهرت الأيام إلى
حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور المحتملة بفضل جهود علماء التحليل النفسي
في الآونة الأخيرة .

ومن الكتاب المايين إلى إطلاق العنان لناملاتهم من يريدون مثلاً أن تعتقد بأن احترام

الرجل النجوز والخوف منه ، والأفعال العاطفي الذي يحسه المتوحيش البدائي إزاء المعائن المسنات الزاقي يتولين حمايته ، (وهي وجدانات ترتعها الأحلام شدة ، ويضاعفها هبت الأوهام والأخيلة) كانت مصدر شعور عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأبواب والرباب . وما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شموز بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام . لذا كان من اليسير الاعتقاد بانهم لم تكن ميتة حقاً وأن كل ما في الأمر أنها نقلت نقلاً وهمياً إلى متأى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته وخوافه أكثر اشراقاً وواقعية من أحلام الراشد العصري ، وما كان الرجل البدائي دائماً إلا طفلاً في تفكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور لها دوافع واستجابات مثل التي له وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صفه طفلاً واسع الخيال ليصدق من جديدكم كانت الصخور الغريبة الشكل أو الكتل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدوا لاهين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منطرة بالثبور أو مظرة للوذة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير من مثل تلك الأشياء ، وما كان يصبح مقبولاً ومصدقاً عند ما يروى . ومن هذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث تذكر وتماد روايته ، وإن النساء ليروينها للأطفال وبذلك يؤسن التقاليد ، ولا يزال معظم واسمى الخيال من الأطفال يخرعون إلى يومنا هذا قصصاً طويلة يطلبها دمية محبوبة أو حيوان أثيراً وكان خيالاً شبه إنسانى ، ولعل الرجل البدائي كان يفعل مثل ذلك - مع اختصاصه يميل أقوى كثيراً إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن أقدم من نعرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات ثرثرة تماماً ، وكانوا يتخلفون من هذه الناحية عن النياندرتالين ويمتازون عليهم فالنياندرتالو ربما كانوا حيواناً أبكم . وحديث الإنسان البدائي ربما لم يرد بداية عن مجموعة خشية جداً من الأسماء . وربما كان يصدر مقتضباً مصحوباً بالحركات والإرشادات والعلامات .

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانحطاط أن يكون لديه نوع من العلم بالماله والمعلوم ، ولكن الرجل البدائي لم يكن تقاداً في ربطه السببياً للنتيجة ، فأسهل ما كان يربط نتيجة بشئ - بعيد تماماً عن سببها . كان يقول : « أنت تفعل كذا وكذا

فيحدث كيدوكيت ، . فأتت تبلى ثمرة لأحد الأطفال فيوت . وأنت تأكل قلب
هدو ميوار فتصبح قويا . هذان مثالان للربط بين السبب والنتيجة . وأحد هاتين
والثاني باطل . ولين يسمى طريقة ربط العلة بالمعلول في عقل المتوحشين باسم
الفتيشة^(١) . ولكن النتيجة لإعماى فقط علم المتوحشين وهى تختلف عن العلم العصري
في كونها لا تقوم على أى أساس من التنظيم أو التمهيد ، فهى لذلك خاطئة في
الأهم الأغلب .

ولم يكن من العسير في الكثير من الحالات ربط السبب بالآثر . ليتنا حدث في
أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صححت على الفور الأفكار الخاطئة ، ولكن هناك
مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظيمة للرجل البدائي ، كان يتشمس فيها الأسباب
بإصرار ولجاجة فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة ، ولكن خطأها ليس من الكفاية
ولامن الوضوح بحيث يستطيع استنباطه . ولشدها كان يمهأن يكون العيدو غيرا .
والسحك كثيرا سهل العبد ، ولاشك أنه طالما جرب آلافا من التعاويذ والرقى والذنور
وآمن بها ليحصل على النتائج المرجوة ، وثمة شاغل عظيم له هو المرض والموت .
وكثيرا ما كانت العدوى تنتشر ، ويموت الناس بها أو تضف أجسامهم دون سبب ظاهر .
فهذا الأمر أيضا لابد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائي التسرع اللغالى كثيرا من
الإجهاد والقلق . وكانت الأحلام أو التخمينات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو
الحيوان أو الشيء أو يلتبس منهم المدونة كانت لديه قابلية الخوف والذهر .

ولابد أنه حدث في زمن مبكر جدا من تاريخ القيلة الإنسانية الصغيرة ، أو العقول
الأكبر سنا والأثبت جنانا ، والتي كانت تسهم في المخاوف وتسهم في التخيلات ، ولكنها
أقوى قليلا من العقول الأخرى ، قد تصدرت النصيح ووصف الصفات وإصدار الأوامر
فرا حورا يصرحون أن هذا أمر مشؤوم وذلك شيء محتم ، وأن هذا بشير بنخير وذلك
لذير بشر : وكان الخبير بالفتيشة ، وأضنى به الطيب الساحر هو الكاهن الأول هو
الذى يقدم النصائح ويفسر الأحلام ، ويحذر ويقوم بالتمازييم الجوفاء التي تجلب الحظ
وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسميه الآن باسم الديانة من حيث هى
مقدوس وشعائر ، كأن الكاهن الأول كان يهلى على التامز ماه والحقيقة علم على تصكك .

(١) الفتيشة : وهى اعتقاد المتوحشين أن كل شيء ماضى تسكنه روح تقوم الملك انتهى
باللهيات : (لترجم)

الفصل الثالث عشر

بدايات الزراعة

لا يزال لدينا بدايات الزراعة والاستمرار في العالم قاصراً ، وإن يكن قد بذل في هذا السيل إبان الحنين عاماً الأخيرة شيء كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل ما يستحق قوله في قوة من اليقين في الوقت الحاضر ، أنه حدث في مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثني عشر ألفاً ، بينما ذهب الآزيلي يقنع في جنوب أسبانيا وبينما البقية من الصيادين القدامى تنقل شمالاً وشرقا ، أن كان هناك في مكان ما بشمال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادي المتوسط الكبير الذي تفره الآن مياه البحر المتوسط ، قوم داموا دهوراً بعد دهر يستكشفون ويتعلمون شيئاً ما من أهمية حيوية كبرى ذلك أنهم شرعوا في الزراعة وأخذوا يستأسرون الحيوان كما أنهم شرعوا أيضاً يصنعون أدوات من الحجر المصقول بالإضافة إلى الآلات المنحوتة التي ورثوها عن أسلافهم الصيادين . وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والمنسوجات الخشنة النسيج المصنوعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون فخاراً بدائي الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ، هي العصر الحجري الحديث (البولييث) تميزاً من العصر الحجري القديم (الباليوليث) عصر الكرومانيون والذهب الجرمان والآزيليون وزاليم^(١) وما لبث هذا الشعب شعب للعصر الحجري الحديث أن انتشر رويداً رويداً في أصقاع العالم الأكثر دفئاً كما أن الفنون التي - مذاقها ، والنباتات والحيوانات التي تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه من طريق المحاكاة والتقليد ، ولكن بصورة تكاد تكون انتشار الشعب نفسه ، فلما وافقه

(١) ربما لاحظنا أن كلمة « باليوليث » تعاقب على الآلات النباتية عالية بل حتمه الأدوات الحجرية « Eolith » وهي عصر ما قبل الإنسان « الحجري القديم الأول » أما عصر الإنسان الحق الذي استعمل أحجاراً غير صلبة فهو « الحجري القديم الثاني » .

سنة ١٠٠٠ ق م . كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجري الحديث .

وعمليات حرق الأرض وبذر الحبوب وجنى المحصول والدرس والطحن ، وبما بدت للعقل المصري خطوات بدئية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء ، وربما تداول بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر ؟ . ولكن الرجل البدائي الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج للعقل التى تبدو لنا اليوم أكيدة جلية . واضحة لديه على الإطلاق . لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافذة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع القشود إلى تفصيلات خيالية غريبة لا لزوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفظة . كان القمح ينمو برياً في مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؛ وربما تعلم الإنسان كيف يذوق حبوبه ، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يبنزرها بزمن حديد فكانه جنى قبل أن يبنز .

وما هو جدير بالملاحظة هنا أنه ما من صمتع من أصماغ العالم وجد فيه بذور وجنى إلا أمكن فيه تعقب آثار ارتباط بدائي قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالنفس ، سيما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شيء ولا مرأى أن دراسة الأصل في الخلط بين هذين الشيئين تستهوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما هى القارىء الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدرّساً دراسة وافية في ذلك السفر الخالد الموسوم بالنفسن الذهبى Golden Bough ، الذى ألفه السير ج . فرير . ويجمل بنا أن تذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث في العقل البدائي الطفولى العالم صانع الأساطير ، ولذا قلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاستنتاج المنطقى .

وكل ما يمكننا قوله أنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العالم السميق قبل اثني عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من السنين خلت ، أنه كلما دارت الأيام دورها وحل وأن البذار على شروب العصر الحجري الحديث طلت معه تضحية بشرية . ولم تكن التضحية بأى شخص خبيث أو منبوذ ، بل كانت في العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة متفاعة ، وإن كان في الاغلب الأهم شاباً يماثل معاملة تنطوى على الإجلال العميق ، بل حتى على

العبادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يد ضربا من ملك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل قتله أصبحت طقوسا يتولاها الرجال المستنون العارفون ، ويقرها عرف الصور الموروث .

ولابد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون في البداية صعوبة كبيرة في تحديد أنسب الحظاظ البذر والقربان في موسم البذار ، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شيء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية ، ويرى بعض العلماء أن السنوات التي يذكرها الآباء ، في المهد القديم إنما هي أشهر قرية ، كما أن تقويم البابلي تجعل فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قريبا لإتمام الدورة . ولا يزال أثر هذا التقويم القمري باقيا إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شعورنا ، لدهشنا حتى من أن الكنيسة المسيحية لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثه في الموعد السنوي الصحيح بل في مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن أحدا من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم . والارجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجهتهم ، ولكن ما كاد الإنسان يدرك نفعاً في تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جداً ، ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوباً أو شمالاً ، وكان اقتناذ ذلك النجم أسطورة ومعبوداً أمراً لا يحصى منه تقريباً عند الرجل البدائي .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن ندرك مبلغ الأهمية التي بلغها في بكون أيام العالم الحجري الحديث ، رجل المعرفة والخبرة ، الرجل الذي كان يعلم علم قربان السم والنجوم .

أما الخوف من الجنس والتدنس ، والطرق المستصوبة الموصوفة لتطهير ، تحدث عنها ولا حرج ، كمصدر آخر من مصادر القوة لدوى العلم الفزير من الرجال والنساء ، وذلك لأن الأمر لم يخل أبداً من ساحرات هذا السحرة ، ومن كائنات فضلا عن السكينة .

والكاهن الأول ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي .
فعله جل الخلة تجربي ، كما أنه في الأغلب من صنف رديء ؛ وكان يحتفظ به
سراً مهنياً ، ويقار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لا يغير جوهر الأمر ،
وهو أن وظيفته الأولى هي المعرفة ، وأن استخدامها الأساسي لديه كانت
استخداماً عملياً .

ومنذ اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً من السنين ، وفي جميع أجزاء العالم القديم
الدينية والحسنة الرى إلى حد مناسب ، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التي تميزت
بعيش العصر الحجري الحديث في الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهان والكاهنات
وتقاليدهم ، وبما لها من حقول وزروعة ، وما حصلت من تطور في القرى والمدن
الصغيرة المسورة . وترادفت المصور حصراً بمدحصر ، وتواصل انتقال الأفكار
وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت سميث وريفرز اسم « الثقافة الهوليوليثية » (الشمسية الحجرية) ،
على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وبما لم يكن لفظ « هوليوليث » ، هذا خير .
وهو ملاح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة ، غير أنا مضطرون إلى استعماله حتى يوافق أرجال
العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التي نشأت في مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية .
ظالت تنتشر عسراً بمدحصر ، متجهة شرقاً وممتدة من جزيرة إلى جزيرة .
عبر المحيط الهادى حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتمل ، وأتمزجت بطرائق العيش
الشديدة البدائية لدى المهاجرين شبه المغول (Mongoloids) المنحدرين إليها
من الشمال .

وحيثما ذهب الشعب الأسمر صاحب ثقافة العصر الحجري الشمسى (الهوليوليثية) ،
أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والمعادن الغربية . ومنها أفكار يبلغ
من غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحي العقلية . فهم كانوا يقيمون
الأمرام والربى الضخمة ، ويفتشون دوائر عظيمة من الأحجار الكبيرة ، ولعل الغرض
منها كان تسجيل الرصد الفلكى الذى يهتربه السكان ؛ وعرفوا المحيط ، واتخذوا
المرميات لخطوطها بعض مواتم أو جميعهم ، واستغلوا الرشم والنقش ، وكانت لديهم
المادة القديمة المأخوذة بالناس الزائفة ، التي يحتضنها يرسلون الوالد إلى الفراش .

« ويلزمونه بالراحة إذا ولد له طفل ، كما كانوا يتخذون من الصايب المقوف الدافع
نصيحة رذالة الحظ . »

فإذا نحن أنشأنا خريطة للعالم ورسمنا عليها نقاطا تبين إلى أى مدى تركت هذه
المادات المجتمعة آثارها . وجب علينا أن ننشئ نطاقا يمتد بإزاء سواحل العالم
بالمناطق المعتدلة وشبه المدارية . يمتد من ستون جنج وأسياليا عبر العالم حتى
يبلغ المكسيك وبيرو . ولكن شيئا من هذه النقاط لن يمر بأفريقيا جنوب خط
الاستواء ولا بالقسم الشمال من أوروبا الوسطى ولا شمال آسيا ؛ فهناك كانت
تميش أجناس بشرية تتطور في اتجاه آخر مستقل عن هذا تقريبا .

الفصل الرابع عشر

حضارات العصر الحجري الحديث البدائية

كانت جغرافية العالم حول عام ١٠.٠٠٠ ق. م. شديدة الشبه في معالمها العامة بجغرافية العالم اليوم. ومن المحتمل أن الحجاز العظيم ، الذى كان يمتد عبر مضيق جبل طارق ، والذى ظل حتى آنذاك يصد مياه المحيط عن وادى البحر المتوسط ، كان قد تآكل وتصدع في ذلك الوقت ، وأن البحر المتوسط أصبحت سواحله عند ذلك تطابق إلى حد كبير نفس سواحله الحالية . أما بحر قزوين فلمله كان حينذاك لا يزال أوسع كثيرا مما هو عليه الآن ، وربما كان متصلا بالبحر الأسود شمال بلاد القوقاز . ومن حول هذا البحر الآسيوى الداخلى الكبير ، كانت الاراضى التى هى الآن سهوب وصحارى جرداء ، خضبة عند ذلك وقابلة للسكنى . فإن ذلك العالم كان على وجه الإجمال حالما أكثر مطراً وأشدّ خصبا . كما أن روسيا الأوروبية كانت أرض مستنقعات وبحيرات أكثر مما هى عليه الآن ، وربما كان هناك حتى ذلك الحين برزخ من الأرض يمتد بين آسيا وأمريكا مكان مضيق بيرنج .

ولابد أن الأقسام الرئيسية للأجناس البشرية على ما نعهدنا اليوم ، وكانت قد فصلت آنئذ وأصبح من الممكن تمييزها . وانتشرت في طول المناطق الدفينة المعتدلة وعرضا وعلى سواحله في ذلك العالم الأكثر دفئا والاكثف غابات في تلك الأيام الحالية ، شعوب الثقافة الحجرية الشمسية (الهوليويثية) السمر البشرية . أسلاف الغالية العظمى من السكان الحاليين لعالم البحر المتوسط ، أمم أجداد البربر والمصريين وكثير من سكان جنوب وشرق آسيا .

وبدبى أن الجنس الكبير كان يتغوى على عدد من الأنواع . وما الجنس الايبيرى أى جنس البحر المتوسط أى ، الابيض القاتم ، التازل على سواحله المحيط الاطلسى والبحر المتوسط ، وما الشعوب العامية التى تنطوى على البربر والمصريين . وما الدرافيديون (سكان الهند الأقدم لونا) وعدد من شعوب الهند الشرقية .

وكثير من الاجناس البولينية (١) وشعب الماوروى، إلا أقسام تتفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة العظمى الرئيسية من البشرية. وأنواعها القريبة أشد يباخا من الشرقية. على أن جيلا من الناس بدوه الكيرون اليوم باسم الجنس النوروى، ويسمى في غابات أوروبا الوسطى والشرقية، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقاء أخذ يتميز بنفسه، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمراء.

وثمة تفرع آخر كان يحدث في أقاليم آسيا الشمالية الشرقية المنباعدة الأكثر براساً انفصل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمراء، وانتهى إلى تكوين طراز لنفسه عيونه أكثر انحرافاً، ودظام وجنتاه نائتة، وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب المغولية، وبقيت في جنوب إفريقيا وأستراليا وفي جزائر مدارية كثيرة بجنوب آسيا، بقايا من الشعب شبه الرنسى (النجرى) القديم. وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالفضل متصلة تخالط بين الاجناس البشرية. إذ يلوح أن جميع الاجناس الملوثة التي تقطن بإفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعاً أن تكون خليطاً من شعوب الشمال السمراء ومن طبقة أساسية شبه زنجية.

ويجب علينا أن نذكر أن الاجناس البشرية تستطيع جميعاً أن تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية، وأنها تفرق وتمتزج، ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب في السماء والاجناس البشرية لا تفرح كالشجر فروعاً لا تلتق بعد ذلك أبداً. والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للاجناس الذى يحدث عند كل فرصة تسنح أمر يلغى الأجنبي عن بالنائلة، فإذا قلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والحقير القاسية. والناس يجتنبون إلى استعمال كلمة مثل «جنس» بصورة فضفاضة تجعل فيها إطلاق القول على هواه، ويبنون عليها أشد أنواع التعليقات مخالفة للعقل والمنطق. هم يتحدثون عن جنس «بريغاتي» أو عن جنس «أورنى» : ولكن الأمم الأوروبية كلها تقريباً سلاطه مضطربة من عناصر سمراء، وأخرى يعضاء قائمة وبيضاء ومزولية.

وكانت حقبة التطور الإنسانى المسماة بالصر الحجري الحديث (النيوليث) هي التي

(١) بولنيزيا: مجموعة جزائر بالمحيط الهادى الجنوبي حول خط طول ١٨٠° وأشهرها هاواى وفيجى وساموا.

أخذت فيها شعوب من الجنس المغولي طريقها لأول مرة إلى أمريكا. وواضح أنهم بلغوها بطريق مضيق بيرنج ثم انتشروا جنوباً فوجدوا في الشمال السكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكي، وفي الجنوب أسراباً كبيرة من الجاموس البري (البيزون). فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يعيش بها حيوان الجليترودون وهو نوع منقرض من الأرمادلو، والميجوثريوم وهو طراز من حيوان الرسيف (الشيوع) قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الفيل والرابع أنهم أبادوا الحيوان الثاني وكان عاجزاً قليل الحيلة على ضخامت.

ولم يرق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية البنية عن مستوى حياة الصيد الترحلية للعصر الحجري الحديث، فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً، وكان رأس مافي حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس الموجودين في بلادهم. أما المكسيك وبوقطان وييرو، فسكانت ظروفاً توأم الزراعة المستمرة، وهناك ثلثات قرابة ١٠٠٠ ق.م. مدنات شائعة جداً، تتأخر مدنات العالم القديم وإن غاب عنها في الطراز. ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت - شأن الحضارة البدائية الأقدم منها كثيراً في العالم القديم - تطوراً عظيماً في الفنون البشرية يتصل بمجالات موسم البذار والحصاد، ولكن على حين أن هذه الأفكار الأساسية قد لطفت في النهاية بالعالم القديم كما سنرى وتعددت ثم غطت عليها أفكار أخرى، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جداً من الشدة. وبدى أن هذه الاقطار الأمريكية المتحضرة كانت بالضرورة أقطاراً متدنية يحكمها السكينة، وأن قادتهم في الحرب وحكامهم كانوا يخشعون لقواعد صارمة من الشريعة والتقليد.

وصل هؤلاء الكهان بطل الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والبقعة. فعرفهم بالمسنيين وحسابها كانت خيراً من معرفة البابليين الذين ساعدت عنهم من فوروا. وكان لهم في بوقطان نوع من الكتابة، هو كتابة المايا Maya، وهي من أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات وأشدّها إحكاماً. وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزها أنها كانت تستعمل بوجه خاص في تسجيل التقاويم المضبوطة المعقدة التي كان الكهنة يبددون فيها أذكاهم. وبلغ الفن في حضارة المايا ذخيرة مجده، حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق.م.

(١) الرسيف Sloth: أحد أنواع كثيرة من الثدييات الشجرية الطويلة الشعر البطيئة الحركة يوجد في غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضاً حيوان السكلان.

وفى الذبح عند هذا الشعب يذهل المشاهد المصرى بقوة تشكيله العظيمة وجماله المتزاحم كما يحير به بقرابه المضحكة وبسمة جنونية من التعقيد والتزام التقاليد التي تخرج بالضرورة عن المجال الفكرى لذلك المشاهد .

وليس فى العالم القديم شئ يماثل تماماً ، وأدنى الأشياء شبيهاً إليه - وهو شبه بعيد - يوجد فى الطراز القديم المهيور من النحات الهندية ، فالرئيس ينسج مع كل موضع منه ، والتعابن تنقل فيه فى الداخل والخارج وكثير من كتابات الماما تشبه صفاً صفاً من الرسوم المتقنة التي يضمها المجانين فى مستشفيات الأمراض العقلية . بأوروبا أكثر مما تشبه أى شئ آخر فى العالم القديم . فكان عقل الماما قد تطور فى اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلى للعالم القديم ، وكأنما تناول أفكاره التواء مغاير وكأنه من ثم ليس ألبتة متزلاً إذا هو قيس بما يبرر العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المنعزلة وبين القول بوجود الانحراف العقلى العام يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطاً غير عادى . والمدنية المكسيكية بوجود خاص كانت تريق الدماء أنهاراً ، فكانت تقدم فى كل عام آلاف من الضحايا البشرية وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لا يزال ينبض أهم ما يشغل عقول وحياة هذه السككيات الغريبة . فصور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب فى غربته .

أما الحياة العادية لعامة الناس فى هذه المجتمعات فربى قوية الشبه بالحياة العادية لاى مجتمع صحى آخر من الفلاحين . وقد برهوا فى صناعة الفخار والنسيج والأصباغ ، ثم إن كتابة الماما لم تحفر فقط على الحجر بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما شابهها وتضمن دور المتاحف فى أوروبا وأمريكا كثيراً من المخطوطات المماوية المهيبة التي لم يحل من معيانتها فى الوقت الحاضر هذا التواضع إلا الشئ القليل . ولشبأت فى بيرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بواسطة عقد تمعد . فى المحيط وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة للتدوين بواسطة عقد تمعد فى الحبوب وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه . من الكتابة بالحيط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أى قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوى على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدنية الأمريكية . وهى .

حضارات تدور حول أحد المعابد ، ولها قدر عظيم من التضحية بالدماء ، وكرهة شديدة المكوف على الفلك . ولكن الحضارات البدائية في العالم القديم كانت تتفاضل بعضها مع بعض نتيجة تطورها نحو ظروف عالمنا الراهن وأحواله على حين أن هذه الحضارات البدائية لم تتجاوز في أمريكا تلك المرحلة البدائية أبداً إذ كانت كل منها تعيش في عالمها الصغير الخاص بها وحدها . فالمكسيك ظلت فيما يبدو لا تعرف إلا القليل عن بيرو أو لاشي . البتة ، حتى هبط الأوروبيون أمريكا . حتى إن أهالي المكسيك لم يعرفوا البطاطس الذي كان المادة الغذائية الرئيسية في بيرو .

ظلت هذه الشعوب ههنا بههنا تعيش وتنجب من أمر أبوابها وتقرب القرابين وتموت . وارتقى الفن الماياوى إلى مستويات عالية من الجمال الزخرفي . وكان الأفراد يمشقون والقبائل تتقاتل . ولم يبرح القنسط يعقب الوفرة ، والوباء يتبع الصحة ، على حين واصل الكهان قرونا عديدة إلتقان تقويمهم وإحكام طقوس التضحية ، دون أن يحرزوا في الاتجاهات الأخرى إلا تقدماً يسيراً .

الفصل الخامس عشر

سومر ومصر في العصور الأولى ونشأة الكتابة

لا مرأ أن العالم القديم مسرح أرحب أفقا وأكثر تنوعا من الجديد . فقد تأمت به فعلا منذ حوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ق . م مجتمعات شبه مدنة كانت تبلغ مستوى يرو . وقد ظهرت تلك المجتمعات في أقاليم خصبة متنوعة من آسيا كما ظهرت في وادي النيل . وفي ذلك الوقت كان شمال إيران والتركستان الغربية وجنوب بلاد العرب أخصب مما هي عليه الآن ، إذ توجد بتلك الافطار آثار تفهد بوجود مجتمعات في عصور باكرة جداً . ولكن مصر والمنطقة الدنيا من أرض الجزيرة هما القطران الوحيدان اللذان ظهر بهما لأول مرة المدن والمعابد والرى المنتظم ودلائل تنظيم اجتماعي يملو من مستوى المدينة القروية الحمجية البحتة ، وفي تلك الايام كان الفرات والجلية فيضان في الخليج الفارسي بمصبين منفصلين ، وبين السومريون أوائل مدنيهم على الأرض المحصورة بينهما . وحوالى ذلك العهد تقريباً - وذلك لأن التاريخ لا يزال على شيء من الإبهام - كان تاريخ مصر العظيم قد أخذ يذخ .

ويظهر أن هؤلاء السومريين كانوا شعباً أسمر له أعرف نائثة . وكانوا يستعملون نوعاً من الكتابة حلت رموزه ، فلفتهم الآن معروفة . وقد اكتشفوا البرونز وأقاموا معابد كبيرة كالآبراج من الطوب المجفف في الشمس . وطبن تلك البلاد ناهم جداً ، ومنه اتخذوا ألواحاً يكتبون عليها ، لذا بقيت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم . وقد ملكوا الماشية والاعننام والماعز والحير ولكن الحصان كان يعوزهم . وكانوا يقاتلون راجلين في تشكيل متراس ، وهم يحملون الحراب وتروسا من الجلد . وصنعوا ثيابهم من الصوف كما كانوا يخلقون ردهسهم .

ويلوح أن كل مدينة سومرية كانت على وجه العموم دول مستقلة لها رب خاص ، وكهنة مخصوصيون . وقد يحدث أحيانا أن تسود المان باقى زميلاتهما ، وتفرز الجزيرة على السكان . وقد عثر في نينور على كتابة سحيمة القدم جداً تذكر اسم

« إمبراطورية ، مدينة إريتش السومرية ، وهي أول ماذكر التاريخ من إمبراطوريات ، وكان لها ملكها الكاهن يدهيان أن سلطانها يمتد من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة في البداية مجرد طريقة مخزولة من التدوين التصويري . كما أنها شيء سبقي إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجري الحديث نفسه بأزمان صحيحة . والصور الأزيية الصخرية التي أشرنا إليها آنفا تظهر بداية تلك الصلة . فإن كثيراً منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية ، والأشكال الإنسانية في معظمها مرسومة رسوما واضحة ، على أن المصور لم يكن يهتم في بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكفي بتصوير الإنسان بخط رأسي وخط آخر أفقي أو اثنين .

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة بالصور . وما لبثت خدشات الحروف في كتابة سومر التي كانت تكتب على الطين بهود أن أصبحت من البعد عما تمثله من صور بحيث لم يعد في الإمكان تمييزها ، أما مصر التي كان الناس يكتبون فيها على الجدران ، وعلى شقائق من نبات البردي (وهو أول ما عرف من أنواع الورق) . فقد بقيت فيها المشابهة بين الحروف وبين الصور التي نقات عنها تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة المسمارية أم الإسفينية أي المشابهة للسمار أو الإسفين ، وذلك لأن الأقلام الحشيشية التي كانت تستعمل في سومر ، كانت تحدث خدوشا على شكل الوتد أو الإسفين .

وتحت شطوة هامة صوب الكتابة عندما استعملت الصور لالدلالة على الشيء الذي تمثله بل على شيء مشابه له ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم في ألقاب أسماء الصور (Red:is) (١) . وهي لينة يحبها الأطفال . وإنا نرسم معسكرا به خيام وجرس ، فينتج الأطفال حين يحدون أن هذا رمز إلى الاسم الاسكو تلتندى (Campbell) (٢) كامبل) واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراصة ، تكاد تماثل بعض لغات البروداخر المعاصرة .

-
- (١) ألقاب أسماء الصور : تمثل ملقن لأحد الأسماء يصور فيها تورية تمثل أجزاء من الكلفة (المترجم) .
(٢) هنا يجسم الأطفال الإنجليزية بين كلمتي Camp وجرس Bell فتنتج لفظة : Campbell (المترجم) .

وقد استجابت في عصر هذه الطريقة المقطعية في كتاب الكلمات المعبرة عن أفكار لا يستطيع نقلها بطريق الصور مباشرة . ومرت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيما بعد عندما تنبأ لشعوب أجنبية تتكون لغاتها من مقاطع بدرجة أقل ، أن يتعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها . أنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التي تطورت في النهاية حتى أصبحت كتابة أبجدية ، وجميع ماظهر في العالم بعد ذلك من أبجديات حققة ، مشتق من خليط من الكتابة السومرية المسمارية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك في الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليها ، ولكن لم يحدث قط ببلاد الصين أنها وصلت إلى المرحلة الأبجدية .

وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبيرة جداً في تطور الجماعات الإنسانية فكان من أثره أن سجلت الانقذات والقوانين والوصايا . وهي التي هيات السبل لنمو دول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت في الإمكان قيام وهي تاريخي متواصل . وبها أصبح في إمكان أمر الكاهن أو الملك أو خاتمها أن يذهب إلى أماكن بعيدة من بصره وصبرته وأن يبقى بعد موته . ولعل مما يشوقك أن تلحظ أن الاختتام كانت تستعمل بكثرة في بلاد سومر القديمة . وأن الملك أو النزيل أو التاجر يتخذ خاتماً كثيراً ما يكون محموراً حرفاً فنياً جميلاً ، وإنه ليطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصدق عليها . فكم اقتربت الحضارة من الطبيعة منذ ستة آلاف سنة ! ثم يحذف الطين بعد ذلك ويندو مستديماً . وذلك أن القارئ ينبغي له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان مالا هديد له من السنين ، كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبلل لسييا . وإلى هذه الحقيقة ندين بمروة عظيمة من المعارف المسترجعة من بطون الأثرى .

ومنذ زمان سحيق جداً كان البرونز والنحاس والذهب والفضة معادن معروفة في مصر وسومر جميعاً ، فضلاع الحديد المستخرج من النيالوك بوصفه مادة ناهرة ثمينة . ولأننا نملك ألبة في شدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القديم ظهوراً على مسرح التاريخ . هذا ما نقره قاتبه من وجود الخمر والماشية في الشوارع ، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيراً عن الحياة ببدن المايا بأمريكا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يتصورون أوقاتهم ضمن السلم في الري والزراعة لا ينقطعون عنها إلا أيام الحفلات المدينية . لم تكن لديهم نفرد ولا كانت بهم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجارتهم الصغيرة العارضة بالمعاينة ، واستخدم الإمرام
والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضبانا من الذهب والفضة
والأحجار الثمينة في أية صفة تجارية طارئة يتمونها . وكان المعبد متسلطاً على
حياة الناس ؛ والمعبد في سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه
النجوم ، وهو في مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضى فقط ، وفي سومر كان
الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأقنمها . فأما مصر فكان فيها فرد يرفع فوق
الكهنة ؛ وهو التجسيد الحي المثل لرب البلاد الأهل ، وهو فرعون الملك الرب .

وفي تلك الأيام لم تكن تحدث في العالم إلا تغيرات قليلة ، فالناس يقضون أيامهم
كأدحين في ضياء الشمس ملتزمين لتقاليدهم القديمة . وقل أن هبط البلاد أجنبي
أو غريب . فن اغترب منهم لم يذق الراحة طمعا ، وكان الكاهن يدبر شئون
الحياة وفق قواعد سحرية القدم ، ويرصد النجوم ارتقايا لوقت البذار ويدرس
النذر التي تتمخض عنها القرايين ويشول ما تجيء به الأحلام من تحذيرات . وكان
الناس يعملون ويمشقون ويموتون غير محرومين من أفوايق السعادة ناسين ما كان
لجنسهم من ماض متوحش وغير غائبين بما يمكنهم المستقبل . وكان العالم في
بعض الأحيان رحيما مرققا . شأن بيني الثاني الذي ظل يحكم مصر تسعين عاما .
وكان طموحا في أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنودا ويرسلهم على دول المدن
المجاورة ليقاتلوا ويهتجوا ، أو كان يسوهم العناء والكدح في إقامة المباني العظيمة ،
كذلك كان خوفه وخنوعه ومنفرج الذين بنوا تلك التواويس الجبارة : أهرام
الجيزة . وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ١٥٠ قدما ووزن مابه من حجر
٨٨٢٠٠٠ طن . وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل في الزوارق ، ودفعته
إلى موضعه قوة العضلات الإنسانية بوجه خاص . ولا بد أن تشييده قد أنهك
خوة مصر أكثر من أية حرب عظيمة .

الفصل السادس عشر

الشعوب المرحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول المدن إلا في القرون المحصورة بين ٦٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ق. م ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادي النيل وحدهما ، حيثما أتيت للناس إمكانيات لرى ومورد الطعام ثابت على مدار السنة كالنوا يتبدلون حياة الاستقرار بصحوبات الصيد والتنجوال وعدم ثباتهما . وشرح شعب يسمى بالآشوريين يؤسس المدن في أمالي دجلة ؛ وكانت هناك في وديان آسيا الصغرى وعلى شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير في طريقها إلى المدنية . ومن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه في الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق الموائمة لها من بلاد الهند والصين وكان في أجزاء عديدة من أوروبا كثرت بها البحيرات التي يعمرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد في مساكن بنيت على أعمدة فوق الماء ، كما أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها في القنص وصيد السمك . ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن ممكناً في مناطق العالم القديم التي تسكن من هذه كثراً منذ كانت البشرية (وأدواتها وعليها على ما نعلم من نقص وعجز) لا تستطيع أن تروى جذورها وتثبت أقدامها ، إذ كانت الأرض أخشن وأوهر من أن تسمح بذلك ، أو كانت الغابات كثيفة ، أو كانت تتربد فاحلة جذباء أو الفصول متقلبة عديمة الاستقرار .

وكان الناس يحتاجون إن شاءوا الاستقرار في خلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من الماء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تتباعد هذه المتطلبات للإنسان حاش جوالاً متقللاً وقضى عمره صياداً يتبع صيده ، ورواحياً يتعقب الكلاب الموسمي ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الزراعة تدريجياً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان الماشية البرية أو الخيول البرية (في آسيا) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما عملوا أن يحجزوها في بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها الذئاب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى .

ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراع البدائية تنمو بوجه خاص في وديان
الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة ديش مغيرة لهذه ، هي حياة الترحل ، وهي
حياة تنمى في حركة مستمرة ذهاباً ورجوعاً من مرمى الدنيا إلى مرمى الصيف .
وكانت الشعوب المترحلة أصلب على وجه الإجمال صموداً وأشجع قوياً من الزراع ، وهم
أقل إنتاجاً للأولاد وأقل مدداً ، ولم تكن لهم معابد ، مستديرو ولا كهانات شديدة
التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لا ينبغي لنا أن نستلج من ذلك أن
طريقة عيشهم كانت بالاعترة أدنى تطوراً . فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه
عديدة حياة أرقى وأكل من حياة عازق الأرض . فكلما ازدادتهم أكثر اعتماداً على
نفسه ؛ وأكثر استقلالاً . وكان القائد لديهم أكثر أهمية من في المجتمعات الأخرى ؛
والطبيب الآخر أقل أهمية فيما يشتمل .

ولذلك في أن نظارة الترحل إلى الحياة أوسع مجالاً ، كقوة مقدمات ، تربية
من الأرض . وهو لا يتأثر من حدود هذه الأرض المستمرة وتلك ، وقد أتت
رؤية الوجوه القريبة . ولم يكن له مفر من أن يدبر المخطط في سبيل الأرض وأن
يتفاهم في شأنه مع القبائل المنافسة ؛ وعمرته بالمعادن تجعل مرة واحدة ، وبالنسبة
أرض الحرات ، وذلك لأنه كان يدبر فوق الممرات الجبلية ويتفرق المناخ في أحرارها .
ولعل عليه بالصناعات المادية كان من علم الزراع . إذ يشتمل أن صهر البرونز على
والحديد أيضاً على أوجه التقديرات . كان من المكتشفات التي وصل إليها الرجل في
رأية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من تخافه
قد وجدت في أوروبا الغربية في بعد عظيم من المديات الأولى .

كان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم وطارهم كما أنهم كانوا يصنعون
كثيراً من الأشياء المرفوعة . وبينما كان مذهب الحياة هذا من الزراعة والترحل يتمازجان
أحدهما من الآخر ، لم يكن بد من أن يعمل بينهما قدر معين من التنبؤ والاستعداد .
ولاشك في أنه كان من الأولاد والموالفة في بلاد سومر بوجه خاص بما يكتسب جانباها من
ممرات وأراض موصية المناخ ، أن يتم الترحلون بالقرب من الحقول المروية وأن
يتخذوا ويسرقوا وربما اتخذوا صناعة المعادن حرفة لهم ، كما فعل الأشجار (النور) إلى
يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا اليسر والدجاج كالأشجار ، لأن الحاجة المنزلية وقوة
في الأصل دجاجاً أحراراً هندية لم يستأنسها الإنسان إلا حواله . . .)

يجتلبون للزراع الاحجار الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية ، فإن كانوا صيادين جلبوا معهم الفراء . وإنهم يحصلون مقابلها على الفخار والخرز والزجاج والياب ، وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكأن هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام في تلك الأيام السحيمة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة . فهناك في الغابات النائية بأوروبا ، كانت تقيم الشعوب النوردية الشقراء المسكونة من قناصين وروعاة ، وهم جنس شديس القدر . ولم تر الحضارات البدائية إلا النزر اليسير جدا من ذلك الجنس قبل ١٥١١ ق . م . وكانت تقيم في السهوب القصية من آسيا الشرقية ، قبائل مغولية متنوعة ، هي الشعوب الهلونية . وهي تستأنس الحصان ، تتكون في نفسها عادة الحركة الموسمية الفسيحة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفا وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والهلونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات روسيا ، كما يفصلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم رقعة ذلك أن قدرا عظيما من روسيا كان حينذاك مكونا من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سورية وبلاد العرب ، التي كان جذبا وجفافا أخذوا عند ذلك في الزيادة ، فإن قبائل من شب أبيض قام أو أسمر ، هي القبائل السامية ، كانت تدفع فيها قداما بنافذ الغنم والمز والخير من مرعى إلى مرعى . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سخة بجريرية قوية وموطنهم جنوب إيران ، هم العيلانيون) - أول الرحل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارات الأولى جاءوا متجهين ومفجرين ، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجرا جنائا ، أصبحوا غزاة فاتحين .

وفي قريب من ٢٧٥٠ ق . م ، كان قائد سامي عظيم هو دسرجون ، ق ، فتح بلاد سومريا كلها ، وأصبح سيديا للعالم كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . كان همجيا أميا وتعلم شعبة الأكاديون الكتابة السومرية ، وافتقدوا السومرية لغة للوظفين والعلماء . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التي أسسها ، حتى إذا وقعت البلاد في قبضة العيلانيين ، جاء شعب سامي جديد ، هو العموريون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر . فافتقدوا من بابل عاصمة لهم - وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعلى النهر - وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى . وقد رفع من شأنها وشدها تماسكها ملك عظيم اسمه حمورابي (حوالي ٢١٠٠ ق . م) وهذا الذي سن أوله بمجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .

كما وادى النيل الضيق فإن وقته جعله أقل من أرض الجزيرة تمرطاً لغزوات
الفرجل ، ولكن حدث حوالى عهد حوراي أن نجح الساميون في غزو مصر
وأقاموا أسرة جديدة من الفراعنة ، ثم ملوك الهكسوس وأول الرعاة الذين دام ملكهم
تقريباً عديداً . ولم يتدبج هؤلاء الفزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن
الشعب كان ينظر إليهم على أنهم على النوام نظرة العداء بوصف كونهم أجنبى وبرايرة .
وأخيراً طردتهم من البلاد ثورة شعبية حوالى ١٦٠٠ ق . م .

على أن الساميين كانوا قد استقروا في بلاد سومر إلى الأبد ، وتمثل الجلسان
بعضهما بعضاً وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية في لغاتها ومخاطباتها .

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

لا بد أن أقدم القوارب والسفن أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قربة منقوخة ، في زمن لا يقل عن بدايات العصر الحجري الحديث . وكان زورق من السلالم مغطى بالجلد مقلد الفتحاح يستخدم في مصر وسومر منذ مسهل مرفئنا بذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما لم تزال تستخدم حتى الساعة في إيرلندة وويلز وألاسكا ، حيث لا تبرح زوارق من جلد الفقمة تستخدم لعبور مضيق بيرنج ، فلما تصنعت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المجوفة ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره في تعاقب طبيعي .

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة في بناء السفن ، مثلاً أن قصة الطوفان الدائمة الصيت بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن خبر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تختر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمن مديد ، كما كانت ثمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسي منذ عام ٧٠٠٠ ق م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملصكا الصيادين ، ولكن بعضها كانت فعلاً سفناً لتجارة والقرصة . ذلك أما نفترض بقايا الاطمئنان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البحارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؛ ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التي تنامر فيها هذه السفن الأولى بحارا داخلية تهب عليها الرياح اندفاعات لجافية ، أو تنقطع في الغالب انقطاعا تاما أياما برمتها . لذلك لم تتقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الإستعمال الإضافي ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة العدد الماخرة للحجيت إلا في السنوات الأربع مائة الأخيرة ، وسفن العالم القديم إنما هي بالضرورة .

سفن تجديف تلازم الشاطئ ، وتلوذ بالرفأ عند أول بارقة لجوز العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكونوا أرقاء السفن .

سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب على صورة متجولين ورحل ، وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولاً ثم البابلية الأولى . ونزعت هذه الشعوب نفسها في الغرب إلى البحر . لذلك أقاموا جمهرة من المرافء على امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، كانت أهمها حور وصيدا ؛ فلم يأت عهد حمورابي في بابل حتى كانوا قد انتشروا في طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الإيبيري ، حارسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ؛ كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطئ أفريقيا الشمالى . وسزيديك — فيما بعد — يينا عن قرطاجنة إلى حدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يجرى السفن على صفحة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آنفا سلسلة من المدن والبلاد تنتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنما ترتبط برابطة الرجم واللفة بالباسك غربا والبربر والمصريين جنوبا ، وبغى الشعوب الإيبية . ويبلغنى أن لا تخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهدا ، وإن كانت لهم مدن في بلاد هليونان وآسيا الصغرى ، منها مثلا : ميسيناى ، وطروادة ؛ كما كان لهم في كنوسوس بجزيرة كريت مستقر هريض الرغد عظيم الثراء .

ولم تظهر لنا جهود علماء الآثار القائمين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيبية وتكلفت لنا عن حضارتها إلا فى الخمسين سنة الأخيرة . ذلك أن آثار كنوسوس وتويدت ارنبادا بالغا ، ومن بين الطالع أنه لم تن فى موضعها مدينة كانت من الكبر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم فى المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن تلك الحضارة
التي كاد النسيان يربح عليها .

وتاريخ كنوسوس يعادل فى قدمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين
ناشطة عبر البحر حوالى ٤٠٠٠ ق . م . وبلغت الحضارة الكريتية أوج العظمة
حوالى ٢٥٠٠ ق . م . أى بين عهد سرجون الأول وحمورابى .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قسرا عظيما للعامل الكرى وشعبه ،
بل إنها لم تكن حصنة ، فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفينيقيين .
وعندما انحدر إليها فى البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاظة .
هو الإغريق .

والعامل هندم يلقب بالمينوس Minos ، شأن العامل المصرى الملقب بالفرعون
وكان يدير شئون دولته من قصر مزود بالماء الجارى ، وبه الحمامات وما أشبهها
من وسائل الرف التى لا تعرف لها نظريا فى أى طلل آخر من الأطلال القديمة .
وهناك كان يتم حفلات وأعياداً عظيمة . وكان لديهم مصارعة الثيران تشابه مشابهة
فريدة مصارعة الثيران التى لا تزال باقية فى أسبانيا ، والمماثلة قائمة فى الحالىين فى
كل شئ . حتى فى ثياب مصارعى الثيران ، وثمة حفلات لألعاب الجبار . أما ثياب
النساء عندهم فىى صورية الروح بشكل بلغت النظر ، فإنهن كن يرتدين المشدات
والأثواب ذات الأهداب المدلاة ، والكثير مما أتجه هؤلاء الكريتيون من
التنغار والمنسوجات وفن النحت والتصوير والجواهر والماج والمعادن والتطعيم
بالصدق وغيره جميل جمالاً مذهشاً . ولتقوم طريقة الكتابة لا تزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هذه الحياة السعيدة المشرقة الممددة ما يقارب العشرين قرناً . فلو
استمرضت كنوسوس وبابل حوالى ٢٠٠٠ ق . م . لوجدتما تيجاناً بأناص مشققين .
ينعمون بوسائل الراحة ويميشون فى الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات
والأعياد الدينية ، ولديهم حيد المنازل الذين يقومون على خدمتهم والمبيد الصناع الذين
يدرؤن عليهم الربح فكم كانت الحياة فى كنوسوس تبدو لىن هؤلاء الناس آمنة مطمئنة .
ومن فوقها الشمس بضيائها الباهر . ومن حولها لىج البحر الزرقاء المترامية الأ

البدوي أن مصر كانت تبدو في تلك الأيام قفراً متدهوراً ، وهي تحت حكم ملوكها
الرهاة نصف الهج ، وإذا كنا ممن يهتمون بالسياسة ، لم نفتأ أن نلاحظ كم كانت
الشعوب السامية تنتشر في كل مكان : فهي تحكم مصر وتحكم بابل الفصية ، وتنفذ
نينوى بأعلى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أحمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وتشوش
مستمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك في أنه كان في كنوسوس بعض العقول المفكرة المحبة للاستطلاع
إذ تحدثت أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريت حلاق اسمه دايدالوس ،
سارح أن يشوش ضرباً ما من آله الهيران لعلها طائرة شرعية ، ولكنهم أسقطت
وهوت إلى البحر .

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة في كنوسوس
والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أي مري من الكريتيين يبيع في ٢٥٠٠
ق . م معدناً نادراً يستعمل من السجاء كالنشيناً طريفاً أكثر منه نافعاً - إذ لم
يكن الناس يعرفون سوى آنذاك إلا حديد النيازك ، ولم يكن أحد قد استخلص
الحديد بعد من خامه المعروف . وحديث أنه لا وجه للوزنة بهذه الحال وبين
- اثنتا العشرة التي يدخل الحديد في كل مرقق من مرافقها . ومن جهة أخرى
يكون الحصان حيواناً مدهلورياً تماماً لدى مراك كريت فهو عندهم صنف من
الخمار الراقع يعيش في الأراضي الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود
- ما فتت شائعة . وبدوي أن أم موطن الحضارة لدى المري - كريت كان المنطقة
الإيجية وآسيا الصغرى ، حيث دوف الأيدون والكارايون والمارادايون
يعيشون ديشاً كعشهم وربما يتكلمون لغات كمنته . وكان ثمة فينيقيون وإيجيون
يستقرون في أسبانيا وشمال إفريقيا . ولكن تلك الأقطار كانت تترامد لدين
خياله بلاداً بعيدة البعد . وكانت إيطاليا لا تزال أرضاً موحشة تعاطها الغابات
الكتيفة ، إذ لم يكن الإتروسك (التوسكان) ذوو البشرة السمراء قد
انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولله حدث ذات يوم أن ربط ذلك المري
الكريت إلى الميناء ورأى أميراً اقترعى ابتاعه بشدة شفرة وزرقة عينيه . ولعل
هذا المري - أول أن يتحدث إليه فلقى الجواب طائفاً غير مفهومة . جاء هذا
المخلوق من مكان ما وراء البحر الأ. ود. وبدأ كأنما هو متوشش منط اللقاة .
ولكنه كان في الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنحدثك من قودنا بالشوش الكثير من

لجنته ومناقشته ، كما أن الرحالة العجيبة التي تحدث بها هي التي قدّر لها أن تتأيز
فما بعد إلى السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية
ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هي كنوسوس في أوج مجدها : — ذكية مضامرة مشرقة سعيدة . ولكن
كارثة زلزال بها قرابة ١٤٠ ق . م ، ولعلها ذهبت بعدها على حين بفتة ، فدمر
قصر مينوس ولم يعمّر أعلاّه يد ولا أقام به أحد منذ تلك الساعة . ولستأ ندري
كيف حدثت هذه الكارثة ، ولكن المحترفين من علماء الآثار يشهدون به أثر
الهب والبشرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار زلزال عنيف
مدمر ، وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هي التي دمرت كنوسوس ، وربما أتم
الإغريق ما بدأه الزلزال .

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون أبنة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة الساميين ، ثم قامت
حر كروطنية قوية حوالي ١٦٠٠ ق.م ، انتهت بطرد الغاصب الأجنبي من البلاد ،
وأعقب ذلك دور اتماش جديد لمصر ، وهي فترة يطلق عليها علماء الدراسات
المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التي لم تكن قبل غزوة الهكسوس
قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحداً تماماً ، وكان لفترة خضوعها لثبر الأجنبي
وثرورها عليه الفضل في إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح الفراشة غزاة فاتحين ،
خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حصان القتال ورجلة القتال ، التي جلبها الهكسوس
معه . ودمر عان ما بسطت مصر سلطانها في آسيا حتى نهر الفرات في عهد تحتمس الثاني
وأمنحوتب الثالث (أمينوفيس) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب نامت ألف سنة بين حضارتى
النيل وأرض الجزيرة التي كانتا يوماً منفصلتين إحداهما عن الأخرى تماماً . وكانت
لمصر الغلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهي الأسر الثامنة عشرة التي من
ملوكها تحتمس الثاني وأمنحوتب الثالث والرابع وملكة عظيمة هي حاناسو ، والأسرة
التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثاني (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذي حكم سبعا
وستين عاماً ، رفعت هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء ،
وفيما بين ذلك أملت بمصر أدوار التدهور ، إذ غزاها السورديون ثم الإيبيريون
من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرأ ، ثم ارتفع شأن الحثيين بآشور في
دمشق إبان دوزخة قصير الأمد ؛ وجاء أوان غزا فيه السورديون مصر ، وترجع نجم
الآشوريين في نينوى بين الصعود والافول ، فتارة تكون المدينة مقروزة مهتزة ؛
وتارة يحكم الآشوريون بابل ويغزون على مصر . والبراح الذي بين يدينا أشيق من

أن يسمح لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحات جيوش مصر والنول السامية المتنوعة بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة. وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزودة بأرتال ضخمة من العجلات الحربية ، ذلك أن البهتان (الذي لم يكن يستخدم إلا في العرب وإطوار العظمة) كان قد انتشر في ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد المدينيات القديمة .

ويظهر هل المسرح في النور الخافت المنبعث من ذلك الزمن السحيق فزاة كبر .
يظهرون ثم يذهبون ، منهم تشراما ملك ميتاني ، الذي استولى على نينوى ، ومنهم وتجلات بلسر الأول الذي فتح بابل . وأخيراً أصبح الآشوريون أعظم قوة حربية في ذلك الأوان . فزنا تجلات بلسر الثالث بابل في ٧٤٥ ق . م ، وأسس مايسيه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وجد الآن هو أيضاً من الشمال إلى بلاد الحضارة ، إذ حصل عليه أولاً الحيثيون أسلاف الآرامين وعندهم أخذ الآشوريون ، كما أن مقتضياً للعرش الآشوري ، اسمه سرجون الثاني سلح به جيوشه ، فكان ملكاً آشور أول قطر أخذ بمبدأ الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى حدود مصر ، ولكنه ارتد عنها لا لضعفه بل لقوته من قوة عسكرية بل بسبب وباء العلاءون . وتم لحفيد سنحريب الملك آشور بازيبال (الذي يعرف أيضاً في التاريخ باسم الإغريق ساردانا بالوس) فتح مصر فعلاً في ٧٦٠ ق . م . لكن مصر كانت في ذلك الحين عتلاً تحكما أسرة إثيوبية فكل الذي فعله ساردانا بالوس هو أن أحل فاتحاً محل آخر .

فلو أتيت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ، الممتدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتنقلص كما تفعل الامم تحت الميكروسكوب ، ولراينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسريين تجيء وتندو ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية . وإنا نجد في غرب آسيا الصغرى دولاً إيجية صغيرة مثل ليديا ، التي كانت عاصمتها سارديس ومثل كارييا . ولكن الذي حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وربما قبلها ، هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم السحيق ، هاجطة من الشمال الشرق والشمال الغربي . وما هذه إلا أسماء قبائل هجيرة همة ، تنسلح بأسلحة الحديد وتستخدم العجلات التي تجرهما الخيل ، وتغير في الحضارات الإيجية والسامية في مناطق .

تغزوها الشمالية وتنتقل بها الشكبات ، وكانوا جميعاً يتكلمون شروبا مختلفة من لسان كان في الأصل لغة واحدة ، هي الآرية .

أخذ الميديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقى لبحر الاسود وبحر قزوين . وتخطط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكديين (الأشقوديين) والصردانيين . ومن الشمال الشرقى أو الشمال الغربى اتحد الأرمينيون ، وجاء من شمال غربى ذلك البحر الفاصل ويطريق شبه جزيرة البلقان الكريون والفرجييون والقبائل الهلينية التى لسميها الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للذن ، سواء فى ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعاً شعوبا متشابهة ترتبط بوشائج الرحم ، كما كانوا رعاة أشداء نزحوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا فى الشرق إلا سكانا نازلين على التخوم وجيرانا مغيرين ، ولكنهم استولوا فى الغرب على المدن وطرردوا منها السكان الإيجيين الممدنين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم فى مناطق تخرج عن مثال الآريين فأخذ بعضهم يحاول السكنى فى دلتا النيل لولا أن صدم المصريون ، وبعضهم هم الإترسك يلوح أنهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة فى برارى وسط إيطاليا الكثيف الغابات ، وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية . وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف فى التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنرى ذلك فى فصل تال بيانا عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة تلك الخشونة البالنة . وسنقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى بعض تلك الحركات والمهجرات التى حدثت فى منطقة الحضارات القديمة ، والتى بدأت بدوام التقدم التدريجى المتواصل لهؤلاء الآريين المجمع الباطلين من الغابات والبرارى الشمالية بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق.م .

وسنحدثك أيضا فى فصل تال عن شعب سالى صغير ، هو العبرانيون ، سكان ماوراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم فى الظهور فى قريب من نهاية هذه الفترة ، ذلك أنهم أنتجوا أدبا ، أوقى أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من مصور التاريخ ، وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والقصاصات وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية .

ولم يسبب ظهور الآريين أى تغيير جوهري بأرض الجزيرة [العراق] ومصر إلا بعد ٦٠٠ ق.م. ولا بد أن فرار الإيجيين أمام الإغريق بل حتى قدمير كنوسوس قد بدأ لتكامل من سكان مصر وبابل حركة اضطراب نائمة جداً . وكانت الأمور المملوكة تذهب وتجيء في هاتين الدولتين مباد الحضارة ، على أن الحياة البشرية سارت في مجراها الرئيسى ، وإن حلت بنا ببطء على مر المصور زيادة طفيفة في التهذيب والتعقيد . وأما مصر فكانت الآثار التي تكسدت من الصور التقليدية السابقة قد زادت كثيراً بما أضيف إليها من مبان جديدة فاخرة ، شيدت بوجه خاص في عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة : وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت فرجة يتفرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماماً ، ويرجع معبد الكرنك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان : أما يتنوى فإن الآثار الرئيسية بها : المعابد الكبرى والثيران المنحطة ذوات الرؤوس البشرية . والحفر البارز الذي يمثل الملوك والعجلات وصيد الأسود — من صنع تلك القرون بين ٦٠٠ ، ١٦٠٠ ق.م. ، كما أن هذه الفترة تشمل أيضاً على معظم ما بلنته بابل من أبهة وجلال .

ولم يبق الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعاً سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأشغال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . ومنها تعلم أن حياة المصريين وذوى النفوذ في مدن من أمثال بابل وطيبة المصرية ، تكاد تبلغ من التهذيب والترقى مبلغ حياة من يستظلون الرفاهية واليسار في أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون حياة منظمة حافلة بالمواسم ويقطنون منازل جميلة الشكل أليفة الأثاث والزخرفة ويرتدون ثياباً باهجة الزينة واللون وجواهر بديعة . وكانت لهم أعياد وحفلات ، فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليماً كرمه بالموسيقى والغناء ، كما يقوم على خدمتهم خدم فيهم للتدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . وهم لا يكثر من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا بعيداً ، ولكن النزعة بالزوارق كانت من أسباب المسرة صيفاً في كل من نهري النيل والفرات ، أما مادة العمل عندهم فهي الحمار ، في حين لم يستخدم الحصان إلا في العربات الخفيفة والمناسبات الرسمية دون غيرها . وكان البخل لا يزال شيئاً جديداً ، كما أن الجمل لم يكن قد دخل حصراً بعد وإن عرفته أرض الجزيرة من قبل . ومن الطبيعي أن الإوهمية المصنوعة من

الحديد كانت قليلة ، إذ أن النحاس والبرونز ظلّاهما المعدنين المنتشرين ، وكانت الرفائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هي والصوف . ولكن لم يكن هناك حرير . وعرف الناس الزجاج وأضافوا عليه الألوان الجميلة ، ولكن الأوعية الزجاجية كانت في العادة صغيرة . ولم يكن الزجاج صافيا شفافا كما أنه لم يستخدم المدسات . وكان الناس يحشون أسنانهم بالنهشول لأن لم يضعوا المناظير فوق أنوفهم !!

وهناك فارق عجب بين الحياة في طيبة القديمة أو بابل وبينها في المصنوع الحديثة ، هو غيبة العملة المسكوكة . فالمقايضة هي الأساس في القدر الأعظم من الصفقات التجارية وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المالية بأشواط بعيدة . واستعمل الذهب والفضة في التبادل وجعل في صورة سبائك ، وقبل سك النقود بزمان عديد كان هناك أمهات مصارف ، يدفعون أسماءهم والوزن على هذه السكّات من المعدن النفيس ، وكان التاجر أو المسافر يحمل الأحجار الثمينة ليبيعا وينفق منها . وكان معظم الخدم والعالة هبيدا لا يتناولون أجورهم نقدا بل عينا ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائرا من أهل مصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحتا تاجا على مفرق العالم القديم ، لاختقد صنفين هامين جدا من أصناف الغذاء . هما الدجاج والبيض . لذا فإن الطاهي الفرنسي ما كان يحد مسرة كبيرة في بابل . فإن هذين الصنفين وصلنا من الشرق في عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريبا .

وكذلك الديانة ، فقد ألم بها ككل شيء آخر تهذيب عظيم ، إذ اختفت القرابين البشرية مثلا منذ أمد بعيد ، وحل الحيوان أو الدمي المصنوعة من الخبز محل الضحية . (على أن الفينيقيين وبخاصة سكان طاجنة أعظم مستقراتهم في إفريقيا . اتهموا فيها بعد بانضحية بالكائنات البشرية) . وجرت المادة كلها من رئيس كبير في الأيام الخالية أن يضمى بزوجاته وعبيده وأن تكسر الحراب والقصى عند قبره ، وذلك لكي لا يكون في عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة . وبقيت بمصر من هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة هي دفن نماذج صغيرة البيت والدكان والخدم والماشية مع الميت . وهي نماذج تمدنا اليوم بأروع تمثيل حي لتلك الحياة الوادعة المثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحداد الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدث بالمهند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان الكبيرة بهذين القطرين

كثيرا دول مدن ذواحية لثوب حمراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لا يبدو
أنها تقدموا أو اتلفت ميلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا
كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة المايا الأمريكية . أما الصين
فلا يرضاها لا يزال بحاجة إلى طائفا لسكن تفتق عليه الطابع المصري وتفتق من كثير
ما يشوبه من أساطير . ولراجع أن الصين كانت في ذلك الأوان أكثر تقدما من
الهند . وقد طهرت الأسرة الثامنة عشر بمصر ، أسرة إمبراطورية في الصين ،
هي أسرة شانج ، وم أباطرة كهنه يحكون إمبراطورية منحة الراويط من ملوك
تابين . وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة هو تقديم القرابين الموسمية .
ولا تزال هناك إلى اليوم - أو ان برويزة جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من
الجمال وجودة العشب ما يجعلنا نحس بأنها لم تصل إل ما بلغت إلا بعد قرون عدة
من الحضارة .

المصطلح التاسع عشر

الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة ، أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق . م ، كانت أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا أدفاً مناخاً على الأرجح ، وأكثر مطراً وغابات بما هي الآن . وكانت تتجول في هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من المنصر النوردى الأشقر الأزرق العيون بلغ من اتصالهم بعضهم ببعض أن لغاتهم لم تزد عن مجرد فروع متنوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين . ولعلمهم لم يكونوا في ذلك الوقت شعباً وفيراً العدد جداً ، ولعل البابلين الذين كان حوارى يمنحهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم . ولا أحسب بهم أرض مصر العريقة آنفاً في القدم والتثقيف ، والى كانت تذوق في تلك الأيام لأول مرة مرارة النزو الأجنبي .

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دوراً هاماً جداً بالفعل في تاريخ العالم . كانوا شعوب أحراش أو أراضٍ قطعت منها الغابات ، ولم يملكوا الحصان في البداية وإن وجدت لديهم الماشية ، فإذا هم تجولوا وضموا خياسهم وبقية متاهم على عربات خشنة تجرها الثيران ، وإذا استقروا زماناً ما فعلمهم كانوا يصنعون عروشاً من رفيع العصون والطين . وإذا مات واحد من ذوي المكانة فيهم أحرقوا جسده ، ولم يدفنه بالمراسم كما كانت الشعوب البيضاء القائمة تفعل ، وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم في أوان ثم ينشئون حولها راية مستديرة . وهذه الروابي هي القبور المستديرة التي تنتشر في جميع أرجاء أوروبا الشمالية ، ولم تكن للشعوب القائمة السابقة لهم تحرق موتاهم ، بل تدفنها في هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هي « القبور الطويلة » Long barrows .

وكان الآريون ينتجون الفصح ، ويحرسون الأرض بالثيران ، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محاصيلهم ، ذلك أنهم ما يكادون يحصدون حتى يرحلون ، وقد حلكوا البرونز ، ثم حصلوا على الحديد حوالي ١٥٠٠ ق . م . ولعلمهم أول من

اكتشف صهر الحديد ، وما لبثوا في زمن ما يقارب ذلك الوقت نفسه أو يكاد أن
حصاروا أيضاً على الحصان - الذي بدأوا باستخداؤه في أغراض الجر دون غيرها ، ولم
تتمركز حياتهم الاجتماعية حول مبدأ كالذي تمركزت حوله شعوب البحر المتوسط
الأكثر استقراراً وكان كبارهم قادة في ميدان الحرب أكثر منهم كهنة ونظامهم
الاجتماعي أرسقراطي وليس فيه ربوبية الملك ، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جداً في
تاريخهم يعترفون لعائلات بينها بالزعامة والنبل .

وهم قوم ذوو فصاحة ولسز . وكانوا يمشون في تجوالهم البهجة بما يقبضون من
حفلات يسرفون فيها في الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال غم الشعر
بالغناء واللاوة . ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت
ذاكرة هؤلاء القهراء سجل أديهم الخالد ، وقد عاد استعمال اللغة المنطوقة كوسيلة
للتسلية بأكثر التأخر دلها إذ جعلها أداة تعبير جميلة طيبة متادة ، كما لا شك في
أنه يعود إليه الفضل ، إلى حد ما ، فيما تلا ذلك من سمو اللغات المشتقة من الآرية ،
وراح كل شعب يرى يلو تاريخه الأسطوري في تلاوات شعرية ، تختلف أسماؤها
باختلاف الشعوب ، فهي تارة تسمى بالملاحم وتارة بالساجا ، وأخري بالقيدا .

والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب تتركز حول دور زعمائهم . فإن قادة الرئيس
التي يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيراً ما كانت بناء خشبياً وحيياً جداً . ولا شك
في أنهم أهدوا بيوتهم أكواما القطعان وباني ريفية في مواضع منها متعارفة .
ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هي المركز العام ، الذي إليه
يذهب كل إنسان ليحضر الوثمة ، ويصنئ إلى القهراء ، ويشترك في الآداب
والمناقشات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر واسطبلات الخيل ، وينام الرئيس
وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا ، أما العامة فنوهم في أي مكان هناك ،
كما هو الحال إلى اليوم بالدورات الهندية . وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من
الشيوعية قائم على نظام الأبوة في كل شيء . هذا الأسلحة والحلي والآلات وما
أشبهها من الممتلكات الشخصية ، وكان الرئيس يملك الماشية وأراضي بعضها من
أجل المصلحة العامة ، في حين أن الغنابات والأنهار هي والبراري لا يستلها أحد .
ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذي كان يتكاثر ويتزايد على أرض البراح السكب بأوربا
الوسطى وآسيا الوسطى الغربية في أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والنيل .

ذلك الشعب الذي نجد يخطئ كل مكان من شرب المخاطرة الحربية الفسيفسائية (البولونية) في آلاف الثانية قبل المسيح، كانوا يهتفون إلى فرنسا وبريطانيا وألمانيا. ويقتدون غرباً في موجتين. وتنتج أول خروج منهم بلخ وريانيا ورامركند بأسلحة من البرونز. فأبطلوا أو اختصوا الشعب الذي صنع من قبل الألمان الحربية العظيمة للمساء بكارناك في برنات وستون صنع وألموري بانبورا. وقد بنوا إريثند واسمهم الكلت الجوفيلون (Gedde Celts). أما المرحلة الثانية لشعب وثيق للقرين بؤلاء، ربما خالته عناصر من أجناس أخرى، فهي التي حضرت الحديث منها إلى بريطانيا العظمى، وهي تعرف باسم موجة الكلت البريتونين (Brittonic) وعندهم يشتق أهل مقاطعة ويلز منهم.

وأخذت شعوب كلتية ذات وجه بؤلاء تدق طربها بالقوة نحو الجنوب في أسبانيا وتعمل لأشعب الباسك (الباليو) وحده الذي كان لا يزال يحمل البلاد، بل وبالبحرارات القبلية السامية على ساحل البحر أيضاً. كما أن سياسة من القبائل وثيقة الصلة بهذه، هي الإيجاليون، شرعت تتقدم في شبه الجزيرة الإيبيرية وهي بعد براري موحدة مكسوة بالغابات، ولكن لم تكن لهم القدرة على طول الخط، فإن روما تظهر في التاريخ في القرن الثاني ق. م. مدينة بطليمة على نهر التير يسكنها اللاتين الآريون ولكنها تمت حكم بلامولوك من الإترسك (الترسكان). فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الأدنى، وجدنا قبائل مائة تقدم من الأخرى نحو الجنوب، فإن شو با آرية تكلم المستكبرية المحدث من خلاص للمرات الغربية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق. م. زمن مديده هناك انتصروا بحضارة بدائية سمراء، هي الحضارة الدرافيدية، وتعلموا منها الشيء الكثير.

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انشرت فوق الكتل الجبلية بآسيا الوسطى. متوالة شرقاً توغلا بعيداً عن المجال الحالي مثل تلك الشعوب. ولا تزال بلاد التركستان الشرقية قبائل يوردية شرقاً والدور ورواق البون، ولكنها تكلم الآن بالسن متولية.

وفيما بين بحر قزوين والبحر الأسود غلب الأرمينيون على الميثيين القدامى. وصيغوم صينة آرية قبل ١٠٠٠ ق. م. وكان الآشوريين والبابليين قد شعروا فعلاً بوطاة أجناس هندية جديدة شديدة الراس في القتال على التلخوم الشمالية الشرقية (٧ - تاريخ العالم)

وهي مجموعة من القبائل لا تخرج أسماها إلا كيكيزيين والميديين والفرس أبرز ما بقي من أممائها .

ولكن شبه جزيرة البلقان هي الممر الذي شق فيه أول زحف قوي للقبائل الآرية طريقه إلى حميم حضارة العالم القديم ، على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق . م بمدة قرون على الانحدار جنوباً ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجاءت أولاً مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون ، ثم جاء على التتابع الإغريق الأيوليون والأيوينيون والنوريون ، فما وافت ١٠٠٠ ق . م ، حتى صارت الحضارة الإيجية القديمة في خطر . كان كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ، فحيث من الوجود مدينتا « ميسيناى » و « تيرنز » (Tiryns) ، وكاد النسيان يعني هل « كنوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق . م ، وذلك بعد أن استقروا في جزيرتي كريت ورووس ، وشرعوا يؤسسون المستعمرات بصفلية وجنوب إيطاليا ، على شواطئ المدن التجارية الفينيقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فبينما كان د تجملات بلسر الثالث ، و د سرجون الثاني ، و د سارداناپالوس ، يحكمون مملكة آشور ويقا تلون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تتعلم طرائق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق . م فما بعده ستة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شركتها وأخذت بأسباب المغامرة ، وكيف ترامي بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره ، السامى منه والإيجى والمصرى سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتشرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذى نشب بين الأفكار والطرائق الآرية والسامية والمصرية ظل مستمراً بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمان بعيد ، بل الحق إنه كفاح مستمر طيلة ما عاق ذلك من التاريخ ولا يزال مستمراً على شكل ما إلى يومنا هذا .

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

والإمبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم تجلات بلسر الثالث ، ومقتصب العرش سرجون الثاني . ولم يكن الاسم الأصلي لذلك الرجل هو سرجون ، إذ الواقع أنه اتخذ لنفسه رغبة منه في تملك البابليين المغلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، المؤسس القديم للإمبراطورية الأكادية ، الذي جاء قبل زمنه بألfi سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى في الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن بد من معاملة ربه الكبير بامل مردوخ ، وكنيتها وتجارتها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة في القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرق كثيراً من تلك الأيام الحميمة التي كان فيها معنى فتح مدينة هو النهب وإعمال السيف ، وصار الفاتحون يحارلون استرضاء المغلوبين وضمهم إلى جانيهم . ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانيبال (ساردانا پالوس) قد استولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق .

ولكن قوة آشور وتماسكها مالبثت أن اختلعت . فاستطاعت مصر طرد الناصب بشيء من الجهد بزحامة فرعونها ، إسمتيك الأول ، ، كما حاولت أن تثنى حرباً لفتح سوريا بقيادة د نحاو الثاني ، وفي ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى ربوعها ، فلا تستطيع إزادهم إلا أضعف المقاومة ، ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرق لأرض الجزيرة هو السكلدان . اتحد ضد نينوى مع الميديين والفرس الآريين البابليين من الشمال الشرق ، وفي ٦٠٦ ق . م . بالضغط (إذ إننا دخلنا الآن في مرحلة التاريخ المضبوط) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور ، وألشقت في الشمال إمبراطورية ميديّة تحت حكم كياسارس .

(مياخار) ضمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا . وامتدت حدودها شرقاً إلى تخوم الهند . وإلى الجنوب من هذه ، وفي شكل هلال عظيم : تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة . هي الإمبراطورية البابلية الثانية ، التي ارتفعت إلى درجة عالية من التراء والقوة تحت حكم نبوخذ نصر العظيم (وهو نبوخذ نصر المذكور في التوراة) ، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة ، بل أعظم أيامها جميعاً ، وظلت الإمبراطورية بابلان في سلام وهدوء من الزمن ، وتزوج مياخار من أخته نبوخذ نصر .

وفي نفس الوقت كان نحاش الثاني يواصل فتوحاته في سوريا دون مقاومة ، فهزم في معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق.م يروش ملك يهودا وقتله . وهي قطر صغير سنجدهك عنه بالمزيد مما قليل ، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا ليلتقي بمملكة آشورية منتهكة ، بل بدولة بابلية ناهضة . وقد قاوم الكلدانيون المصريين وأخذوهم أخذاً قوياً . ودحر نحاش ورد على أخطاه إلى مصر ، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة .

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق.م. مزدهرة ازدهاراً غير وطيد ، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الميديه الأقوى منها بأساً ، والأصلب هوداً في الشمال . وفي غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار في المدينة القديمة على الحياة وحدها . بل شمل العلوم أيضاً

وكانت بابل مسرحاً لنشاط فكري عظيم ، حتى وهي تحت حكم ملوك الآشوريين سيما ساردانا بالرس ، وهذا الملك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماماً ، فإنه أنشأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق ، بل من ألواح الطين التي كانت تستعمل في الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية . وقد أزيح الستار عن مجموعة كتبه ، ولعلها أثمن ما في العالم من الدخائر التاريخية .

وكان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل ، وهو نابونيداس . ذوق أدبي أرفع أو أكاد ، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشغلا برعايته ، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول العرش ، شغل ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش . بيد أن إمبراطوريته كانت تغلوى على كثير من دلائل التفكك ، لحاول أن يبيت فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة المحليين المخططين ، وأقام بها المعابد لتلك الآلهة . وقد استعمل الرومان تلك



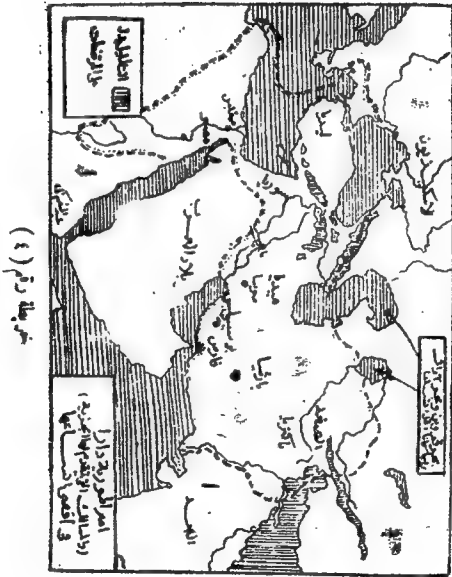
خريطة رقم (٢)

الطريقة بنجاح تام فيما تلا ذلك من الزمان ، ولكنها أثارَت في بابل غيرة كهنه بديل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر . فأخذوا يدبرون الحُطَّ لتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه في شخص قورش الفارسي ، حاكم الإمبراطورية الميديَّة المجاورة ، ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى في شرق آسيا الصغرى . وزحف الملك على بابل ، ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق . م .) فدخلتها جنوده بلا قتال .

وتذكر التوراة أن نولي العهد بيلشاصر بن نابونيداس كان في وليمة عند ما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار : « مينا ، مينا ، نيل ، وقرسين » *Mene, Mene, Tekel, Upharsin* ، وقد أرها النبي دانيال الذي استبداه الأمير ليقرأ الغزبان « مينا أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، وتقبل وزيت بالموازين فوجدت ناقصا ، قرسين قسمت بملكك وأعطيت لما دى وفارس (١) . » وربما كان كهنه بعل مردوخ على علم بأنهم تلك الكتابة المسطورة على الحائط . وقتل بيلشاصر في تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية والميدية . وأخضع قبيز بن قورش مصر ، ثم جن قبيز وقتل صدقة ، وخلفه على الفور دارا الميدي الملقب دارا الأول . وهو ابن هستانيسين أحد كبار مستشاري قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية ، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة في الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملها وسوريا ، وجميع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ، كما أنها كانت تمتد في بلاد الهند حتى نهر السند وقد أصبح وجود مثل تلك الإمبراطورية في جزأها الإمكان عند ذلك في العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق الموصوفه



أما قبل ذلك فإن الحمار والنور والجل (في الصحراء) كانت أصرع وسائل النقل .
 وأيضاً حكم الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم
 الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول
 الإمبراطور أو المسافر الذي يحمل إذناً رسمياً بالسفر . وفضلاً عن ذلك فإن
 العالم كان قد شرع آنذاك في استعمال النفود المسكوك ، التي سهلت التجارة والتعامل
 تسليلاً كبيراً . واهكن عاصمة تلك الإمبراطورية الضخمة لم تعد بابل .
 وانقضت الأيام ولم يحن كهان بطل مردوخ من خيانتهم شيئاً . وأخذت بابل
 تضمحل وإن بقي لها شيء من أهميتها ، على حين صارت المدن الكبرى في
 الإمبراطورية الجديدة هي برسيبوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هي العاصمة .
 بينما هجرت فينوى أخذت تتساقط أطلالها بالية .

الفصل الحادى والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤثروا فى زمانهم من الإامية قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود فى بلاد يهوذا (Judaea) قبل ١٠٠٠ ق م . زمن طويل ، وبعد ذلك العهد صارت اورشليم أكبر مدينة لديهم . وتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات المتغيرة فى الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم فى العالم إلى كونهم أنتجوا أدبا وتاريخا عالميا ومجموعة من القوانين والتواريخ والمزامير وكتب الحكمة والشرم والقصص والسكلم السياسية ، وهى التى أصبحت فى النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية ، وقد ظهر ذلك الأدب فى التأريخ فى القرن الرابع أو الخامس ق م .

والراجع أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة فى بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نحاو الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل الميديين والفرس والكلدان قال حياة أو موت ، وبينما كيف اعرضه يوشع ملك يهوذا ، فجزه نحاو وقتله عند مجدو (٦٠٨ ق م) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعندما تمكن نبوخذ نصر الكبير الملك الكلدانى الجديد الذى تولى الحكم فى بابل ، من رد نحاو على عتبيه إلى مصر ، حاول أن يحكم يهوذا بإقامة ملوك صناع يأتهمون بمغيبته فى اورشليم . ولكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب اجمل الذبح فى موظفيه البابليين ، وعند ذلك صمم الملك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل يمزق بعد أن ظلت أمدا بعيدا تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشالية ، فأمر فنيبت اورشليم وأحرقت . وحمل من بابل فى الناحى إلى بابل أخرى .

وهناك أقاموا حتى استولى تورش على بابل (٥٣٨ ق م .) وحند ذلك جمعهم جميعاً وأعادهم إلى بلادهم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء أسوار اورشليم ومبناها .

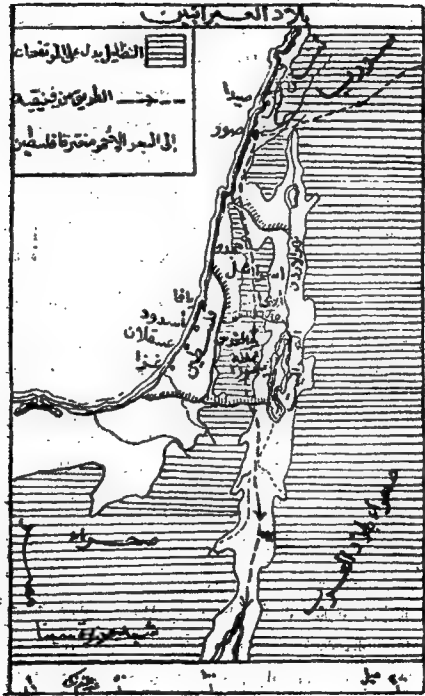
ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك إلا واثقاً متحضرين ولا متعدياً . وربما لم يكن فيهم إلا أقلية ضئيلة تسطيع القراءة والكتابة . خير أن تاريخهم نفسه لا يذكر البتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع . ولكن الأسر البابلي غدتهم ووجدتهم ، فعادوا إلى بلادهم شديدي اليقظة إلى أدبهم ، عادوا شعباً متأجج الوعى الدقيق مشرباً بالزخات السياسية .

ويلوح أن توراتهم لم تكن تحوى في ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة (Pentateuch) ؛ أى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذى نعرفه جميعاً . وفضلاً عن ذلك كان لديهم فعلاً - وعلى صورة كتب منفصلة ، - كثير من الكتب الأخرى التى ألحقت منذ ذلك الحين هى وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ، ومنها مثلاً أسفار التوازيخ والمزامير والأمثال .

ولو تأملت قصص خلق العالم آدم وحواء والطوفان ، التى تبدأ بها التوراة . لوجدتها وثيقة المماثلة لأساطير بابلية تشبهها ، والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودى بوجاهة لا تبدأ حقاً إلا بقصة إبراهيم ذاك تلامها .

وربما كان إبراهيم يعيش في نفس الوقت المبكر الذى عاش فيه خوراني في بابل . كان إبراهيم رجلاً دبلوماسياً متميزاً في نظام الأبوة ، وعلى القارىء أن يرجع إلى سفر التكوين بحثاً عن قصة تحولاته وقصص أبنائه وحفدته وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ، وتقول رواية التوراة : إن رب إبراهيم وعده وأولاده بمكة الأرض البسامية ذات المذنب القنية .

ويبعد مقام طويل يحصر ويحد أربعين عاماً من التجول في البرية برحامة موسى . يتزايد أبناء إبراهيم فيصبحون شعباً مكوناً من اثني عشر سبطاً ، ويفزون أرض كنعان .



خريطة رقم (٥)

من الضياع العربية في الشرق . ولعلمهم فعلوا ذلك في زمن ما بين ١٦٠٠ ق.م . ١٣٠٠ ق.م . وليس فيما دون مصر من تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزيل ما يكتنف تلك القصة من غموض ، ومنها يكن من أمر قانهم لم يفتحوا إلا منطقة التلال الداخلية في أرض الميعاد ولم يذهبوا إليها شيئاً . فان الساحل في ذلك الأوان لم يكن في أيدي الكنعانيين ، بل في أيدي قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيبية الذين يسمون بالفلسطينيين ؛ وقد استلاحت مدتهم غزة وجات وأشدود وعسقلان ويافا ، أن تصعد لبحر المبرانيين ، وظل أسباط إبراهيم أجيالاً عديدة شعباً متموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية مشغولاً بمناوشات لانهائية لها مع الفلسطينيين وذوى قراباتهم من القبائل النازلة حولهم وهم المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارىء في سفر القضاة سجلاً يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة . ذلك أنك تجد في الأغلب سجلاً من النكبات والإخفاقات التي دونت بصراحة .

وكان حكم اليهود خلال أكبر جزء من هذه المدة - لو افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع - قساة من الكهنة يتتبعهم كبار الشعب ، ولكنهم همدوا في النهاية في زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق.م . إلى انتخاب ملك هو شاول ، ليكون لهم قائداً في القتال . ولكن قيادة شاول لم تزد كثيراً على قيادة القضاة ، فهلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين في معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ، ودق جسيم بالمسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقاً وقطاعة . وتولى داود أشرفت فترة الرخاء الوحيدة التي قد عرفها الشعوب العبرانية . أن تعرفها على مر الدهر كله . وهي تقوم على مخالفة وثيقة الأوامر مع مدينتي صور الفينيقية ، التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلاً أوثق نصيباً كبيراً من الأفكار والقدرة على المغامرة . وكان يبنى أن يكفل التجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آخر عبر منطقة التلال العبرانية . وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، بيد أن مصر كانت في الزمان في حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل حقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطرق . ومما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ يمينه داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات ، وعند ذلك أنشأ برعاية حيرام ، أسواراً وورشاً وقصرها ومعبدها ، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه . وأخذ سيل جسيم من التجارة

يتدفق خلال اورشليم نحو الشمال والجنوب . وأوقى سليمان من اليسار واليمين ما لم يره شعبه من قبل . حتى بلغ من أمره أن سمح فرعون بتزويج ابنته منه .

بيد أن من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأوز . فـسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً تابعاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من المزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول فرعون الأسرة الثانية والعشرين على اورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد ، وقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام . وهم يقولون إن السكبرياء القوي لدى كتاب متأخرين هو الذي دهاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها . بيد أنك إذا أنعمت النظر في قصة التوراة وقرأتها بزيد من العناية تجد لها الروعة التي تجعل إليك عند أول قراءة .

فلو أننا استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان ، لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي ، وأما عرباته الألف والأربعمائة فينتها متكلف عن بحث الإكبار في نفوسنا عندما نعلم من أحد الأطلال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من ألفين لتنضم إلى الجيش الآشوري . وواضح مما تقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك في المظاهر وأنه أبهط شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالي من مملكته عن اورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة . بينما ظلت اورشليم حاضرة يهوذا .

وإن تمتع الشعب المبراني بخفض العيش إلا أمداً وجيزاً . فأت حيرام . وانقطع عون صور الذي كانت تقوى به اورشليم . ثم قويت مصر ثانية . ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شق الرعي تمركما على التوالي سور ياثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب . وهي قصة نكبات وتجربات لا تمود حلیم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية هي قصة ملوك جميع يحكون شعباً من الهج ، حتى إذا وافق ٧٢١ ق.م تحت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها في ٦٠٤ ق.م . ما حل بإسرائيل كما أسلفنا ، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ المبرانيين منذ أيام القضاة فاتلاها موضع الشك والنقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واضحة المصدق تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الحفر التي تمت في مصر
وآشور وبابل إبان القرن المنصرم .

وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بمعنى إلى بعض وطور تقاليد
ونماها ذلك أن القوم الذين آثروا إلى اورشليم بأمر قورش كانوا شعبا يختلف
اختلافا عظيما في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا ،
فإنهم تعلموا الحضارة .

وظهرت إبان تطوّرهم الخلقى الفريد في بابه طائفة معينة من الرجال لعبت
دورا عظيما جداً في تاريخهم ، وهى طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء ،
الذين ينبغى لنا الآن أن نوجه إليهم اهتمامنا ، ويؤذن ظهور الأنبياء بظهور قوى
جديدة جديدة بالملاحظة في التطور المعرّد للجماعة البشرية .

كهان وانباء في بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فائحة سلسلة من النكبات التي كتب الشعوب السامية أن تقاسمها . ومن قبل ذلك كان العالم المتحضر بأكمله يلوح في القرن السابع ق . م . كأنما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى كما استولوا على مصر ؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التي كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم في أيدي الساميين ، فان صور وصيدا مدينتي الساحل الفينيقي الأصليتين الكبيرتين قد ثرتا المستعمرات التي كبرت في النهاية حتى فاقتا أمباحيا في أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التي أسست قبل ٨٠٠ ق . م . تزايد عدد سكانها حتى أربى على المليون . وظلت أعظم مدن العالم ودعاً من الزمن . فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسي ، ولعلها بلغت جزائر ماديرا ، وقد رأينا من قبل كيف تعاون حورام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية وربما الهندية أيضاً ، وحدث في زمن الفرعون تحتمو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال في ذلك الحين غارقة في الهمجية ، لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يسيرون بناء مدينة جديدة على أنقاض تلك التي دمرها ، وكذلك الميديون الذين أصبحوا دؤى بأس وقوة ، في آسيا الوسطى ، كاتصفهم بعض النقوش الآشورية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يشك في ٨٠٠ ق . م . بأن كل أثر لسلطان الساميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م . ، وأن الشعوب السامية ستغدو في كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشتتة كل مشتت ، ففي كل مكان ، ما عدا صحارى بلاد العرب الشمالية ، حيث استمسك البدو بشدة بطريقة عيش الترحل ، سادت طريقة العيش التي كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والأكاديين لفتح سومر ، بيد أن العرب البدو لم يهزم ألبتة سادة آريون .

ولم يشارك من جميع هؤلاء النسطورية المنحصرين الذين هموا وأعضاؤهم في
 إبان تلك القرون الحقة بالاحداث ، أقول لم يشارك منهم ولم يستحق
 تضاليد القديسة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأخى به اليهود
 الذين أعادهم قورش الفارسي ليبيدوا مدينتهم أورشليم ، وقد يمر لهم ذلك
 كله ، بفضل جميع شتات أديهم فلك ، هو التوراة ، أثناء مقامهم في بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن التوراة هي التي صنعت اليهود .
 ذلك أن تلك التوراة تطوى خلفها على فكراته سينا ، تلك الأفكار من حواميم
 من الشعب ، وهي أفكار جديدة قلب للأذهان شديدة العمق والثبوت للأفكار ،
 قدر لهم أن ينطقوا بها إبان خمسة وخمسين من قرون الجن والمغارة والاضطهاد .

وأول هذه الأفكار اليهودية وأبرزها ، هي اعتقادهم بأن إلههم خفي ، مستتر
 وبسيد ، إله غير مرئي يعيش في بعيد لم تصفه يد ، وهو رب الخير والبر في أرجاء
 الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى فلها آرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش في
 معابد ، فإذا تحطم الصنم وانهدم المعبد ، دلى الرب على القوم ، ولكن رب اليهود
 هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش في السماء ، ساميا متعاليا على السكينة والقراية ،
 وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله إبراهيم ، قد اصطفاهم له شعبا مختارا ،
 ليسترجعوا أورشليم ويجعلوها حاضرة البر في العالم . فهم إذن شعب ساء به إلا العلاء
 شموه بمصيره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذي ملا جوارب نفوسهم جميعا يوم
 هادوا إلى أورشليم بعد الأمر في بابل .

أفصحيب إذن أن تنهوا هذه القديسة الملهمة نفوس كثير من البابليين والسوريين
 ومن أديهم ، ونفوس كثير من الفينيقيين فيما تلا ذلك من الزمان ؟ يوم أقوام يتحدثون
 بلبان واحد تقريبا ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والآداب
 والتقاليد ، وأن يبادلوا الإسهام في صنويتها ووعدها ولاسيما بعد أن تعرفوا في ماوى
 البرية والذلة ؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختفوا لجأه من صناعات التاريخ بعد
 سقوط صور وصيدا وقرطاجنة والمدن الفينيقية الآسبانية ، كما ظهرت المجتمعات اليهودية
 حكامهم وبمثل تلك الطريقة الفجائية هيها لاني أورشليم وحدها بل وفي آسبانيا ،
 وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفي الشرق حيثما وضع الفينيقيون أقدامهم . وكانت

الراجلة التي ترجمهم جميعاً هي التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الاسمية ، أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شظيم فهي هذه التوراة . سفر الاسفار ، وذلك شيء جديد في التاريخ . وهو شيء يثارت بطورته قبل ذلك بزمان مديد ، عندما شرح السومريون والمصريون أن يحولوا كتابتهم المير وغرافية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود شيئاً جديداً في هذه الدنيا ، فأنهم كانوا شيئاً بلا ملك ، وبلا إلهوا أن قدور بلا معبد (إذ إن أورشليم نفسها — كما ستحدثك — قد تعني جليلاً في سنة ٨٠٠ بعد الميلاد) ، ولم يكن إيمانهم — على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم — إلا قوة الكلام المسطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سيامى . ولم يظهر في التاريخ بتطور اليهود نوع جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفي أيام سليمان لم يكن يدور على العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعباً صغيراً يتجمع كأي شعب صغير آخر في ذلك الزمان حول بلاط ومعبود ، تحمكه حصانة الكاهن وتقوده مطامع الملك . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذي تحدث عنه ، وأقنع به ، الذي كان موجوداً آنفاً ، كما يستطيع القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تراحم المصائب على رأس العبرانيين المتقسمين على أنفسهم .

فا هؤلاء الأنبياء ١٤

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فإني حزقيال مثلاً كان من الكهنة . وكان الذي داموس يلبس رداء الرعاة المصنوع من جلد الماعز . بيد أنهم يتركونه جميعاً في شيء واحد ، هو أنهم لا يدينون بالولاء إلا لأرب البروأهم يتصلون بالناس مباشرة . كانوا يظهرن دون ترخيص من ذوي السلطان ودون تكريس مقدس كالكيهان . أما ماريقة تعبيرهم عما في نفوسهم ، فهي قولهم : الآن جاءني كلمة الرب . كانوا يخوضون في السياسة إلى أقصى حد . ولعلنا حرضوا الناس على مصر ، ذلك القصة المشرقة ، على حد تعبيرهم ، أو على آشور أو بابل ، وقد نموا على طبقة الكيهان تراخيم ، كما تدور بأنام الملوك الصارخة . ووجه نظرهم (سفر تاريخ الملوك)

حنانيته إلى ما قد لجميعه اليوم ، بالإصلاح الاجتماعى . ، فقالوا إن الأنبياء
والمؤمنون رجوع الفقراء مسخا ، ، كما أن المترفين يستغدون غزو الأبطال ، وأن
المؤمنين يصادقون الأعداء ويقتلونهم في أجرتهم وورثاتهم ؛ وأن هذا يتبع إلى
« يا هوأه ، رب ، أبراها ، الذى سينزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التنبؤات العنيفة تدون وتسام وتقدس . وكانت تذهب حيثما
ذهب اليهود ، وحيثما حلوا نشرت بين الناس روحا دينية جديدة . فباهدت بين
الرجل العادى وبين السكاهن والمعبد والبلاط والملوك ، ووضعت رجها لوجه أمام
حكم الرب . وتلك هى أهميتهم العليا فى تاريخ البشرية . والآفوال العظيمة التى
ينطق بها أشعيا ترتفع بها الصوت النبوى إلى ذروة سامية من رائع النبؤ ،
فترتفع اتحاد الأرض كلها فى ظل إله واحد . وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الانبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القارىء الفطن يجد
فى كتب الانبياء الشيء الكثير من البهضاء ، والشيء الكثير من التحيز والتحامل ،
والشيء الكثير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة ، ألا وهى المزلفات التى تفسطها
الدعاية فى الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الانبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالى
ذمن الأسر البابلى هم الذين يؤذون بظهور قوة جديدة فى العالم ، هى قوة الالتجاء
إلى الفرد من الناحية الخفية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية المحر ضد القرايين الخرافية
(التنشيطية (١)) ومختلف أنواع الولاء الاستمبادهى التى ظلت حتى ذلك الحين قيدا
يفعل جنسنا البشرى .

(١) التنشيطية : كل شيء يخطر اية جوهر لا يتم على منطق أو عقل ، وهو كى الأصل
الاحتداد أن لكل شيء روحا يتبع ومضرب . [المترجم]

الإغريق

في نفس الوقت الذي كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا المنقسمتان على نفسيهما
تتكابدان التدمير ونقل السكان بعد عهد سليمان (الذي حكم على الأرجح حوالي
٩٦٠ قبل الميلاد) وبينما الشعب اليهودي يطور تقاليده وينمىها إبان الأسر
الbabylonية ، كانت تنشأ أيضاً قوة عظيمة الأثر في العقل الإنساني ، هي التقاليد
الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون في الناس شعوراً جديداً
بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدى العالم كافة يتصف بالعدل
والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدرسون العقل الإنساني على المغامرة الفكرية
بطريقة وروح جديديتين .

والقبائل الإغريقية - كما سبق أن ألمنا - فرع من الدوحة الناطقة بالآرية ،
تأخدر إلى المدن والجزائر الإيجية قبل ١٠٠٠ ق . م بيشعة قرون . والراجح أنهم
كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذي راح فيه نحو خمس فرعون مصر يصيد
فيته الأولى وراء إقليم القرات الذي استولى عليه ، ذلك أنه كانت هناك في تلك
الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود في بلاد الإغريق .

ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هي التي أحرقت كنوسوس ، ولكن
فيس بين الأساطير الإغريقية ما يتفق بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك
الأساطير قصصاً تتحدث عن مينوس ، وقصره اللابيرات ، وعن مهارة بعض
الصناع الكريهين .

وكان لهؤلاء الإغريق كمعظم الشعوب الآرية مغنون وقصاصون ، وكان
غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد تغلوا عن أيام شعبهم
الحالية الأولى لمحتين عظيمتين :

(أ) الإلياذة : التي تعدثنا كيف أن عصابة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بآسيا الصغرى ، واستولت عليها واحتضنتها .
(ب) والأوديسيا : وهي مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم في أثناء هودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دونت هاتان الملحمتان في زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك بزمان طويل جداً . وكانتا تسبان فيما سلف إلى شاعر ضريح اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلاً ألف « ميلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، قبل وجد هذا الشاعر حقاً ، وهل ألف هاتين الملحمتين ، أم اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك ؟ .

الواقع أن هذا موضوع يله العلماء أن يمرضوا له بالنقاش . وما نحن بحاجة أن نشغل أنفسنا بمثل هذه المنازعات ، وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا الملحمتين في القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكاً مشاعاً لهما جميعاً وصلة تربط بين قبائلهم المتنوعة ، وتتمتعهم شعوراً بالزمامة ضد البرابرة (١) . ذلك أنهم كانوا بمجموعة من شعوب متشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولاً ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم في مثل عليا مشتركة من الشجاعة والسلوك .

والملاحم تظهر لنا الإغريق في صورة الشعب الفطرى الذى لا يعرف الحديد . ولا الكتابة ، والذى لم يسكن المدن بعد ، ويوح أنهم كانوا يسكنون في البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم ، خارج أطلال المدن الإيبية التي دمرها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنهاً بالأسوار . وينقلون فكرة العماة عن الشعب الذى غزوه .

وقد ألمنا آنفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى

(١) البرابرة اصطلاحاً من أعداء اليونانيين من الشعوب [المترجم] .

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيما بعد ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها سابق على
 التاميد . كما أنهم شرعوا يتجرون وينشئون المستعمرات بكل مكان . فما وافى القرن
 السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت في لودية بلادا لإغريق
 وجزائرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيجية التي سبقتها ؛ ومن
 أهمها أثينا وإسبارطة وكورنثة وطيفرساموس وميليتوس . واتثرت المستعمرات
 لإغريقية على امتداد ساحل البحر الأسود وفي إيطاليا وصقلية . وكان (كيب)
 الخذاء الإيطالي ومقدمه يسميان ماجناجريكيا (بلاد اليونان الكبرى) . كأن
 مدينة مرسيليا إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فينيقية قديمة .

والانقطار المكونة من سهول عظيمة أو التي تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها
 أحد الأنهار العظيمة كالفرات والنيل . تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة
 ذلك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب
 اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق
 والجزء الجنوبي من إيطاليا (الماгнаجريكيا) جبلية وعرة ، لذا كان الوضع ينزع صوب
 التفرق لا الاتحاد . وعندما ظهر في اليونان في التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى
 عدد من الدويلات الصغيرة التي لا يبدو عليها أي أثر للاتلاف . وكانوا يقيمون في كل
 شيء حتى في الجنس . فن تلك الدويلات ما تألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى
 القبائل اليونانية الثلاث الأيولية أو الأيولية أو الدورية . ومنها ما كان سكانه
 خليطا من اليونان ومن سلالات جنس البحر المتوسط السابق اليونان ، ومنها ما فيه
 مواطنون أحرار من اليونان الخالص يفسطون عليها وعلى سكانها المقهورين
 المستعبدين شأنه الهلوطيين ، في إسبارطة . ومنها ما صارت فيه العائلات الآرية
 التقليدية المترعة ، طبقة أرستقراطية منزلة ، وبعضها كانت تقوم فيه ديمقراطيات
 تحتم جميع المواطنين الآريين ، بينما تولى الحكم بعضها الآخر ملوك منتخبون بل
 حتى وراثيون ، على حين كان في بعضها مقتصبون للعرش أو طغاة ،

والظروف الجغرافية التي جعلت الدول الإغريقية منقسمة وعظيمة على الدوام فيها
 عليها ، هي التي هادت عليها أيضا بصر الحجم . فإن أعظم دولها حجما أصغر من كثير

من المقاطعات الإنجليزية ، ولما اقرب من أن سكان أية مدينة من مدنها زاد في يوم من الأيام على ثلث المليون . وقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفاً . وقد قامت بينهم الاتعادات بدافع المصلحة والمخاطف ، ولكن لم تنشأ ثمة أية وحدة واتلاف . ولما تزايدت التجارة راحت المدن تنشئ فيها المعصيات وتعقد الحلفات ، كراحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجعلان منها مجتمعاً ذا شعور مشترك إلى حد ما ، وهما الملاحم وعادة المساهمة كل أربع سنوات في المباريات الرياضية التي كانت تقام في أولمبيا . هل أن هذا لم يجعل دون نشوب الحروب والمنازعات ، وإن خفف شيئاً مما تلطم به الحرب من وحشية وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما بعض الوقت شعورهم بأن لهم إرثاً مشتركاً ، وتزايد عدد الدول المشتركة في الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل سمح بدخولها للمتأربين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإبيروس ومقدونيا إلى الشمال .

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها ، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقي باطراد في أثناء القرنين السابع والسادس ق . م . وتختلف حياتهم الاجتماعية في كثير من النواحي الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجه ووديان الأنهار . إذ كانت لديهم معابد ضخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة التي كانت موجودة في مدن العالم القديم ، والتي كانت مستودع المعرفة كلها ، ويحتزن الفسكات . كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عامل شبه قدس يعبط به بلاط محكم التنظيم . والواقع أن نظامهم كان بالآخرى أرسقراطياً له عائلات متزعمة ، تقف إحداهما بالآخرى بالمرصاد وتلزمها الجمادة . وحتى النظم التي يسمونها بالديموقراطيات لم تكن في الواقع إلا أرسقراطية ، ولكل مواطن حر أن يشترك في الشؤون العامة بتصيب ، ومن حق حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديموقراطياً ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطناً حراً .

ولم تكن الديموقراطيات اليونانية تماثل ديموقراطياتنا العصرية التي لكل إنسان فيها صوت فإن كثيراً من تلك الديموقراطيات كانت تتركز على بضع مئات أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والعبيد . ومن إليهم ، لا يستمتعون بأى نصيب فى الشئون العامة .

وعلى وجه العموم كانت ، عقائد الأمازيغ ببلاد الإغريق فى يد طائفة من رجال مكانة . وكان ملوكهم وطغاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو حوامل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا محظيان فى ظلال الإغريق بحرية لم يعطيا بها فى أى من المدن القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك الشخصية الفردية ، والمبادأة والابتكار الشخصى الذين ينعم بهما التجولون الرحل فى أراضي الأعراس الشمالية ، فهم أول ديموقراطيين ، لهم أهمية فى التاريخ .

وبيناهم ينقضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس داوت بينهم ، يستكشف المشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا لتلقى هنا رجال ليسوا من السكينة ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز السكينة الرفيع . أو تسلياً الملوك التى يرادونها فى كثير من الادعاء والخطرة . فإننا نجد فعلاً فى القرن السادس ق . م (بينما كان أشعيا لا يزال يتنبأ فى بابل) رجلاً مثل طاليس ، و دانا كرامادر الملبى ، و دمرقليدس ، من أهل إفيوس . وهم قوم يحسنون اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأرسى فى أحوال العالم الذى يعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الخفية ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائره ؟ . وواضح جميع الإجابات المدة أو المخطوطة التى لاتصدر عن إعمال فكر ، أو تعالوى على التماس . وتزيدك عما قليل بياننا من هذا التساؤل الذى وجهه الإغريق إلى هذا . كون . وهؤلاء الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبرزون ، ويفتخرون إليهم الانظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول محبي الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن نتوه بظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد فى تاريخ البشر . ذلك

أن هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا وحدهم أول من جد في طلب الأفكار الخاصة
النافذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح أشعيا ، يسمو
بالتنبيؤ اليهودي إلى أنرفع مراتبه ، بل إن دجوتاما بوذا ، أيضا — كما حدثك
فيما بعد — كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك : كورنثيوس ، ولاتسي
(لاهوتسي) ميلاد الصين . فكان العقل الإنساني من أثينا حتى المحيط الهادئ كان
في حركة ونشاط دائبين .

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الإغريق والفرس

بينما كان الإغريق في المدن القائمة ببلادهم وجنوبي إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفكري الحر، وبينما كان آخر الأنبياء العبرانيين في بابل وأورشليم يحلقون ضمير أحرار، استولى شعبان آريان على طرادان : الميديون والفرس، على زمام حضارة العالم القديم، وشرعوا في تكوين إمبراطورية ضخمة هي الإمبراطورية الفارسية، التي كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية وأما العالم حتى ذلك الحين.

ولم تلبث بابل وليديا التي تزداد الحضارة العريقة أن أصبحتا في عهد قوروش إلى أملاك الفرس، ثم ضمت إليهم مدن الفينيقيين بالشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأضيق فيض مصر، كالم يلبث دارا الأول الميدي ثالث ملوك الفرس (٥٢١ ق م) أن وجد نفسه عاهلاً للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان. وصاروا سله يحومون الطرق بحراسية على الخيل من التردنيل إلى الهند، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى.

أجل، إن يونان وأوربار إيطاليا وقرطاجنة وصقلية والمستعمرات الفينيقية بإسبانيا لم تستغل السلم الفارسي،^(١)؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام، ولم يجد الفرس معنافة جدية إلا من قبائل آيلهم الضعفاء من الشعوب الآرية القاطنين بجنوب روسيا وآسيا الوسطى، وهم الأشقوذيون (الإسكيزيون) الذين كانوا داعي الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية.

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من الفرس، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة الناحية والحاكم لهذه المملكة الضخمة.

(١) السلم الفارسي : السلام الذي تقوم به حياته دولة فارس المتنامية التي يعرف عليها ملها .
[الترجم]

فأما سائر السكان فكانوا على ما هم عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان سحيقة، وكل ما جد في الأمر هو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة. وقد ظلت التجارة والمالية ساميتين إلى حد كبير، وبقيت صور وصيدا كشافهما في الماضي الميناءان العظيمان على البحر المتوسط، كما أن السفن السيامية ظلت تخرج عباب البحار. بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركاً يجمع فيه مصالحهم وتقاطعتهم، ويتمثل في التقاليد والسكب المألوفة البرانية. وشمس جنس جديد كان هدهد يزداد بسرعة في تلك الإمبراطورية، وهو الجنس الإغريقي. وتلفت الساميون فإذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر، فضلاً عن أن ذكاهم الفياض البعيد عن الهوى جعل منهم موظفين نافعين غير متحيزين.

وكان الإسكيزيون هم السبب الذي من أجله غزا دارا الأول أوروبا. فإنه شاء أن يصل إلى جنوب روسيا موطن الفرسان الإسكيزيين. فعبّر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى بحر الدانوب، ثم عبر ذلك النهر بجسر من الزوارق وأوغل شمالاً، فلقى جيشه الأموال لأنه كان في معظم شأقة راجلة من المشاة، على حين راح الإسكيزيون - وهم من الحياة - يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه، فيقطعون عنه المدد، ويهلكون كل من ضل من جنده. ولا يدخلون معه في أية معركة فاصلة. واضطر دارا أن يتراجع تراجعاً مرزياً شائناً.

عاد دارا بشخصه إلى سوس، ولكنه خلف جيشاً في تراقيا ومقدونيا، وخضعهما مقدونيا لدارا، ولما رأت مدن الإغريق الآسيوية ماحل بالملك من إخضاع شبت فيها. التفت، وانجذب إغريق أوروبا إلى حومة النزاع، وصمم دارا على إخضاع إغريق أوروبا. ولما كان الأسطول الفينيقي رهن إشارته نسي له بمساعدته أن يخضع الجزر الواحدة تلو الأخرى، حتى انتهى به الأمر في ٤٩٠ ق. م أن قام بهجومه الرئيسي على أثينا. وأعلنت حمارة بحرية عظيمة من وادي آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط، وأزيلت أطلال جنودها عند ماراتون إلى الشمال من أثينا، وهناك قضى عليهم الأثينيون وهزموهم شراً هزيمة.

وفي تلك اللحظة المرحمة حدث شيء غريب. فقد كانت إسبارطة الدناقيس لأثينا، وبلاد الإغريق، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة لتلتمس العون، فأرسلت إليها رسولا

عداء سريعاً، يتوسل إلى الإسبرطيين ألا يدعوا الإغريق يصحون للبرابرة جيئداً، وقطع هذا العداء (وهو النموذج المثالي لنظرائه من عدائي ماراثون) أكثر من مائة ميل من أرض وعرّة في أقل من يومين. وهب الإسبرطيون لنصرة إخوانهم في سرعة وكرم نفس، ولكن عندما بلغت القوة الإسبرطية أثنائها بعد ثلاثة أيام، لم تجد شيئاً تملكه إلا أن تشهد ساحة المعركة وجئت جنود دارا المندهرين. هذا إلى أن الأسطول الفارسي كان قد عاد إلى آسيا. وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسي على بلاد الإغريق على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ. إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندساره في ماراثون بقليل، وظل ابنه وخلفه اجورسيس أربع سنوات يجهز جيشاً عظيماً ليسحق به الإغريق، وجمع الذعر كله الإغريق إلى حين، إذ لاشك أن العالم لم يشهد من قبل جيشاً في ضخامة جيش اجورسيس. ولكنه كان جمعاً هائلاً مكروناً من عناصر متنافرة. فمباراة النرد في ٤٨٠ ق. م. بجسر من الزوارق؛ وكلنا تقدم الجيش تحرك معه بمحاذاة الساحل أسطول لا يقل عنه عظماً يحمل المأون، وهناك عند مضيق دثرموبيلاي، وقفت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجل بقيادة ليونيداس الإسبرطي تقاوم هذا الجحفل الجرار، ولم تلبث تلك القوة أن أيدت بأكملها بعد قتال أبديت فيه ما ليس له نظير من البطولة؛ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم. على أن الحسائر التي أنزلوها بالفرس كانت فادحة، وأطبق جيش اجورسيس على طيبة (١) وأثنائها كسر الروح. وخضعت طيبة وكتبت شروط التسليم. ونخل الأثينيون عن مدينتهم فأحرقها العدو.

وبدت بلاد الإغريق كأنها قد أصبحت في قبضة الفاتحين، ولكن النصر عاد لحلفهم رغم كل الظروف المعادة، وعلى النقيض من كل ما كانوا يتوقعونه. فإن الأسطول الإغريقي أخذها جم الأسطول الفارسي في خليج سلاميس ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه. ووجد اجورسيس أنه وجيشه العرمرم قد صاروا عرومين من المؤن، فخافته شجاعته، وتراجع إلى آسيا بنصف جيشه، تاركاً النصف الآخر لكي يوزم في بلاتيا (٧٩٤ ق. م.). وفي نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسي، ويدمرونها عند ميكال بآسيا الصغرى.

(١) طيبة : مدينة إغريقية - نرجو ألا يخلط القارئ بينها وبين سميتها الطيبة بمعهد مصر.
(الترجم)

لقد زال كل خطر فارسي . وبانت المدن الإغريقية بآسيا خرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعا بتفصيل عظيم وفي شيء كثير من الجمال الجذاب في أول كتاب تاريخي مدون ، وهو تاريخ هيرودوت . وله هيرودوت حوالي ٨٤ ق.م في مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، لجعل يذور بابل ومصر القامسا لتفصيل المضبوطة والمجاهدات الصحيحة . وهو تارس منذ معركة ميكال في بحر من القوضي . والحلاف على المرش . فاغتيل اجزيس في ٦٥ ق.م . وشيت الثورات في مصر . سوريا وبلاد الميديين قضت على النظام الذي استتب أمدًا وجيزا على يد تلك المملكة الجبارة . وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكده ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ ضرب مما نسميه اليوم باسم الدعاية - فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت يجعل من أوستاجورلس إحدى الشخصيات المذكورة في كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة العالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعانا في القتال ، وأنتم من جهة أخرى بلغت اليوم أقصى المبادرة في الحرب .. وليس ثم شعب آخر في العالم يملك ما يملكون ، من ذهب وفضة وبروز وثياب عوشة وحيوان وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقا .. »

المهاسن الخمسة والعشرون

بلاد الإغريق لإبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس مصر عظيمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تميز في صراع على السطوة والعزة أنشأست فيه كل من أثينا وإسبارطة ودويلات أخرى (وهي حرب البيلوبونيز ٤٣١-٤٠٤ م) وأنه حدث في ٣٢٨ ق . م أن أصبح المقدونيون بأقل سادة لبلاد الإغريق ، ومع ذلك فإن الفكر الإغريقي وبزاعته الخلق والابتكار وذواقع الفن فيه سميت في تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أنجزوه فيها من عظام الأعمال نبراسا تستهدي به البشرية على كل التاريخ كله .

وكانت أثينا الرأس المفكر والمركز الأساسي لذلك النشاط العقلي . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد (٤٦٦ - ٤٢٨ ق . م) تحت سيطرة رجل قوى الشكيمة حر الفكر سباح العقل ، هو بركليس ، الذي نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذي أنزل بها الفرس . والآثار الجلية التي لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمدح والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناءها من الناحية المادية فقط ، بل أعاد بناءها من الناحية الفكرية أيضا . فلم يكف بركليس بأن يجمع حوله المهاريين فالمثاليين وحدهم ، بل شجده أيضا الشعراء والمؤلفين الدراميين والمعلمين . وفي هذه جاء هيرودوت إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع الناس (٤٢٨ ق . م) كما جاء أناكزاجوراس إليها يحمل بدايات وصف على الشمس والنجوم . وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس الواحد منهم بعد الآخر بالهزائم المسرحية (الإغريقية إلى أعلى ذوا الرفعة والجمال .

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهبية دفعة تلك حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام ببلاد الإغريق كانت تعكره وقتئذ حرب البيلوبونيز ، وأن كفافا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارعه . والحق إنه يلوح أن تبلد الأفق المهاسن بالفيثوم ظل إلى حين يعمل على شجذ إذهقان الناس لانتهاطها .

وقبل عهد بركليس بزمان طويل كان نحو الحرية العجيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يحظى أهمية كبرى على المهاراة فى المناقضة والجدال . إذ لم يكن البت فى الأمور حقاً للملك ولا كاهن . بل كان بيد جمعيات الشعب أو الزعماء . ومن ثم غدت الفصاحة والاعتدال فى الجدل مزايا مرغوبة مطلوبة . ونشأت طبقة من المعلمين ، هم السفطائيون الذين تعبدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون . بيد أن المرء لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره ، ومن ثم جاءت المعرفة فى أعقاب فنون الكلام . وكان من الطبعى جداً أن يودى نشاط هؤلاء السفطائية ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب فى بؤقة الامتحان القامى ، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل . وعندما مات بركليس كان شخص يدهى سقراط قد أخذ يبرز كناقذ قدير للجدل الردى . ولا تنسى أن الشراء الكثير من تعاليم السفطائية كان جدلاً من النوع الردى . واجتمعت حول سقراط طائفة من الشباب الأذكياء . وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق . م) ، لحكم عليه بالموت بالطريقة الكريمة الوقورة التى كانت تتبعها أئمتنا فى ذلك الزمان ، بأن يتناول فى منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران ، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائماً على الرغم من تنفيذ الحكم فيه . وواصل تلاميذه الشباب أداء رسالته .

وكان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م) من أعظم هؤلاء الشباب ، فشرع من غوره يعلم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية . وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين :

(أ) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه .

(ب) البحث فى النظم السياسية .

وهو أول من كتب كتاباً فى البيوتوبيا (المثلوى) ، أى رسم خطة لمجتمع يختلف عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه ، وذلك أمر يتم من جرأة ليس لها قبل ذلك من ضريب فى العقل الإنسانى الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف المألوف ولا يكاد يقلب فيهما فكراً أو يبحثهما بسؤال واحد . قال أفلاطون للإنسانية بصريح العبارة :

« إن معظم الأعداء الاجتماعية والسياسية التى منها نقاشون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتم الإدارة والعجاءة اللازمتين لتغييرها . فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً . وبعثنا وتكشفوا بالدراسة كتبه ، فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة ، ولا شك أن ذلك تعليم راق يدهو العقل إلى المخاطرة والمغامرة ، وأنتم يظل بعد بصورة عامة في فطنة جنسنا البشرى ولا بد لها من تشربه . ومن أول مؤلفاته كتاب الجمهورية . وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيعية ، فأما كتابه الأخير الذي لم يشمه فهو كتاب القوانين ، وهو يرسم خطة لتنظيم دولة مثالية (يوتوبية) ماثلة لتلك . وجاء أرسطو الذي كان تلميذ الأفلاطون فواصل بمدرسة أستاذه فقد مناهج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم في اليسيوم . وفد أرسطو ليس على أئينا من مدينة أسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طليبا لبلاط الماهل المقدوني ، وقضى أرسطو ليس بعض الزمن ممثلاً للاسكندر ابن الملك الذي قدر له أن ينجز أعمالاً عظيمة جداً استكمل عنها قريبا . وقد أدت جهود أرسطو في مضار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازماً له مدة ألف وخمسة مائة من السنين أو تزيد ، أهم حتى عاد رجال العلم في العصور الوسطى إلى تناول المسائل المتبعة من جديد ، لم ينشأ أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) ، ذلك أن الأفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف في مصائره ، ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، فمن المعرفة الصحية الحقيقة أعظم كثيراً مما يملك ، ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمة من المعرفة التي نسميها اليوم باسم العلم ، فأرسل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق ، وهو أبو التاريخ الطبيعي ، وهو المؤسس لعلم السياسة ، وقام تلاميذ في اليسيوم بفحص دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض .

فنحن نجد هنا وفي القرن الرابع ق.م قرماً ذوى تفكير حصري أو يكاد ، لقد واث طرائق الفكر البدائي الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل عليها تناول مشكلات الحياة بطريقة منتظمة وتفاعدية ، وهنا أيضاً يميل تماماً كل مجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة ، كما تلقى جميع المحظورات (التابوهات) والخاوف والقيود ، التي ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان ، لقد ابتدأ التفكير الحر المضبوط المنظم ، إن الامن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهؤلاء الوافدين حديثاً من الغابات الشمالية ، قد ألقي بنفسه في حميم غخابا المبدد وسمح لضوء النهار بالنفاذ إلى غيابتها .

إمبراطورية الاسكندر الأكبر

ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م. وفي نفس الحين كانت مقدونيا تتمتع بتدريجها ، وهي تفرق إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها بصلوات القربى والمشاوية ، وكان المقدونيون يتلقون بلسان وثيق القرابة بالأسان الإغريق ، وكثيرا ما اشترك المتبارون المقدونيون في الألعاب الأولمبية ؛ وفي ٣٥٩ ق.م. تولى حرس ذلك القطر المغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جدا هو فيليب المقدوني ، وقد عاش فيليب شطرا من أيامه ببلاد الإغريق ، وكان فيها رعية ؛ وتلقى تعليما إغريقيا ممتازا ، ولله كان ملأ بأراء هيرودوت ، التي طورها ونماها الفيلسوف إيزو قراطيس ، والتي تقول بإمكان اصطلاح بلاد الإغريق — إذا اتحدت كلتها — بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه ، فقد مضى ألفتنة قبل ذلك الأوان ظلت في أثنائها المجلة التي تقوم بالهجوم . وهي العاملة الحاسم في المعارك ، وذلك هذا الجنود المشاة المتراسة في القتال ، وكان الفرسان يقاثلون أيضا ولكن بوصفهم مربيا من المناوشين يعملون فرادى ودون نظام ، ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون في كتلة كثيفة متراسة تراصا شديدا ، هي الفيلق المقدوني ، كما دوت وجهاء قومه الراكبة (وهم الفرسان أو الرفاق) على القتال في تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الحياة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الحياة أم الحركات في معظم معاركه . وممارك ابنه الإسكندر ، فكان الفيلق المقدوني يصد مشاة العدو على حين كانت الحياة تحتاج فرسان العدو في الجناحين ثم تتنازل على جانب مشاة ومؤخرتهم ، وكانت المعجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقيه الرماة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة شيرونيا (٣٣٨ ق. م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبذا أخذ حكم هيرودوت يؤق ثماره في آخر الأمر . واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الإغريقية فيين فيليب قائدا عاما لاتحاد مقدوني لأغريق ضد فارس ؛ وفي ٣٣٦ ق. م حبرت فرقة الحرس الامامي البحر إلى آسيا لتبدأ هذه المغامرة التي حال التفكير فيها ، ولكن الملك لم يوافق البتة ذلك الحرس ، وكان ذلك فيما يعتقد به بعضهم بتعريضه من زوجته الملكة أولمبياس أم الإسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالنفيرة لأن فيليب تزوج من أخرى .

يبد أن فيليب حتى عبادة وثقة بقرية ولده . فلم يكف بأن اتخذ من أرسطائيس أعظم فلاسفة عصره معلما لأغلاء المنير ، بل أشركه في أيضا في آرائه ودرسه تدريباً عسكرياً تاماً . لجّل الإسكندر قائداً لثيالة في معركة شيرونيا آتفة الذكر وهو يد في الثامنة عشرة من عمره ، وبذا اتقى لذلك الشاب الذي لم يزد عمره على الثمانيين يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يطالع بالمغامرة الفارسية بنجاح .

ولكنه قضى سنتين كاملتين في تثبيت أقدامه في مقدونيا وبلاد الإغريق ، تضامناً لإخاد ماشب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا في ٣٣٤ ق. م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيراً في معركة جرابيكوس ، واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى ، أزم الإسكندر ساحل البحر ، وكان من الضروري عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كلها تقدم في البحر وأن يتركها للحاميات . وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صو وصيدا ، وبذا كانت لهم السيادة البحرية ، فلأنه ترك وراءه ميناء معاديا دون حماية تحرسه ، لجأ أن ينزل به الفرس قواتهم للاغارة على مواصلاته وقطع خط رجسته . والتقى قرب إيسوس (٣٣٣ ق. م) بجميع حائل غلظت تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش الهائل - شأن جيش لجزر سيس الذي هيرالدربيل قبل ذلك بقرن ونصف - جعاً من المجندين غير متناهي ولا مترابط ، يظه حشد كبير من موظفي البلاط فضلاً عن حريم دارا وكثير من يتقنون المعسكرات القاسا للرزق . وسلبت صيدا للاسكندر ، ولكن صور قاومت بهناد ، وأخيراً فتحت تلك المدينة الكبيرة عنوة وانتهت ثم دمرت ، وفتحت غزة أيضاً عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٣ ق. م ، دخل الفاتح مصر واستولى من أقرس على مقاليد حكمها .

وبنى الإسكندر مدينتي الإسكندرونة بالقام ، والإسكندرية بمصر في موقعين يمكن بلوغهما من البر ، وبذا تصبحان قادرتين على التردد عليه . وإلى هذين المرفأين حولت تجارة المدن الفينيقية . وهنا يحتقن من التاريخ على حين بئس فينيقيو الجحوش الغربي البحر المتوسط . وبفس الطريقة الفجائية يظهر يهود الإسكندرية والمدن التجارية الأخرى التي شيدها الإسكندر .

وفي ٣٣١ ق . م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعل من قبله نحموش ورمسيس ونحاش . بيد أن سار بطريق صور . وعند أريلا (أربل) بالقرب من ألقاض ينوي أني كالتخذ مني عليها آنذاك النسيان ، التي بداراً في معركة حاسمة ، وبات هجمة العجلات الفارسية بالفشل ، وحل الحياة المقدونيون على ذلك الجيش العظيم المخطط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة المغير مرة أخرى ، بل فر شمالاً إلى إقليم الميديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل . وكانت لا تزال بلاداً ثرياً هاماً ، ثم إلى سوسا (سوس) وپرسبوليس . وهناك أقام حفلاً أديرت فيه الخمر ثم أمر في ألقابه بحرق قصر دارا ملك الملوك .

ومالبت الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا ميداناً عسكرياً لمرض جيشه على الانظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية . متجهاً بادی الامر نحو الشمال ، وتغلب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفجر وهو يافظ في حربته آخر أنفاسه . بعد أن قتله شبه ، وكان لا يزال على قيد الحياة عندما وصل إليه جند المقدمة الإغريقية .

١٠ وجاء الإسكندر فوجد مقتدمات ، وسار الإسكندر بمحاذاة بحر قزوين ، وتوغل في جبال التركستان الغربية ثم اندحر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التي أسسها) وكابول . وتمر خيبر ، والتحم في معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندي اسمه بوروس ، وهنا التقى الجنود المقدونية بالقبيلة لأول مرة ودحرتها ، وانتهى به الامر إلى أن ابتنى لنفسه سيقناً اندحر بها إلى مصب السند ، ثم حاد سيراً على الأقدام بهذا ساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية في ٣٣٤ ق . م بعد غيبة دامت ست سنوات ، وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وشدها بين أجزائها من روابط . فحاول أن يفوز بمسيرة راياما الجعد ، بأن اتخذ ثياب الباهل الفارسي وتوجه ،

فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقي منهم شراً كبيراً ، ثم عقد قران كثير
 من الضباط المقدونيين بنساء فارسيات وبابليات ، وهو ما يسمى « بزواج الشرق
 والغرب » . على أنه لم يعمر لينفذ الترابط الذي أعدته ، إذا اتأنته حتى بعد
 وليلة شراب أقامها في بابل مات في ٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة من الأرض ، وقبض صلوقس أحد
 قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيسوس ، واستولى على
 حصن قائد آخر هو بطليوس ، كما اختار مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس ،
 أما بقية الإمبراطورية فإنها وزعت في غمرات القوضى وعدم الاستقرار ، وجعلت
 تنتقل إلى أيدي مجموعة متعاقبة من المغامرين المخطئين ، وابتدأت غارات البرابرة من
 الشمال وأخذت تتسع مجالاً وتزداد حدة ، حتى انتهى الأمر كاستنخريك فيما بعد ، بظهور
 قوة جديدة هي الجمهورية الرومانية التي جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزر
 منها بجزء ، إلى أن ربطت بينها جميعاً في إمبراطورية جديدة أطول عمراً .

متحف الاسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وفنانين وموظفين وجنوداً مرتزقة؛ ينتشرون في منظم الممتلكات الفارسية . وقد حدث في أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بعد وفاة إجزورسيس ، أن فتنة من مرتزقة الإغريق عدتها عشرة آلاف جندي لعبت دوراً تحت قيادة أكسينوفون (رينوفون) ، ولهذا القائد كتاب أسماه « تهمير الآلاف العشرة » ، وهو من أوائل قصص الحروب التي كتبها قائد أثناء توليه القيادة — يحف هودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الآسيوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين قواده ، زادت كثيراً من انتشار الإغريق ولتتهم وطرائقهم في أرجاء العالم القديم ؛ فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثاراً لم تنم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عميقاً .

ظلت أثينا قروناً عديدة محتفظة بنفوقها كركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م ، أى أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ، ولكن زهارة النشاط الفكري في العالم مالبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، وهي المدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد المقدوني بطليموس قد أصبح فرعوناً على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لفته الرسمية هي اليونانية . وكان صديقاً حميماً للإسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متعمقاً في دراسة آراء أرسطو . فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة واقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتاباً عن حملات الإسكندر ، لم يشر عليه لسوء الحظ .

وكان الإسكندر قد رصده بالغ هائلة من المال للاتفاق منها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطليموس الأول كان أول من حبس على العلم منحاً وهبات مستديرة ، فأقام

بالملايين الإسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية الذي خصص بصفة رسمية لربات الفنون Museums ، وانقضى جيلان أو ثلاثة كانت الأبحاث العلمية التي تجري في أثنائها بالإسكندرية ممتازة الجودة ، وظهرت هناك مجموعة غارقة من رواد العلم وعلماء الطبيعة ، من ألمع نجومها إقليدس وإراتوستينس الذي قاس حجم الأرض ووصل على تقدير قطرها إلى نتيجة تقل عن قطرها الحقيقي بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذي ألّف في القطاعات المخروطية ، وهيبارخوس الذي رسم أول خريطة للماء جوصنف أقدم فهرس للنجوم ، وهيرون مخترع أول آلة بخارية ، وجاء أرشميدس من سيراكوزة إلى الإسكندرية ابتغاء الدراسة والبحث وكان دأب الاتصال بالمتحف ، وكان هيروفيلوس من أعظم علماء التشريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تشريح الأحياء .

وانقضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم في أثنائه بطليموس الأول والثاني ، وتأنجت فيه المعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر العالم أن يمهدها خريبا حتى القرن السادس عشر الميلادي ، بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تعم حلولا ، وربما اجتمعت على إضلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى المرحوم الأستاذ ماهاقي أن المتحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الذي يمين جميع أساتذتها ومساعدتهم ويدفع لهم أجورهم ، ولم يك في ذلك أدنى خير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسرة البطالمة تحسرت بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان كنيّة مصر والتعاضدات الدينية المصرية ، وكفروا عن موالاة ما كان يجري من عمل ، ولم يلبث إشرافهم عليه أن خفق روح البحث والتقصي خنقا تاما ، لذلك لم ينتج المتحف بعد القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج الجيد .

ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة محتوينا في ذلك روحا عصريا خاصة ، بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية لتكون دارا موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد متنوع الكتب ، بل كانت أيضا مؤسسة توفّر على نسخ الكتب وبها ، فقد جرد حشد كبير من الفساح للعمل المتواصل بما أدى إلى مضاعفة أعداد الكتب ونسخها . وعلى ذلك فإننا نجد في هذه المؤسسة لأول مرة البعثة الأولى المحددة للحركة

الفكرية التي تعيش فيها اليوم ؛ وفيها نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة .
فإنشاء هذا المتحف وهذه المكتبة يعد لإذنا بيده إحدى الحقب العظيمة في تاريخ
العالم . فهي البداية الحقة للتاريخ الحديث .

وكان يترضى طريق البحث العلمى ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة ، منها
تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التي تفصل الفيلسوف - وهو سيد مذهب - عن
التاجر والصانع . كان صناع الزجاج والمعادن في تلك الأيام كثيرى العدد ، ولكن
لم يكن بينهم وبين المفكرين أى اتصال عقلى . فكان صانع الزجاج يصنع أجمل
الحرز والقوارير وغيرها ألوانا ، بيد أنه لم يصنع ألبة قتيبة فلورنسية ولا عدسة
من العدسات . ولا ييذر أن الزجاج الصافى لى منه اهتماما . وكان صناع المعادن
يصنعون الأسلحة والمجوهرات ولكن أحدا منهم لم يصنع أبدا ميزانا كيميائيا
وفى نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل فى ترفع حول الذرات وطبيعة
الاشياء ، ولم يتبين لهم خبرة عملية بالبناء ولا الأصباغ ولا أثرية توليد الحب
إلى غير ذلك . لم يكن الواحد منهم يعنى بالمواد الطبيعية . ولذا فإن الإسكندرية
لم تنتج يوم صنعت فرحتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء ومع أن هيرون
اخترع آلة بخارية ، فإنها لم تستعمل قط فى رفع الماء أو فى دفع قارب أو فى
عمل أى شىء نافع . وقل أن وجدت للملم تطبيقات عملية اللهم إلا فى مضار الطب .
كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفز ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية .
ولا ما تحده تلك التطبيقات من هزة فى النفوس ، لذا لم يكن هناك شىء يدعو
إلى الاستمرار فى العمل عندما دلى بطلبيوس الأول والثانى وزال أثر حبهما
للاستطلاع . ولذلك أيضاً دوت مستكشفات المتحف فى مخطوطات خفية
ضامنة ، ولم تصل قط إلى الناس كافة ، حتى يفتحب الاستطلاع العلمى فى
عصر النهضة .

ولم تنتج المكتبة - من ناحية أخرى - أية تحسينات فى صناعة الكتب ولم يكن
ذلك العالم القديم يصنع من صحيفة الحرق ورقا له حلجوم معروفة . ذلك أن الورق
اخترع صينى لم يصل إلى العالم الغربى إلا فى القرن التاسع الميلادى . وأما المواد
الوحيدة المستعملة فى صنع الكتب فهى الرق وسلخات (شقائق) قصب البردى
الموصولة حررها بعضها بعز وكانت هذه الشقائق تحمل فى صورة لفائف من أعسر
الأمور قضاها زلفها للاطلاع عليها ، كما أنها متعبة جدا لكل باحث شاء الرجوع إليها .

تلك هي الموانع التي سالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذي الصفحات. أما الطباعة نفسها فاعلموا أنها كانت موروثة في العالم ، منذ زمن سحيق لالة الفراعنة الحجرى القديم ، فقد وجدت الاختام في بلاد سومر العتيقة ، بيد أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة فالم يكثر الورق ، هذا عدا أن الطباعة تتعوى على تقديم لم يكن يمد من أن ياقى المقاومة من نقابات الدبال رعاية لصالح النساخين المستعملين في صناعة النسخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتباً وفيرة ولكنها ليست بالرخصة ، كما أنها لم تنشر المعرفة بتاتين سكان العالم القديم إلا في مستوى الطباعة الموهمة ذات النفوذ . هكذا حدث أن شلة المتقدم الفكرى لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بجموعة القلاسة الذين يجمعهم جليلوس الأول والثاني . كان غلبها كمثل نور في مصباح مغمم يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشمة في الداخل وهاجة تخفف الأبحار ، ولكنها مع ذلك مستورة لا تراءى الا نظار . أما بقية أحشاع العالم فانها سارت طرائقها القديمة دون أن تدرك أنه قد بذرت بذرة المعرفة العملية التي ستحدث فيه انقلاباً تاماً في يوم من الأيام . وصران ما شئنا الدنيا سحابة حالكة من التذهب الذي وغرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومر على تلك العظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذي غطى على البذرة التي بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخذت تثبت ، وما هي إلا بضعة قرون حتى غدت تلك البذرة دوسة للمعرفة الفارقة وسدرة الأفكار الخالصة التي تنير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الإسكندرية هي المركز الوحيد لنشاط اليونان الفكري في القرن الثالث ق.م. فإن بين المعام المتداعية المتخلفة من إمبراطورية الإسكندر القصيرة الأمد . مدنا أخرى كثيرة سعت فيها حياة فكرية وقادة . فهناك مثلاً مدينة سيراقوزم الإغريقية بصفية ، التي ازدهر بها الفكر وأمام قرلين ، وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى . التي كان لها هي أيضاً مكتبة عظيمة ، بيد أن هذا العالم الهليني الوقاد الاكلا . أصيب آنذاك بنارات أهل الشمال . فإن همجا نورددين جدد أمم الغاليون ، كانوا يسيرون في نفس المارق التي اخترقها يوماً ما أسلاف الإغريق والغربيين والمقدونيين . كانوا ينيرون ويظهرون ويدمرون . وجاء في أذقاب الغالين شعب فاتح جديد من إيطاليا والرومان . الذين قاموا بالتدريج باخضاع جميع النصف الغربي من تلك دارا الإسكندرية الهائلة . كانوا اقوما ذوي كفاءة واقتدار ، ولكنهم

مخرومون من نعمة المجال ، فهم يؤثرون القانون والمنفعة على كل من العالم والفن .
وتمعة غزاة جدد كانوا ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية
التلوقية ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العالم الغربي وبلاد الهند من
اتصال ، وكان هؤلاء هم الأشخانيون (البارثيون) ، وهم أرحاط من رعاة
الخيول الراكبين ، فعاصلوا إمبراطورية برسيبوليس وسوس الإغريقية الفارسية
في القرن الثالث ق . م نفس المعاملة التي عايلها بها الميديون والفرس في القرن
السابع والسادس . وكان هناك عندئذ أقوام آخرون من الرحل يأتون هم أيضاً
من الشمال الشرقي ، ولم يكونوا قوما شقرا ولا نوردين ولا لاطقن بالآرية
بل كانوا ذوي جلود صفراء وشعور سوداء ولهم لغة مغولية ، على أننا سنزيدك
بهم بيانا في فصل نال .

الفصل الثامن عشر

حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغي لنا أن نرجع بعمتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحدثك عن معلم عظيم أرسلك أن يحدث انقلاباً ثورياً في فكر آسيا بأجمعها ومشارها الدينية . ذلك المعلم هو جوتاما بوذا . الذي كان يعلم تلاميذه في بنارس بالهند في نفس الوقت الذي كان أشتيا يتنبأ فيه بين اليهود في بابل ، والذي كان هيراقليطوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون في العالم في وقت واحد في القرن السادس ق.م . دون أن يدري أحد منهم بوجود الآخرين .

والحق أن هذا القرن السادس ق.م من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة . ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هذه الحالة تنفست في بلاد الصين أيضاً كما سندل إليك فيما بعد وفي كل مكان ، كان الناس يستيقظون من براثن عليم من تقاليد الملكيات والسكان والقرايين ويسألون أشد الأسئلة تعمقا وتفاذا كأننا الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضاً جداً . ففي زمن ما لمه يقارب عام ٢٠٠٠ ق.م هبط الهند من الشمال الغربي شعب ناطق بالآرية ، إنما في غزوة واحدة وإنما في سلسلة متعاقبة من الغزوات ، فاستطاع أن ينشر لفته وتقاليده فوق النطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذي يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرج السنسكريتي . فوجدوا في إقليم السند والكنج شعباً أسمر أوفق حنارة وأجنتف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التي تخالف بها الإغريق والفرس ، وظلوا عنه بمنزل . حتى إذا حرت الأيام أصبح ما في الهند من ثيل المؤرخ على غشاوة تشبه . وإذا بالاجتمع الهندي مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد متغير من الأقسام الثانوية) ، لا تزال كل بعضها بعضاً ولا تمازج ولا تختلط اختلاطاً حراً . وإذا بهذا التقسيم الطبق إلى طوائف يتبشر

أمد التاريخ كله . وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخاف المجتمعات
الاوربية والمنغولية البسيطة السهلة الزواج ، فهم في الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيدانا جوتاما أحد أبناء عائلة أرستقراطية تحكم مقاطعة صغيرة على
منحدرات جبال الهند . فتزوج وهو في التاسعة عشر من ابنة عم له جميلة ، وكان
يصطاد ويلهو ويتجول في عائلته المشمس المكون من الحدائق والأحراش وحقول
الأرز المنمورة بالمياه ، وفيما هو ينعم بتلك الحياة حل به تدمير عظيم . كان ذلك
هو شعور التماسه الذي يحسه العقل الممتاز الذي يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر
أن الحياة التي يحيها لم تكن هي الحياة الحققة ، وأنه كان في عجلة - دامعا كثر ما ينبض .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والقناء ، وبأن جميع ألوان السعادة
غير مأمونة وغير مرضية ، وبينما هو على تلك الحال التقى رجلا من أولئك الزهاد
المتجولين الذين يكثرون وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه . كان هؤلاء الناس يقدمون
في عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون شطرا طويلا من وقتهم في التأمل والحوار الديني ،
وكان المقروض أنهم يتأملون وراء أعين مافي الحياة من حقائق ، واستولت على
جوتاما رغبة حارة في احتذاء حذوهم .

وتقول القصة إنه كان يتفكر في هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت
بكر أبنائه . فقال جوتاما : وتلك راجلة أخرى لا مفر من فصمها .

عاد إلى القرية بين نهاليل أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة
عظيمة ورقصت الرافعات احتفالا بيلاد هذه الصلة الجديدة ، ولكن جوتاما
استيقظ في نوم الليل والألم الروحي العظيم يلدع فواده ، وكانه رجل أباح
نبا اشتعال النار في منزله ، فصمم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السعيدة التي
لا تدرى لها ، فسلل إلى باب غرفة زوجته ، فراها على نور قد دبل زيت صغير وهي
ترقد كلوردة الجميلة تنحب بها باقات الزهور وبين ذراعيها طفلة الرضيع ، عند ذلك
شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويناقحه عنقا كما يكون هو الأول والآخرين قبل
الرجل ، ولكن خوفا من إيقاظ زوجته منه من ذلك ، وأخيرا ولي ظهره
فخرج إلى ضياء القمر الهندي الساطع وامتطى جواده وانطلق إلى العالم .

سار في تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقفت خارج أراضى مشيرته
وترجل على شقة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائبه المتبدلة . وأما طعنه كل حلية
وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم وأصل سيره حتى التقى - الوقت - برجل
في أسماط وتبادل وإياه الشباب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق
الديوية أصبح حراً في متابعة بحثه وراء الحكمة . واتجه جنوباً إلى مشى لتسك
والعلمين يقوم على طنف (١) بين التلال بجبال الهنديا . وهناك كان يعيش عدد من
الحكماء في منطقة من الكهوف . ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ،
ويدلون شغوباً بما لديهم من المعرفة لكل من يمشي بالحضور إليهم . وأصبح جوتاما
حلياً بكل علوم ما وراء الطبيعة في عصره . ظهر أن ذلكم الوقاد لم يقنع بالحلول
التي قدمت إليه .

والعقل الهندى ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول
عليهما بالزهادة المفرطة أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهذا وضع جوتاما
هذه الأفكار في بوتقة الاختيار ، فانتقل مع خمسة من رفاقه للتلازم إلى الغابة ،
وهناك استسلم للصيام وذهب التفكيرات ، وطار صيته : « كرتين جرس عظيم معلق
في قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجلب له أى شعور بأنه فاز بالحقيقة ، وبينما هو
يسير ذات يوم ذهاباً وحيداً ، محاولاً أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب
عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غيبته ، تبعت أمام ناظره ستعاقب استخدام هذه
الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فأتى الرعب في أفئدة رفاقه بطلبه الطعام المادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ،
ذلك أنه تحقق أن غير الوسائل للولوج أية حقيقة هي العقل الجيد والتثنية في جسم سليم
وكانت مثل تلك الأفكار غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والضر . فمهره
تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يشجول
بفردته ..

والعقل عندما يضطرب مع مشكلة عظيمة ومقدمة ، فإنه يتقدم في سبيل الفوز خطوة
في (أ) خطوة . دون أن يدرك إلا قليلاً قدر المكاسب التي أحرزها ، وإذا هو يدرك نصره

هو يحققه على حين يتم مع إحساس بالاعتارة المفاجئة. وهذا هو ما حدث لجوتاما. فإنه جلس يتناول طعامه في ظل دوحه عظيمة إلى جوار أحد الأنهار، وإذا بهذا الشهور بالرؤية الصافية يحمل به. فلاح له أنه يروى الحياة نقية واضحة. ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليه في تفكير هين؛ ثم قام ليبلغ العالم رؤياه.

فذهب إلى بنارس وهناك جدد في البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم، راقبتهم ثانية بتأليه الجديدة فسادوا لأنفسهم في حديق الغزلان الملكية ببنارس أكراماً وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة.

وكانت نقطة البداية في تأليه هي السؤال الذي وجه لنفسه كشاب حالفه التوفيق: لماذا لأحسن بسعادة تامة؟ وهو سؤال يتطوى على محاولة تعرف بواطن النفس. وهو سؤال يختلف اختلافاً كبيراً في النوع عن حب الاستطلاع الصريح المنطوي على تبيان الذات والموجة نحو العالم الخارجي — حب الاستطلاع الذي كان طاليس وهيراقليموس وماولان به تفهم مشكلات الكون، كما يختلف كثيراً عما يعادل ذلك من تبيان الذات يتجلى في صورة تحمل أعباء الالتزام الخلق الذي كان أواخر الألفية يفرضونه في العقل العبراني فرحاً.

فأعلم الهندي لم ينس «النفس»، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدرسها. وعلم الناس أن كل ما يقاس به الفرد يعود إلى رغباته الشرمة. حتى يخضع المرء لهفاته الشخصية، لحياته متاعب ونهايته شجن.

والهدف من الحياة يتخذ أشكالاً رئيسية ثلاثة كين شر. فأولها حب الشهوات والشراف لجميع أنواع الإحساسات الجسدية، وثانيها الرغبة في الخلود الشخصي والآناني، وثالثها التفات على النجاح الشخصي وخيب الدنيا والشع وما إليه ولا بد من التئب على أنواع هذه الرغبات القاسا لقرار من عن الحياة وأشجائها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماماً، بلغ المرء مرتبة «الترقانا» أي صفاء النفس وهي أعلى درجات الخير.

تلك خلاصة مذهبه. ولاهك في أنه مذهب خفي جداً وميتافيزيقي، وهو لا يكاد يداني في سهولة تفهم وصية الفلاسفة الإغريقية التي تدعو الناس أن ينظروا ويرفروا بلا

خوف وبالطريقة الصائبة ، ولا الرصية العبرانية الآمرة بخوف الله وإيتان البر ، كان تعلما يعلو كثيرا على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالا مباشرا . فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذه الشخصى يزول حتى داخل المذهب الفساد والغلط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على قترات طوية وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى «البوذا» ، وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذات ، وإن لم يبق أى دليل على أنه هو نفسه قبل القب . ولم تكده تنقضى على وفاته فترة وجيزة حتى أخذت بحموة ضخمة من الأساطير الخيالية تنتسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسانى أن يفضل دائما قصة تملؤه عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أعجوبة مدهشة جدا .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت «النرفانا» أعلى وأدق من أن يتسامى إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى تسج الأساطير أقوى من أن تقف فى سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئا من المقصود بما كان جوتاما يسميه باسم «الطريق ذى الشعب الثمانى» ، وهو الطريق الآرى أو النذيل فى الحياة . وهذا «الطريق» يتعلو على الإصرار على الاستقامة النهائية ، وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب على السلوك الصائب والتعيش الشريف . وبفضله تم إفاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنظورة على نسيان الذات .

الملك أسوكا

اقتضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما ، ولكن تلك التعاليم البوذية العالية
التي - أول التعاليم البسيطة القائمة بأن أعلى درجات الخير للإنسان هي إخضاع
النفس - لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا في العالم . ثم ما لبثت تلك التعاليم أن
استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم .

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الإسكندر الأكبر انحدر إلى بلاد الهند وقاتل
دوروس ، على ضفاف نهر السند . ويرى مؤرخو الإغريق أن شخصا اسمه
شالندراجوتا موريا وقد هلى معسكر الإسكندر وحاول أن يقتله بأن تقدم حق
نهر البكنج ويفتح بلاد الهند جميعا ، ولم يستطع الإسكندر أن يفعل ذلك لأن
المقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول . ثم تمكن شاندرا
جوتا فيما بعد (٣٢١ ق.م) من الحصول على هون قبائل عدة بمنطقة التلال وأن
يحقق أعلامه دون مساعدة الإغريق . فأسس إمبراطورية في شمال الهند ، وسرعان
ما استولى له في (٣٠٣ ق.م) أن يهاجم ممتلكات سلوقس الأول بإقليم البنجاب
وأن يرذل من الهند آخر آثار الحكم الإغريقي . وبسط ابنه رومة هذه الإمبراطورية
الجديدة ، ووجد حفيده أسوكا - وهو العاهل الذي نتكلم عنه الآن - نفسه
في ٢٦٤ ق.م حاكم على الإقليم الممتد من أفغانستان إلى مدراس .

وكان أسوكا ميالا في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده ، وأن يتم فتح شبه
الجزيرة الهندية . فزاد كاليجا (٢٥٥ ق.م) ، وهي إقليم على ساحل مدراس
الشرقي ، وأوقى النصر في حملاته الحربية ، ولكن بلغ من شغفه من قساسة
الحروب وأهوالها أنه تخلى عنها وبهذا فكان ذلك تسبب وحده بين الفاتحين
جميعا . وزهدت فيها نفسه تماما . وتبنى مذهب البوذية السلي ، ثم أعلن
خوذه ستكون منذ ذلك الحين فتوحا في ميادين الدين .

وكان حكمه الذي دام ثمانية وعشرين عاماً من أزهى فترات الهدوء الهائلة في تاريخ البشرية المضطرب. فقام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند، ولزورح الأشجار والتظليل. وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التي تروى فيها الأحياء الطبية. وأنشأ وزارة العناية بأهالي الهند الأصليين وأجناسها الخاضعة. واتخذ العدة اللازمة لتعليم الفناء. وخصص مبالغ خيرية هائلة لبيئات التعليم البوذية، وحاول أن يمسهم على نقد المؤلفات الدينية المتكسدة لديهم نقداً أحسن وأقوى أراء. ذلك أن المفاسد والحزبات صرحت ما تجمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك المعلم الهندي العظيم. وانطلقت البعث الدينية من لندن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية.

ذلكم هو آسوكا، أعظم الملوك كافة. كان سابقاً لعصره بزمان بعيد جداً. ومن أسف أنه لم يخلف من ورائه أميراً ولا هيئة من الرجال توأصل جهوده، لذا لم تكف تنقضى مائة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى جميلة في بلاد الهند التي عشت بها أيدي الفسق والانحلال، لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية، وهي أعلى طوائف المجتمع الهندي وأكثرها امتيازات، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا الصريحة الكريمة فأحوا يقرضون على التدريج نفوذ البوذية في البلاد، واستردت الآلهة القديمة البشمة سلطانها، هي والعقائد الهندوكية التي لا عداد لها. وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تمكيداً. وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى جوار الأخرى، أخذت البوذية تضمحل ببطء، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عدداً كبيراً من الصور والأشكال. بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيداً عن سلطان نظام الطوائف — حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان، وهي بلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم.

الفصل الثالث والعشرون

كونفوشيوس ولاهوتى

يقى علينا الآن أن نحدد من رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتى (لاوتس)، الذين كانا يعيشان في ذلك القرن المدهش الذى ابتدأ به رشد الإنسانية، وأخى به القرن السادس ق. م.

ونحن فى كتابنا هذا لم نعد إلى الآن إلا طرف يسير من قصة بلاد الصين فى عهد ما الأول ولا يزال الغموض يثقل إلى اليوم ذلك التاريخ البكر، ولنا لفظة الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار ببلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأة جديدة راجين أن يخطوا اللثام عن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوروبا إبان القرن الأخير.

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية فى وديان الأنهار العظيمة منذ زمن بعيد جداً مترعة عن الثقافة الشمسية الحجرية (الحليولية) الأولى. وكما حدث بمصر وسومر، كانت لتلك الحضارات نفس الخصائص العامة التى اُسْتُعْتُ بها تلك الثقافات، كما أنها تتركز حول المعابد التى كان الكهنة والملوك الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الموسمية. ولابد أن الحياة فى هذه المدن كانت شبيهة جداً بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين. كما أنها شبيهة جداً بحياة المايا وأمريكا الوسطى قبل ألف عام.

فلئن كانت هناك فعلاً قرابين إنسانية، فقد حل مكانها من زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ. كما أن ضرباً من الكتابة بالصور أخذت توثق قبل عام ١٠٠٠ ق. م. بعهد بعيد.

وكما أن الحضارات البدائية فى أوروبا وآسيا الصغرى كانت فى كفاح مع مترحلة الصحراء ورحل الشمال، فكذلك تكسبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحلة الضاربة على حدودها الشمالية. وكان هناك عدد من القبائل المتاخمة

لغزوطرائق جيش ، يتحدث عنها التاريخ على التعاليل ، ليجمع نفوذ المغول والترك التتار كانوا يتنيزرون بنية سمون ثم يعودون فيتحدون ، على تفرق الشاكلة التي كانت الدروب الأكرية في شمال أوروبا ووسط آسيا ، تنيزر بها وتختلج في الاسم دون الجوهر . وقد ماكت هذه الشعوب المأفولة المترحلة الحماز قبل الشعوب النورية ، ولعلمهم اكتشافوا الحديد على انفراد بمنطقة جبال آلهاي ١٠٠٠ ق.م بزم ما . كما حدث في بلاد الغرب ، فإن هؤلاء المراسين اثمريين كان يكون بينهم الفينة بعد الفينة ضرب من الوحدة العباية ، ويصبون خراة وسادة ، ويأعين العبوية في هذا الإقليم المستقر المتضرر أو ذاك .

ومن المحتمل جدا أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأى حال ، شأنها في ذلك شأن الحضارات في أوروبا وآسيا الغربية التي لم تكن يوردية ولا سامية . ومن الجائز جدا أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سدرام ، كما كانت مائلة في طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والرافيدية ، وأن ابتداء أول تاريخ مسجل للصين قد حدثت قبله فوج كثيرة واختلاط بين الاجناس .

ومما يكن الأمر فإنا نجد أنه لما وافق ١٧٥٠ ق.م ، كانت الصين مكونة فعلا من مجموعة مائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها تعترف بولاء مفكك العرى ، وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة ، وغير عمدة تقريباً . لإمبراطور كان واحد : هو ابن السماء السكاهن الأعظم . وانتهى حكم أسرة شانشي ، في ١١٢٥ ق.م ، وخلفتها أسرة تشاو ، وأقامت بالبلاد وحدة ضعيفة الأواصر امتدت - في عهد أسوكا بالهند والبطالة : مصر ، وأخذت الصين تنزف وتتعلم على التدرج في أثناء حكم تشاو ، الطويل . وانحدرت إلى البلاد شوب من البون وأنشأت الإمارات ، وتخلع الحكام المحليون الجزية وأصبحوا مستقايين . ويقول أحد نقات الصينيين إن البلاد كان بها في القرن السادس ق.م خمسة أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريباً . وهذا العصر هو الذي يسميه الصينيون في سجلاتهم باسم عصر الفوضى .

على أن عصر الفوضى كان ملائماً لنشوء شيء كثير من النشاط الفكري ، ووجود كثير من مجالات الفن المحلية والعيش المتضرر . ومنجد عندما تزداد علمياً بتاريخ (١٠ - تاريخ العالم)

الصين أن تلك البلاد كانت لها هي الأخرى مدن قامت بأدوار كالي لعبتها ميلتيوس (ملطة) وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لذا فإننا سنلزم الإيجاز والغموض في الوقت الحاضر في حديثنا عن فترة الانقسام الصيني هذه ، وذلك لأن مالدينا من المعلومات لا يكفي لصوغ قصة متماسكة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسها ظهر فيها الفلاسفة . كما نشأ في اليهودية المحملة بالمأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ في الصين المخلطة النظام الفلاسفة والمعلمون في ذلك الأوان ، وفي كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والحيرة قد بعشت أحسن العقول إلى العمل النشط . كان كونفوشيوس رجلاً أرستقراطياً الأصل تول بعض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها « لو » . وهنا ألمت به حالة شديدة المبالغة للزعة العقلية الإهريقية ، فأقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحزنه كثيراً ما ينشئ الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاختل لنفسه صورة مثل أهل لحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ ينتقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بفكراته في التشريع والتعليم وينفذها . ولكنه لم يثر قط على ذلك الأمر؛ أجل أنه وجد أميراً ؛ ولكن مؤامرات ورجال البلاط قوضت سلطان المعلم عليه وتغلبت في النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسوف اليوناني أفلاطون كان يبحث هو أيضاً عن أمير بعد ذلك بقرن ونصف ، وأنه اشتغل ردحا من الزمان ممتشداً العاطية ديمونيسيوس الذي كان يحكم سيراقوزة بصقلية .

مات كونفوشيوس محطماً الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكي القواد ليتخذني أستاذاً له ، وها قد حانت مني » ، بيد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان منى شيخوخته وتحطم رجائه ، فصارت تعاليمه ذات أثر عظيم في تكوين الشعب الصيني ، إذ أصبحت إحدى « التعاليم الثلاثة » — على حد قول الصينيين — والضربان الآخران هما تعاليم بوذا ولاهوتسى .

ويتمتع مذهب كونفوشيوس في طريقة عيش الرجل النبيل أو الأرستقراطي ، فإنه شغل بسلوك الشخص اندغالاً جوتاماً بالسلام الراجع إلى لمسانة النفس ، وانشغال الإهريق بمعرفة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصلاح ، كان أعظم المعلمين الكبار اهتماماً بالمشئون العامة ، وكان يهتم إلى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتعامساته ، كأنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء . رغبة منه في إيجاد عالم نبيل ، لذا حاول أن ينظم

السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ، وأن يدبر القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد المذهب الذى يهتم بالشئون العامة والذى يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى المثل الأعلى الذى وجدته يتطور فى عالم الصين الشمالية والذى أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتسى أحفل بالتصوف والتموض والتحايل من مذهب كرونفوشىوس . وقد شغل لاهوتسى منا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية ، والظاهر أنه كان يدعو دعوة الواقفين من حيث عدم الاتهام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يبشر فى الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب فى الناز . وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتغشتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تمقيدا وغروجا على المألوف .

وحدث فى الصين مثلبا حدث فى الهند بالضبط ، أن نشطت فكريات السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستارا سابلًا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والتاوية (التى تنسب لنفسها إلى حد كبير إلى لاهوتسى) ، كما نجد هما اليوم يبلاد الصين ، ديانة راهب ومعبد وكاهن وتقريب قرابين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلا إن لم تكن كذلك فكرا وموضوعا كديانات القرايين بسومر القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كرونفوشىوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهبا عذودا وواضحا ومستقيم المنهج ، كما أن طبيعته لم تسمح له بقبول مثل تلك التشوهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذى يخترقه نهر هوانج هو كرونفوشيا فى فكره وروحه ، وغدت الصين الجنوبية التى يخترقها نهر اليانج تسي كيانج ، تاوية المذهب والعقيدة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذى شجر بالصين بين هاتين التوجهتين : نزعة الشمال ونزعة الجنوب ، أى بين ييكن ونانكين (فيما عتب ذلك من أيام) بين الشمال المستقيم المحافظ صاحب عقلية الموظفين ، وبين الجنوب المتشكك الميال إلى الفنون والرائعى والتجريب .

وبلغت انقسامات الصين في أثناء عصر الفوضى أو من أواخرها في القرن السادس ق. م. وبلغ من ضعف أسرة تشاو وحطة شأنها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطه التنس وإلى التقاعد .

وتسلطت هـى البلاط في تلك الأيام ثلاث دول تدين ببقية اسمية للإمبراطور هـى ، تشى ، و د تسن ، وهما دولتان شماليتان ، و د تشو ، التى كانت دولة عسكرية ميلة إلى المديون في وادى اليانج تشى . وأخيرا كونت تشى حلفا مع تسن ، وأخضعتا تشو وفرضتا في البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وعالشت قوة تسن أن صارت هى الغالبة . وانتهى الأمر في زمان يقارب عهد آروكا بالهنديان استولى عامل تسن على أوعية القربان التى للإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية ، ومدونات التاريخ الصينى تسمى ابنه شى هوانج تشى (الذى أصبح ملكا ٢٤٦ ق. م وإمبراطورا في ٢٢٠ ق. م) باسم الإمبراطور العام الأول .

وكان شى هوانج تشى أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم سنة وثلاثين عاما قضاهما ملكا وإمبراطورا ويؤذن حكمه الحافل بالنشاط والاقتدار ببداية حقبة جديدة من الوحدة والرخاء الشعب الصينى . فإنه قاتل الهون المنغيرين من الصحارى الشمالية أشد القتال كما أنه بدأ ذلك العمل الحائل ، وأعنى به سور الصين العظيم ، ليحد من اعتداءاتهم .

الفصل الحادى والثلاثون

ظهور روما

على مسرح التاريخ

سيلحظ القارىء تماثلا عاما فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من
تباعد الرافعى الناجم عن الحواجز العظيمة بتغوم الهند الشمالية الغربية والكتل
الجبالية بآسيا الوسطى وأقصى الهند وقد انتشرت الثقافة الشمسية الحسرية (الميلوينية)
أولا وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفينة الحسوية بالعالم
القديم ، وأتتج حول قرايينها التقليدية نظاما قوامه المعبد والكاهن والحاكم .
وواضح أول من كون تلك الثقافة كانوا دائما أولئك الشعوب السراء
الذين قلنا أنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها المترحلة من أقالم الحشاش
الموسمية والهجرات الموسمية ، فحضرنا خصائصهم بل حتى لتتلم أحيانا على الحضارة
البدائية . وحدث التفاعل بين الطرفين ، فأنهم أضمموا وبنوها ، وغزتهم هى بدورها
إلى إحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئا وهناك
شيئا آخر .

أما أرض الجزيرة فإن الميلانيين ومن بعدهم الساميين ، وأخيرا النوردين من
الميديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها بخائر الحفر والنتيش ، وأما منطقة
الشعوب الإيبية فالإغريق فيها هم الحافظ المنبه ، وكان الحافظ الذى أعتش الهند هو
أصحاب اللسان الآرى ، أما مصر فكان اندماج التزاقيها أضعف بسبب شدة إرتباط
حضاوتها بالكهانة والكهان ؛ أما الصين فكان الكهون ينزلونها فتمتصهم ثم يمتصهم
هون جدد . وصيبت الصبغة المنولية كما صيبت بلاد الإغريق وشمال الهند بالون
الآرى ، وكما انطبع الطابع السامى ثم الآرى على أرض الجزيرة ، وكان المترحلة
يدمرون حيث يحلون تدويرا عتليا ، بيد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون دوحا جديدة
من البحث الحر والابتداع الملقى . وأحوا يتحنون مقتدات الصور السحيمة ،
فأخذوا منو النهار إلى ظلمات المعبد . وأقاموا ، لو كما لم يكونوا كهنة ولا آلهة
يل مجرد زعماء لقوادهم ووقاتهم .

وإنما نجد في كل مكان إبان القرون التي أعقبت القرن السادس ق.م أن التقاليد المتينة أصبحت إصابة ممتدة ، وأن روحاً جديدة من البحث الخلقى والذهنى قد استيقظت ، وهى روح لم يقدر لاحد بعد ذلك أن يقيمها تماماً فى خضم التقدم البشرى العظيم . فالقرأة والكتابة تصيران تحصيلاً عادياً سهل المنال لدى الأقلية الحاكمة الموصرة ، ولم تعوداً بعد ذلك سرّاً يحفظ بها الكاهن فى حرص واستئثار . ويزيد إقبال الناس على السفر ويصبح النقل أسهل وأيسر بما تدياً للناس من خيل وطرق ممتدة . وظهرت العملة المسكوكة فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسنقل الآن بؤرة من الصين فى أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربى من البحر المتوسط وهنا نجد لزوماً علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب فى النهاية دوراً عظيماً فى لشئون الإنسانية : ألا وهى مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن فى قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق .م أرض جبال وغابات قليلة السكان . وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية فى شبه الجزيرة وأنشأت مدناً وبلدات صغيرة ، كان طرفها الجنوبى كانت تنثر عليه المستعمرات الإغريقية . ولا تزال الأطلال الفاخرة لمدينة بايستم تحتفظ لنا إلى يومنا هذا بشيء من الإبهة والجلال التى كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكورة . وكان شعب غير آرى ، له من ذوى قربى الشعوب الإيجية . وأعطى به الإترسك ، وطد قدمه فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هنا الآلية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية متنوعة . وعندما تظهر روما فى ضياء التاريخ ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر التيبر ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتواريخ القديمة تجعل عام ٧٥٣ ق .م بدءاً لتأسيس روما أى بدء تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن الحفر فى السوق (الفوروم الرومانى) كشف مع ذلك عن قبور لإترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيراً من ٧٥٣ ق .م .

وفى هذا القرن السعيد الحافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق .م ، طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق .م) وأصبحت روما جمهورية أرتقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فى من عداها من عامة الشعب (البليديان) .

ولولا ما كانت تتطابق به من لسان لا تقي ، ما شعر أحد بفارق بيننا وبين كاي من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلي بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد حين قام بالإنعاش مطالبين بالحركة ونصيب في الحكم ولو استمرحنا تاريخ الإغريق لما حسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع ، ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانتهى الأمر بأن يحطم العامة (البليبيان) معظم ما كان له من امتيازات من امتيازات ، وتساووا معهم مساواة واقعية . ففضوا على احتلال البطارقة القديم وجعلوا من الميسور والمقبول لروما إن توسع مواطنيتها ، بحيث تشمل عدداً متزايداً من الغرباء . ذلك أنها ظلت رديحاً من الزمان تكافح في الداخل ، على حين كانت تمد سلطانها في الخارج .

وشرح الرومان يبسطون سلطانهم في القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دائمة مع الإترسك كانت تنتهي بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما ، قلعة إترسكية . هو قلعة فياى ، التي لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها . حتى أن الإترسك سلت بهم في ٤٧٤ ق . م تسكية جاتمة ، إذ دمر لإغريق سيراقوزة بصقلية أسطولهم .

وفي نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من الغزاة من النورديين ، هم موجة الغالة . فلما وقع الإترسك بيد الرومان والغالة ، سقطت دولتهم واختفى من التاريخ . واستولى الرومان على فياى . وتقدم الغالة إلى روما واتهبوا للمدينة (٣٩٠ ق . م) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا السكايتول . فإن صياح الأوز كشف عن محاربة الغالة للقيام بهجوم ليلي مباغت ، وانتهى الأمر بأن اقتدى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغالة إلى شمال إيطاليا .

ويلاحظ أن غلوة الغالة قد عادت إلى روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإترسك وفتحوا ، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الأرنو إلى نابلي . وقد بلغوا هذه البسطة في السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق . م يضيع سنوات ، كانت تفرحهم في إيطاليا تحدث في نفس الأيام التي تم فيها نحو قوة فيليب في مقدونيا وبلاد اليونان ، وغاوة الإسكندر الثالثة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت [مراطورية

الاسكندر ، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم الممدد إلى الشرق من بلادهم .

وكان الغالة يزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تناثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الاغريق المنشأة بما جانا جريكيا ، وأهل بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكسبها . وكان الغالة شعباً حريياً شديد المراس ، حافظ الرومان على حدودهم معهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة فأما المدن الاغريقية في الجنوب وعلى رأسها تارنتم (وهي مدينة تارانتو الحديثة) وسيراكوزة . فلم تكن تهدد الرومان فقد ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم ، وكانت تتأفف من حولها لتدس وأصرأ يعينها على هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الاسكندر إربا عند وفاته وكيف تقسمها اقارده ووفاته . وكان بين هؤلاء المنافسين أمير من ذوى قرابة الاسكندر اسمه بيروس ، وطرد ملكه في بيروس ، وراء البحر الادرياتي قبالة كعب إيطاليا ، وكان يطمع في أن يلعب من الماينا جريكيا ، دور فيليب المقدوني معها ، وأن يصبح حامياً وسيداً عاماً لمدينة تارنتم وسيراكوزة وباقى ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد في زمانه جيشاً عظيماً الكفاية ؛ كان لديه فليقي من المشاة وكثيرة وراكبة من تساليا ، كانت آنذاك تضارح في كفايتها الحياة المقدونية الأصلية ، وثم خمسة وعشرون فيل مقاتلاً ، فنزا إيطاليا وبدد شمل الرومان في موقعتين عظمتين إحداهما معركة هراقليا (٢٨٠ ق . م) والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق . م) . ولما تم ذلك دفعه نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

بيد أن هذا جلب عليه عدواً كان في ذلك الحين أرهب جالبا من الرومان ، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية ؛ إذ كانت آنذاك أعظم مدن العالم ، إذ كانت صقلية قريبة من القرطاجيين قرباً لا يستطيعون معه أن يرحبوا بجمعهم إسكندر آخر جديديها ، كان قرطاجنة كانت لا تزال تذكر المصير الذي حن بأهلها قبل ذلك بنصف قرن ، لذلك أرسلت أسطولاً به جمع روما - أو يرغها - على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات بيروس ، فوجد الرومان مهاجرة من جديد ، وينظمون بنفس سباحق هجومها قام به على معسكرهم في بنقنتم بين نابلي وروما .

وعلى حين بغتة وردت إليه أباء اضطرت له العودة إلى (بيروس) . فلن الغالة أخذوا
يفيرون من الشبان إلى الجنوب كما دت لهم ، ولكنهم لم يكونوا يفرون في هذه المرة على
بلاد إيطاليا ، إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسة ، أمتنع من أن
يستطيعوا لها اختراقا لذا كانوا يفرون الآن جنوبا عبرتين إلى (إيربا) وهي الآن ألبانيا
وبلاد الصرب (إلى مقدونيا وإبيروس وتحتل بيروس عن أطرافه في الفتح وعاد إلى
بلاده (٢٧٥ ق . م) بعد أن صدّه الرومان . وأحدق في البحر خطر القرطاجيين ،
ومدد الغالة بلاده ، على حين خلا الجور لروما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا .
وكانت تقوم على الجانب الصقل من المضيق مدينة مسينا الإغريقية ، وسرعان
ما وقعت هذه البلدة في قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك
سادة صقلية أو يكادون ، كما كانوا خلفاء لسيراكوزة ، فكان من الطبيعي أن
ينضموا لقمصاء على القراصنة (٢٧٠ ق . م) وأن يضموا في المدينة حامية قرطاجية .
ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون للمون منها ، وأصغت روما لشكايتهم . وهكذا
التفت دولة قرطاجنة التجارية المنظمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح
الجديد : الرومان وأخذوا يتبادلان نظرات العدواة والبغضاء .

الفصل الثانى والثلاثون

بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ هـ السنة التى ابتدا فيها المكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذى يسمى باسم الحروب البونية . وفى تلك السنة كان أسوكا يستمل حكمه فى بهار ، وكان شى هوانج فى طلائى نيرا ، وكان متحف الإلكندر لا يفتأ ينتج لإنتاجا هليا لأبأس به ، كما كان الغالة البرابرة قد حلوا عند ذاك فى آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية على برجمائة .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لاتزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مفرامية لاسليل إلى التئاب عليها . ولعل بقية الإنسانية لم تسكن تسمح إلا الشائعات الغامضة المقتضبة من ذلك القتال الذى دارت رحاه قرنا ونصفا فى إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا والبحر المتوسط العربى ، ذلك القتال الذى نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين روما الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها فى مسائل لاتزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآرى والساسى كتب له أن يندرج فيما بعد تحت المكفاح الذى نشب بين غير اليهودى واليهودى .

وأخذ ركب التاريخ يقرب الآن من أحداث لاتزال دواقبا وتقالدها المشهورة تعنق في منازعات اليوم وخسوماته بشالة ضئيلة من حيوية تلتظ آخر أنفاسها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يهود عليها بالتعبد والاضطراب .

ابتدت الحرب البونية الأولى فى ٢٦٤ ق.م بسبب قراصنة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجملها عدا ملكات ملك سيرا قوره الاغريق . وكان لقرطاجيين التفوق البحرى فى مبدأ الامر . فكانت لهم سفائن حربية كبيرة لم

يسمع حتى ذلك الحين يمثل حجمها ، وهي الخاسيات أي السفن ذات الصنوف الخمسة . من المجاديف والسكيش الضخم (١) . وكانت أعظم السفن في معركة سلاميس ، قبل ذلك بقرنين من الزمان ، هي المثلثات ، وليس لها إلا ثلاثة صفوف . ولكن الرومان لعبوا أنفسهم حيلة عارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمور البحرية . فتنفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن . وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق في تسير الأساطيل الجديدة التي أنشأوها ، ولكي يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق في الملاحة ، اخترعوا طريقة إمسك السفن الأعداء بالكبايش (بالكلابات) واختلتها ، فإذا أقبل القرطاجيون لصلك مجاديف الرومان بالكبايش أو قطعها ، تعلقت كبايش ضخمة من الحديد بسفنهم ، وتراحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القرطاجيون في كل من ميلاي (٢٦٠ ق م) وإيكوناهاس (٢٥٦ ق م) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة قرب بالرمو ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة . وأخذها الرومان وجعلوها زينة لأكعب لصر عظيم اشترق النور ولم تر روما له من قبل نظيرا . ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، ومالبشوا أن يذلوا آخر مالدتهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية في معركة الجرار الآيجانية (٢٤١ ق م) ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح ، وتحظت للرومان من صقلية بأكلها فيما هدامت تلكات هيرون ملك سيراقرزة .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لسكل منهما من المشكلات الداخلية ما يشغله . فإن الغالة انحدروا جنوبا في إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما . (لحملها اللع على تقديم القرابين البشرية للآلهة ١١) - ثم دحروا ويدد شلهم في معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قداما إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بحذاء ساحل البحر الإديرياتي حتى اليريا وكابيت . قرطاجنة الأهل دائما كان بها من ثورات داخلية وما حدثت في قورسيقة وسمردينية من فتن ، على أنها لم تبلغ ما بلغت روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استولت روما على الجزيرتين والحقتها بها ، وهو عمل عدواني لا يطاق . وفي ذلك الأوان كانت إسبانيا حتى نهر إبرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم .

(١) السكيش نوع برأس كيش ناشز من سفينة لإطلاق سفن الأعداء .

عليها الرومان. تجاوز ذلك الحد، فاذا هربت قرطاجنة نهر الإبرو، عد ذلك عملاً حربياً معادياً للرومان. وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة في ٢١٨ ق.م إزاء إعتداءات جديدة للرومان، إلى عبور ذلك النهر، فلما بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال، وهو قائد من ألمع القواد على مر التاريخ كله. فسير عليها جيشه غزواً إسبانياً وعبر جبال الألب إلى إيطاليا، وهناك أثار الفاقة على الرومان، وواصل الحرب البونية الثانية في إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاماً. وأزلى بالرومان هزائم قاذحة في معركة بحيرة تراسيميني وكاناي، ولم يستطع أي جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكلها أن يقف أمامه دون أن يخضع له الهزيمة. غير أن الرومان أنزلوا عند مرسيليا جيشاً قطع مواصلاته مع إسبانيا، وكانت تعوزها أدوات الحصار ومعداته، كما أنه لم يتمكن أبداً من الإسقيلاء على روما. واضطر القرطاجيون آخر الأمر لإزاء ثورة قام بها الثرميديون في أرض الوطن، أن يرتدوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية، وهنا عبر جيش روماني البحر إلى إفريقية. ولحق هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسرار المدينة في معركة زاما (٢٠٢ ق.م) على يديسييون الأفريقي الأكبر.

وكانت معركة زاما هي خاتمة الحرب البونية الثانية، واستسلمت قرطاجنة، وتنازلت لروما عن إسبانيا وعن أسطولها الحربي، ودفعت لها تعويضاً هائلاً، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان ليفتقدوا منه، لولا أن هانيبال نجح من قبضتهم وفر إلى آسيا حيث تجرع السم ومات عندما أحس أنه موشك أن يقع في قبضة أعدائه البلاط الأكياد.

وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستظللان في أمانهما السلام. وراحت روما في نفس الوقت تسيطر سلطانها على بلاد الأخرى المتطرفة المتقسمة على نفسها، وتغزو آسيا الصغرى وتغزو أنطيوخوس الثالث الملك السلوقي عند مدينة ماغنيسيا في ليديا، ثم جاء دور مصر، وكانت لا تزال تحت حكم البطالة. كما جاء دور برماجر معظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى، لحزنها روما إلى حلفاء لها، أو دول محمية، كما قد نسميها اليوم.

وذلك في حين كانت قرطاجنة الدلية الضعيفة قد أخذت تستردق بطشيتا من رخاينا السالف، فأرسلت عليها حقه الرومان ومخاوفهم، فهاجموها (١٤٩ ق.م).

الأسباب تافهة مفتعلة إلى أقصى حد، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة .
 — وتعملت حصار أطول يلثم فتحت عنوة (١٤٦٦ ق م) . واستمر القتال — أو قل
 «المذبحة» — في الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا دموياً بشعاً . وعندما سلبت القمامة لم
 يمكن على قيد الحياة من أهالي قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفاً
 تقريباً ؛ فيموا بيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدمر أوسير الخمرات في
 أنقاضها المسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليسكون ذلك شاهد أعلى نحو هارسميا .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة ، ولم يبق مستمعا بالحرية من الدول والمدن
 السامية التي ازدهرت في العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وجديق تحت
 حكم حكام من أمهله . ذلك القطر هو يهوذا (جوديا) التي حررت نفسها قبل ذلك من
 أيدي السلوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء المكابيين الوطنيين وكانت التوراة قد
 تمت في ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تتطور آنذاك على أيديهم التقاليد المميزة
 للعالم اليهودي على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعي أن يلتبس القرطاجيون
 والفينيقيون وذوو قربانهم من الشعوب المبعثرة في أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم
 تتمثل في ألسنتهم المتقاربة ، وفي هذا الأدب الذي يبعث فيهم الأمل ويملزمهم بالشجاعة ،
 وكانوا لا يزالون إلى حد كبيرهم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه ذلك أن العالم
 السامي لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم في ٦٦ ق م التي كانت على الدوام رمز اليهودية
 لأمركزها ، وبعد أن تغلبت عليها تصاريح متنوعة من شبه استقلال وثورات ،
 حاصروها في سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان
 دمارها النهائي بعد ثورة أخرى شبت في ١٣٢ م ، فأما أورشليم التي نعرفها اليوم
 فهي مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم في مكان الهيكل معبد للرب الروماني
 «جوبيتر» ، وحرم على اليهود سكنى المدينة .

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الإمبراطورية الرومانية

كانت هذه الدولة الجديدة التي مازالت تملوحتي تسلط على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، شيئا آخر يختلف في كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم المتمدن حتى ذلك الوقت. لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كما لم تكن من خلق فاتح عظيم بعينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ، فقد تسلط أثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الحليفة والتابعة ، وكانت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما سيدة لقورسيقة وسردينية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم إسبانيا وصقلية ، بيد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشق التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهداً ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما من أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعوبا ومناطق جديدة كل الجدة .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وإسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو برطانيا في الشمال الغربي بجنائز ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالا بشرق إلى المجر وجنوبي روسيا ، ولكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبداً أن تحفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الإدارية .

ومن ثم فند كانت تضم حشوداً هائلة من شعوب نوردية جديدة ناطقة بالآرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريباً ، وكانت دامت لها بالعبء العامية والسامية أضعف كثيراً من أية إمبراطورية سالفة .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى في هوى السوابق والتقاليد الجامدة ، التي سرعان ما ابتعدت في جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية ، وإنما كانت في كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام الميدين والقرى كانوا يعلبون تماما بالصباغ البابلي في مدى جيل واحد تقريبا ، فكانوا يتخذون تاج ملك الملوك ويتقبلون معابد آلهته وكنائسها ؛ فصار الإسكندرو وخلفاؤه في نفس ذلك السهل طريق التمثيل ؛ واتخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التي كانت لتبوء نصر وأصبح البعالة فراعنة وتعمروا تعمرا تاما . فامتصتهم البلاد على نحو ما امتص الروميون غزاتهم الساميين .

أما الرومان فلم كانوا يحكمون في مدينتهم الخاصة ، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التي أملتها طبيعتهم الخاصة . والشعب الوحيد الذي كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثاني أو الثالث الميلادي هو أبناء قرابتهم الإغريق الذين يشبهونهم لذا كانت الإمبراطورية الرومانية في جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بمحنة تقريبا . كانت حتى ذلك الزمان طرازا جديدا لا مثيل له في التاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة . ولم يتبقى لديها الطراز القديم القائم على فلاح فرد يحكم مدينة رئيسية تحت - حول معبد لرب - هاد . كان للرومان - لا جرهم - آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت - كآلهة الإغريق - آلهة من أشباه البشر المخلدين أو النبلاء الأقداس . وكان الرومان أيضا يسفكون الدماء قربانا . بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قربانا إذا أمنت بهم نازلة ، وهو أمر أولهم تعلموها من أساتذتهم الإترسك السمر ، ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزم من مديد ، أن قام الكاهن أو المعبد بأى نشاط سياسي كبير في تاريخ الرومان . كانت الإمبراطورية الرومانية جسما ناهيا جديدا لم ترسم له خطة . وولفت الشعب الروماني إذا هو يعمل من غير وهى منه تقريبا في تجربة إدارية هائلة ليس في الإمكان أن تمتع بالتجربة الناجحة . إذ إن إمبراطوريتهم ترامت إلى الأبد التام في النهاية . كما أنها كانت تنير شكلها وأسلوبها تنيرا هائلا من قرن إلى قرن . كان التنير الذي يحدثها في مائة عام أعظم مما كان يحصل في البقال أو أرض الجزيرة أو مصر في ألف سنة . كانت دافعة التنير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال . فدللت التجربة بمعنى ما كآنها لا تزال - بمعنى ما - ناقصة غير مستقلة . ولا تزال .

أوروبا وأمريكا في يومنا هذا تحمل أثار السياسة العالمية التي واجهها الشعب الروماني لأول مرة .

ومن الخير أن يذكّر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التي ألمت ، لا بالأُمور السياسية وحدها ، ولكن بالإنسانية والأخلاقية التي استمرت طيلة فترة سيادة الرومان . وكثيراً ما ينجح بعض الناس إلى إظهار شيء من المبالغة حين يزعمون أن الحكم الروماني كان شيئاً مثقناً تكوّن وجدد الأركان ، وأنه كان حكماً حازماً وكاملاً ونبيلاً وحاسماً . هذا كتاب ما كولي المسمى « أناشيد روما القديمة » S. P. Q. R. = Laws of Ancient Rome ^(١) ، لو اطّلت عليه لوجدت فيه كثير الأسن . وأفراد أسرة سايون وبوليوس قيصر ودقلديانوس وقسطنطين الأكبر ، وهواكب النصر والحطب وحصارعات المجالدين واستشهاد المسيحيين مختلطة بعضها ببعض في صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسياً ومريعاً .

ولابد لك من تحليل تلك الصورة وتخلص أجزاءها بعضها من بعض . ذلك أنها قد جمعت احتباطاً من مواضع مختلفة ، من عملية تغير أعمق من ذلك التغير الذي يفرق بين لندن في عهد وليم الفاتح وهدنا الراهن .

ورغباني التيسير فقدم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ، ابتدأت المرحلة الأولى منها بنهب الغالة لروما في (٣٩٠ ق م) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى في (٢٤٠ ق م) . وقد يجوز لنا أن نسمي هذه المرحلة باسم مرحلة الجمهورية المثقلة ^(٢) . ولعلها كانت أروع مراحل التاريخ الروماني وأشدّها تميزاً . ففي أثناءها كانت المنازعات العاقبة الأمد بين البطارقة (الأشراف) والعامّة تقرب من نهايتها ، وزال خطر الإرتكك ولم يكن هناك تفاوت عظيم في الثراء . فلا غنى فاش ولا فقر مدقع ، وكان معظم الناس ينزهون إلى الحرص على المصلحة العامة . كانت جمهورية كجمهورية البوير في جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

(١) S. P. Q. R. مناهما مجلس شيوخ روما وشعبها

(٢) المثقلة : البذل المحمّل بغيره . لمادة ممانعة كالعلماء في الجـم . والجمهورية هنا كانت تمثل غيراً من الشعوب والدول . [لترجم]

النشالية في الاتحاد الأمريكي بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ ؛ هي جمهورية فلاحين أحرار . وكانت روما تستهل هذه المرحلة دوية صغيرة لا تمكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلا مربعا ، وكانت تقا تل ذوى قرباها من الدول القوية الشكسية المحيطة بها وتحاول الانقلاب وإياها فإن دوى تدميرها وتدريب شعبها في أثناء قرون الفترة الأهلية والكنعنة على التراخى والتساهل . فإن بعض المدن المنزومة أصبحت رومانية تماما لها نصيب من التصويت في الحكومة . وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح للأفراد بالانحياز في روما ومصارمة أهلها ؛ وكانت الحمايات المألقة من مواطنين يستثمون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحربية الهامة ، كما أن المستعمرات المتنوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهرالى الشعوب المحتلة حديثا . وأنشئت الطرق الطائفة . وكان صين إيطاليا السريع بالصباغ اللاتيني هو النتيجة المحتمة لمثل هذه السياسة . ففي (٨٩ ق . م) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما يستثمون بالحقوق الوطنية الكاملة ، وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة مبسطة الرقعة . وفي ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حرق طول الإمبراطورية وعرضها ، أى الحق في أن يعطى صوته في اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولا .

وهذا التوسع في بسط حقوق المواطنة على المدن سهلة الضبط وعلى أقاليم با كلها كان الوسيلة المميزة لتوسع الروماني . وهو الذى قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب ، طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الفاتح هو الذى يتمثل المقهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وحزم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التثليل القديمة . ذلك أن حقلية مثلا هو ملت معالجة فريسة مقبورة . فأعلنوها مزرعة ، وأصبحت الروماني واستولت أرضها الخصبة وجمود شعبها المجد في سبيل زيادة قراء روما . وكان الأشراف وذو النفوذ من العامة يحصلون على التخصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضا فضا من الأرقاء . وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يتكونون في معظم حالاتهم من مواطنين أحرار من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذى يتنازون به وتبنتهم المستولة منهم . وكانت الديون تركب مزارعهم حين ينشغلون في الخدمة العسكرية العاملة ، فانتشر

فى طول البلاد وهرضها نوح من الإنتاج الزراعى الكبير القائم على الرقيق ؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محصولاتهم تنافسها المحصولات التى أنتجها الرقيق بصفلية وبالمزارع الجديدة الضخمة بأرض الوطن. وتغيرت الأيام وبدلت الجمهوريّة سجاياها . فلم يقتصر الأمر على أن صفلية أصبحت فى قبضة روما ، بل إن الرجل العادى أصبح فى قبضة الدائن الغنى والمنافس الغنى . بذلك دخلت روما فى مرحلتها الثانية ، وهى جمهورية الأغنياء المغامرين .

وظل الجند الرومان المزارعون مائتى سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك فى حكم دولتهم ؛ بعد أن ظلوا مائة عام يتمتعون بامتيازاتهم . ولكن الحرب البونية الأولى بددت قواهم وسلبتهم كل ما كانوا غنموه .

وتبخرت أبهى قيمة امتيازاتهم الانتخابية . وكانت فى الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان . الأولى منهما والأكثر أهمية هى مجلس الشيوخ (السناو) وكان هذا المجلس فى الأصل هيئة من الأشراف ، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات ، وكان يدعوهم إلى جلساته فى البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان ، هم القناصل والرقباء^(١) (Censors) . وإذا ما أصبح كجلس القوردرات البريطانى جمعية تضم كبار أصحاب الأراضى والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إلهم . كان أقرب إلى مجلس القوردرات البريطانى منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكى وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية . وهو مركز الفكر الرومانى السياسى وقلبته . وكانت الهيئة الثانية هى الجمعية الشعبية ، التى كان مفروضا أن تقدم مواطنى روما جميعا . وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دولة مساحتها عشرون ميلا مربعا . أما وقد بسطت حقوق روما المدينة إلى ما وراء حدودها ، أصبحت هيئة عقيمة . وأخذت اجتماعاتها التى كان يعلن افتتاحها بالنفخ فى الأبواق من السكايتول وأسوار المدينة . تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من المأجورين السياسيين ورعاى المدينة . ومن قبل كانت الجمعية الشعبية فى القرن الرابع ق . م رادها قويا يكبح مجلس الشيوخ ، وكانت غير من يمثل مطالب الشعب وحقوقه ، ولكنها استحالته عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لاختول

(١) كان لروما رقبان مهمتهما عديدة الحقوق المدنية للأفراد والمحافظة على الآداب العامة .

له لرقاية شعبية محنة . فلم يبق هناك أى رداع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخل في الجمهورية الرومانية أى شيء من قبل الحكومة التشريعية النيابية ، ولم يفكر أحد البتة في انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين . وهذه مسألة هامة جدا ينبغي للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين ، ولكنها من الناحية العملية تعطلت تماما عن أن تكون شيئا يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى في الإمبراطورية الرومانية كان في حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية ، كان الفقر قد حل به ، إذ ضاعت مزرعته في الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج الجبرى ، كالم يبق في يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموهب ، فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبى كشف حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والعصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لا تخرج عن قصة حركات ثورية غير مبددة . على أن حجم هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث أنواع كفاح ذلك العصر المقتدة ، ولا حديث المحاولات التى بذلت لتفريق المزارع الكبرى ورد الأرض للزرايع الحره ، ولا حديث المقترحات التى قدمت لإنشاء الديون جملة أو جزئيا . وجاء القردون تشبث الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا في ٧٣ ق . م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتا كوس ، وكان لثورة رقيق إيطاليا شيء من الأثر ، إذ كان فيهم كبار المظالمين في سفلات المجالدين (١) . وظل اسبارتا كوس صامدا سنتين في قوة بركان فيهنوف ، الذى كان خامدا في ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأخذ العصيان بقسوة جنونية . فصلب ستة آلاف من أتباع اسبارتا كوس على جانبي الطريق الأيبانى ، وهو الطريق العظيم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق . م) .

(١) المجالدون (Gladiators) : المصارعون في العيد الرومانى ، وكانوا يقاتلون بالسلاح وجلا ملهم أو وحشا ضارية . وهى رياضة وحشية كانت تروق الرومان . وكان هذه المبارزة كان يسمى بالمجد (Arena) [للترجم]

حلم بدر بخلك الرجل العادى قط أن يقاوم القوى التى كانت تخضعه وتخط من قدره .
يبد أن الاغتياء الكبار الذين تغلبوا عليه كانوا حتى بعد أن أولوا به اذينة يصرون
قوة جديدة فى العالم الرومانى مالمشت أن تغلبت فى النهاية عليها جميعاً : هى
قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يشكون من جند المزارعين الأحرار
الذين كانوا يسرون إلى المعركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع
من القوات نافعاً جداً فى الحرب طالما كان ميدانها قريباً ، ولكنه ليس من نوع الجيوش
التي تذهب إلى خارج البلاد وتحمل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجده . وفنلاً عن
ذلك فقد ترتب على تكرار الرقيق وورقاع المزارع الكبرى ، أن تناقص عدد المقاتلة
من الفلاحين الإلابة الأحرار ، ثم ظهر قائم شمسى هو ماريوس فكان له الفضل فى إدخال
عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أسي بعد أن ذهبت ربح الحصار فى القرى ملاحية دولة
شبه مبنية ، هى ملك كوتوميديا . وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجر ثاملك
تلك الدولة ، فكان بدأ أحوال كثيرة فى التغلب عليه ، حتى إذا صار القصب فضياً لكرامته
أحضر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلاً عاماً للبلاد ، لينهى الحرب الشائنة . وتم
له ذلك بمجمعه الجند المأجورين وتدريبهم تدريباً شديداً .

وأحضر جوجر ثا إلى روما مكبلاً بالسلاسل (١٠٦ ق م) ، فأما ماريوس فإنه
تثبت بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمسك به استمساكاً غير شرعى
تظاهره كتابته المنشأة حديثاً ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صدده
ومقاومته .

وبظهر ماريوس ابتداء الدور الثالث فى تطور الدولة الرومانية ، وهى جمهورية
القواد العسكرية ، فالآن ابتدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب المأجورين يقابلون
على سبيل السيطرة على العالم الرومانى . وثار على ماريوس قائم أو ستراطي هوسلا ،
الذى كان يعمل تحت إمرته بإفريقيا . وقام كل منهما بدورته يمثل السيف بشدة فى
خصومه السياسيين ، فكان الرجال يهرمون من حماية القانون ويعدمون بالالق ، كما
تباح مزاولهم ، وبعد المنافسة الدموية التى أخطرت بين هذين الرجلين وبعد الحرب
«لدى ملائكة النفس من جرد عصيان أسياوفا كوس» جاء طرد كان فيه لوكولوس

وبومبي الأكبر وكراسوس، ويوليوس قيصر أمراء على الجيوش ومسلطون على
مقابيل الشئون. وقد هزم أسبارتا كوس على يد كراسوس، ولما لو كولوس في
فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية، ثم تقاعد متمتعا بثراء هريض في حين أن
كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون (الاشقائيون) وقتلوه.
وبعد منافسة طويلة، انزعم بومبي أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق. م) ثم قتل
بحرص تازكا يوليوس قيصر وحده سيدا على العالم الروماني.

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثارَت في الخيال الإنساني هزة أضاعت كل
أسباب التناسب بينها وبين قيمتها وأبعادها الحقيقية، فقلوب أصبح رمزا. وعندي
أن أهميته تنحصر بوجه خاص في كونه التذير الذي يؤذن بالانتقال من طور المغامرين
المسكرين إلى بداية المرحلة الرابعة لتوسع الروماني: وهي الإمبراطورية
الأولى، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج
على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية. وعلى الرغم
من الحروب الأهلية والاضطلال الاجتماعي؛ وما زال تلك الحدود تزحف نحو
الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالي ١٠٠ ميلادية.

أجل حدث للحدود شيء من الانكماش في أثناء فترات الشك والتخوف التي رافقت
على البلاد في الحرب البونية، كما كان هناك هبوط ظاهر في الهمة في المدة التي سبقت
إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس، وكانت ثورة أسبارتا كوس أمارا آذنت
بدور ثالث، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربي في بلاد الغالة،
وهي تسمى الآن فرنسا وبلجيكا، (كانت أهم القبائل التي تسكن ذلك القطر تنتسب
إلى نفس الشعب الكلت الذي كان ينتمي إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا وحدث
من الزمن، والذين أغاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم
الغلاطيون). صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان، ثم ضم القطر كله
إلى الإمبراطورية، كما أنه بر مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ و٤٤ ق. م).
غير أن فتحة تلك البلاد لم يدم طويلا، وفي نفس الوقت كان بومبي الأكبر
يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التي بلغت في الشرق بحر
قزوين.

وفي ذلك الوقت، أي منتصف القرن الأول ق. م، كان مجلس الشيوخ الروماني

لا يزال هو المركز الاسمي للحكومة الرومانية ، وهو الذى يمين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية وللاحتفاظ لها بالاحترام وهيبة القوانين ، بيد أن بواحد المواطنين روحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضم الفلاحون الأحرار وتفوقوا بددا ؛ فقد استحال البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال هنهم الفقر ينابه جرموا نعمة الفهم والرغبة في الحرية ، ولم يكن ثمة شيء يناصر هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تحشد من وراء المغامرين الكبار الذين كان المجلس يحشى بأسهم ويغنى إخضاعهم وكان كراسوس وبومبي وقيسر يتقاسمون فيها بينهم حكم الإمبراطورية منتظمين السناتو في ذلك (وهم الحكومة الثلاثية الأولى) وعندما قتل الأشعانيون كراسوس بعد ذلك بمنطقة كارهاى البناية ، دب الخلاف بين بومبي وقيسر ، فاتصرو بومبي للبادى الجمهورية ، وصدرت القوانين بسماكة قيسر على ما ارتكب من خرق للقانون ، وعلى عدم إطاعته لأمر اسم مجلس الشيوخ .

ولم يكن القانون يبيع لاي قائد أن يتجاوز بجندة دائرة حدود قيادته . . . وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيسر وبين إيطاليا هو نهر الروبيكون [إقليم توسكاني] . وفى ٤٩ ق.م عبر قيسر نهر الروبيكون قائلا : « الآن رميت القنطرة سبق السيف المثل » ثم دحف بجيشه على بومبي وروما . .

وقد جرت عادة روما في الماضي ، أن تنتخب في الفترات العسكرية العصيبة دكتاتورا بهد سلطات غير محدودة تقريبا ليحل الحكم فيها في أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيسر على بومبي عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة في (٥٤ ق.م) . والواقع أنه جعل عاملا للإمبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الاحاديث في شأن الملكية للملك ، وهي كلمة بنضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بنصف قرون . ورفض قيسر أن يكون ملكا ، بسبب أنه اتخذ العرش والصولجان .

وكان قيسر قد واصل زحفه إلى مصر بذهاب بومبي ، وأشد مطارح كايو بطارقة

الفرام ، وهي آخر البطالة ، وملكة مصر الربية ، ويولوج أنها لغيره رأسه تماما وعاد
قيصر إل روما حاملا معه فكرة الملك المؤله ، المصرية . وشاهد ذلك أن تمثال
أقيم من أحد المعابد وعليه عبارة نصها : « إل الإله الذي لا يقهر ، ولآخر مرة
انبدل من الروح الجمهورية المنخفضة بروما ليلب احتجاج أخير ، وطعن قيصر
بالحناجر حتى قضى نحيب في مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه المصرع بومبي الكبير

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة ،
وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من لييدوس ومارك أنطونيوس وأوكتافيوس
قيصر ، وهو ابن أخى يوليوس قيصر وأخذ أوكتافيوس كدنة الولايات الغربية
الأشد فقرا والأقوى شيكة . والتي كانت تجند منها أحسن الكتائب ، وتمكن
في ٢١ ق . م من هزيمة مارك أنطونيوس منافسه الخطر الوحيد في ممركة أكتيوم
البحرية ، وبذلك جعل من نفسه السيد الأورح للعالم الرومانى .

هل أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليو ليوس قيصر .
فلم يخامره أى حنين طائش لأن يصبح إلها أو ملكا . ولم تكن له مشوقة يريد
أن يهزها بضيائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن تصبح
دكتاتوراً . وغلب الشكر على السناور فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان
بدلا من صورته العكسية : أجل لم يلقه حقا بالملك ، بل أطلق عليه لقب «الأمير»
ولقبه بـ «أوغسطس» . ثم أصبح لقبه بعد ذلك «أوغسطس قيصر أول أباطرة
الرومان (٢٧ ق . م إل ١٤ م) .

وخلفه تييريوس قيصر (١٤ م - ٢٧ م) وأعقب هذا آخرون ، هم كاليغولا
وكلوديوس ونيرون ، وهكذا حتى جاء ترجان (٩٨ م) ، وهارديان (١١٧ م)
وأنطونيوس بيوس (١٢٨ م) وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠ م) ، وم
جيمنا أباطرة كاتب ، فالجندم الذين نصبهم ، والجندم الذين قتلوا على بعضهم ،
وأخذت سلطة مجلس الشيوخ تنقل شيئا فشيئا وتوارى من التاريخ الرومانى ،
بينما جعل الإمبراطور وموظفوه الإداريون يدلون على .

عند ذلك كانت جذود الإمبراطورية قد ترامت نحو الخارج إل أقصى حد لها ،

خضع الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية . ثم ضمت ترانسلفانيا بوصفها مقاطعة جديدة أسميت داكيا ، وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفور بما حدث في الطرف الآخر للعالم القديم . فانه — شأن شئ هوانج تى — شيد الأسوار ليصد برايرة الشمال . فبنى أحدها عبر بريطانيا من اليمين إلى اليسار ، ومد الحواجز الدفاعية بين نهر الراين والدانوب ، وتخلل عن بعض ما استولى عليه تراجان .

فان توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

الفصل الرابع والثلاثون

بين روما والصين

يؤذن القرنان الثاني والاول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة في تاريخ البشرية. فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر المتوسط الشرق مركز الاهتمام. أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدهارها بالسكان ورغدتها المتوسط، بيد أنها لم تعودا بعد الإقليمين المتسلطين على العالم. إذ إن القوة انتقلت غربا وشرقا، وآل لسيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين: تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة، وإمبراطورية الصين الحديثة النروضة والبحث.

ومدت روما سلطانها إلى نهر الفرات، غير أنها لم تستطع ألبتة تجاوز ذلك الحد لقرط بعده عنها. ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين العابقة بالهند وفارس إلى عدد من سادة جدد.

أما الصين - التي كانت آنذاك تحت حكم أسرة د هان، التي خلفت أسرة تشين، هندوقة شي هوانج في - فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت وفوق غمرات هضبة البامير الجبلية العالية. ولكنها بلغت هناك أيضا حدها الأقصى، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد.

وكانت الصين في ذلك الزمان أعظم نظام سياسي في العالم وأحسنه تنظيما وأكثر تمدنا. كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج مجدها. من هنا يقين إذن أن هاتين الدولتين العظيمتين قد أمكن أن تزدهرا في عالم واحد ووقت واحد دون أن يعلم إحداها بوجود الأخرى. ذلك أن وسائل المواصلات في كل من البحر والبر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكافية بالاحتكاك المباشر بينهما.

على أن التفاعل المباشر تم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جدا، وكان تأثيرهما عاقبة أشد بـ

في معبر الأقاليم التي تقع بينهما وهي آسيا الوسطى والهند : إذ إن قدرا بئس من التجارة كان يترقب في تلك الأقاليم على ظهور الجبال بطريق القوافل عبر بلاد فارس . مثلا ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر .

وفي ٦٦ ق . م زحف الجنود الرومانية بقيادة بومبي مفتية خطى الاسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين . وفي ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادته بان تشاو ، وأرسلت معه وبها ليقدموها لها التنازير عن قوة دولة الرومان . ولكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تنبأ بالعلوم المحددة والعلاقات المباشرة أن تربط العالمين العظيمين التوازيين ، عالمي أوروبا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تنبسط البراري الهمجية المتبررة . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليما تكسو الغابات معظمه ، على حين كانت الغابات تتوغل قدما في صميم روسيا ليستوطنها الثور الجبار (الأورك) ، الذي يقارب حجمه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من السكتل الجبلية الآسيوية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب تسمى بعد الغابات والأراضي المتجمدة ، ويقع مثلث منشوريا العظيم في المنبسط الواقع شرقي المرتفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبي روسيا والتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتة المناخ إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأمطار تغيرا كبيرا في مدى بضعة قرون . فهي بلاد غادرة تخون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهي ممتلئة بالحشائش والكلاب الذي يفت (١) السكان ، ثم تجيء فترة انخفاض في الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقصع المهلك .

والجزء الغربي لهذه المنطقة الشمالية الهمجية الممتد من الغابات الألمانية إلى جنوب روسيا والتركستان ومن جوتلند (بالسويد) إلى جبال الألب هو الأرض الأصلية للشعوب النوردية والسان الآري . كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هي منبع الشعوب الهورية أو المنغولية أو التتارية أو التركية . ذلك أن كل هذه

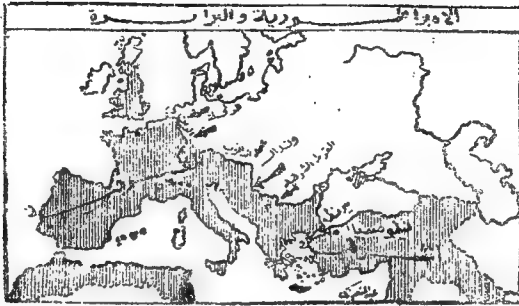
(١) يفت السكان : يرزقهم ويطعيم الفوت ويحولهم من (فات يفت قوتا) .

لشعوب المتعددة كانت متماثلة في اللغة والمنصروطريقة الحياة ؛ وكما أن الشعوب النوردية كانت تطلق دائماً فيما يظهر على حدودها ، وتحفظ جنوباً على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهوتية ترسل فاضتها على صورة جوالين ومترجلين ومغربين وفاتحين في أقاليم الصين المأهولة بالمستقرين . وكانت قترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تمنى زيادة عدد من بها من السكان ؛ ولكن إذا حدث نقص في المشب أو جلت نوبة من نوبات طاهون الماشية ، ولم يكن مفر من أن يؤدى ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياح المقاتلين الأشداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه في العالم لإمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة . بل دفع خط السلام الإمبراطورى إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تحتفظ من شمال الصين إلى قلب منغوليا متخطيا قريبا لا ينقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء النور العظيم ، وكان الفلاح الصينى ومعه المحراث والحصان يتقدم فى إثر حارس الحدود الإمبراطورى ، فحرث منابت السكلا ويحيط المراعى الشتوية بالسياجات . وكانت الشعوب الهوتية تغير على المستقرين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التأديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحل بد من الاختيار بين أحد أسرين ، فإما الاستقرار فى حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإما الرحيل طلباً لمراع صيفية جديدة . وسلك بعضهم الطريق الأول فاجتلت بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقى أو نحو الشرق من فوق الممرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان الغربية .

وهذا الانتقال غربا نحو النخالة المغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق.م ؛ وكلما حدث . دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضطط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التى هم على استعداد لإغترافها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وبناء الأشقائيون (البارثيون) ، وهم فيما يظهر شعب أشقوروى تخالطه بعض شوائب مغولية) ونزلوا أرض الفرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، فقاتلوا يومى الكبير فى غارته على بلاد تالشق وعزموا كراسوس وقتلوه ، وأنزلوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس .



خريطة رقم (٧)

وتهدلوا بهم ملوكا من الاشقائين ، هي الاسرة الارشكية (١) .

ولكن جاء زمان كانت فيه اضعف مناطق المقاومة للرحل الجياح لاتقع في الغرب ولا في الشرق ، بل تسير في آسيا الوسطى ، ثم تنحرف جنوباً بشرق عابرة ممر خيبر إلى بلاد الهند . فالهند هي القطر الذي تلقى حركة الانتقال المغولية إبان هذه القرون التي قويت فيها شوكة الصينيين والرومان . واثاثت موجات متكررة من الفاتحين والمغربين خلال إقليم البنجاب حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهياً وتخريباً ، فتمزقت إمبراطورية آسوكا ، وانحدر تاريخ الهند حيناً من الدهر إلى غياهب الظلمات . . .

(١) الأسرة الارشكية : أسرة بارثية ملكية مؤسسها أرشك الذي انظم ملكه من دولة السلوقين في ٢٥٠ ق م ، ودامت حتى قضي عليها في ٢٢٦ ميلادية أرشك مؤسس الدولة الساسانية

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند يأسطة عليها شيئاً من النظام أسرة كوشانية .
بينها أسست قبائل الهندو اشقوذيين ، Scythians — Indo وهم جيل من الشعوب
الغريبة ، وتواصلت هذه الغزوات بضعة قرون . وتكبت الهند دهرًا طويلاً من
القرن الخامس الميلادي بالإفتاليين أو الهون البيض . الذين كانوا يجنون الجزية
من الأمراء الصغار ، ويقومون الرعب في أرجاء البلاد . وكلما أقبل الصيف رحل
هؤلاء الإفتاليون إلى التركستان الغربية ليرعوا ماشيتهم ، فإذا جاء الخريف عادوا
بطريق المرات . وقذفوا الرعب في قلوب السكان الوادعين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية في القرن الميلادي الثاني نكبة
عظيمة . لعلها أضعفت مقاومتها جميعاً لضغط البرابرة ، فإنها أصيبتا بوباء وبيل
لا نظير له . ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة في بلاد الصين أحد عشر عاماً ، حتى
أفسد النظام الاجتماعي أشد الفساد ، فسقطت أسرة هان ، وأبدأ عصر جديد من
عصور الانقسام والفوضى . لم تستطع الصين أن تفيق منه تماماً إلا في القرن
السابع الميلادي عند ظهور أسرة Tang العظيمة .

واتسرت العدوى خلال آسيا إلى أوروبا وأخذ الوباء ينتشر في أرجاء الإمبراطورية
من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هز كيائها إلى حد خطير جداً . فإننا نسمع بعد
ذلك عن نقص السكان بالولايات الرومانية . كما نشهد التحللاً ملحوظاً في قوة
الحكومة وكفايتها . ومهما يكن الأمر فإننا نعلم فنور أن التخوم لم تعد منيعة
لا يمكن اختراقها ، ونجدتها تداعى في هذا المكان أولاً ، وفي ذلك ثانياً .

وثمة شعب لوردي جديد هو القوط جاء أصلاً من جوثلندة ببلاد السويد ، ثم
هاجر من روسيا إلى منطقة القوقاز وشواطئ البحر الأسود حيث جنح إلى البحر
وإلى أعمال القرصنة . ولعلم شرعوا عند نهاية القرن الثاني يشعرون بضغط هجوم
الهون غرباً عليهم . وفي ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فغلبوا لهم الطرية (الدانوب)
وهزموا الإمبراطور ديكليوس وقتلوه في معركة دارت رحاها فيما يسمى الآن ببلاد
الحرب . وفي ٢٧٦ م . اخترق الحدود عند نهر الراين الأدنى شعب جرمان آخر هو

القرنجة ، كما انهال الانبياء على الالزام. وتمكنت الكتائب الممسكرة ببلاد الغال من صد المغيرين عليها ، ولكن القوط النازلين بسبب جريرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعد أخرى . فاختفت مقاطعة داكيا من التاريخ الروماني .

انقد دبت برودة الموت في كبرياء روما وحقها بنفسها وفي ٢٧٠ - ٢٧٥ م حصن الإمبراطور أوريبيان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادي

في عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية في مهاوى الفوضى وتمزقت إربا بعد أن تكونت في القرنين السابقين لليلاد ، وازدهرت في مجبوحة السلام والطمأنينة منذ أيام أوغسطس قيصر مدة قرنين آخرين - يجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أهن العامة في أثناء عصر هذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا في تاريخنا الآن إلى حوالى ألف سنة من زماننا هذا ، كما أن حياة الناس المتحضرين الذين كانوا يعيشون في ظل من "سلام" روما و "سلام" أسرة هان ، قد أخذت تقترب ويبدأ من حياة خلفائهم المتحضرين في يومنا هذا .

وكان استخدام النقود الصكوكة شائناً آنذاك في العالم الغربي . وأصبح الكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستغلة دون أن يكونوا من موظفي الدولة ولا من الكهان ، وبات الناس يعيشون في مناكب الأرض بحرية لم تتسن لهم من قبل أبداً ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت القنادق لنزولهم ؛ فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه في الماضي أى قبل . . . ق.م ، لوجدتها أكثر رخاء ويسراً . وقبل ذلك التاريخ كان المتحضرين مقيدين بناحية أو إقليم ، مقيدين بالتقاليد . يعيشون في حدود أفق ضيق جداً ، وام يكن أحد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرحل .

يبد أنه لا "سلام" ، الروماني ولا "السلام" الصيني لدى أسرة هان كان يعنى أن الحاضرة انتشرت انتشاراً منتظماً في الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتها ، فالنوارق المحلية عظيمة جداً بين إقليم وآخر ، كما هو الحال اليوم في ظلال "السلام" البريطاني بالهند ، وكانت الحاميات والمستعمرات الرومانية تنتشر هنا وهناك في أرجاء تلك المساحة العظيمة . وهى تعبد آلهة الرومان وتتكلم بلغتهم ؛ فإن كانت هناك مدن

أول بلدان قبل هيرو الرومان تركوها لإدارة شؤونها عندئذ وإن أخضعت، وسمح لها
 فترة من الأقل بعبادة آلهتها بطريقها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية ألبتة في بلاد
 الإغريق وآسيا الصغرى ومصر وشرق المثلث (١) عامة منذ كانت الإغريقية هي السائدة
 هناك ولا سيول إلى قهرها . وكان شاقول العز . وهو الذي أصبح بولس الرسول ،
 يهوديا ومواطناً رومانياً ، غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بهادون المبرانية .
 بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية في بلاط يقع خارج الدولة
 الرومانية تماماً ، هو بلاط الأسرة الأشقاوية التي خلعت السلوقيين الإغريق من
 حرش فارس . وكذلك سميت أيضاً اللغة القرطاجية في بعض أصقاع إسبانيا وشمال
 إفريقيا زماناً طويلاً ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كاشونية ، في
 الذي أرقى القتي والرخاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان زمن سيديوس
 على ميرونها الربة السادية وتعلق بلسانها السامي مدة أجيال عديدة على الرغم من
 وجود مستعمرة من عندك جند الرومان يقاتل إناليه كما على شمال منها .
 وهناك الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ إلى ٢١١) الذي
 كانت القرطاجية لغته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيما بعد كلفة أجنبية ، ويسجل التاريخ
 أن أخته لم تتعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم في دارها بروما باللغة القيسية .
 أما المناطق التي لم تكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ،
 كبلاد أقاليم وبريطانيا وولايات داكيا (وهي الآن رومانيا على وجه التقريب)
 وپانونيا (وهي الآن بلاد المجر جنوبي الدانوب) ، فإن الإمبراطورية استطاعت
 على كل حال أن تصنعها بالصباغ اللاتيني . وهي التي مدنت هذه لأول مرة .
 وأنشأت مدناً كانت اللاتينية فيها هي اللسان الثالب من البداية . وكانت آلهة الرومان
 تعبد فيها ، كما يتبع بها حرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية
 والفرنسية والإسبانية . وكلها مشتقة من اللاتينية . إلا نذكر لنا بهذا الاستناد
 لسان والدي اللاتين ، وأصبح شمال غربي إفريقيا في النهاية ناطقاً باللاتينية
 إلى حد كبير .

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقاً فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتينى ، بل ظلت مصرية وإفريقية روحاً وثقافة . وبلغ الأمر باليونانية أن انتشرت بروما نفسها ، فتملأها المتعلمون بوصفها لغة عالية القوم ، كما أن أدب اليونان وعلومهم كانا يفضلان على اللاتينى فى أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبعى فى مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضاً ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صناعات العالم المستقر . وقد أسلفنا لك كيف حلت المزارع الكبيرة والمال الأرقاء على المزارعين الأشداء والأحرار الذين كانوا هم العمود الفقرى للجمهورية الرومانية القديمة . أما العالم اليونانى فكانت أساليب الزراعة فيه متنوعة جداً ، منها الطريقة الأركادية ، التى كان كل مواطن حر يكدح بمتاعها بيديه ، ومنها خطة إسبرطة ، التى كان من المهانة فيها أن يعمل المرء بيديه ، والتى كان العمل الزراعى فيها يقوم به طبقة خاصة من الرقيق الأرضى هم الهيلوطيين (Helots) . بيد أن هذا الأمر كان قد أصبح فى تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ العتيق فإن طريقة المزارع الكبيرة و فرق الأرقاء كانت قد انتشرت فى معظم أرجاء العالم الهلينى . كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يتحكمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضاً ، أو كانوا عبيداً بمولدهم ، ولم يكن بينهم تضامن لمقاومة الاضطهاد ، ولا تقاليد لحقوق يفتاقونها ولا معرفة يفيدونها ؛ ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ومع أنهم صاروا على مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا أبنته بمسكة ثورية ناجحة ، أما ثورة أسبارتا كوس التى اندلعت فى القرن الأول ق . م ففى ثورة الأرقاء . الخصوصيين الذين كانوا يدرسون لمعارات المجالدين وكان عمال الزراعة بإيطاليا فى أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات ، غير جلون بالسلاسل ليلا نمتهم من الرب أو تحلق نصفهم . وسهم ليسبب الفرار عليهم ، ولم تسكن لهم زوجات ، ومن حق سادتهم انتهاك حرمانهم والتنكيل بهم أو قتلهم . وكان فى إمكان السيد أن يبيع عبده ليقا تل الوحوش فى المجتة ، فإذا قتل عبده سيده ، حاسب القاتل وجميع من فى الدار من عبيد . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيباً إلى هذه الدرجة تماماً ، بيد أنه كان مع ذلك حظاً بئساً إلى نفوسهم . ولذا فالغريزون والهيج الذين أخذوا يحترقون

خط دفاع الكتاب ، لا يعدون في نظر مثل هؤلاء السكان أهداء بل محررين ومعتقدين .

وقد انتشر نظام الرقيق في معظم الصناعات وفي كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالمناجم وصناعات المعادن والتجديف في السفن وورصف الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم في الأغلب على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريباً . كان هناك رجال أحرار فقراء ، ورجال متفاد يعملون في المدن والمناطق الريفية ، إما لحساب أنفسهم وإما مقابل أجر يتناولونه ، ومنهم الصانع الناهر والمشرف على العمال وما شاكل ذلك ، وهم رجال من طبقة جديدة تلتقي الأجور فقداً وتنافس العمال الأرقاء ، على أننا نجهل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تتباين تباًينا بعيداً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت في نظام الرق تعديلات جمة ، فها هنا هديقيد بالأغلال ليلا ثم يدفع بالسياط إلى المزرعة أو المحجر نهاراً ، وهناك العبد الذي وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يروح قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل في صناعته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغاً مرضياً ثمناً لحرية .

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح . وقد ابتعثت في روما قبيل بداية الحروب البونية في ٢٦٣ ق . م الرياضة الإترسكية ، التي كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ، وما لبث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بمحاشية من المجالدين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً في المجتلد ، والذين كان عملهم الحقيقي هو أن يكونوا حرسه الخاص من (الباطنية) .

وكان هناك أيضاً عبيد علماء ، ذلك أن فتوح الجمهورية المتأخرة شملت المدن الآرامية والمدن ببلاد الإغريق وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى ، فأمدتها بكثير من الأسرى الراغبين في العلم والاطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أي فتوروماني من عائلة كريمة عبداً ، وإن الرجل الغني ليملك العبد الإغريقي ويتخذوه خالداً لمكتبه ، كما يتخذ الألمان (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء . وإنه ليحتفظ بشاكره مثلبا يحتفظ بكلبه يتقادر على أداء الألاهيبة الطليقة . وفي هذا الجو من العبودية تطورت تعاليد النقد

الأدنى والدراسات الأدبية العصرية متمسكة بالتدقيق والتخوف والميل إلى الشكناه .
وثمة أقوام ميالون إلى التجارة كانوا يشترون الغلام الذكي ثم يملونه لكي يعموه
عندما يشب ، وكان العبيد يدرسون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك
ما لا حصر له من المهن التي تستدعي المهارة .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية في أثناء السنوات الأربعمائة التي
امتدت بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الاغنياء وبين أيام الانحلال التي أعقبت
الوباء العظيم وتكاثر عدد أسرى الحرب في القرن الثاني ق . م ، وأصبحت الطبائع
خشنة وحشية ، ولم يكن الرقيق أية حقوق ، وما من امتحان أو انتهاك بدور بخلاف الغار .
إلا كان ينزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام . ولكن ظهر بالفعل إبان القرن
الأول الميلادي تحسن ملحوظ في اتجاه المعاملة إزاء الرق . ذلك أن الأسرى
قل عددهم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغل لملاء فبدأ أصحاب الأرقام
يدركون أن الريح والراحة الذين يمدونها على عبيدهم يزيدان إذا استمتع هؤلاء
بالاحترام الذاتي . هذا إلى أن الدعور الخلقى للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعوراً
بالمعالة أخذ يثقل ثماره ، فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة
الرومانين . وضيق الخناق على القساة ، فلم يعد يجوز السيد أن يبيع عبده ليقاتل
الوحوش ، ومنح العبد حقوق الملكية فيما يسمى باسم الملك الخاص (Peculium) ،
وصار الأرقاء يتناولون أجوراً تشجيعاً لهم وحثاً لهم على العمل ، واحترف القانون
بنوع من الزوجية للعبيد . ومن المعلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح
لعمل فرق العمل ، أولاً تحتاج إليها إلا في مواسم معينة . فكان العبد في المناطق
التي من هذا القبيل ينقلب للوقت إلى رقيق أرض Serf (١) ، يدفع للمالك جزءاً
من محصوله أو يعمل عنده في مواسم معينة .

ومضى أيضاً أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين
الميلاديين الأولين كانت في جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد
في حياتها بنى من الحرية والكبرياء خشية العدد ، وضعنا أصابعنا على بيت الداء في

(١) رقيق الأرض أو مول الأرض : عبد تابع لنيل يورثه أرضه ويبيع ويشتري مع نفسه
الأرض .
(المترجم)

تأخّل لها رانبارها . فاسميه باسم الحياة المائية لم يكن منه لديهم إلا النزر اليسير ، أما العيش الممتد والفكر والدراسة الناشطة فلا مكان لها إلا في بيوت قليلة ؛ وكالت المدارس والكتليات قليلة ومتباعدة . وأنى لك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر في أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الفخمة ، وتقاليده القانون والسلطان التي خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا نخفى عن أعيننا أن كل أبها الظاهرة أقيمت على إرادات مطلوبة وذكا . مكبوت ورغبات كسيحة ومنحرفة . وحتى الأقلية التي كانت تسودها فوق خضم الاستبداد المتلاطم ، ولجات الضم والسخرة ، كانت أرواحها تنقلب على حجر القلق والتعاسة . وفي ذلك الجو القاتل اضطلع الفن والأدب والعلم والفلسفة ، التي هي ثمار العقول الحرة السميدة .

أجل جرى الشوق الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصناع الفنيين ، وتكاثر متحفظة العبيد بين صفوف رجال العلم والأدب ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جماء لم تفتح في مدى أربعة قرون شيئا يمكن موازنته بالنشاط العقلي الجريء النبيل ، الذي بذلته مدينة أثينا الصغيرة لسيا في أثناء قرن عظمتها الوحيد . ولم تصب أثينا في خلال الصولجان الروماني إلا الانحطاط والتدهور . واضمحلت حلم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل في تلك الأيام .

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

في ظلال الإمبراطورية الرومانية

أصبحت روح الإنسان في عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، فرانت القسوة والإكراه على كل ربوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محترقين تسعين ، بينما أولو الخطوط غير معلمين ، متلهفون على إشباع الرغبات تلهف المحكوم . كانت الحياة تتركز في عدد عظيم من المدن حول انفعالات المجتاد المضرجة بالدماء حيث يسطرع الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون . . . والمدرجات (١) هي أبرز عناصر الخرائب الرومانية . وتمضى الحياة على هذا النهج ، والقلق الذي يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الديني العميق .

فقد اخترفت الحشود الآرية لأول مرة حدود المدينيات الحقيقية ، لم يكن مفر من أن تلم التكييفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود . جملة . وقبل ذلك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية في المدينيات السمرام تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة المركزة حول المعبد .

وكانت رعاية المرامم ، والخوف من مخالفة القواعد المنبئة والتقاليد والعقاربين والخفايا ، تغطي على أذهانهم . وتبدو آلهتهم فظيعة وغير منطقية في نظر عقولنا

(١) المدرج (Amphitheatre) . مسرح دائري في الوسط هو المجدد المحيط به القواعد في صفوف دائرية متعاضدة يلو بعضها بعضا ، وتعرف على المجدد . [المترجم] -

العصرية ، وذلك لأننا ننتمى إلى عالم غلب عليه الطابع الآرى ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ومصاحبة الإشراف التى تتجلى بها الأشياء حين ترى فى حلم أخاذ ، فإذا غوت دولة مدينة دولة أخرى كسومر أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربوات ، أو تغيير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسسهما سوء . فالتغيير لم يكن يمس هيئتها العامة من بعيد أو قريب ، فكان الصور المرتبة فى الحلم كانت تتغير ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق المشابة فى روحهم السومريين بحيث اعتنوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التى أخضعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعاً يرضى لانتقال دينى ، فظلت مبادئها ، وهياكلها ، وكهاناتها ، مصرية صميمية فى ظلال حكم البطالة والقيصرية على السواء .

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان فى الإمكان التغلب بعملية تجميع وتمثل - على ما بين رب هذا المعبود وهذا الإقليم ورب ذاك - من تعارض ، فإذا تماهى الربان فى خصائصهما جملًا شيئاً واحداً . فكان الكهنة والناس يقولون إنه فى الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا المزج والصهر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو (التيوكرازيا) والواقع أن عصر الفتوح العظيمة فى ألف السنة السابقة لليلاد كان عصر توحيد للآلهة ، فإن الآلهة المحليين فى مناطق مترامية كان يحل محلهم - أو بالحرى يبتلعهم - إله عام . حتى إذا تراءى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون فى بابل على الملأ أن العالم رباً واحداً للصالح والبر ، كانت عقول الناس مهتمة تماماً لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيراً ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباهاً من أن تسمح بمثل ذلك القتل ، وعند ذلك كان القوم يجمعونها معاملة متدينين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسائلهم فى ذلك تزويجهم الرببة الأثني برتب ذكور ، (والمالم الإيجى قبل عيسى الإخريق كان مرعابا الربوات والأمهات) ، ومنها تمثل الرب الحيوان أو الرب النجم بنيرا واتخاذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالثعبان أو النجم خلية أو رمزا ، ومنها أن رب الشعب المقهور يصبح منسجماً فى رايوى . لآلهة الشعب الغالب وتاريخ اللاهوت

حافل بأشكال هذه التكييفات لوضع الأرباب المحليين والتوقيعات بينها وبين غيرها والتبيرات لها .

وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهة في أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دون المدن إلى حالة الدولة الواحدة الموحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قرباني كان المفروض أن إفرعون هو الصورة الأرضية التي تجسده . ويمثل أوزيريس في صورة من يموت مرارا وتمكرارا ثم يبعث حياً ؛ فكانه لم يكن ونسب البذرة والحصول ، بل كان يتحول أيضاً بتوسيع طبيعي لفكرة إلى وسيلة للخلود البشري . ومن رموزه الجمل (الجمران) المديد الأجنحة ، الذي يدفن بيضه ليمت من جديد ، ومنها أيضاً الشمس المتألقة التي تقرب لتشرق ثانية . ثم تغمص فيما بعد شخصية أبس المجل المقدس ، الذي ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهي أيضاً هاتور ، وهي بقرة ربة ، وهي الهلال ونجمة البحر . ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلاً هو حورس ، الذي يتمثل أيضاً صقراً معبوداً ، كما أنه هو الفجر وهو الذي يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى ، وصور إيزيس تمثلها وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً الرضيع حورس وقد وقعت في وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعة الحال منطقية . غير أن العقل البشري استحدثها قبل تطور التفكير الجدي المنظم والتفاسك بينها أشبه بتناسك أجزاء الأحلام .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضاً ، وهي آلهة شريرة ؛ منها أنوبيس الذي له رأس كلب ، والليل الأسود وما ماتلها وهي أرباب تلهم وتقرى وتعاذى الإنسان والرب على السواء .

وغنى عن البيان أن كل نظام ديني كان يرفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصري استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يث فيها صادق عبادته ويلتمس فيها العزاء والسوى . وكانت الرغبة في الخلود قوية جداً في العقل المصري ، حتى لقد جعلوها محوراً لحياتهم الدينية ؛ فالديانة المصرية ديانة خلود بصورة لم تنهأ لآلة ديانة أخرى في أي عصر من العصور فلما خضعت مصر لفتاحتها الأجانب ، وواجهت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية مرضية ، اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء في الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريق ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً للحياة مصر الدينية بل أصبحت في الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهلينى كافة . فأقام بطليموس الأول معبداً عظيماً هو معبد السرايوم ، كان يبعد فيه نوح ما من ثالوث من الأرباب ، مكون من سيرابيس وإيزيس وحوريس ، والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أبيس . ولم يكن للناس يدونها أرباباً منفصلة ، بل هيات ثلاثاً لإله واحد ؛ ثم ذهبوا إلى سيرابيس هو زيوس الإغريق ، وأنه جويتر (أى المشتري) الرومان وإله الشمس الفارسي ، وانتشرت هذه العبادة حيناً بسط النفوذ الهلينى أريته ، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين .

ولا يجب أن تسود فكرة الخلود ، خلود المثوبة والسوى ، وأن يلقبها بشرق عالم كانت فيه حياة الناس العاديين في تعس يحلم كل رجاء . وكان سيرابيس يسمى « مخلص النفوس » ، ولو تأملت تراويل ذلك الزمان لوجدتها تقول : « لن نرحب بعد الموت في ظلال عنايته الربانية » . أما إيزيس فكانت تجتذب إليها كثيراً من الأتفس المتعبدة الغائنة . وتماثلها المقامة في معابدها كانت تمثلها في صورة ربة السماء وهى تعمل بين ذراعيها طفلاً حورس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تقدم إليها ، على حين أن السكان المحليين الناذرين أنفسهم المزوبة كانوا يقومون على خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبرطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوربا الغربية لهذه العقيدة النامية . ومن ثم ترسمت معابد سيرابيس وإيزيس ، وتراويل الكهان والأمل في حياة الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلنده وهولنده على أن منافى ديانة سيرابيس وإيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة المثرائية . وهى ديانة ذات أزومة فارسية ، وتتمركز حول خفايا نسيبت اليوم ، مدارها مثرأ وهو يضفى بعجل مقدس يحب للخير ، وكان هنا أرى شيئاً بدايئاً جداً وأقسم كثيراً من معتقدات سيرابيس وإيزيس المعقدة المصطنعة . فنحن هنا نكر راجعين مباشرة إلى عهد القرابين الدموية لمرحلة العصر الشمسى الحجري من الثقافة البشرية . والعجل المرسوم على الآثار المثرائية ينزف دائماً بفزارة من جرح في جنبه ، ومن هذا الدم تنبع الحياة الجديدة . وكان من ينقطع لعقيدة مثرأ يستحم فعلاً في دم العجل الضحية . فإذا حل يوم انخراطه في العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل لينسيل عليه الدم فعلاً .

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد العديدة المتناهية التي كانت تنشأ ولاء الأرواء والمواطنين في عهد أباطرة الرومان الأول. وهي شخصية، لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصي والخلود الشخصي. ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو، بل كانت اجتماعية. والأصل في الطراز القديم للمعبود أن يكون رباً أو ربة للدينة أو للدولة أولاً، ولم يكن إلهاً للفرد إلا في المحل الثاني وكان تقديم القرابين وظيفته هامة لا خاصة. ذلك أنها تتصل بالحاجات العملية للجماعة في هذا العالم الذي نعيش فيه. ولكن الإلهيقي ومن وراءهم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة. فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر فتودعها التقاليد المصرية.

واستطاعت ديانات الخلود الفردى هذه أن تسلب من الديانات القديمة التابعة للدولة كل ما تحتويه من عزم وعاطفة، بيد أنها لم تحل محلها فعلاً. والمدينة الوثنية في عهد أباطرة الرومان الأولى التي كانت تحوى عدداً من المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة. وربما وجدت بها معبد الجوبيتر [المشتري] الكاينيتولى رب روما العظيم، وربما وجدت هناك أيضاً معبداً آخر لقبصر المتربع على العرش.

ذلك أن القياصرة تعلموا مع القراينة أن الآلهة شيء ممكن. وكانت تقام في مثل هذه المعابد عبادات ذات طابع سياسى غفمة المظهر ولكن لأروح فيها، وهناك كان الناس يذلقون ليقدموا الذبائح، ويحرقون شيئاً من البخور ليظهر ولاءهم لقبصر، ولكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيرة، هو الذى تهبوا إليه القلوب، وتسمى أقدام كل فرد مغمى الفؤاد بالمتاهة، ينشأ النصيحة وتقرىج الكرب، وربما وجدت آلهة محلية ذات طباع شاذة. فقد ظلت مدينة إشييلية زمناً مديداً تعبد الزهرة، ربة القرطاجيين القديمة. وربما وجدت في هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلًا لثترا، يقوم على خدمته الجند والأرقاء. وربما وجدت أيضاً بيعة يجمع فيها اليهود ليقروا توراتهم وليشهدوا من أعتقادهم في الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه. وقد يحدث الخلاف أحياناً مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة. ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان. وإلهم ليأبون أن يشتركوا في القرابين العامة التي تقدم لقبصر. وإلهم ليرفضون حق أن يحيوا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان.

وهناك في بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا بزمان مديد ، وهم رجال ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة ونبذوا الزواج والملكية ، والتسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والالام والوحدة . ولما لم تكن تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف في الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيرا من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبنة عمن في الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الحفية التي كانت لها أنظمة شيعية بهذه ربما غلت إلى حد التنكيل بالنفس . وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية في يهوذا والإسكندرية في القرن الأول ق.م ، أيضاً ؛ فكانت جماعات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم للتفككات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإسينيين (١) . وانصرف القرنان الأول والثاني الميلاديان والعالم كله غارق أو يكاد في نوره إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، عمن في نشداته العام والخلاص ، من عمن الرومان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة في القيس والمعبود . والقانون والمرف .

وفي هذا الجو الذي يمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والنظائر بالمظاهر والتنافيت على إشباع الملذات ، كان ينتشر في هذا الزمان ، وباء الإشمزاز . الذائق وعدم الاطمئنان العقل ، وكان ينشئ فيهم هذا الالتباس الاليم لسلام وإن نالوه مقابل التخل من الدنيا والمكابدة الإرادية للالام . تلك هي الحال التي طالما ملأت السراييم بالنادمين والبساكين واجتلبت المؤمنين إلى ظلة الكهف . ودماثة الدافقة .

(١) الإسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود بلساطن قبل ظهور المسيح ، نظمو حياتهم على قواعد عيس الرهبات التي ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة المشاركة في السلع . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبليني . [المترجم]

الفصل السابع والثلاثون

تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية في يهوذا ، إبان حكم أوغسطس قيصر أول
تقياصرة روما . وباسمه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية
الرومانية بأكملها .

وعندى أنه من الأوفى بصورة إجمالية أن تباعد بين اللاهوت والتاريخ .
عنان شطراً عظيماً من العالم المسيحي يعتقد أن عيسى كان الصلوة الجسدية لذلك الإله
رب العالم أجمع الذي كان اليهود أول من عرفه . والمؤرخ لا يستطيع - إن هو شاء
أن يحتفظ بصفته تلك - أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من
الناحية المادية في صورة إنسان ، ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنساناً

ظهر في يهوذا في أثناء حكم تيريزوس قيصر . كان نبياً ، يشر على طريقة من
سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن يبدأ
الكتشير برسائه فذلك أمر تجهله جهلاً تاماً .

فليس لدينا مصدر مباشر العلم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة .
وكلها تجمع على إحاطتنا بصورة لشخصية قوية التحديد ، لا يسع المرء منا إلا
أن يقول : « لاشك أن بين أيدينا إنساناً ، وليس في الإمكان أن يكون خبره
هذا مقتلاً » .

ولكنك تكاد تحس ، أنه كأن شخصية جوتاما بوذا ، قدشوها وأخفاها ذلك
التشابه الجامد الجالس القرفصاء ، صنم البوذية المتأخرة المذهب ، فذلك لشخصية
يسوع التحيلة الدروب المجهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدي لايت إلى الحقيقة بسبب ،
بفرصته على شخصه في الفن المسيحي الحديث توقيع خاطيء . كان يسوع معلماً معدماً ،
يتجهل في أرجاء بلاد يهوذا المتربة تحت لفحات الشمس المحرقة ، ويميش على ما يظن

من هبات عارضة من اطلام ، ومع هذا فإن ذلك القن يمثل على الدوام نظيفاً مشطاً الشعر وضاء المحيا نقي الثياب متعصب القامة ، وسروره جزهيوئى ساكن لا يتحرك كأنما هو منزلق على أجنحة الاخير . وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يبدو شيئاً غريباً لا غير حقيقى فى دين كثير من الناس من لا يستطيعون أن يميزوا لباب القصة من زخرف الإضافات الزائفة الخرقاء التى ضمها إليها القاتنون الجملة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات المبهمة ، بقينا وجهها لوجه أمام صورة إنسان كامل الإنسانية جداً ، جاد جداً عاطفى معرض الغضب السريع ، وهو يعلم الناس مبدأ جديداً بسيطاً عميقاً : - هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور ملكوت السموات . وواضح أنه كان شيئاً ذا جاذبية شديدة خاصة ، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير العادى ، فإنه كان يجذب إليه الاتباع ويملا قلوبهم غربة وشجاعة . وكان وجوده يشهد من هزم الضملاء والمرضوخ ويهفهم ، ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضعيفة ، وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صليبه . إذ روى أنه أغشى عليه عندما كلف كما جرت بذلك العادة ، بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد نحو ثلاث سنوات وهو ينشر مبادئه . وهدى أورشليم ، واتهم به محاولة إقامة ملكة صهيونية فى يهوذا لحكم بهذه التهمة ، واصل مع اثنين من الموصرين ، وقبل أن يموت هذان بزمان طويل كان قد أسلم الروح .

ولاشك أن مذهب ملكوت السموات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى وجميع الصور . فلاحظ إذن أن فلت عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل . وأن يكسر على عقبيه فرعا من أى فهم مهادق - لتحدياتها المائلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب ملكوت السموات كما يلوح أن يسوع كان يعلم الناس ، لم يكن إلا طلباً جريئاً لاتساع فيه يطالب بتغيير كامل وتطهير تام لحياة جنسنا المكافح ، تطهير مطلق من الداخل والخارج على السواء .

وعلى القارئ أن يلجأ إلى الأناجيل التماسا للبقية الباقية من تلك الفكرة البائسة ، فكل ما يهيننا فى هذا المقام إنما هو الهزة التى أحدثها اصطلاحها بالفكرات المستقرة القديمة ،

كان اليهود يقرمون بأن الله الرب الاحد للعالم الاجمع ، كان رب بر وصالح ،
ولكنهم كانوا يقولون ايضا بأنه رب تاجر ، أتم في شأنهم صفقة مع أبيهم ابراهيم ،
صفقة رابحة جدا لصالحهم والحق يقال ، يتصد بها أن يرتفع بهم في النهاية إلى السيادة
على الارض ٢١١ . فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهو
يعلم أمامهم نفيس سخاياتهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ،
وأن ليس هناك شعب مختار ولا قوم يتألون الخطورة في ملكه السماوات ، وأن الله هو
الآب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماما لا يستطيع أن يحب أحدا دين
غيره بظلمة ، وأن الناس جميعا إخوة — كلهم خاطيء مذنب ، وكلهم ابن محبوب
لذلك الآب الإلهي ، وأن يسوع ليصب في قصة السامري الطيب جام سخريته على ذلك
الميل العليم الذي لخضع له جميعا ، وهو تمجيدنا لقومنا والتفليل من نصيب العقائد
الآخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه في قصة العمال ينشد ظاهر الادعاء اليهود
المنيد في أن لهم على الله حقا معينا . وهم الناس أن كل من أخذته الله في الملكوت ،
حباء برعاية واحدة لا تفرق فيها ، فأنه لا يعرف تمييزا في معاملته لعباده ، إذ لا حد
لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصاراهم كما يتجلى ذلك في أمثلة العملة
المدفونة ، وكما تبرزه حادثة ظن الأرملة . وليس في ملكوت السماوات امتيازات ،
ولا تخفيض مالي ولا معاذير .

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على التهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وهم كما
هو معلوم ، شعب ذو ولاء قبل قوى — بل راح يزيح كل عاطفة قبلية ضيقة ،
تدعوى على التحديد في ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد للمساكين السماء
بأكملها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحدثنا أنه وفيما هو يكلم الجموع إذ أدامه
ولأخوته قد وقفوا خارجين طالين أن يكلموه فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك
واقفون خارجا طالين ان يكلموك . فأجاب وقال القائل له : من هي أمي
ومن هم إخواني ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخواني ، لأن من يصنع
مديته أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي ، (١) .

ولم يكف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبلي باسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعاً ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادي من تدرج ، وتقتصر كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . ذلك أن الناس جميعاً ينتدون إلى الملكوت ، وأن منملكاتهم جميعاً ننتمى إلى الملكوت ، وأن الحياة البرة للناس جميعاً ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة لإرادة الله بكل ما نملك ، وبكل أفدتتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدهونى صالحاً ، ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الرصايا : لا تزنى ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له : يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثى . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يسوزك شىء واحد ، اذهب بيع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملاً الصليب . فاغتم على القول ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أهر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتعير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم : يا بنى ، ما أهر دخول المتكابين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله (١) . »

وفضلا عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بالمادية الرسمية من بر قائم على المسارعات ، وذلك بسبب نبوءته الماثلة بذلك الملكوت الذى يتحد فيه الناس جميعاً فى ذات الله ، ثم إن شطراً عظيماً من أسجل من أحاديثه موجه إلى المبالغة الشديدة فى الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله التلاميذ والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يا كلون خبزاً بأيد غير مضولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسناً تبنياً لاسمياه عنكم أنتم المرابين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فببعد

من بعيدا . وباطلا يبدو ونرى وهم يملوهم تعاليم هي وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمورا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم ، (١) .

لم يكن ما أكله يسوع مجرد ثروة خلقية أو اجتماعية ، بل إن هناك حضرات الشواهد التي تدل بجلالة على أن تاليمه كانت تتجاوز إلى مسألة سياسية من أبسط الأنواع . حقا إنه قال إن ملكته لا تنتمي إلى هذا العالم ، وإن مكانها في قلوب الرجال وليس مرشا من المروءة ، ولكن لا يقل عن ذلك وضوحا أنه حينما قامت ملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها في تلك القلوب ، فإن العالم الخارجي يتجدد ويلهم به الانقلاب بنفس النسبة .

ومما يكن ما قالت سامعيه من أقواله الأخرى بسبب حمايتهم أو صميمهم ، فمن أجل أنهم لم يفهم تصميمه على إحداث انقلاب في العالم ، فإن اتجاه المعارضة التي لقيها والظروف التي أحاطت بها كنه وإعداده ، تدل بأجل بيان على أن معاصريه كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحا ، بل أنه اقترح صراحا — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحريرها .

وإذا راعينا ما قاله صراحا ، لم نجد غرابة في أن يشعر كل موفق في رغبة الحال بشعور الرعب من التماثل الجديدة الغريبة ، ويحس أن طاله بدور به بسبب هذه التماثل ١١ ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التي جمعوها عن طريق الخدمة في المجتمع ليصبه في خضم حياة دينية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خفي رهيب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوادعة التي كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يحتوى الضياء الوهاج للكنيسة على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية . ولم يكن هناك في الواقع أي حافز ولا مشوية إلا المحبة . أفحسب إذن أن تقهر هيون الناس وأن تنهض أباصارهم وأن تصايحوا به ؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصايح تلاميذه أنفسهم عند ما لم يقبل أن يفهم من باهر الضياء ، أحسب إذن أن يدرك الكنيسة أنه ليس بينهم بذلك الرجل خيار ، فإما أن يهلك هو وإما أن تهلك الكنيسة ؟ أحسب إذن أن

يلجأ الجند الرومان وقد واجههم وأذلمهم ذلك الشيء الذى يخلق فى الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم - أقول يلجئون إلى الضحك الضارى يتوارون وراءه ، وأن يتوجه بتاج من الأشواك يلبسوه اللون الأرجوانى ويتخذوا [منه قيصرا هزوا] ذلك أنه أخذه مأخذ الجلد كان ممثاه الدخول فى حياة غريبة مزعجة ، والتخلل من مألوف المادة ، وضبط الفرائز والدوافع ، وتجربة طريقه من سعادة لم يتخطر لهم على بال .

الفصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الإنجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ، ولم ندر إلا على التور اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . هل أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى المباثرون ، هى التى بسطت فيها الخطوط المريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أحظم من أنشئوا المذهب المسيحى . وهو لم ير عيسى قط . ولا سمع به بشر الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاول ، وكان فى بادىء الأمر . من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه لعله بولس . أوق ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحمية لمركبات زمانه الدينية . فقرأ على علم عظيم باليهودية والميثرائية وديانة ذلك الزمان التى تفتن الإسكندرية . فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلحاتهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعنى بها فكرة « ملكوت السموات » . وليكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح المارعود بحسب ، ولا زعيم اليهود الموهود فقط ، بل إن موته كان تضحية - مثل مات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية - من أجل خلاص البشرية .

وعندما تذهب الديانات إحداهما إلى جوار الأخرى تنزع إلى التقاطط قوس بعضها من بعض وغيرهما من الخواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع الماعبد والكهاز والعرف الذى كان التاوية . التى تابع تعاليم لاهوتى . ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس بما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية كالنيس الحليق وتقديم النذور والمياكل والشموع والترانيل والتماثيل

التي كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تبنت أيضاً حتى عباراتها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه البيانات كانت جميعاً تزدفر إلى جوار كثير من العقائد الفيلسوفية الأهمية ، وكانت كل واحدة منها تلتصق بالآثار ، ولا بد أن المعتنق لها كانوا يتقبلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوماً بالخطوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يابون أن يعبدون التبرير الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التمرد والفنعة ، وذلك فضلاً عن الروح الثورية التي غلبتها تلاميذ يسوع نفسه .

وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الداهية إلى أن شأن عيسى كشأن أوزيريس ، : كان رباً مات ليحيى ويمتدح الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية المعقدة المجتمع المسيحي كل ممزق ، والعقيدة بعد في طور الانتشار ، فاستمرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع بالله ، في البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه رتبة . وعلم أتباع سايلبيوس (١) أن يسوع لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب في الوقت نفسه ، مثلاً يمكن أن يكون الرجل والدأ وصاناً في نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغرضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة في وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

وانتفضى ربح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، ودارت مشاحنات عنيفة ، ولتثبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحي بأكمله . ومن الممكن العثور على ذلك المبدأ في أتم صراحة في عقيدة القديس اثنا عشر .

ولن ندلي هنا بأي تعقيب على هذه الخصومات ، فهي لا تؤثر في التاريخ أكثر من أن يسوع الشخصية . إذ بلوح حقيقة أن تلاميذ عيسى الشخصية تؤذن بطور جديد في حياة جنسنا الخلقية والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضمنية

بين الناس جميعاً ، وإصراراً على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبداً حياً لله ،
أمور كتب أن يكون لها أثر في كل ماعقب ذلك من حياة البشرية ، من
الوجتين السياسية والاجتماعية . فقد ظهر في العالم بحيرة المسيحية وانتشار تعاليم
يسوع اجترام جديد لشخصية الإنسان في حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس كان
يعلم المبدأ الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد المسيحية المعادين ، ولكن بعدد
ذلك في صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل ، تناهض إذلال
الإنسان للإنسان . هذا إلى أن المسيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة
الإنسانية الذي يحدث في مثل مصارعات المجالدين (١) في المجتد .

انتشرت تعاليم الديانة المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية لإبان القرنين
الذين أعقب ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المنصرين لا يبرح
يزداد في كل آن ، وتحقق منه مجتمعاً مرتبطاً بأواصر الفكرات والإرادة واختلاف
وقف الأباطرة منها ، فهم من عاداتها ، ومنهم من تسامح معها ، وبذلك في كل من
القرنين الأول والثاني محاولات القضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر في ٣٠٣ وما
عقبها من أوامراً بأن أنزل بها الإمبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيماً ، فصودرت أملاك
الكنيسة الضخمة وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية ثم دمرت ، وأهدرت
دماء المسيحيين إلى أنهم خرجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف عرفت
السلطات قدرة الكلام المكتوب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ، وكانت هفائد
الكتب ، هذه المسيحية واليهودية ، ديانات تعلم الناس ، وكانت استمرار بقائها يمتد
إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة فكرتها المذهبية وتفهيمها ، ولم تكن الديانات
قديمة العهد ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ، حتى أقيمت هفود الفوضى
البربرية التي أخذت ظلماتها تنشى أوروبا آنذاك ، كانت الكنيسة المسيحية هي الوسيلة
الفعالة في المحافظة على التراث العلمي .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلاً تاماً في القضاء على المجتمع المسيحي النامي ، وكان

(١) المجالدين Gladiators : هو مصارع محترف يروم القديمة يعصارع مع الرجال أو الحيوانات
في المجتد ، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القديم وهو مفروش بالرمل لمصطريحه
الرجال . [المترجم]

عديم الأثر في كثير من الولايات ، وذلك لأن كثلة السكان وكثيراً من الموظفين كانوا من المسيحيين . ثم صدر في ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك (١) ، وفي ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الروماني ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عهد وهو على فراش موته فتخل عن كل مذهباته في الإلهية ، ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم ..

ولم تمض بضعة سنوات حتى توطدت قدم المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية . أما الأديان المتنافسة لما فقدت اخفضت أو اندمجت في غيرها بسرعة خارقة ، وفي ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بدمير تمثال جوبيتر سرايسس بالإسكندرية ، ولم يعد هناك كنية ولا معابد في الإمبراطورية الرومانية إلا كنية المسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادي فصاعداً .

(١) أشركه معه دقلديانوس في الحكم في ٣٠٥ ، وجهه قبصراً على "إيليريا" Illyricum ، والآن إقليم الدانوبية . وانقرض حكم الإمبراطورية الشرقية في ٣٠٥ عند تنازله . [الترجم]

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الإمبراطورية

إلى شطرين : شرق وغرب

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادي، وهي تضمحل اجتماعياً وتتحل خلقياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحق تتنقل حسباً تقتضيه ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية في ميلانو أنا ، وأنا آخر فيلما يسمى الآن ببلاد الصرب بمدينة سهرميوم أونيش ، أو تكون بنيقوميديا (١) إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة في منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لاتصلح أن تكون قسبة ملائمة للإمبراطورية ، ولذا أخذ الاضمحلال يدب إليها .

أجل لم يرح السلام يرفرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس ينتقلون في ربوعها دون حاجة إلى حمل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحى ، ولكن الأباطرة الذين كانوا يستمدون على كسائهم ما انفكوا يردادون استبداداً يقيه أجزاء الإمبراطورية وتوداد دولتهم في كل آن شبيهاً بدولة القرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجاً ملكياً وارتنى ثياباً شرقية .

وفي إن ذلك كان أعداء الإمبراطورية يخطون بشدة على امتداد حدودها بأكلها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهر الرين والدانوب بوجه التقريب ، فقد

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطئ بحر مرمرة ومكانها لازمت الصغرى . [المترجم]

تقدم الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد الجر ، بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك باسم « داكيا » التي هي رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بجنوب روسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من وراءهم الآلان (Alans) بإقليم القوقاز ، وليت الأمر اقتصر على هؤلاء ، فإن الشعوب المغولية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوروبا . وكان البون يفرضون الجزية وقتشذ على الآلان والقوط والشرقيين ويدفعونهما غرباً .

أما في آسيا فإن التتخوم الرومانية أخذت تتصدع وتراجع بضغط دولة فارسية قوية نامضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه التي أقام دعايتها ملوك بني ساسان أن تصبح منافساً قوياً مجبواً بالنجاح في جملة الأمر ، وخصماً لدوداً بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن التاريخ الذي نظرة على خريطة أوروبا لا يدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراه حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتي ميل من البحر الأدرياتي في المنطقة التي يسدها اليوم باسم أقاليم الصرب والبوسنة . وهناك ينحرف شرقاً محدثاً زاوية قائمة منعكسة .

ولم يكن الرومان يتحون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السلخة الضيقة من الأرض التي لا تتجاوز المائتي ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شعار إمبراطوريتهم الغربية الناطق باللاتينية وشطرها الشرقي الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم ما يكون في تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلى شطرين أمراً لا مفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لزحفت أمانها واستردت مقاطعة « داكيا » ، ولكن تلك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشبكة القوية .

ومن الحق أن قسطنطين الأكبر كان عاملاً شديد الإخلاص والذكاء ، فقد غارة القوط جاءت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة العسكرية ما يتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضمف الإمبراطورية الداخلي وإصلاح عيوبها . فلجأ إلى ما المسيحية من قوة تماسك

وروح معنوية راجياً أن يتمت بها روح الإمبراطورية المتداعية ، كما قرر أن يفتى لها عاصمة جديدة دائمة مقرها يزنطة على مضيق البوسفور . وراح يمد بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسماً جديداً هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله .

وحدث في آخر أيام هذا المعامل صفقة عجيبية ، فإن القوط ضفطروا على الوندال فأجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتسمون قبولهم بها ، ففتحوا بعض الأراضي في بانونيا . التي هي اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم في مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور اسماً . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما في هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط الغربيون حدودها وتقدموا حتى أوشكوا أن يلبفوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور فالنز عند أدرنتهم عقبوا تسوية استقروا بها بمنطقة بلاناريا الحالية مثلاً استقر الوندال في بانونيا . وهذه التسوية صارت رعايا للإمبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم في الواقع غزاة فاتحون .

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٩-٣٩٥) ، ظلت الإمبراطورية متأسكة من الناحية الشكسية . وكانت جيوش إيطاليا وبنونيا تحت قيادة استيليكو الوندالي ، بينما كان على رأس جيش جزيرة البلقان ألابريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من وراءه ولدين ، فناصر ألابريك أحدهما وهو (أركاديوس) بالقسطنطينية وظاهر استيليكو أخاه الآخر (هونوريوس) بإيطاليا . ومعنى ذلك بمباراة أخرى أن ألابريك ومنافسه استيليكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين العلوية في أيديهما ، وفي غضون ذلك السكفاح ، ذبح ألابريك على إيطاليا ، واحتل على روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكلها بين يرائين جيوش من العصور أو البرابرة . ويكاد يصر علينا تصور صورة حالة لحوال العالم إن تلك الفترة . فالمدن العظيمة التي ازدهرت في ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذلك ، ولكن الفقر هبط بها

وهجرها سكانها وعدت عليها عراى الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بها قد أصبحت سطحية منحلة مضممة بدم الاطمئنان إلى المستقبل . كما أنه لا شك في أن الموظفين المحليين ظلوا يظهرون سلطانهم ويواصلون أعمالهم كل حسب مأوى من ضمير ، وذلك باسم الإمبراطور الذى أصبح عندئذ بعيداً أعظم البعد ولا سبيل إلى الوصول إليه ، وواصلت السكتات عملها ولكن هل يد قساوسة معظمهم في المادة من الاميين . وقل القراء والقراءات انتشرت الحرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن الكتب والتماثيل والصور وما مائلها من إنتاج فنى لم تبرح موجودة في كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهيون والمعتدون .

دب الاضمحلال أيضاً في حياة الريف . فزایل الخير وحسن الشكل كل أصاع ذلك العالم الرومانى . فبعض المناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى ياب مقفر . وعات الصور في الطرق والغابات فسادا . وتقدم البرابرة إلى تلك المناطق وهى على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر وتصبوا رؤسهم حكما عليها ، وأطلقوا عليهم في كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية ، فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منحوا الجمادات التي يقتحمونها شروطا مقبولة ، فيمتلكون المدن ويحتلونها بأهلها ويتزوجون منهم ويعلمون اللسان اللاتينى ينطقونه بنبرة خاصة ؛ على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوبا زراعيين ، لا حاجة بهم إلى المدن ، ويلوح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبغين بالعصبة الرومانية ، واستبدلوا بلفة أولئك السكان لهجاتهم التيوتونية التي أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن المحال علينا أن نرسم في هذا المجال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهى تروح وتقدو في هذه الإمبراطورية المختلة النظام بحثاً عن الأسلاب والغنائم والتمايل لموطن جميل تستقر فيه . على أننا سنتخذ الوندال مثالا نسوقه إليك . فإنهم ظهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية . واستقروا كما أسلفنا في ماتورنا . ومنها انتقلوا إلى اسبانيا حوالي ٤٢٥م مخترقين الولايات التي تقع في طريقهم . فوجدوا إسبانيا المقوط الغريبيين الوافدين من جنوب روسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها الملوك والادواف .

وأبحر الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقيا (٤٢٩) بقيادة جعفر بن حازم . واستولوا على قرطاجنة (٤٤٩) ، وأنشأوا أسطولا . وما لبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما واتجهوا (٤٥٥) ، ولما تنهض بعد من كبوتها تماما بعد الذي أصابها من هوان ونهب على يد الأاريك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يسيطرون سيادتهم على قورسيقة وصقلية ومردنية ومظم جزائر البحر المتوسط الغربي . الواقع أنهم أنشأوا دولة بحرية شديدة المائلة في ضعفها ورقعتها بإمبراطورية البحرية قبل ذلك بسبعمائة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حوالي ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالي حتى استردت القسطنطينية جميع أقطار دولتهم تقريبا إبان نهضة مؤقتة في عهد جستنيان الأول .

وليس قصة الوندال إلا مثالا واحداً من المغامرات الماثلة ، ولكن ما قد أقبلت إلى العالم الأوربي بمعاقل أبعد ما تكون شيها هؤلاء العاشقين وأبعث للربح في القلوب : الهون المغوليون أو التتار ، وهم شعب أصفر إلى بالنشاط والافتداز . بصورة لم يلتق العالم الغربي بمثلا قبل ذلك أبدا .

الفصل الأربعون

الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية

وربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب المغولي أوروبا مؤذنا ببدء مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . ذلك أن العلة بين الشعوب المغولية والنوردية لم تكن وثيقة إلى ما قبل الحقبة المسيحية بحوالى قرن من الزمان . أجل إنه حدث في الأراضي المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق الغابات ، أن اللاتين (أهل لابلند) وهم شعب مغولي - انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلند) ولكنهم لم يلعبوا أى دور فى مجرى التاريخ الرئيسى . كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا لتفادات الأخاذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية السمرية دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم المغولى فى أقصى الشرق ، إلا ما حدث من غزو الآثيوبيين لمصر .

والراجع أن حركة هؤلاء المغول الرحل المتجهة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين : أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها فى أثناء الرخاء الذى أظلم البلاد فى عهد أسرة هان . وثانيهما حدوث شىء من التغيرات فى المناخ ، لعله قلة فى المطر جففت المستنقعات وربما أزيلت الغابات ، أو لعله زيادة فى الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء ، لعل هاتين العمليتين جميعا تعاورتا على أقاليم مختلفة فترتب عليها على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا .

وثمة سبب ثالث قد يرجع إلى ذلك الأمر نفسه ، وهو الأحوال الاقتصادية الناجمة فى الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص فى عدد السكان ، وذلك أن الأغنياء فى الجمهورية الرومانية المتأخرة ، ومزوراتهم جباة الضرائب للباطرة العسكريين ، امتصوا كل ما فيها من دوية . ولعل القارى قد تعجأ أمامه الآن هوائل ذلك الرخف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له . وخلاصة هذا بإيجاز . هى أن الضغط ظهر فى الشرق وقد نخر الفساد فى الغرب وانفتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم .

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوروبية إبان القرن الأول الميلادي. ولكن ذلك الشعب الذي كانت القروسية أعظم مظاهر حياته لم يتجربوا منزلة السيادة على أقاليم السوب إلا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون . وأول ما بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزة كانوا يقبضون أعضائهم من استيليكو الوندالي صاحب السيادة على هوربوس . ولم يقصر طويل زمن حتى وقعت في قبضتهم بانونيا عش الوندال الحالي .

ولشأ بين الهون في الربع الثاني من القرن الخامس زعيم حربي عظيم هو أتيل . وللأسف أن كل ما لدنمان علم بدولته لا يتجاوز الممحات المهمة التي لا تشي في غيللا . ومما تسكن الحال ، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم ، بل شمل أيضاً خليفاتهم القبائل الجرمانية المتأخرة ، وامتدت دولته عبر السهول المترامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى . وقد تبادل السفراء مع الصين ، وجعل تمر قيادته ومعسكره الرئيسي بسهل البحر شرق الدالوب . وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو پريسكوس ، الذي يقص علينا وصفاً لدولته لعرف منه أن نظام معيشة أولئك المغول كان شديد التشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكانهم . فالعامة يعيشون في الأكواخ والحيام ، على حين كان الرؤساء يعيشون في قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السجاجات . وكانوا يقيمون الولائم ويحتسون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء . فلو بحث أبطال الملاحم الهجرية ، بل حتى رفقاء الإسكندر الأكبر المقدونيون أنفسهم لشعروا وهم في قاعدة أتيل العسكرية بقدر من الإلف وعدم الكلفة يفوق في الراجح ما قد يحسونه في بلاط راق متدهور كبلاد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بن أركادبوس ، الذي كان يحكم آنذاك في القسطنطينية .

ومرجين من الدهر زعم الناس في أثنائه أن الرحل بقيادة الهون وأتيل ، سيتلبون لإزله الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار من البحر المتوسط نفس الدور الذي لعبه الإغريق البرابرة بنحو الحضارة الإيبية منذ أمد سحيق . وكأنما شرع التاريخ يمد نفسه في نطاق أوسع . ولكن الهون كانوا أكثر تعلقاً بحياة الرحل من قدماء الإغريق ، الذين يمكن هدم مرجين الباشية . ميازين لهجرة أكثر منهم مترحلين . وراح الهون يغيرون وبشهبون دون أن يستقروا في مكان .

وظل أتيل بضع سنوات ينفذ على ثيودوسيوس ويبحث في قلبه العرب ما شاء له

هواه ، وذلك في نفس الوقت الذي انطلقت جيوشه فيه تمهيد في البلاد فسادا وتمعز
النهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيوش دود ماديره من المدن
في شبه جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطر
ثيودوسيوس أن يشتري رحيله بدفع الجزية إليه . كما حاول أن يتخلص منه إلى
الأبد بإرسال مبعوثين سريعين لاغتياله . ثم عاد أتيليا فوجه التفاته في ٤٥١ إلى
حطام نصف الإمبراطورية الناطق باللاتينية فزاد بلاد الغالة . فلم تنتج مدينة واحدة
تقريباً في شمال غالة من النهب والسلب . عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط
الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند ترويس Tross في معركة ضخمة .
مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غفير من الرجال يتراوح عدده بين مائة وخمسين
ألفاً وثلاثمائة ألف . ولم تلبث تلك البريزة أن أوقفت تقدمه ببلاد الغالة ، فيه
أنها لم تزل كثيراً من موارده العسكرية البائدة . فإنه دخل إيطاليا في السنة التالية .
عن طريق فينشيا (١) (منطقة البندقية) وأحرق أكويلا وبادوا واتهب ميلانو .

وسارت جماعير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية
الشمالية وبخاصة بادوا فلاخت بجزائر المستنقعات الواقعة عند رأس البحر الإدياتي
وهناك وضعوا أول حجر في دولة مدينة البندقية ، التي كسب لها أن تندو من أهم
المراكز التجارية في العصور الوسطى .

مات أتيليا في ٤٥٣ وموت النجاة بعد حفل عظيم أقامه ابتهاجاً بواجه من حسناء
صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على النهب . وعند ذلك اختفى الهون الحقيقية
من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام يثقون بالآريونية وقومهم عدداً . على
أن هذه الغارات الرومانية المضخمة أمت قزياً على العوة الرومانية اللاتينية . فتولى حكم
روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين في مدى عشرين عاماً ، أقامهم الوندال وغيرهم
من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما في ٤٥٥ ،
وانتهى الأمر في ٤٧٦ ، بأن قضى أودوا كبر الجند البرابرة على شخص بانوفى وتمولى .

(١) فينشيا : قسم إقليمي قديم بإيطاليا ينقسم إلى :

(أ) فينيتو (البندقية الأصلية) (ب) وفينيتو تيريدينا

[المترجم]

(ج) وفيروجوليا :

مهام الإمبراطورية تحت اسم ميب هو رومولوس أو شطولوس ، وأبلغ بلاطه
القسطنطينية أنه لم يجد هناك إمبراطور في الغرب ، وبذلك انتهت الإمبراطورية
الرومانية اللاتينية على هذه الصورة المزرية غير السعيدة . ثم أصبح ثيودوريك
القوطى ملكاً على روما في ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يمكنهم عند ذلك جميع أقطار أوروبا الغربية والوسطى
متخذين ألغاب الملوك والنبقات ، ومستقلين في الواقع وإن اعترفوا في معظم
الحالات بشي من الولاء الرمزي للإمبراطور . كان هناك مئات بل آلاف من
مثل هؤلاء الحكام المستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لا تزال منتشرة ببلادالغال
وإسبانيا وإيطاليا وداكيا في صومر ولهبجات عطية مشوهة ، ولكن عهد بريطانيا
والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت
في بوهيميا لغة صقلية هي التشكية . وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك
على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيرهم من المتعلمين قراءة
اللاتينية وكتابتها وقد عمد القوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات
من واق إلا قوة الساعد . فتكاثر الفلاح وساءت أحوال الطرق . وقد بدأ يظهر
القرن السادس عصر انقسام وفرقة ، وإن فيه الظلام لفكرى على العالم الغربى بأكمله .
فلولا أن قبض الله على اللاتينى رهبان المسيحية ومبشرينها لفضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا تمت الإمبراطورية الرومانية؟ ولماذا اضمحط ذلك الاضمحلال التام؟ لا جرم
أنها تمت لأن فكرة المواطنة شددت في البداية بنيتها وربطت بين أجزائها . إذ بقي فيها
في أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى . عدد غير من
رجال أقوياء الهوى بالمواطنة الرومانية ، يرون في تلك المواطنة امتيازاً لهم وواجباً
واللتزاما عليهم ، ويطمحون إلى حقوقهم في ظل القانون الرومانى ، ويدلون التضحيات
باشهر روما عن طيب خاطر ، وذاع صيته روما وأصبح رمزاً للعدالة والمظنة والمحافظة .
على القانون . حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالمواطنة أخذ ينخر
فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب الهونية نفسها نمو الثروة والاسترقاق . أجل
إن المواطنة نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم يتشرب ما تنبؤ عليه من فكرة .

ومما يكن من شيء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تكن إلا دولة بدائية بخدا ،
لأنها لم تقيم بشمال الناس ، ولم تحاول أن تقصر نفسها وتصرقاتها لجمهور مواطنيها الصغيرة

المتزايدة المدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذ من قرارات . فلم تقم بها تلك الشبكة العنقمة من المدارس التي تسكف لإيجاد التفاهم المشترك بين أجزاء الدولة . ولا نهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجبرود الشديدة ودفع النشاط الجماعي . فالغامرون الذين ظلوا يتقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولا لم يكن لديهم أدنى فكرة عن تكوين رأى عام ودعوته ليبدى رأيه في شئون الدولة . لقد مات بروح المواطنة جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغمر خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هي نتاج نهائى التفاهم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها في العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن الدولة الرومانية للناطق باللاتينية لفظت آخر أنفاسها في القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئا آخر تكون في أحشائها قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هيبتها وتقاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكي على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلجأ ويستمد على عقول الناس وإراداتهم ، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهاز ضخام من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تتدهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تنتشر في أوروبا وتمد عليها ألويتها الشاملة . حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم في عقودارهم ، ألم يحل بطريق روما ذون زحف أتيل على المدينة عندما تسامح الناس بانتمائه ذلك ، وبذا فعل مالا تستطيع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة المعنوية البعثة !

كان بطريق أو (بابا) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكملها ، حتى إذا ولت الإمبراطورية ، ولم يمد هناك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومدهيات عما كان لاولئك الأباطرة . فانتحل لقب والخير الأعظم ، *Pontifex Maximus* وهو لقب كاهن القبرائين الأتكر في الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التي كان الأباطرة يحملونها .

الفصل الحادى والأربعون

الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية

امتاز النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لا بأس به من التماسك السياسى يفوق كثيراً ما بدأ فى النصف الغربى، وبذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادى والتغلب عليها، وهو القرن الذى تحلمت فيه بصورة ثامة ونهائية دولة الرومان اللاتينية الأصلية. أجل أُرهب أتيليا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى وأخذ ينير على ممتلكاته ويبحث فيها نهياً وفساد حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم يزل منها أتيليا شيئاً. وكذلك الحذر النوبيون فى النيل واتهبوا مصر العليا؛ ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش مع ذلك فى قدر لا بأس به من الرغد. وحافظت الدولة دلى معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين.

أما القرن السادس الذى خيمت فى أثناءه على الغرب دياجير الظلام، فقد شهد فى دول الروم اتعاشاً جسيماً. فإن جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥) كان حاكماً على الهمة عظيم الطموح، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا، كانت لا تقل عنه كفاية، وهى امرأة بدأت حياتها مثلة. فاسترد جستنيان شمال إفريقيا من الوندال، واستعاد معظم إيطاليا من القوط، بل استرد جنوب إسبانيا. ولم يقصر نشاطه على المشروعات العسكرية والبحرية، بل أسس جامعة وشيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الرومانى. ولكنه شاء أن يقضى على أحد المنافسين لجامعته الجديدة فأطلق مدارس الفلسفة بأثينا، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون، أهنى ما يقارب ألف سنة من الزمان.

ظلت دولة ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية (دولة الروم) منذ القرن الثالث الميلادى. وبسبب تلك المنافسة ساد الانحطاب والدمار الدائم آسيا الصغرى

وسوريا ومصر . وكانت تلك الانتصار لأزال ترقل في القرن الأول الميلادي في بحبوحة الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان . على استمرار زخواب الجيوش وغدوها وكثرة المذابح والنهب وضرائب الحرب الباطنة ، لم يزل بما حتى لم يبق منها إلا مدن خربة مهدة قوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين . ولم ينج من عملية الإفكار والقوضى المحرقة هذه إلا مصر السفلى التي ظل حالها أقل سوءاً من بقية العالم . كأن الإسكندرية والقسمين طينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب .

وفي غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قضيا نهبهما وفيلا هاتين الإمبراطوريتين المتناحرتين المضمحلتين . ومن قبل ذلك راح أو آخر فلاسفة أثينا يحتفظون حتى يوم قضى عليهم جستنيان بنصوص الأدب التليد الموروث عن الماضي العظيم . ويحطون بها بما لأنها لم تكن التوفيق والاستمرار مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت ترويه تلك الطبقة من الرجال من أولئك السادة المهذبن الأحرار الذي تودوا في التفكير عادات الجرأة والاستقلال في الرأي . ليواصلوا تقاليد التعبير الصريح والبحث الحر التي تسنها تلك المؤلفات العتيقة . ولا شك أن القوضى الاجتماعية والسياسية هي المسئول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال ، على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مرد ما انتاب الذكاء الإنساني من العمق والانتكاس في أثناء ذلك العصر . فقد ران التعصب وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة . فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة جديدة . شاكلة عانت إلى حد كبير جميع نواحي النشاط الحر للعقل الإنساني .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات في العالم بطبيعة الحال دولا دينية تتركز حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهة . وقد اتخذ الإسكندر إليها ، وجعل القياصرة أن بابا أعيت أقيمت لهم الهيكل والمعابد . وجعل تقديم البخور إحتياجاً وشاهداً على الولاء لدولة الرومان . على أن هذه الديانات الغابرة كانت في جوهرها ديانة عمل وواقع . فهي لم تكن لتنزو العقول . فلما تقدم إنسان بقربانه ونهض أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد . فهو لا يترك فقط ليفكر في الله على أية شاكلة هو لها . بل يقول ما يشاء تقريباً . أما ذلك النوع الجديد من الإديان الذي ظهر عندئذ في العالم ، وخاصة المسيحية ، فإنها توجه (١٤ — تاريخ العالم)

إلى سويداء النفوس . لم تكن تلك الديانات تمكّني بالمطالبة بمدايرة الرجل لمن حوله في الإيمان بل تنشد الاعتقاد الواعي . ومن الطبيعي أن تنشب الخصومات العنيفة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هذه الديانات الجديدة كانت ديانات هتاف .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القويمة ، كما واجهه تصميم شديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأى عاطية ، فضلاً عن نقله إلى سائر الناس لم يعد يعتبر هيباً ذهنياً بل خطأ خلقياً قد يجلب اللعنة على إحدى النفوس ويرفض عليها باللعنات المرمدة .

ومن ثم اتجه كل من أردشير الأول الذي أسس الأسرة الساسانية في القرن الثالث الميلادي ، وقسطنطين الأكبر الذي أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ، إلى البعثات الدينية ملتصاً عونها ، وذلك لأنهما وجدوا في تلك البعثات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والهيمنة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع ديني . أما في فارس ، فإن أردشير وجد في عقيدة زرادشت الفارسية العنيفة بكل ماحوت من كهنة ومعابد ونار مقدسة تنقد دوماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لما ينفذه من عقيدة للدولة . فلم تسكد نهاية القرن الثالث تقترب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضطهد النصرانية ، كما أن ماني مؤسس « المانوية » وهي عقيدة جديدة صلب في ٢٧٧ و سُلخ بجلده . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد في مقاومة الزندقات المسيحية . ذلك أن أفكار العقيدة المانوية أثرت في المسيحية ولم يكن بد من محاربتها بأفطع الطرق ؛ وحدث في مقابل ذلك أن تأثرت المبادئ الزرادشتية الخالصة بالفكرات المسيحية . وبذا أصبحت جميع الأفكار منهية حرة . فليس عجباً إذن أن يصاب نجم العلم بالافول التام طوال فترة التمسب هذه ، والعلم يستلزم قبل كل شيء عقلاناً حراً في عمله غير مضطرب في تفكيره .

كانت الحياة البيزنطية في تلك الأيام تدور حول الحرب وأشد أنواع اللاهوت تحسباً وأجسع وذاتل البشر المألوفة وكانت بيزنطة ترى في ذلك شيئاً راسخاً جاداً ، كما

تراه شيئاً شاعرياً رومانسياً^(١)؛ وإن كان الواقع يكذب ذلك لحرمان الروم كل ما من كل جلاوة أو استنارة . فإتكاد يد يزنطة أو فارس تغلق من الحروب مع البرابرة الشمال - حتى تهوى على آسيا الصغرى وسوريا بالخراب في أثناء حروبها المهلكة المدمرة . و إرضى بخدلا أن هاتين الدولتين عقدتا أوثق أواصر المحبة والتحالف لما سهل عليهما مع ذلك أن يصدا البرابرة ويستعبدا ما ينبغي لهما من رغد . وفي إبان ذلك ظهر الترك أو التتار لأول مرة في تتارخ متحالفين أنا مع فارس وأنا آخر مع يزنطة .

حتى إذا وافي القرن السادس كان الحصان الكبيران هما جستنيان وكسرى أنوشروان ؛ فإذا حلت بداية السابع كان العداء قائما بين الإمبراطور هرقل وبين كسرى الثاني (٥٨٠) .

وقد استطاع كسرى الثاني في بداية الأمر ، وحتى أصبح هرقل إمبراطورا (٦١٠) أن يجتاح كل شيء أمامه . فاستولى على أطلكية ودمشق وأورشليم وبلغت جيوشه مدينة خلة - نيه ، القائمة بآسيا الصغرى قبالة القسطنطينية . ثم فتح مصر في (٦١٩) . وعندئذ تقدم هرقل ليظمن بجيوشه قلب فارس في هجوم مضاد كبير ، وشتت قُرب نينوى شمال جيش فارسي (٦٢٧) ، وإن احتفظت فارس في نفس الحين بجيشها في خلفدنية وفي (٦٦٧) خلع قباذ أباه كسرى الثاني وقتله ، وقد بين الإمبراطوريتين المكدونيتين صلح غير حاسم .

لقد اشتبكت يزنطة وفارس في حربيهما الأخيرة ، ولكن قل من الناس من كان يعلم آنذاك تلك العاصفة التي كانت تتجمع في نفس الحين فوق أراضي النصارى لتفضى إلى الأبد على ذلك الكفاح المزمع الذي لا هدف له .

وبينا كان هرقل يعيد النظام إلى نصابه في سوريا ، وصلته رسالة أحضرت إلى مرقع أمانى الحراسة الإمبراطورية عند بصرى في جنوب دمشق ، كانت الرسالة مكتوبة بالمرية لأحدى اللغات السامية ، ولا بد أن أحد التراجم تلاها على سامع الإمبراطور - إن كانت وصلته أصلا - كانت تلك الرسالة واردة من إنسان

(١) الرومانسي : كل شيء خيالي شعرأ كان أم ثراً ينطلق وراء حدود الحياة المادية .
ويسمى أحيانا بالرومانتيكي .
[المترجم]

يسمى محمداً رسول الله ، وهي تدعو الإمبراطور إلى عبادة الله الواحد الأحد .
وشهادة أن لا إله إلا الله . ولم يسجل لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور في تلك الرسالة .
وجاءت رسالة مماثلة لهذه إلى قباز في المدائن . فاستاء منها ومزقها ، وأمر
الرسول بالانصراف . فلما بلغ محمداً بذلك قال :
« مزق الله ملكه » .

وقد ظهر أن محمداً الذي أرسل الرسالة كان زعيماً دينياً اتخذ مركزاً دعوته في
« المدينة » إحدى البلدان الصحراوية الصغيرة . وكان يعلم الناس ديانة جديدة
تدعوهم إلى عبادة الله الواحد الحق .

الفصل الثاني والأربعون

اسرتاوسوى، وتانج،

بالصين

امتازت القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الميلادية بتقدم الشعوب المغولية نحو الغرب . فلم يكن هون أتيل إلا مقدمة لذلك التقدم ، الذى أفضى إلى النهاية إلى استقرار شعوب مغولية فى فنلندة واستونيا وبلاد المجر ، حيث لا يزال أحفادهم يعيشون إلى يومنا هذا ويتكلمون لغات تنسب لتركية . والبلغار أيضا شعب تركى الأرومة ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم لسانا آريا . فإن المغول كانوا يلعبون مع الحضارات المطبوعة بالطابع الآرى فى أوروبا وفارس والهند ، نفس الدور الذى لعبه الآريون إزاء المدينيات الإيجية والسامية قبل ذلك بئضه قرون .

أما فى آسيا الوسطى فإن الشعوب التركية سارت فيما تسميه اليوم باسم التركستان الغربية كما أن الدولة الفارسية كانت تستخدم فعلا كثيرا من الموظفين الأتراك والجند المرتزقة الأتراك . وكان الأشقايون (البارثيون) قد بادروا من التاريخ تماما وامتصهم سكان فارس بوجه عام ، ولذا لم يعد فى تاريخ آسيا الوسطى أى رجل آرين ؛ إذ حلت الشعوب المغولية محلهم . وأصبح الترك سادة على آسيا بالمنطقة الممتدة من بلاد الصين إلى بحر الخزر (قزوین) .

أدى الوباء العظيم نفسه الذى حدث عند نهاية القرن الثانى الميلادى ونجم عنه تمزيق الدولة الرومانية ، إلى إسقاط أسرة هان ، عن عرش الصين . ثم حلت بالصين فترة خيمت عليها فى أثنائها الفتره والانقسام والتمرض لغارات الهون ، ولم تلبث أن نهضت بعدها ، منتعشة القوي ، وبصورة أسرع وأكمل مما تها لآوروبا فيما بعد : فلم

يكند يحمل القرن السادس الميلادي حتى كانت الصين قد اتحدت تحت أسرة سوي ، ولم تلبث هذه حتى حلت عليها في عهد هرقل أسرة تانج ، التي يسجل التاريخ لحكمها هذا عظيما آخر من هود الرخاء بالصين .

كانت الصين طول القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية ، أدينام أنظار العالم أمنا وأبعد في الحضارة باعا ، ومن قبل ذلك مدت أسرة هان نخومها شمالا . ثم جاءت أسرتا سوي وتانج فبسطتا ألوية حضارتها جنوبا ، وبذلك شرعت الصين تحصل على الرقعة النفسية التي لها اليوم . أجل إن مملكتها كانت آنذاك بآسيا الوسطى أبعد كثيرا مما هي اليوم ، إذ كانت تمتد على طريق القبايل التركية الحاخمة لها ، حتى تبلغ في النهاية نخوم فارس وبحر قزوين .

وشتان بين الصين الجديدة التي نشأت وقتئذ وبين الصين المتبقية لأسرة هان . فقد ظهرت بها مدرسة أدبية جديدة أعظم قوة من كل ما سبقنا ، وحدث في الشعر لهبة عظيمة ، كما أن البوذية أحدثت انقلابا في الفكر الفلسفي والديني ، وحدث تقدم عظيم في الإنتاج الفني والمهارة الفنية التطبيقية وفي كل ما يهيج الحياة من نعم ومسررات . فاحتسى الشاي لأول مرة في التاريخ ، كما صنع الورق وبدأ بالطباعة بواسطة السكك الخشبية . والحق أن ملايين من الناس كالوا يعيشون ببلاد الصين جيشا جذابا رقيقا منظم إبان تلك القرون ، التي كان فيها سكان أوروبا وآسيا الغربية الذين تناقص عددهم يعيشون جيشا زريا . بين ساكن في كوخ حقير أو نازل في مدينة مسورة صغيرة أو متحصن بقلعة لمصرص بشعة المسورة . وفي نفس الوقت الذي كانت تنفث فيه عقل الغرب دياجير التحصب اللاهوتي ، كان عقل الصين متفتحنا العلم متساعنا باحثنا عن المعرفة .

ومن أقدم ملوك أسرة تانج الإمبراطور تاي تسولج الذي ابتداء حكمه في (٦٢٧) ، وهي نفس العنة التي اتصر فيها هرقل قريبا ليتوي . وقد جاء سفير من قبل هرقل ، الذي ربما كان يبحث عن حليف له في الجبهة الأخرى من بلاد فارس ووفدت عليه من فارس نفسها جماعة من المبشرين المسيحيين (٦٣٥ م) . فسمح لهم أن يشرخوا عقيدتهم أمامه . وأخذ يدرس ترجمة صينية لكتيبهم المنزلة . ثم أعلن أن في الإمكان قبول هذه الديانة العجيبة ، وأذن بإنشاء كنيسة ودير .

وإلى ذلك العاهل نفسه أقبلت رسل النبي محمد في (٦٢٨) فوصلوا إلى كانتون
على ظهر إحدى السفن التجارية ، بعد أن قطعوا الطريق بالبحر على امتداد
سواحل الهند ، وأغار نايكسونج طو لاء المبعوثين أذنا مصفحة كريهة على التقبض
على فعله قباذ وهرقل ، ثم أبدى اهتماما بأرائهم الدينية ، وساعدهم في بناء مسجد
بمدينة كانتون ، وهو مسجد لا يزال باقيا - فيما يقال - إلى وقتنا هذا . فهو بذلك
أقدم مساجد العالم .

الفصل الثالث والأربعون

محمد والإسلام

لو أن هاربا التفت في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مطلع القرن السابع الميلادي لأمكنه أن يستنتج بحق - أنه لن تنقضي بضعة قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة المغول ، ذلك أن أوروبا الغربية حرمت كل شاهد يدل على النظام أو الاتحاد ، كما أن الدلائل كلها كانت تدل على أن دولتي الروم والفرس لن ترجعا حتى تدمر كل منهما الأخرى . وكان الانقسام والحرب يعمل عمله في الهند أيضا ، وذلك في حين أن الصين كانت آنذاك إمبراطورية مستمرة الانتعاش ربما فاقت أوروبا جماء في عدد السكان ، فضلا عن ميل الشعب التركي الذي أخذ يتسلم غارب القوة بآسيا الوسطى إلى العمل على الوفاق مع الصين .

وما كانت مثل هذه النبوءة عبثا باطلا بأي حال ، إذ جاء في القرن الثالث عشر أو أن قهر فيه لسيد مغولي أهل أن يحكم إقليما يمتد من نهر الدانوب إلى المحيط الهادي ، كما كتب للأمراء التركية الممالك أن تحكم الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية جميعا ونسود مصر ومعظم بلاد الهند .

أما المنطقة التي ربما تعرض فيما ذلك المتكهن الخطأ فهي عدم تقديره بالضبط قدرة أوروبا اللاتينية على استرداد قواها ، وتجاهله لقوى الكامنة في الصحراء العربية ، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لمعينه على صورتها التي دامت طويلا منذ أزمان سحيقة القديم : حيث كانت مرتما لقبائل صغيرة متناوشة من الرحل ، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة ، لم يفتش شعب سامي في أثنائها إمبراطورية واحدة .

ثم ما لبث نعم البدو أن سطع بياهر الضياء مدة قرن واحد وجيز حافل بالآلهة والفضائل ، مدوا في أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين ، ومنعروا

تعاليم ثقافة جديدة ، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم .

أما الرجل الذي أشعل ذلك القبس العربي ، وهو [عليه السلام] فيبدو لأول مرة في التاريخ بمدينة مكة ، حيث تزوج وهو شاب من أرملة تربية ولم تأت الرسل حتى بلغ الأربعين ؛ لذا لم يمتد قبل ذلك بشئ القوم إلا ما عرف عنه من أمانته واستقامة ، وظهر أنه كان يتم احتياماً بالغاً بالبحوث (١) الدينية . كانت مكة بلدة وثنية في ذلك الزمان تعبد بوجه خاص حجراً أسود في بناء الكعبة ذاع صيته في كل أرجاء الجزيرة العربية ، فأصبح المقصد الحج والحجاج ؛ ولكن البلاد كانت تهوى عدداً ضخماً من اليهود — بل الواقع أن الجزء الجنوبي من بلاد العرب كان يمتنع اليهودية ديناً — كما أن سوريا كانت بها العقائد المسيحية .

وعندما قارب الأربعين من عمره ، أخذ ينزل عليه ناموس النبوة الذي كان لأنبياء العبرانيين قبل هذه باثني عشر قرناً .

فتحدث أولاً إلى زوجته بكلام كثير : من الواحد الحق ، وعن ثواب الإحسان والمحسنين وهذاب الشر والضلال ، لجمع حوله حلقة صغيرة من المؤمنين ، ثم شرع يعضد الناس في بلده ويحضرهم على ترك ما يصدون من أوثان فكرمه لذلك قومه وأهل بلده ، نظراً لأن الحج إلى الكعبة كان أعظم مصدر للخير النعيم الذي تحظى به مكة .

ومالبت أن زاد جرأة وأن حدد تعاليمه أكثر ، فأوحى إليه فأعلن أنه خاتم أنبياء الله وأنه بعث لئيم الدين ومكارم الأخلاق . وصرح بأن إبراهيم وعيسى كانا به مبشرين ومنذرين سابقين ، وأنه اصطفى لئيم ويكمل الكشف عن إرادة الله .

(١) لم يعرف عنه صلوات الله وسلامه عليه ذلك ، بل المعروف هو ظهوره من عبادة الأصنام وعدم سجوده لصنم قط .

وكلما اشتدت قوة تعاليمه اشتدت وطأة عداوة أبناء بلده له حتى ترامى بهم الأمر إلى التآمر به ليقتلوه ، ولكنه هاجر مع صديقه الصدوق وتلبذه الأيمن أب بكر إلى بلدة المدينة المولية التي اعتنقت مبادئه .

ومالبت الحصار والحرب أن استمرت بين مكة والمدينة ، وأنتهت في آخر الأمر بماهدة صلح ، قبلت مكة بمقتضاها أن تعبد الله الواحد الأحد ، وأن ترضى بحمد رسولا ونبياً ، على أن يواصل أتباع العقيدة الجديدة أداء فريضة الحج بمكة .

بذلك وطد محمد - بوحي من ربه - عبادة الرب الواحد الحق بمكة دون أن يضرب تجارتها وحجيجها . وعاد إلى مكة في ٦٢٩ سيداً لها مطاع الكلمة ، وإذا هو يرسل في مدى سنتين ذلك التاريخ مبعوثيه إلى هرقل وتايستونج وقباذ وجميع حكام الأرض كافة .

ثم راح النبي عليه الصلاة والسلام يسطرطانه هل بقية أجزاء الجزيرة العربية في السنوات الأربع الأخيرة قبل وفاته في (٦٣٢) وتزوج هداً من النساء في أثناء سنى شيخوخته .

ويلوح أنه رجل ركب فيه ماباع كثيرة ، مناشدة الشعوب الدين القوي والإخلاص . وأوحى إليه من الله كتاب هو القرآن ويحوى كثيراً من التعاليم والشرائع والسنة .

ويحتوى الإسلام الذي فرضه النبي على العرب ديناً ، الشيء الكثير من القوة والإلهام . فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوادة فيه ، وإيمانه البسيط المتمسك بمحكم الله الناس وأبوتة الشاملة لهم وخلوه من التعقيدات اللاهوتية .

ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرايين ومعبدها ، فهو عقيدة نبوية تماماً ، بإيمان حصين من كل انزلاق نحو القرايين الدنيوية .

والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشعائر ، إنما يجعلها بإيمان من كل احتمال النزاع في شأنها ، كما أن النبي اتخذ كل احتياطي ليحول دون تأليه بمعتقداته ، وثمة عنصر ثالث القوة يكمن في إصرار الإسلام على أن المؤمن جميعاً إخوة متساوون تماماً أمام الله ، مما اختلفت الروايات أو أصولهم أو مراكزهم .

هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشؤون الإنسانية . ويقول

المؤرخون إن المؤسس الحق للدولة الإسلامية لم يكن همداً قدر مامو حديقه ومساعده أبو بكر . قلن كن محمد هو العقل المفكر والتصور الملمم للإسلام الأصلي، قلند كان أبو بكر ضيعه وإرادته بحق إذا مات محمد أصبح أبو بكر خليفة، ثم راح بمقيدة تزحرج الجيزل، يعمل ببساطة ودقل راجع على إخضاع العالم كله لأمر الله — ببساطة جبرش يتراوح عددها بين ثلاثة آلاف عربى طبقاً لتلك الرسائل التى كتبها النبي عليه السلام من المدينة فى (٦٢٨) إلى جميع ملوك العالم . فهو بحق مؤسس دولة الإسلام .

الفصل الرابع والأربعون

عهد عظمة العرب

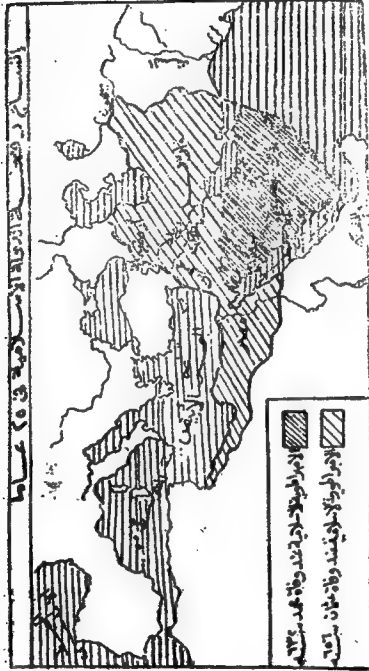
ثم جاءت بعد ذلك أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري . إذا تمزق الجيش البيزنطي في معركة اليرموك (وهو أحد روافد نهر الأردن) في (٦٣٤) ، ولم يلبث الإمبراطور هرقل — وقد استنزف داه الاستسقاء قواه كما استنفذت الحرب الفارسية موارده المالية — أن رأى مثل ما كانه أني استردها وشيكا في سوريا وهي دمق وتدمر وأنطاكية والقدس وغيرها ، تتداعى أمام المسلمين دون مقاومة تقريباً . واعتنفت الإسلام لسبة كبيرة من السكان . ثم اتجه المسلمون شرقاً إلى بلاد الفرس الذين وجدوا في رسم قائد أقدريا ، فجمعوا له جيشاً عظيماً به قوة من قتيلة ، واستمروا يقاتلون العرب ثلاثة أيام عند القادسية (٦٣٧) ثم هزموا في النهاية هزيمة قامة .

وتم بعد ذلك فتح فارس بأجمعها . وتقدمت الدولة الإسلامية قدماً إلى التركستان الغربية ثم توغلت في الشرق حتى التقت بالصينيين ، وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين .

واندفع سيل الفتوح على ساحل إفريقيا الشمالى حتى بلغ مضيق جبل طارق وتجاوزته إلى بلاد الأندلس في ٧١٠ ، وبلغ الفاتحون جبال البرانس في ٧٢٠ . ولم يلبث تقدم العرب حتى بلغ وسط فرنسا في ٧٣٢ ، ولكنه أوقف هنا إلى الأبد بعد معركة بواتييه (١) ، ورد على أعقابهم إلى جبال البرانس ثانية . وصار للعرب بفتح مصر أسطول بحرى ، وجاء أوان لاح فيه سقوط القسطنطينية وشيكا ، فهاجموها بحراً مرات عديدة بين ٦٧٢ ، ٧١٨ ، ولكن المدينة العظيمة صمدت أمام هجماتهم

لم يوهب العرب كفاية سياسية كبيرة . كما أنهم لم يرزقوا أية خبرة سياسية أبداً ، لذا

(١) هي معركة بلاط الشهداء التي هزم فيها عبد الرحمن الفاتح على يد شارل مارتل الفرنجى



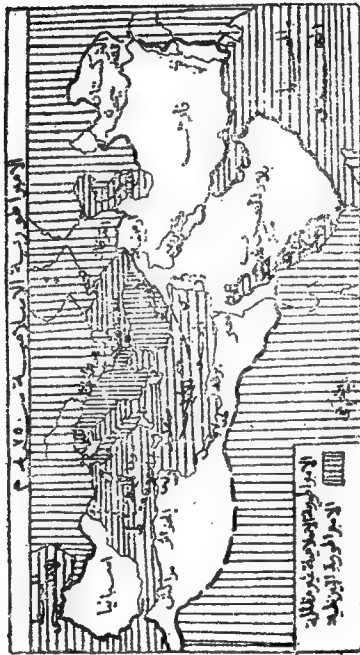
خريطة رقم (٨)

لم يقدر لهذه الإمبراطورية العظيمة التي أصبحت قصبتها آنذاك مدينة دمشق، والتي امتدت بوقعتها من إسبانيا إلى الصين ، أن تعيش طويلا . ومنذ البداية نفسها . فوضت الخلافات المذهبية وحدتها . هل أن محور اهتمامنا هنا ليس قصة تفككها السياسي ، بل أثرها في العقل الإنساني وفي المصائر العامة لجنسنا البشري . لقد قذفت المقادير بالذكاء العربي في طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت . لذا هظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية متى أحدثها وجودهم لعالم أجمع غربي بلاد الصين . كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة .

وفي فارس اتصل هذا العقل العربي الجديد المنتبه بالمدادى الماثورية والزرادشتية . والمسيحية وحدهما . بل التقي أيضاً بمؤلفات الإغريق العلمية ، التي لم تكن مكتوبة فقط باللغة اليونانية بل في ترجمات سريانية كذلك . ثم إنه وجد العلوم اليونانية بمصر أيضاً . كما أنه استكشف في كل مكان وخاصة ببلاد الأندلس تقليدا يهوديا ناشطا في نواحي التأمل الفكري والجدل . والتقى في وسط آسيا بالبوذية وبما بلغته الحضارة الصينية من ألوان التقدم المادى ، فتعلم منها صناعة الورق ، التي يرجع إليها الفضل في ظهور الكتب المطبوعة . ثم اتصل ذلك العقل أخيرا بالرياضة والفلسفة عند الهنود .

وما هي إلا فترة وجيزة جدا حتى رلى الشعور المتعصب بالسكفاية لذاتية الذى ظهر في أيام العقيدة الأولى . والذي كان يصور القرآن في صورة الكتاب الوحيد الذى يحوز الأخذ به . فكان العلم يلب على قدمية وثبات في كل موضع وطئته قدم الفاتح العربى . فلم يحل القرن الثامن الميلادى حتى كانت للدولة منظمات تعليمية تنتشر في كل أرجاء العالم المستعرب . وحين وافى التاسع إذا بالعلماء في مدارس قرطبة بالأندلس يرسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند . وتمثل كل من العقائين اليهودى والعربى بعضهما بعضا ، ومرت فترة تعاون فيها الجنسنان الساميان على العمل المتضافر بواسطة اللسان العربى . ثم تمزق شمل العرب وضعفت شوكتهم ، ولكن هذا الارتباط الفكرى بين أصقاع العالم بالعربية دام بعد ذلك التمزق طويلا . وكان لا يزال ينتج في القرن الثالث عشر نتائج عظيمة جدا .

وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذى بدأه الإغريق لأول مرة ،



خريطة رقم (٩)

عاد سيرته الأولى في ثنايا تلك النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامى . فالآن دبّت الحياة في بذرق أرسطو ومتحف الإسكندرية ، اللتين طال العهد على خودهما وإعمال الناس لهما ، وإذا هما تبتتان من جديد وتأخضان في الإثمار .

لقد تم العرب في حقول العلوم الرياضية والطبيعية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم . فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلّ محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يخفى أن اسم الجبر ، نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة كيمياء . ثم إن أسماء نجوم كجسم الذول والدبران والمواء Bootes تحتفظ بذكري فتوح العرب في أطباق السماء ، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون دأعمال الصنعة ، Alchemists ، ولكنهم ظلوا على جانب كبير من النزعة الهيجية من حيث أحفاضهم بطرائقهم وتناجيمها على السكناز ما وسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ما قد تعود به عليهم من مستكشفاتهم من مزايا هائلة وما قد يترتب بها على الحياة البشرية من هواقب بعيدة الأثر .

ولاشك أنهم وفقوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيقات النقى كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عبروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والداور وزجاج العدسات .

ولكنهم كانوا ينشدون غرضين رئيسيين ظلوا ينشدونها بهشاً ، أما أول الغرضين دحجر الفلاسفة ، الذى ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض ، وبذلك يحصلون على اليمنة على صنع الذهب . أما الغرض الثانى فهو كبير الحياة . وهو تزيان بعيد الشباب وطيل العمر إلى مالا نهاية ، وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشرت إلى العالم المسيحى التجارب المعقدة المحفوفة بالمشقة والصبر ، ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيهم . ولم تصبح جرود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويداً رويداً وبالتدرج الباعى . لغاية ، فإنهم شربوا بالفائدة التي تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج
البعلى غير المحسوس :

كان قديما أهل الصنعة يشهدون سحر الفلاسفة الذى راديه أن يجعل المعادن
الديئة إلى ذهب ، كما يطلبون أكسيرا الخلود ، ولكنهم هتروا على مناهج العلم
التجريبى الذى يوشك فى خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطانا لا حد له على العالم
كله ، بل جعل صائره هو نفسه .

الفصل الخامس والأربعون

تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلاحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم في القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصاً مفرطاً . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هي صاحبة الغلبة على العالم المنحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم المغول حتى بلغوا بلاد المجر ، ولم يبق من آسيا شيء تحت حكم الآريين إلا الممتلكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت إسيانيا كلها تقريباً . وقد انكشف العالم الهليني العظيم حتى أصبح بضع ممتلكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شيء يخلد ذكرى العالم الروماني سوى اللاتيني الذي ينطق به قساوسة المسيحية الغربية وعلى النقيض القوى لفظة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية ونفضت عنها غبار الذلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفذها الأيام تماماً ، فإنهم وإن حصرروا آنئذ في منطقة أوروبا الوسطى والشمالية الغربية وتمرغوا تمرغاً ذريعاً في حماة أفكارهم الاجتماعية والسياسية ، فقد شرعوا مع ذلك يبنون بالتدريج وبصفة مستمرة دائمة نظاماً اجتماعياً جديداً ويمدون العدة ، بغير وعى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيراً عما استمتعوا به في الماضي .

وقد أسلفنا لك كيف أنه حدث في بداية القرن السادس أن أوروبا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام المحليين الذين يستقل كل منهم بشئونه بقدر طاقته . وفي ذلك ما فيه من الاضطراب الذي لا يبشر بأي درام لتلك الحالة ، لذا نجم بين ظهراني تلك الفوضى ضرب من التعاون والترابط ، هو النظام الإقطاعي الذي بقيت آثاره في الحياة الأوروبية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعي ضرباً من تبلور المجتمع حول القوة ، فإن

الرجل الفرد أحس في كل مكان بالخوف وعدم الطمأنينة وبدافع يدفعه إلى مقايضة شيء من حريته بشيء من الموعنة والحماية . فالتمس لنفسه رجلاً أقوى منه شوكه ليكون سيده له وحامياً ؛ وإليه قدم خدماته العسكرية ودفع المكوس ، وتلقى مقابل ذلك تأكيداً بامتلاكه ما له من ممتلكات ، وكذلك الشأن مع سيده الذي كان يحس الأمان في الخصوص لمولى أعظم منه هو أيضاً . ووجدت المدن كذلك أن من الخير الملائم لها أن تحصل على حماة إقطاعيين ، كما أن الإدارة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسها بروابط عائلية لهذه . ومن البديهي أن الولاء كان يطلب في كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائياً ، فكان النظام كان ينمو إلى أسفل مثلاً كان ينمو من أسفل إلى أعلى ، وبذلك نشأ ضرب من نظام هرمي يختلف اختلافاً بعيداً بمختلف المناطق ، ويستحق في البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة ولكنه يتجه باستمرار نحو إقرار النظام ، ونحو عهد جديد يسوده القانون . وما زالت الأهرامات تملأ حتى أصبح بعضها ملكيات واضحة المعالم . وكانت هناك منذ عهد قديم جداً ، هو بواكير القرن السادس ، مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس وموقعها فرنسا الحالية والأراضي المنخفضة (بلجيكا وهولندا) ، وسرعان ما ظهرت أيضاً ممالك قوطية غربية ولومباردية .

وعندما عبر المسلمون جبال البرانس في ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم « الواقعى » لشارل مارتل ، ناظر القصر لدى حفيد منحل من سلالة كلوفيس ، - وهناك عند بواتييه (٧٣٢) لقوا على يده هزيمة فاصلة . كان شارل مارتل هذا في الواقع السيد المتحكم في أوروبا في رقعة تمتد شمال جبال الألب ؛ من نيبال البرانس حتى بلاد البحر . وكان يسيطر على العدد الجرم من السادة التابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية ، وباللغتين الجرمانيتين العليا والسفلى (١) . وما لبث ابنه « بيبين » أن قضى على آخر البقية الباقية من أحفاد كلوفيس ، واستولى على ملكهم وتاجهم ووجد حفيده شرلمان الذي بدأ حكمه في ٧٦٨ نفسه حاكماً على مملكة بلغت حين الاتساع أنه فكر أن يسد لقب أباطرة الدولة الرومانية الغربية (اللاتينية) . ويتطلب به . ففتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيداً على روما .

(١) الجرمانية العليا : هي لغة مرتديات ألمانيا وجنوبها - والجرمانية السفلى هي لغة البهلوال الشمالية المنخفضة .
[الترجيم]

وعندى أن فى مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوروبا استعراض التاريخ العسى
الرحيب الأفق ، أقول فى مستطاعنا أن نقدر أكثر من مؤرخ قوى بحث ، الأثر
الآليم المدوق الذى جلبه على أوروبا لإحياء ذلك القلب الرومانى الإمبراطورى ، إذ أن
أوروبا تكبت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوهمية ولقها مدة تزيد
على ألف سنة ، استنفدت فى أثنائها كل طاقاتها ، ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لا مكنك
تعقب خصومات حامية الرطيس فيها ، ولرايتها تتأجج فى عقول الأوروبيين تأجج
الرواسم (١) فى غل غيول به مس من الجنون . ومن هذه الدوافع القوية طموح
كبار الحكام ، الذين يمثلم شلمان (ومعناها شاول الأكبر) - إلى التلقب بلقب
قيصر . وكانت ملكة شلمان تتكون من مجموعة معقدة من دول إنطاكية جرمانية
تترواح فى قوة طابعها البربرى . وقد تملكت معظم هذه الشعوب الجرمانية فى غرب
نهر الرين أن تتغنى بلهجات تلوت باللون اللاتفى ، ولم تلبث فى النهاية أن اندمجت
فأصبحت اللغة الفرنسية الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية
المأهلة فى جنسها لتلك التى فى غرب النهر لم تفقد لسانها الجرمانى ، لذا لم يعد التوصل
سهلا بين طائفتى هؤلاء النواة البرابرة ، ومرحان ما حدث اصدم بينهما . وزاد
فى تيسير الصدم أن حرف الفرنجة كيف يجهلون من الطبيعى تقسيم إمبراطورية
شلمان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر المألوفة فى تاريخ أوروبا منذ أيام شلمان فما بعده ،
أن يتحول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك . وهم يكافحون فى سبيل رياسة
مملكة على من عاصرهم فى أوروبا من ملوك وأمرأ ودوقات وأساقفة ومدن ، فى
حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسية والألمانية - يزداد عمقا فى طوايف
تلك المصومة ، وقد جرت العادة بإقامة انتخاب شكلى لسلك إمبراطور يتولى
العرش ، وكان أقصى ما يمتنى كل منهم أن يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البابلىة
ذات الموقع السىء وأن يعطى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى فى الاضطراب السياسى بأوروبا فهو تصميم الكنيسة بروما على ألا
تسمح لأى أمير حليف إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطورا واقىا ، وقد سبق البابا

(١) الرواسم : (Obsession) فكرة ملحة تتوارد دائما تلون مادة بلون عالمى
قوى ، وغالبا ما تطوى على دافع إلى القيام بنوع من التصرف ، وهى حالة عقلية مرضية
وتسمى فى علم النفس باسم الجواز أو الانحصار . [لترجم]

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ، وكانت كل الدواهي العملية البهتة تدهره إلى
الاحتياط بملك المدينة المتدهورة ، وأن أمره الجبرش فلهذا كان ملك على
الأقل مؤسسة لحمة للدعاية ، لسانها قساوسه المنتشرون في كل أصقاع العالم اللاتين ؛
ولئن قل نصيريه من السلطان على أجسام الرجال ، فلهذا سلك يمينه فيا تصور أختلهم
مفاتيح الجنات والجحيم ، وكان له من ثم نفوذ كبير على نفوسهم . لذا فالصور التي
ترسم أمامنا عن المصور الوسطى بأكلها هي أنه في الوقت الذي كان أحد الأمراء
يداور ويناور ضد زميل له طلبا للساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم القاسا
لهدى الأعلی المرموق أخيرا - كان البابا في روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع
الأمراء جميعا لسلطانه بوصفه السيد الأعلى النصرانية ، يقوم بذلك بهجرة وجسارة
أحيانا ، وبإعمال المكر والدهاء تارة ، أو بحسنة وضف أخرى (وذلك لأن
الباپارات كالزواجعة متعاقبة من الشيوخ لم يرد حكم أحدهم عن سثنين قط) .

بيد أن هذه الخصومات الناشئة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تكن هي
وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوروبا ، فقد كان بالتقسطنطينية إمبراطور يحكم
الرومية ويطالب أوروبا كلها بالولاء لعرشه ، وعندما حاول شلمان أن يمتد
الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من ابتثاث القسم اللاتين منها . فكان من الطبيعي
إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شعور بالمنافسة .
حتى أن تطور المنافسة بين الكنيسة المسيحية الناطقة بالرومية وبين ميثلتها الحديثة الناطقة
باللاتينية كان أشد وأصرح . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير
تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحي في كل مكان . ويذهب إلى أن إمبراطور
التقسطنطينية وبطريقها لا ينظران بين الرضا إلى هذا الادعاء . ولشب نزاع في
١٠٥٤ حول نقطة دقيقة في موضوع الثالث المقدس ، فكان نقطة الانفجار التي
تصدت مما العلاقة بين الطرفين بين مجموعة متتالية من الخلافات . فافترقت الكنيسة
اللاتينية عن أختها البيزنطية وتميزت إحداهما عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت
عما يمكنه للآخرى من هدوء . وينبغي أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها
من الخصومات التي ذكرناها في تعدادنا للنزاعات التي بددت قوى عالم النصرانية
اللاتينية في المصور الوسطى .

وعلى رأس هذا العالم المسيحي المتفرق الكلمة ، انتهالت الضربات من قبضة

السياسي لشعوب البربرية جماعاً ، وهي إقصاء أبناء الحاكم والرئيس على أنفسهم ، وإعلاء ما يثير إعجابك أن تأمل النتائج التي كانت تقترب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذي قام على يد النورمان . والنورمان شجع أوق جرأة مدهشة وهمة نادرة . تقدموا بجراكم في البحر طويلاً حتى لقد بلغوا إسبندة وجرينلندة . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوروبيين . وقد حدث فيما يلي ذلك من هود التاريخ أن النورمان إستردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقد يستوى ألباناً تصور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمة التي كانت نواتها ملكة كانت ، وقد امتدت من أمريكا إلى روسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوروبيين المصطنعهم بالصبغة اللاتينية كان ينزل خليط من القبائل السلافية (الصقلية) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء الجريون (الحنفاريون) الذين ظلوا يتقدمون غرباً طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدهم شرلمان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته في بلادهم الحالية ، وأخذوا ينفرون كلما جاء الصيف على أنظار أوروبا المستقرة على جاري حادة المرون أسلافهم المشاهدين لهم . وقد اخترقوا ألمانيا كلها في ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وهربوا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن طأوا في تلك البلاد سرة وتحريقاً وتدميراً .

وأما الضربة الثالثة التي نزلت بأوروبا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير ، ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى البأس إلا النورمان : —
لورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان الغرب .

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبن خلفه من هواهل طاهرين إلى العلا ، وجماعتهم يشعرون أنهم تكتنفهم قوى لا يفقهون لها معنى وأخطار لا يستطيعون لها تقدير ، راحوا يضطلمون بمسرحية غير ذات غناء ، هي إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت اسم الرومانية المقدسة . ولم تزل هذه الفكرة تخاضر الحياة السياسية لأوروبا الغربية منذ عهد شرلمان عامرة بحالات التهمس . على حين كان النصف اليوناني من الدولة الرومانية يستعمل في الشرق ويذوي حتى لم يبق منه في النهاية شيء خلا مدينة تجارية فاسدة متهورة هي القسطنطينية وحولها بضعة أميال من الأراضي المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوروبا من الناحية السياسية محافظة متسكة بالثقاليد العتيبة غير المثمرة مدة ألف سنة بدءاً بامر شرلمان .



خريطة رقم (١١)

إن اسم شرلمان يبتدى عظمها منهما على صفحات التاريخ الأوربي ، ولكن قلنا
وأي أحد شخصيته جليلة واضحة المعالم . كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن إكباره
للمعلم كان جسيماً ؛ وكان يميل إلى الاستماع إلى القراءات في أثناء تناوله الطعام ، كما كان
شديد الولع بالمجادلات اللاهوتية ، وكان كلما ذهب إلى مشناه في إكس لاشايل أو
ماينز جمع حوله طائفة من العلماء ليتلقت الشبه الكثير مما يدور بينهم من حديث ، فإذا
حل الصيف انطلق لقتال العرب الأندلسيين مرة ، أو الصقالبة والمجرين أخرى ، أو
السكسون وغيرهم من قبائل الجرمان التي لم تبرح على الوثنية . فهل راودته فكرة
تولى القيصرية بعد رومولوس أغسطس قبل استيلائه على شمال إيطاليا ، أم ترى
أوصاحا إليه البابا ليو الثالث ، الذي كان يتوق إلى فصل الكنيسة اللاتينية عن
القسطنطينية ؟ - ذلك ما لا سبيل إلى الوصول إلى رأى حاسم فيه .

لقد جرت في روما مناورات ومداورات من أعجب ما يكون . قالوا يا يريد أن يظن
على الملا أنه هو الذي منح التاج الإمبراطوري للإمبراطور المنتظر الذي لم يكن يريد

ذلك المظهر . ونجح البابا في توزيع ضيقه الغازي على غرة منه بكنيسة القديس بطرس في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضع على رأسه شرلمان ونادى به قيصرا وأوغسطوس . وتمايل حثاف الناس . ولم ترض نفسي شرلمان بأى حال من الطريقة التي تم بها الأمر ، الذي ظلت ذكره . تخرج كرامته ، كأنها هزيمة منى بها ، كما أنه ترك لابنه أدق التعليلات موحيا بإياه ألا يسمح للبابا بتوزيعه ، وأن يتناول التاج بيديه ويضعه بنفسه فوق رأسه .

وهكذا نرى منذ البداية الأولى لمودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل المتديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدينية . على أن لويس الورع بن شرلمان أخفل تعليلات أبيه وخضع للبابا خضوعا تاما .

وتنقذت إمبراطورية شرلمان شرمق بموت ولده لويس الورع ، واتسفت شقة الصدد بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور الذي تلاه على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنرى الصياد ، وهو الذي انتخبته ملكا على ألمانيا جمعية من أمراء الجرمان وأساقفتهم في ٩١٩ . وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا في ٩٦٢ . وانقضت هذه الأسرة السكسونية في أوائل القرن الحادى عشر وحل محلها حكم آخرون من الجرمان . ولم يحدث قط أن أمراء وبلاء الإقطاع المقيمين في الغرب والناطقين بلهجات فرنسية منوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن انقضت الأسرة الكارولوفنجية : أحنى أحفاد شرلمان ، كما لم يحدث قط أن جزءا من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من صفار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت ملكة فرنسا في ٩٨٧ من يد الأسرة الكارولوفنجية إلى يد هيو كابيت ، الذى كان أحفاده يحكمون فرنسا في القرن الثامن عشر . ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيو كابيت إلا منطقة صغيرة نسبيا تحيط بمدينة باريس .

وفي ١٠٦٦ هوجمت إنجلترا من جهتين في وقت واحد تقريبا ، فنزاهما نورمان للفرنج بقيادة هارولد هاردرادا ، كما هاجها من الجنوب النورمان ذوو الطابع

اللاتيف بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم الغازى
البرونجى فى معركة ستامفورد ، ولكن دوق نورماندى هزمه عند هاستينجس . وفتح
النورمانديون إنجلترا ، وأبعدوها عن كل علاقة بالشتون الإسكتندلندية التبتوتية
والروسية ، وأحكموا ما بيننا وبين الفرنسيين من علاقات ورجوا بها فيما لهم من
منازعات ، وظل الإنجليز مشبكين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى
المنازعات النائرة بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك المدة المنحمة يبددون
قواهم فى مبادئ القتال الفرنسية .

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية

وعصر السيادة الباباوية

لهذا مما يثير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلمان تبادل الرسائل مع الخليفة هارون الرشيد ، وهو نفس هارون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هارون أرسل السفراء من بغداد - التي أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق - يحملون الهدايا والألطف التي منها خيمة فاخرة نفيسة وساعة مائية وأحد القيلة ومفاتيح الناوروس المقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطة محكمة التدبير أراد بها تأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين في أورشليم ولمن منها حتى حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه في نفس الوقت الذي كانت أوروبا تصل فيه إبان القرن التاسع نار فوضى الحروب وما يصحبها من تدهور ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أشد حضارة من دول أوروبا جميعاً ، لقد كان الأدب والعلم لا يزالان عندهم يحتفظان بنشاطهما القوي ؛ وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان في إمكان العقل البشري أن ينتقل في أبراج التفكير دون أن تمرقه عناق أو خزعبلات . وكذلك اشتمت قوة الحياة الفكرية في إسبانيا وشمال إفريقيا التي أخذت فيها الفوضى السياسية تدب في أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويبحثون في آرائه إبان تلك العصور التي رانت فيها الظلمات على أوروبا . لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بذور العلم والفلسفة التي طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقي من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية اتخذت

الإسلام ديناً ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس
الزاضعين فكرياً بالجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية في أثناء القرن العاشر ،
وذلك بيننا : دب ديب الانقسام والاضمحلال في دولة العرب ، وتطورت العلاقات بين
الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قريبة الشبه بعلاقة الميدين بالإمبراطورية البابلية
الآخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرناً ، وحدث في القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من
القبائل التركية ، هي الأتراك الساجوقيون زحفوا على أرض الجزيرة وجمعت الخليفة حاكماً
بالاسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم ، وأسروا في أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ،
وأخذوا بعد ذلك يزلون الغربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى . فزعم الجليش
البيزنطى هزيمة تكراه في ١٠٧١ في معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاحت الأتراك
البلاد . فلما حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بأسها . ثم استولوا على قلعة نيقيا
المخاضة للقسطنطينية وأخذوا يمدون العدة للاجهاز على المدينة نفسها .

دب العرب في قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان شبكاً في حرب
مضروس مع ثلثين المغازين النورمان استولت على مدينة دورازر ، ومع شعب
تركى شديد الشراسة هو البشناق (البشنخ) ، الذين كانوا يغيرون على ضفاف
الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو في عتته أن يلتمس المعونة حيث استطاع أن
يجدها ، وما تجدد ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور الغرب بل التمس العون
من بابا روما بوصفه رئيساً النصرانية اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى
الخامس ، كما كتب خلفه اليكسيوس كومنينوس مستغيثاً بإرباب الناني .

حدث هذا ولم ينقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربع قرن ، -
والخصومة بين الطرفين لم تزل ذكرهما قوية الإشراف في عقول الناس ، ولا شك أن
هذه الكثرة التي أصابت بيزنطة قد تبتدأت أمين البابا فرصة ثمينة بيد ما فرض سيادة
الكنيستين اللاتينية على البرلمان أهل الفرقة والخلاف ، وفصلاهن ذلك فإن البابا اتزها
فرصة لمعالجة أمرين أزعجا عالم النصرانية اللاتين : أما لزهاج ، وأول الأمرين
هو هادة الحرب الخاصة التي كانت تفتق الفوضى في الحياة الاجتماعية ، وثانيهما هي طاقة
القتال الفتيحة التي يشتمها سكان السهول الجرمان والنورمان المنتصرون ولاسيما الفرنجة
منهم والنورمانديون . وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يبشرون بحرب مقدسة ،
هي حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التي براد أن تمن على الترك من نصيب بيت المقدس ،
كما يبشرون بوجوب قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥)

وقد أعلنوا أن المذهب من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد
السكرترة . وراح رجل يدعى بطرس الناسك يحوب الآفاق ويبت دفايته في
البادية بكل من فرنسا وألمانيا ، وكان يتجول في البلاد في ثوب بشن حافي القدمين
ويتغطى حماراً ، وهو يحمل صليبا ضخما ويغلب الناس في أشوارع والأسواق
والكنائس .

وكان ينشئ على الترك ما يرتكبونه ضد الحجاج المسيحيين من تساوت ،
ويذكر الناس بالعار الذي يعود عليهم من بقاء النابوس المقدس في أيدي
مسيحية ، وعند ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية في
استجابة الناس لها ، فإن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربي ، وعند
ذلك اكتشفت النصرانية الغربية نفسها لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التي صدرت آنذاك عن عامة الشعب
نمسا لسكرترة واحدة ، شيئا جديدا لم يبد له مثل في تاريخ البشر ، هي شئ
ليس له من ضرب في سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع
ذلك فقد حدثت في نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودي بعد
تحرره من الأسر البابلي ، كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية الشعوب
الحديثة مائلة لهذه .

ومن الحق أن هذه الحركات ارتفعت بالروح الجديدة التي ظهرت في هذا العالم
مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمبشرين . فإن أنبياء العبرانيين وهنري
والحواريين وماني وعمدا ، كانوا جميعا معلمين يناجون نفوس الناس كأفراد .
وكانوا يواجهون ضمير الشخص باقة رأسا . وقبل ذلك الأوان كان الدين
أقرب إلى الفتيشية والخزعبلات والعلم الزائف منه إلى أن يكون من شئون الضمير
البشري ، وكان النوع القديم من الدين يدور حول المعبد ، والكهنه المتدرج فيه
أسرار العقيدة والقرايين الرزية ، كما كان يحكم الرجل العادي بالخوف حتى الكاهن
العبد الرقيق . أما ذلك النوع الجديد من الدين فإنه اتخذ منه إنسانا .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارته مشاهير العامة في التاريخ
الأوروبي ، وربما كان من المباني القول بأنها تؤخذ بمولده الديوقراطية الحديثة ، وإن
لم يخالجنا شك في أن الديوقراطية الحديثة تحركت فملا في ذلك الزمان . وسنجد

تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، ونسأل أسئلة اجتاهية ودينية تبعث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك في أن هذه الحركة الأولى انديموقراطية انتهت بنهاية اليمه فاجمة فان حشوداً ضخمة من العامة هي في الواقع جماهير محددة أكثر منها جيوشاً ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوروبا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائد يقودها أو معدات تزود بها ، وهي تريد إنقاذ القبر المقدس وتلك هي الحملة الصليبية الشعبية . وقد ضل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعماء أهل المجر - الذين دخلوا هذئذ في المسيحية وشيكا كانوا من الوثنيين ، فارتكبوا بعض الفظائع ، وهب المجريون فأعملوا فيهم الذبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختل عليه الأمور هو أيضاً ، وتبلبل فكرة كسابقيه فزحف شرقاً بعد أن أحمل الذبح بشدة في يهود منطقة الرين ، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وعبرا البوسفور حيث هزهما الأتراك السلاجقيون ، بل ذبحوهما ذبحاً ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوروبية بوصفها حركة شعبية .

وفي السنة التالية (١٠٩٧) عبرت البوسفور القوات المغتالة الحقة ، وكانت بطبيعة الحال لورمانية في الروح والقيادة ففتحو ليقية عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تقريباً نفس الطريق الذي سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرناً . وقد عظمهم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعد محاصرة بيت المقدس في يولية ١٠٩٩ ؛ وسقطت بيت المقدس بعد شهر من الحصار ، وكانت المذبحة التي دارت بهاربية عظيمة ، فان الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع أنهاراً ، وما أدرى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سبيلهم قتالاً إلى كنيسة القبر المقدس وتقلبوا على كل مقاومة في المدينة ، وهنالا جثوا الصلاة ملطخين بالدماء ، متعبين مكدرين ييكون من فرط السرور .

وسرعان ما اشتعلت من جديد نار المداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولذا وجد بطريرق القدس الرومي (الأرثوذكسي) نفسه وهو في ظل اللاتين المنتصرين في موقف أسوأ من موقفه في ظل الأتراك .

واكتشف الصليبيون أنهم وقبريا بين البيزنطيين من ناحية والأتراك من ناحية أخرى وأنهم يقاوتون الطرفين جميعا . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاجزة (١) بين الأتراك والروم ، ولم يجدوا في أيديهم سوى بيت المقدس وإمارات صغيرة قليلة ، في سوريا كانت إمارات الرها من أكبرها

على أن قبضتهم حتى على هذه الإمارات كانت طفلة طفيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت في أيدي المسلمين في ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت في استخلاص الرها من أيدي العرب ولكنها أفضت انطاكية من الوقوع في نفس المصير .

وفي عام ١١٦٩ تجتمعت جموع الإسلام حول راية قائد كبرى اسمه صلاح الدين الأيوبي ، أصبح حاكما على مصر . فدعا إلى قتال الصليبيين ، واسترد بيت المقدس في ١١٨٧ ، وبذا استنزأ أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس . حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية هداهها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ولعمى القوم الأتراك تماما ولم يجدوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة في ١٢٠٤ .

وكانت زعيمة هذه الغامرة هي مدينة البندقية الثغر التجاري الناعم العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية . ونصب في القسطنطينية إمبراطور لاتيني هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم اباطرة اللاتين بالقسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم انتفض العالم اليونانى وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر عظمى ليا بوية ، مثليا كان الحادى عشر عصر تفوق الأتراك السلجوقيين ، والعاشر عصر النورمان ، وفى هذا

(١) الدولة الحاجزة Buffer State : دولة عابدة تقع بين دولتين متنازعتين ويؤدى وجودها إلى التخليل من خطر الحرب بينهما .
(الترجم)

المصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد في عالم المسيحية تحت حكم البابا، وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه في أي وقت قبل ذلك العصر أو بعده .

وفي إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقررة الواقعة الواسعة الانتشار في مناطق كبيرة من أوروبا . أجل إن روما نفسها مرت عليها أدوار حالكة مشينة غير كريمة ، فقلنا جرؤ كاتب على النهوض لتبرير سلك البابا يوحنا الحادي عشر والبابا يوحنا الثاني عشر في أثناء القرن العاشر - فإنها كآنا من الكائنات الكريمة البشعة ، ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بسيطة جادة في روحها ومعناها ، وفي ظلها قضت الإغلبية العظمى من القساوسة والرهبان والراهبات عمرها في حياة مثالية تراثها الاخلاص والأمانة ، وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التي أوجدتها هذه الشخصيات . ومن اعظم باباوات الماضي جريجوري الأكبر ، وهو جريجوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م) .

وليون الثالث (٧٩٥-٨١٦م) . الذي دعا شرلمان ليكون قيصرًا وتوجه على الرغم من ذلك . ولما قرب نهاية القرن الحادي عشر ، زجل دير عظيم ذو سياسة وتديبر هو ، هديراند ، الذي تسمى فيما بعد باسم البابا جريجوري السابع (١٠٧٣-١٠٧٥م) ، وهو البابا الذي أثار الحرب الصليبية الأولى وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل في قيام هذه الفترة التي عظم فيها شأن البابوية والتي تسطت فيها البابوات على الأباطرة . فكانت البابا الكلمة العليا من تلقاها يشارقال إلى إرلندة غربا ، ومن القرويج شمالا إلى صقلية وبيت المقدس جنوبا . وجريجوري السابع هو الذي أرغم الامبراطور هنري السابع على الشخص إلى تائبًا منبيا بكانوسا وانتظار الصفوة منه ثلاثة أيام بلياليها واقفا في ساحة القلعة ، في ثوب من الخيش وهو حافي القدمين على الثلج . وفي ١١٧٦ ركب الامبراطور فردريك الثاني الملقب بفردريك ببروسا على ركبتيه بين يدي البابا إسكندر الثالث بالبندقية واقسم بيمين الولا .

لا جدال ان المصدر الأول للقوة الكبرى التي استتمت بها الكنيسة في القرن الحادي عشر هو إرادة الناس وضماهم . على أنها أخفقت في الاحتفاظ بالمسكينة الأدبية التي قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا أهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فإ الذي قضى على ثقة العوام الساذجين عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعودوا يستجيون لأي دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟

إن أول مصدر لتأهب الكنيسة هو على التحقيق تكديسها الثروة واستثمارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية . وأنه كثيرا ماخرج من لأعقب لهم من الناس إلى حين ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن المذنبين التائبين كانوا ينضمون بعمل ذلك ، لذا أصبح مايقارب ربع الأراضى من ممتلكات الكنيسة في كثير من أقطار أوروبا . ومن البديهيات التي لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسامع الناس وتناقلوا في كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن التساوسة لم يكونوا من الأخيار العليين . وأن دأبهم الأول هو اصطياد المال والتماس التركات .

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد الباباوية الأجنبية . فإن أراضيمهم التي كان ينبغي أن تحول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكري للملك أو الأمير ، كانت تحول للأديرة والربان والراهبات . وزاد الطعن بلة أن تلك الأراضى كانت في الواقع الذي لا شك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نشب السكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة التعمينات ، أعني من هو صاحب الحق في تعيين الأباقة ، وذلك قبل زمن البابا جريجوري السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التعيين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لامتياز رعاياه بل وحرمانه من شعار جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدهون بأن لهم الحق في الإغفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لربهم ، وليت الأمر يقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق في جمع مكس قيمته المشر على ممتلكات الرجال العلمان فوق الضرائب التي كان يدفعها لأميره .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كرهه إبان القرن الحادى عشر ، وأعني بذلك حالة السكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التعمينات ، كما أنه يتحدث عن انقصار البابا في ذلك السكفاح بوجه عام ، وذلك أن البابا ادعى القدرة على حرمان الأمير ، وعلى جعل رعاياه في حل من واجب الولاء والطاعة ، وعلى الاعتراف بشخص آخر بخلفه ، وادعى كذلك أن من حذر من شعب بأكله . فتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها . وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والتوبة ، وعند ذلك لم يكن التساوسة يستطيعون القيام بالصلاوات العادية وأداء مراسم الزواج ودفن الموتى . وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثاني عشر من كبح (١٦ - تاريخ العالم)

جماح أقوى الامراء معارضة وأشد مراساً ، ومن بث الرعب في أشد الشعوب
جرحاً ، وكان مذان السلاح قوة هائلة ، والقوة الهائلة لا يجوز استعمالها إلا في
الظروف الاستثنائية البحتة . ولكن الباباوات راحوا يستعملونهما في النهاية بكثرة
خلت مضاهما وأزالت تأثيرهما . ففي الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثاني عشر ،
تحرّم اسكتلنده وفرنسا وإنجلترا على التوالى . كما أن الباباوات لم يستطيعوا مقاومة
شيطان الدعة إلى القيام بحرب صليبية على الامراء الذين يحضنون . حتى تنهى
الأمر إلى أن نحدث روح كل شئ صليبي .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الامراء وعتبت بالمحافظة على قبضتها على
عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تحرز سلطاناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ،
ولكن مدهيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين في صورة صلف وكبرياء ،
وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ، وكانت تقوم
بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ، بل كانوا والحق يقال شرطاً
من الشعب ، ولكن جريهوى السابع حتم عليهم العزوبة ، وبذلك قطع الرابطة
القوية التى كانت تصل بين القساوسة والعلمانيين قاصداً من وراء ذلك وبطهم أوثق
ارتباط بجملة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وهامة الناس أخذودا عميقاً .

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة . فى تحتفظ لنفسها بالحق في نظر القضايا التى
يكون القساوسة طرفاً فيها ، بل والربان أيضاً والطلبة والصليبيون والأراذل
والأيتام وكل من لا معين له ، كما تحتفظ لمحاكمها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والاتكحة
والايمان وجميع قضايا السر والزندقة والتجديف ، وكان على العلماني أن يلجأ إلى المحاكم
الكنسية إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله في حين أن التزامات
السلم وأبناء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجيباً إذن أن
تنمو في النفوس العداوة والحسد ارجال الدين في كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تفكر أن قوتها إنما تعتمد على ضئيل
الناس ، فكانت تحارب الحماسة الدينية التى كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ،
وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشك الذى وعلى المارق صاحب الانحراف
على الرأى دون تفريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل في الشؤون الخلقية ،

كانت تخدم الرجل العادي في صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل في الشئون المذهبية ، وعندما أخذ والدو يشر في جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع في بساطة العقيدة والحياة ، دعا إرنست الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجندته بقمهم بالنار والسيف وهتك الأعراس وبأشد أنواع القساوت بشاعة . ولما دعا القديس فيليس الأسيى (١١٨١ - ١٢٢٦) إلى محاكمة المسيح وإلى حياة النشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وبجنوا وشقوا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرسلييا وهم أحياء في ١٣١٨ ، وذلك في حين أن جماعة الرهبان الدومينيكيين التي أسسها القديس دومينيك (١١٨٠ - ١٢٢١) والشهيرة بتمسكها العنيف بصحة الاعتقاد المذهبي كانت موضع التعصيد القوي من إرنست الثالث ، الذي استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة هي محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإزالة سوط المذاب بكل فكري حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بجهانتها المشرقة ، وإمتهانها الانيمة ، وبعدم تسامحها الخال من كل حكمة وحقل ، تلك العقيدة الحرة للرجل العادي ، والتي هي في النهاية مصدر سلطانها كله ، ولو أطلعت على قصة تدهورها لما سدتك بظهور أي عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الاحتلال الذي ينخر فيها من الداخل .

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب الباباوات من أقدام لقط الضعف في الكنيسة الكاثوليكية في أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحي بأكمله .

فإن أريد البابوية أن تفوز حقاً بأطاعتها الظاهرة وأن تؤسس حكماً واحداً وسلاماً واحداً في كل أرجاء العالم المسيحي ، كان من الواجب الضروري أن تكون قيادتها في أيد قوية حازمة ، وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التي سبغت فيها فرصتها ، ألا يتولى منصب الباباوية إلا رجل كفء قادر في عنفوان شبابه ، وأن يعين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يتأنش وإياه في سياسة الكنيسة ، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بيّنة ، معددة خير قابلة للتغيير ولا مرسنة لظلم . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس بمعارضين بوضوح من له الحق في التصويت في انتخاب البابا ، وما إذا كان للإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت في الأمر ، وقد بذل هديراند ذلك السيامي المذنب (وهو البابا جريجوري السابع ١٠٧٢ — ١٠٨٥) جهدهم كبيراً في تنظيم الانتخاب . فنصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كما نصّر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منحه إياها الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أي تدبير لمنع خلف بالخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدي نزاعات الكرادلة إلى ترك كرو الباباوية شاغراً ؛ الأمر الذي حدث في بعض الحالات حين ترك شاغراً سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التحديد الجارم الدقيق لكل شيء تتجلى في تاريخ الباباوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبد جو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جداً ، وكثيراً ما أعلن رجالان أو أكثر أن كلا منهم هو البابا الفرضي ، وهناك تعرضت الكنيسة لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو حكم خارجي ليقضي برأيه في النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهي بمخاتمة تثير التساؤل . وقد تركت الكنيسة بعدهم تدهيراً

رئيس ، وتصبح عاجزة هدية الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محله منافس مجور كل همه أن يقضى على وجوده ويقتصرها ، وقد خلفه شيخ ضيف على حافة القبر .

لم يكن مفر من أن يدهر هذا الضعف الخامس في نظام الباباوية إلى تدخل الأمراء الألمان وحك فرنسا والوك النورماندين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير في الانتخابات ، وأن يكون لهم في مصر اللاتيران بروما بابا يهتم بمصالحهم وبرهاها ، وكلما زاد البابا قوة وعلا شأناً في الشؤون الأوروبية ، وادت الضرورة إلى تلك التغييرات ، فليس حقيقياً في مثل تلك الظروف أن يكون كثير من الباباوات ضعافاً لا شأن فيهم ، على أن وجه العجب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالاً شجعاناً أكفاء .

ومن أشد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستتارة لاهتماما ، البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) ، الذي كان من حسن حظ أنه أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين ، وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تكاد تهزم إمتاعا وأهمية ، هي شخصية الإمبراطور فردريك الثاني ، الذي كان ينهته أدهرشة العالم ، وكفاح هذا العامل ضد روما يمد نقطة تحول في التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته ، بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهيبتها جريحة جراحا بلغ من خطورتها أن نقرت (١) في النهاية وادت إلى إحتلالها .

كان فردريك إبن الإمبراطور هنري السادس ، وكانت أمه بنت روبرت الأول ، ملك صقلية النورمان ، ووث هذه المملكة في ١١٩٨ عند ما كان طفلا في الرابعة وقد عين إنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية في ذلك الحين حديثة العهد بالغزو النورمان ، وكان بلاط الملك شرقياً أو يكاد حاقلاً بلباء العرب الواسع الاطلاع ، وقد أسهم بعض هؤلاء في تعليم الملك الصغير ، ولاشك أنهم لقوا بعض العناية في توضيح آرائهم له . فيكون في المسيحية رأياً إسلامياً ، كما كوف في الإسلام وجهة نظر مسيحية . ومن هذه التربة المزدهية ، خرج الملك بنتيجة خمسة تعد شيئاً شاذاً في عصر الإيمان ، ذاك هو أن جميع الديانات دجل ، وطلما تكلم بملء حريته في ذلك الموضوع ، ويسجل لنا التاريخ كفره (مرطقاته) وتجدداته .

(١) نتر : يقال نتر بمعنى ضد كالجرح إذا سال منه الدم والمديد . (المترجم)

ولما أن شب الفتي التي نفسه في نزاع مع وصيه ، ذلك أن إنوسنت الثالث كان ينفذ فيها يطلبه من الفتي القاصر ، فلما أن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا مشروطاً بعض الشروط ، فأصر على أن يعد فردريك بالقضاء بقوة على مابا ألمانيا من كفر وزندقة ، وذلك فضلاً عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه . ولم يقدر البابا على كبحه ، وعدا ذلك طلب البابا بإحضار رجال الدين الألمان من الضرائب ، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضمر البربوعده بأي حال . وفي تلك الأثناء حل البابا المعامل الفرنسي على شن الحرب على رهاياه بفرنسا ، وهي الحملة الصليبية القاسية الدامية التي شنت على أتباع والدو ، وقد أراد أن يفعل فردريك نفس القصة في ألمانيا ، ولكن لما كان فردريك أشد كراهة وزندقة من أي دورهي ،^(١) بسيط من أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عدواة البابا ، فن البدليات أنه كان يوزع التحمس لأمثال هذه الحملات الصليبية ، وعندما حرضه إنوسنت على القيام بحملة صليبية على المسلمين واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد في المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل في التباطؤ في التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثاني الحصول على التاج الإمبراطوري أقام بصقلية . التي كان يؤثر الإقامة فيها على المقام في ألمانيا ، ولم يفعل شيئاً للبرباي وعد من وعوده . لإنوسنت الثالث ، الذي مات في ١٢١٦ بعد أن أحياء أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذي خلف لإنوسنت ، أن يكون أحسن حظاً مع فردريك من سلفه ، ثم تولى جريجوري التاسع عرش الباباوية (١٢٢٧) وقد حمى تصميمه واضحا على تسوية الحساب مع ذلك الفتي مها يكن الثمن ، فأصدر قراراً بحرمانه وحيل بين فردريك الثاني وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل العزاء والسلم . ومن العجب أن هذا الإجراء لم يضاق البلاط الصقلي نصف العربي إلا أقل المضايقة . ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضا خطا بامقنوحا يسرد فيه رذائله التي لا يستطيع إنسان إنكارها ، ، وزندقاته وسوء سمعته بوجه عام ، فإكان من فردريك إلا أن

(١) الروميو : (Pictius) ثم أتباع والدو كما هو ظاهر من السياق ، وهم يأخذون أنفسهم بالروح الجديد في أبسط صور المسيحية الأولى [للترجم]

أجابته على تلك الرسالة بوثيقة تم عن مقدرة شيعانها ، وجنت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوروبا ، كما أنها أول بيان واضح من النزاع بين البابا والأمراء وفيها انتهى بالعلمن القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم المطلق لأوروبا بأكملها ، واقتراح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاختصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ما يتسبب من به الكنيسة من فناء .

حتى إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة . صمم على البر بوعده الذي تأخر إنجازها لثلاثي عشرة سنة بالخروج في حملة صليبية ، وتلك هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٨٨) ، كانت كحملة صليبية قديمة مزلة . فإن فردريك الثاني ذهب إلى مصر وتقابل مع سلطانها وتباحث وإياه في الأمور اراح هذان السيدان - وكلاهما ممن انحطت نفسه على التشكك - تبادلان آراء متجانسة . وأبرما معاهدة تجارية تعود عليها بالنفع المشترك ، واتفقا على أن تتنقل بيوت المقدس إلى يد فردريك ، ولا شك أن ذلك كان ضرباً جديداً من الحرب الصليبية . فهو حملة صليبية سلاحها المعاهدات والمواثيق ، وهنا لم يهرق دم ولا تخلى له على الفاتح ريشاش . ولا حدث به بكاء من فرط السرور ، ، ولما كان ذلك الصليبي المدعش رجلاً محروماً بأمر الكنيسة ، فإنه اضطر أن يقنع بتسوية على بعض كلك لبيت المقدس ، ومثاقولا الناج من المذبح بيده - وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يحتضروه . ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك . وما زال بالجيش البابوية التي غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قران التحريم ، تلك هي المشاكلة التي استطاع أحد الأمراء أن يماثل بها البابا ، في القرن الثالث عشر ، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب انشعبى للانتقام له ، لأن تلك الأيام قد ولت ٢١ .

ثم عاد جريجورى التاسع فاستأنف في ١٢٢٩ كفاحه منع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العاتق ، التي سبق للبابوية أن لاقت منها شر أسوأ . على أن الحضرة تجددت بعد وفاة جريجورى التاسع ، عند ما تولى كرسي البابوية (لويستف الرابع) ، ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطاباً عذماً من ذلك النوع الذي يضطر الناس إلى تذكره ، وفي سن ١٢٦٠ رجال الدين وقلة تدنيمهم ، وصحب كل مقاسد

الزمان لكبريائهم وثرانهم . واقترح على زملائه الأبرام مصادرة أملاك الكنيسة بصورة عامة ، لمصادرة الكنيسة نفسها ، وهو إقترح لم يقاود ذاكرة الأبرام الأوويين بعد ذلك أبداً .

وستكشف عن الإسترسال في تتبع أخباره في أخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوهر العام ، ومن الممكن أن يجمع لك شذرات عن حياة بلاطه في عقلية . كان يعيش حياة الترف ، كما كان مغرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحي . ولكن من الواضح أنه كان رجلاً أرق درجة عظيمة من حب الإستطلاع النفاذ والرغبة في البحث النافع . وقد جمع في بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والمسيحيين ، وبذل جهوداً كبيرة لتعمر العقل الإيطالي وإروائه بالمؤثرات العربية ، وبفضله نقلت الأرقام العربية والجبر العربي إلى الطلاب المسيحيين ، ومن الفلاسفة الكثيرين المقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذي ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو ، والتفصيلات التي دونها عليها الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد القرطبي ، وفي ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولي ، كما وسع المدرسة العلمية الكبيرة بجامعة سالرنو وأغدق عليها المال . ثم إنه أسس كذلك حديقة الحيوان . وترك كتاباً في الصيد بواسطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظة لطباع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن العصر الإيطالي ولد في بلاطه . وقد بدأ أطلق عليه أحد كبار الكتاب الاسم : أول العصريين ، والمبادرة تعبر في كناية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تعبد أو تعصب .

وثمة بادرة أخرى أقر إسترعاء الأنظار تدل على تضال حيوية البابوية وانحياز الأركان الداعمة لها . ظهرت البادرة عندما اشتبك الباباوات فور ذلك في نزاع مع الملك فرنسا وقوة النامية . فإن ألمانيا تردت في مهاوى التفرق في أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثاني ، كما شرح الملك الفرنسي في أن يمد يد دعم البابا وظهره ومنافسه وهو البرور الذي كان حتى آنذاك من تعصب باباطرة أميرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من الباباوات تنتهج سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش ملكية عقلية ونابولي ، بمساعدة روما وموافقتها ،

كما أن الملوك الفرنسين أدركوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان وتولى الحكم فيها على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألماني إلى أخصيت وفاة فردريك الثاني . آخر إباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، ابتدأت سياسة روما في التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، واصبحت تنقل مع مواطني كل بابا . فاما في الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية في (١٢٦١) من قبضة الإباطرة اللاتين ، وسرعان ما عهد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن . إلى الانفصال عن المجتمع الكنسي الكاثوليكي تماما ، بعد إبداء محاولات غير حكيمة للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، وبسقوط الملك اللاتينية في آسيا ، انتهت عظمة البابا في ربوع الشرق .

وفي ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش الباباوية . وكان إيطاليا معاديا للفرنسين ، خوى الشعوب بظلم تقاليد روما ورسالتها . فظل زما يدير الأمور بيد مستأجرة . وقد أقام حفلات البويل في ١٣٠٠ . وتقاطرت على روما جامهر غفيرة من المهاجرات : وبلغ من عظم سيل الذهب إلى خزائن الباباوية ، أن عين مساعداً اثنين بالمجاريف لجمع الهدايا التي وضعت على قبر القديس بطرس ، (١) بيد أن هذا الاحتفال كان نهراً خادعاً . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا في ١٣٠٢ ، وفي ١٣٠٣ أهد البابا المدة لتعلق بفرار حرمان ذلك الملك ولكن غليوم دى نوجاربه فاجأه واعتقله في قصر أسلافه فغصه بيلدة ألاجيني . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عنوة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا المذمور - إذ أنه وجده راقداً في فراشه ويده الصليب - وانهال عليه بالتهديد والإهانة وهب أهل المدينة لإغناذ البابا بعد يومين ، فماد إلى روما ؛ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أروسي وأخذته من جديد أسيراً ، ولم تنقش بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ . مصدوماً وقد زالت من عينه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجيني للاعتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاربه ، ولكن أناجيني كانت بيد البابا وسقط رأسه ، وأهم ما يستأفت النظر هنا

هو أن الملك الفرنسي ، كان في هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية يعمل مستمتعاً بكامل استحسان شعبه ، فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم : (النبلاء والكنيسة والعامة) وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات المتطرفة ، ولم يتحرك أحد في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، ولم يبد من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجريء الخادش لكرامة رأس المسيحية المتربع آنذاك على عرش الحبر الأعظم . ذلك أن الفكرة القائلة بقيام د عالم النصرانية ودوائها ، إضمحلت حتى اندثر كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر ، دون أن تفعل البابوية شيئاً لاسترداد أساطينها الأدبى وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ، وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً ، بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت في الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان في روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تنتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جماء ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى . وقد تأصلت في أفينيون عاداتهم وعلاقاتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر في ١٣٧٨ ، وانتخب بدله إيطالى هو إربان السادس ، وأعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون عدم صحة الانتخاب وانتخبوا المنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع ، ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم ، على أن الباباوات الأصلاء ظلوا في روما ، كما ظلت جميع الدول الماضدة لفرنسىس موالية لهم ، كالإمبراطور وملك إنجلترا وبلاد المغرب وبلندة وثمان أوربا . أما الباباوات المعارضون ، فقد ظلوا في أفينيون يظهرون ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وإسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان مختلفون . وكان كل بابا يجرم أنصار منافسه ويعلمهم (١٣٧٨ - ١٤١٧) .

أعجب إذن أن كل إنسان ، في كل أرجاء أوربا يفكر في شئون دينه بنفسه ؟ .

لم تكن حينئذ الرهبان الفرنسكانيين ولا المومنينيين إلا عاملين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التى شرعت تنشا في المسيحية ، إما لتأييد الكنيسة وإما لتقويضها .

أمر أن يرجع إليّ فيها لتقدير الكنيسة . وقد تبنتها اثنين الجمعيتين فعلاً واستفادت بخدماتها ، وإن استخدمت في البداية شيئاً من العنف مع الجماعة الأولى بيد أن هناك عوامل وقوى كانت أصرح في إظهار العصيان والانتقاد . فقد ظهر ويكليفي (١٢٢٠ - ١٢٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف : كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأكسفورد . فشرع يوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات لمفاسد رجال الدين وقلة حكمتهم ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسوس ، هم الويكليفيون لنشر آرائه في كافة أوجاء إنجلترا ، ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية . كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من كل القديسين فرانسيس ودومينيك . وقد كثر بين أفراد العائلة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب ، ومع أن روما ثارت ثائرتها عليه ، وأمرت بحبسه . فإنه مات حراً طليقاً لم تمس حريته بسوء . بيد أن الروح القديمة الشريرة التي كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تطلق ترك عظامه هادئة في قبرها . إذ صدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنيش عظامه وحرقها ، وهو قرار نفذته الأسقف فلنج في ١٤٢٨ بأمر من البابا مارتن الخامس . وجدير بالذكر أن هذا التدنيس للمحرمات لم يكن من عمل متمصب مفرد ، بل كان عملاً رسمياً صدر عن الكنيسة .

الفصل الثامن والأربعون

فتوح المغول

واسكن في أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا السكفاح العجيب غير المشرق
سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تتوابع أحداثه في أوروبا ، كانت أحداث
أخرى أعظم خطراً قائمة على قدم وساق في مدرج آسيا الأفصح بالآلة . فإن شعباً تترياً
من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تسلم لجأة غارب السيادة في الشؤون العالمية ،
وأحرز طائفة متعاقبة من الفتوح ليس لها في التاريخ مثيل ، وهذا الشعب هو المغول ،
كانوا عند مطلع القرن الثالث عشر ، قبيلة من الأفراس لرحل ، يعيشون على طريقة
أسلافهم الهون تقريباً ، فيقتلون بوجه خاص بالاحم ولين الأفراس ، ويعيشون
في خيام من الباد . ولقد نفصوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية ، وأدخلوا
جداً من الآتون بسيبيريا .

وكانت الصين في ذلك الأوان في حالة انقسام . فإن سلطان أسرة نانج العظيمة قد
اضمحل في القرن العاشر الميلادي ، ثم هوت الصين في هوة الانقسام وتحولت إلى
ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها في النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هي
إمبراطورية كن (Kin) في الشمال وعاصمتها بيكين . وإمبراطورية صنج في الجنوب
وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Heia) في الوسط . وفي ١٢١٤ شن
جانشين خان قائد اتحاد المغول ، غارة على إمبراطورية كن واستولى على بيكين
(١٢١٤) ثم تحول بعد ذلك غرباً وفتح التركستان الغربية وقارس وأرمينية وتوغل
على الهند حتى لاهور ، وفي جنوب روسيا حتى بلاد أنجر وسيليزيا . ومات جنكين خان
وقد صار سيداً على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادئ إلى نهر الدنيبر .

وأسس خلفه أوجداي خان عاصمة دائمة له في د قره تورم ، بمنغوليا وأصل سيرة
ذلك الفتح المدمشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جداً من الكفاية والنظام ، وكان
همهم اختراع عيني جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه في مدافع ميدان صغيرة .

وكم كان من المدهش تنفيذ الخطط في وقتها المحدد بالضبط وبكفاية فمالة متقنة ، في عمليات حرية تمتد من الفستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أى قائد أوربي . . لم يكن فى أوروبا قائد واحد - وفى مقدمتهم فردريك الثانى - لا يعد غمراً (١) قليل الخبرة فى الخطط الحربية بالقياس إلى سوبوتائى . وما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن المغول أقدموا على تلك المغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز الحرج السياسى وبالأحوال الدائرة فى بولندية - ذلك أنهم حرصوا مقدماً أن يجمعوا المعلومات الكافية بواسطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجرين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبربرة الجبال ، لا يكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم .

هل أن المغول وإن احرزوا النصر فى لجنيز إلا أنهم واصلوا تقدمهم غرباً . ذلك إنهم أخذوا يدخلون فى أرض تسكسوها الغابات والتلال ، ولا تناسب وطريقهم فى القتال ، لذلك انحرفوا جنوباً واستعدوا للاستقرار ببلاد المجر ، واخذوا يعملون الذبح فى ذوى قرباهم من المجرين أو يمثلونهم ، على نحو ما فعله هؤلاء من قبل فى الإسكندرية والآفار والمون الذين اختلطت دماؤهم هناك ، ولعلمهم كانوا يبعثون أن يقوموا من وادى المجر بالإغارة غرباً وجنوباً مثلاً فعل المجريون فى القرن التاسع والآفار فى السابع والثامن والمون فى الخامس ، ولكن أوجداى خان مات فجأة وترقب على وفاته نزاع على العرش فى ١٢٤٢ ، وهند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا .

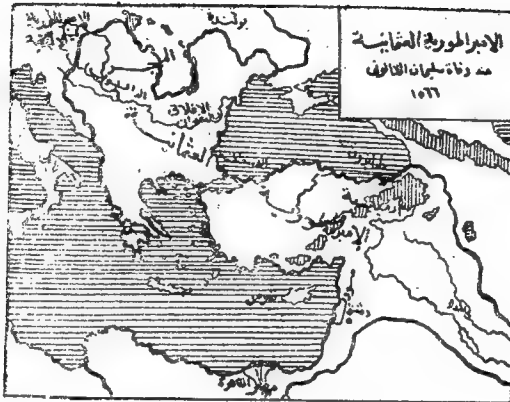
ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية . فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى فتحوا إمبراطورية صنج . وقد خلفه مانجوخان ، فى منصب الخان الأكبر فى ١٢٥١ ، وهين أخاه قوبلاى خان حاكماً على الصين . وأصبح قوبلاى خان إمبراطور الصين المعترف به فى ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التى دامت حتى ١٣٦٧ . وفى نفس الوقت الذى كانت أسرة صنج تلفظ فيه آخر أنفاسها فى بلاد الصين ، كان أخ آخر للمانجور هو هولاكو . ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر المغول فى ذلك الزمان

عداوة مريّة للإسلام ولم يكتفوا بتفخيخ سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا في تدمير نظام الزى السحيق القديم الذى ظل على الدوام يحمل من أرض الجزيرة بلاداً رفيدة أهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة الخمسة يابا من الحرائب والأطلال ، لا تتسع إلا لعدد القليل من السكان . ولم يدخل المغول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشاً لهولاءكو هزيمة تامة بفلسطين ١٢٩٠ .

وانحصر سيل النصر المغولى بعد تلك الكارثة . وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشمل . فأصبح المغول الشرقيون بوذين كالصينيين ؛ وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نفّض الصينيون عن كواهلهم حكم أسرة يوان فى ١٣٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التى ازدهرت من ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤ . على أن الروس ظلوا تابعين للجموع المغولية فى السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ عندما نبذ غراندوق ولاده ووضع أساس روسيا الحديثة .

وقد التمشيت قوة المغول أمداً وجزا فى القرن الرابع عشر فى عهد تيمورلنك وهو من سلافة جنكيز خان . فوطد ملكه بالتركستان الغربية ، واتخذ لقب الخان الأعظم فى ١٣٩٩ ، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودلهى . ولكن الإمبراطورية التى أسسها انتهت بموته . ومما يكن من شىء ، فإن حفيداً لذلك الفاتح تيمور وهو مقامر اسمه بابر استطاع فى ١٥٠٥ أن يجمع جيشاً مزوداً بالمدافع هبط به على سهول الهند ، وما لبث حفيده أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) أن أتم فتوحه ، واتخذت هذه الأسرة المغولية دلهى مقبلة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن هواقب الاكتساح المغولى الكبير الأولى فى القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانهم بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمة وحدها كأنها جزيرة فى بحر من العثمانيين . وفى ١٤٥٣ استولى السلطان العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية ، بعد أن هاجمها من الجانب الأوروبى بعدد كبير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجاً عظيماً فى أوروبا ، وتحدث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى .



خريطة رقم (١٣)

ولم ينقض القرن السادس عشر حتى تم لسلطين آل عثمان فتح بغداد وبلاد البحر
ومصر ومعظم إفريقيا الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا
أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هناك في القرن
الخامس عشر إلا شيخان عوضا المسيحية كما أصابها من نقص في الممتلكات . وأول
هذين الشيخين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها (١٤٨٠) ، وثانيها استرداد
المسيحيين إسبانيا رويداً رويداً من يد العرب في ١٤٩٢ - سقطت غرناطة ، آخر
دولة إسلامية في شبه الجزيرة في يد فرديناند ملك أرجونته ويزابيل ملكة قشتالة .

ولكن كبرياء الترك لم تنكسر شوكتهم إلا في ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو
البحرية التي أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدي المسيحيين .

الفصل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوربيين

ظهرت إبان القرن الثاني شواهد كثيرة تشهد بأن الذكاء الأوروبي أخذ يسترد شجاعته ويتنزه فرسته الموائمة . ويستعد ليتناول من جديد قصب المغامرات الذهنية الذي حله أول من بحثوا في العلم من الإغريق ، وصولاً إلى النظر الطويل الذي تجلّى لدى أمثال لو كريشوس والإيخالي ، ويرجع ذلك الاهتمام لأسباب عديدة ممتدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية الممهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستمارة التي أحدثتها تلك الحملات في عقول الناس بما جلبته إليهم من خبرات . أخذت التجارة تنتشر ، وبدأت المدن تسترد اليأس والأمن ، هذا إلى أن نستوى التعليم شرح رتق عيز رجال الكنيسة ويتشر بين العلماء . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن قامية ومستقلة أو شبه مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسا وجنوة واشبونه وبأريس وبروج ولندن وأفروس ومبورج ونورمبرج ونولجورود وويسبي وبرجن . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، وبديى أنه حينئذ اتجر الناس وسافروا تحدّثوا وفكروا . وكانت المحادلات الفائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلّى في اضهاد من يتهدون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك في سلطة الكنيسة وإلى التساؤل والتمسك في المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل في إرجاع أرسطو إلى أوروبا ، وكيف أن أميرا مثل فردريك الثاني كان كالجأز الذي استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن يعملا عملهما في العقل الأوروبي الناهض ، على أن اليهود كانوا أعظم الأثر في تنقيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود في حد ذاته مثار استفسار حول مدينيات الكنيسة . ولاتنس أخيرا أبحاث قداى الكيلوين السرية الفاتحة ، وكيف أخذت تنتشر في كل مكان وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم في العلم التجريبي ، بصورة شنيعة وخفية إلا أنها مشرقة أيضاً .

والحركة التي دبت في عقول الناس لم تكن تاعرة عند ذاك بأي حال على الأثر على المتعلمين . فإز عقل الرجل العادي ينفذ في هذا العالم ، على شاكلة ليس هامشيل في كل ماسلف من أيام الإنسانية . ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الحائر الفكرية حينما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء النفوس وظلم الاضطهاد ، فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين ضمير البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آذناك إذا لم الأمر الشجاعة التي تقضي لتفهم دار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

واخذت رحي المناقشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوروبا منذ زمن بعيد يرجع إلى القرن الحادى عشر ، كأن جامعات عظيمة تاهضة أنشئت في باريس وأوكسفورد وبيرونيا وغيرها من المراكز العامة . وهناك شرع علماء القرون الوسطى يشيرون بنجد طائفة من المسائل تحصل بقيمة الكلمات ومنهاها ويشتقونها ليجأ ، فكان هذا الجهد لأبد منه التفكير الصافي في أثناء عصر العلوم التي جأت في أعقابها . وهناك عالم يدعى رابيه (٢٢٩٢هـ) وهو راهب فرنسي كان من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أن العالم التجريبي المسمى ولا شك أن اسمه لا يزال باقيا في بعض كتابتنا على جسدنا ليسمى في الإله لوسطو وحده .

وكانت كتابته إجابا على رابيه في حق الجدل . فقد أعز أهل عصره صراحة بأنهم جملة من هو شديدا يفتقر على العقل لا يجدوا عقل ، وربما استطاع الإنسان في هذه الأيام أن يبين طائفة من الحروف قد ساهوا بجاد وقور ، وأن جميع أساليب الأزال سمجة . فحينئذ لا يخلو من أن يكون هذا المبدأ المتبادلة فروض طموح ، دون أن يتعرض لأي شيء من الحروف . وقد أن الناس القرون الوسطى كانوا من يفتقروا منهم من الخبايا التي لم يكن من أن يعمل فيها في الجاهل أو الأوبت فكانوا يأتوا - مؤلفين بقبائلا عينا - بحكمة من قبلهم . بالكتابا وأما على المستندات جميعا ، فإنهم إلى الغضب المبرر من وضعها من وضع الحق والتأمل ، وكانت كتابات رابيه وجر باكون أتبها ما تكون بضياء ساطع ينطق الأجساد في حالة ليل حالك ، وقد مزج هجاءه على جهالة عصره وطاقته شحنة من المقترحات المهادنة إلى زيادة المعرفة . إنك لتشهد روح الرنطو بعبثية من جديد حين ترى حمسه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف . فالنقمة

تلقى لم يفتأ زوجر باكون رددتها، والنتيجة التي رقدنا على كواهلها، هي : والتجريب، والتجريب . .

بيد أن زوجر باكون شنع على أرسطو ، ولم يسلك ذلك المسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقبلون في ميوتهم مكين على الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت آنذاك كل ما يستطيع الحصول عليه من مؤلفات الفلاسوف . كتب في طبعته المتطرفة يقول : « لو تركت لي الحرية لأحرق كتب أرسطو جميعاً ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الضياع وإلى الخطأ وزيادة الجبل . » وهو شعور ربما رددته أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تمبد عبادة — مع أنها مدونة في تلك الترجمات البنيضة كما أوضح لك زوجر باكون .

وكان زوجر باكون يهيب بالبشرية بملء فيه في كل صفحات كتبه في شيء من التلمية دعت إليه ضرورة اصطلاح التوفيق بين كتاباته والمقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كنوا من أن تحكمكم المذاهب الاعتقادية والسلطات المتعككة ، وانظروا إلى عالمكم ، ولعلنا نأشهر باكون بمصادره أربعة أجيال هي : احترام ذوي السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، ونيولنا غير القابلة للتعلم مع اتصافها بالفزور والكبرياء . » « قلنا لم تنظروا إلا على هذه وحسب ، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة . . »

« في الإمكان وجود آلات تخرس البحر دون مجاديف يحركها . ومن ثم فإن السفن الكبيرة اللائقة للبحر أو المحيط ، والتي يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك ، يمكن صنع العربات بحيث يمكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر *Gum impeto Inoe Stimabile* ، وهي الصورة التي تتصورها العربات ذات المناجل التي كان القدماء يحاربون فوقها . ثم إن في الإمكان وجود آلات طيارة ، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدير شيئاً يخفق به أجنحة صناعية في الهواء على منوال أجنحة الطير . »

هكذا كان زوجر باكون يكتب، ولكن كان لابد أن تنقضي ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته المنظمة في ارتياد خبثات القوى المجرورة المنزلة .
التي أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذي يحجب الشئون البشرية .

على أن العالم العربي لم يمنح المسيحية سافراً يحفر فلاسفتها وكهاويها فقط ،
بل أعطاهم الورق أيضاً . ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذي جعل في
الإمكان انتماش أوروبا فكرياً .

نشأ الورق أصلاً في الصين ، حيث يرجع استخدامه في الرابع إلى القرن الثاني
ق . م . وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين في سمرقند عام ٧٥١ م ،
فردهم على أعقابهم ، وأسروا منهم أمراً كان من بينهم بعض مهرة صناع الورق ،
ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال عندنا إلى اليوم خطوطات مسطرة على
ورق عربي مصنوع في القرن التاسع فم بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد المسيحية
لما بعطى في بلاد اليونان ولما بالامتلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس في أثناء
استيلاء المسيحيين لإسبانيا ، على أن الإنتاج تدهور في ظل الإنسان المسيحيين
تقريباً من ذلك . ولم يتيسر صنع الورق الجيد في أوروبا المسيحية إلا في نهاية القرن
الثالث عشر ، وعند ذلك كله إيطاليا رائدة العالم في هذا المضمار . ولم تبلغ
تلك الصناعة إلا في القرن الرابع عشر ، على أنها لم تنكر ويخص سمر
الورق بل يصنع بجعل طبع البكين أمراً يمكناً إلا عند نهاية ذلك القرن ، وعند ذلك
جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لا بد منها ، ذلك أن الطباعة أبسط الاختراعات
وأشدها ظهوراً للبيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية في طور جديد أقوى
كثيراً من كل ما سبقه ، وكنت من أن تكون رشحاً مثيلاً يقتل من عقل إلى
عقل ، وأصبحت فضلاً عما ، اشتركت فيه آلاف من العقول تضاعفت القو
فغدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

ونتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة ، هو ظهور عدد وفير من نسخ الكتاب
المقدمين في العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هي رخص سمر الكتب المدرسية .
وكان انتشار المعرفة بالقراءة سريماً فلم يزد عدد الكتب في العالم زيادة عظيمة .
وحسب ، بل إن الكتب التي كانت تطبع آنذاك كانت أوضح لبصر القارئ ، فهي
لذلك أسهل عليه فهمها وبدلاً من الإكباب فوق متن كتابة معقدة ، ثم محاولة فهم
مدلولها ، أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يفكروا في أثناء القراءة دون أن يوق

تفكيرهم عائق . وبفضل هذه زيادة في سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكنت الكتاب عن أن يكون العوبة مبرقة شديدة الإخافة ، أو طامعا ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرح الناس في كتابة الكتب ليقراها عامة الناس ويستمتعوا بمنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة المادية وليس باللاتينية ، فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوروبي .

ظلمنا حتى الآن المالح نصيب العرب في النهضة الأوروبية ، فلتجه الآن إلى تأثير الفتوح المغولية ، فإنها أثارت الحياك الجغرافي لدى الأوروبيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوروبا الغربية تمنان ردها من الزمان في ظل الخان الأعظم باتصال حر مطلق ، فافتتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعاً ، وحضر ممثلو الشعوب جميعاً إلى بلاط الخان في قرة قورم . وأزيلت إلى حد ما جميع الحواجز التي فصلت بين أوروبا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلقت البابوية آمالاً كبيراً على إدخال المغول في المسيحية . وذلك لأن هيئاتهم الوحيدة كانت حتى ذلك الحين هي الشامانية (١) ، وهي ضرب بدائي من الوثنية . فاجتمع في بلاط المغول صبرثو البابا ، وكان بوذيون من الهند وفارس . وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن حملات المغول ومذابحهم ، دون أن نسمع القدر الكافي من الحديث عن حجم للاستطلاع ورغبتهم في العلم .

وقد كان فضل المغول جسيماً وأثراً في تاريخ العالم عظيماً ، لا بوصفهم شعباً ذا أصالة واستعدادات ، بل كثقل للحركة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات جاتسكين أو قوبلاي (إرومانسية) المهمة ، يمتنع إلى تقوية الرأي القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكاً لا يفلتون في الفهم والإبتكار عن أي من الإسكندر الأكبر ، ذلك الإنسان الزاهي الرواج والأمان أيضاً ، أو شلمان ذلك اللاهوتي الأمي الناشط الذي اجتمع أشباح الماضي السياسية .

ومن أمتع هؤلاء الزوار لبلاط المغول رجل من البندقية اسمه ماركوبولو ، دون قصه فيما بعد في كتاب . ذهب إلى الصين حوالي ١٢٧٢ مع أبيه وصحبه وكان قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين في نفس الخان الأعظم عظيماً ،

(١) الشامانية : ديانة شمال آسيا تقوم بوجه عام على السحر والعقود . [لترجم]

وهما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ، فأعادهما إلى بلادهما التماس البحث وطلب المعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له ، ومن أجل مسائل أوربية متنوعة أثارته حبه للاستطلاع ، فكان زيارتهما بصحبة ماركو هي الثانية . بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث في رحلتهم السابقة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لا بد أنها سهلت عليهم السفر تسليلاً عظيماً ، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئاً من زيت القنديل الذي يوجد في بيت المقدس عند النابلس المقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولاً ، ثم ساروا بطريق كليبيكية إلى أرمينية ، إذ اضطروا إلى التوغل شمالاً على تلك الشاكلة إغارة سلطان مصر في ذلك الوقت على ممتلكات المغول . ثم اتحدوا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسي ، كما نما يزعمون الرحلة بطريق البحر . والتفوا في هرمز ببعض تجار الهند . على أنهم لسبب ما لم يلقوا بالسفن ، بل خرجوا بدل ذلك شمالاً عبرت من الصحارى الفارسية ، ثم ساروا بطريق بلخ فوق هضبة البامير إلى قشغر ، وبتريق خوتان وبحيرة لوب نور إلى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . وهناك لم يكن استقبالهم الخان الأعظم بحفاوة بالغة .

وسر قوبلاي بوجه خاص من ماركو ، الذي كان صغيراً ذكي الفؤاد ، ومن الجلي أنه كان يتقن اللغة التتارية تماماً ، فعين في أحد المناصب الحكومية وأرسل في مهام كثيرة وبخاصة في جنوب الصين الغربي ، والقصة التي يرويها عن وجود مقسمات متراصة من الأراضي البسامة الرطبة ، يدر ، فيها : « توجد الضيافة المتتارة المدة للمسافرين على طول الطريق ، ثم يقول : « ورائش كروم بديعة وحداثي وحقول ، ويتحدث عن الأديرة الكثيرة ، والربان البوذيين ، وصناع الأقنعة من الحرير والذهب ، وأنواع كثيرة من قماش الغنم أنما ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار في البداية حاصفة من التشكك في أوروبا ، ثم عاد فألب خيال أوروبا بأجمعها ، وتحدث عن بزرما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأفيال ، وكيف هزم ناشبة (١) المغول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح المغول لنيهر (Pegu) . وتحدث عن اليابان ، وبالعكس كثيراً في مقدار ما في تلك البلاد من الذهب . وظل

(١) الناصب : صاحب النقاب أي السهام والراش بها والجمع ناشبة . [المترجم]

ماركو ثلاث سنوات حاكما على مدينة يانج تشو، ولله - كاجنبي - لم يلفت
أنظار الامال الصينيين أكثر من أي قري آخر. وأمله أرسل كذلك في سنة ١٢٧٧
المند. والسجلات الصينية تذكر قصدا لاسم بولو أخن بالمجلس الإمبراطوري في
١٢٧٧ وهو تأكيد جيد لما تنطوى عليه رواية بولو من مسحة مائة من الصدق.

وأثر نشر رحلات ماركو بولو تأثيراً عميقاً في الخيال الأوروبي، فإن الادب
الأوروبي في القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوروبي يتردد فيه صدى
الاسماء المذكورة في قصة ماركو بولو مثل كاتاي (شمال الصين) وكامبولاك (بكين)
وماشاهما.

وبعد ذلك بقرنين أطلع على رحلات ماركو بولو، بحار معين من جنوده
هو كريستوفر كولومبس، الذي تهو خياله الأسمى فكرة الإبحار غرباً إلى
بلاد الصين حول العالم. وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أشبيلية نسخة من
« رحلات بولو » على هوامشها بعض ملحوظات بخط كولومبس. وهناك أسباب
متعددة دعت الجنوى إلى إتخاذ تلك الوجهة، ذلك أن القسطنطينية ظلت، حتى
سقوطها بيد الأتراك في ١٤٥٣، سوقاً محابداً للتجارة بين العالم العربي وبلاد
الشرق، وكان الجنويون يتاجرون فيها ببحرية تامة. واسكن البنادقة اللاتينيين
منافس جنوة الألداء، كانوا خلفاء الأتراك وأهوانهم على اليونانيين (الروم)،
فلما احتل الترك المدينة لم يعد للتجارة الجنوبية مجال لها، وفي تلك الآونة كان
الاكتشاف القديم الذي نسبته الناس من زمن بعيد، والقتال بكروية الأرض قد
أخذ يعود بالتدريج إلى مكاتنه الأولى من عقول الناس. لذا كانت فكرة الذهاب
إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للعيان إلى حد ما، وكان يشجع على القيام
بها أمران. أولهما ظهور البوصلة البحرية التي اخترعت في تلك الأثناء، وبفضلها
لم يعد الناس تحت رحمة ليل صافي السماء بادي النجوم لتحديد الاتجاه الذي يبحرون
إليه، وثانيهما أن النورمان والقطلوين والجنوبيين والبرتغاليين انطلقوا قبل ذلك
في غرض المحيط الأطلسي، حتى بلغتوا جزائر الكناري وجزائر ماديرا والأزورس.

ومع ذلك فقد اضطر كولومبس أن يتغلب على مصاب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول
على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته وأختيارها فأخذ يقتل من بلاط ملكي أوروبا إلى
آخر، حتى استطاع في النهاية أن يحصل على مديونة غاطة المنزعة حديثاً من يد العرب،

على مناصرة فردينايد وإيزابيلا . ورعايتها لمشروعه . وأن يحترق بمجاهل المحيط
الخصم بثلاث سفن صغيرة وسارت السفن شهرين وتسعة أيام بطريقه مريرة ، ثم
بلغت أرضاً زعم كولمبس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا قارة
جديدة لم يقدّر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبداً .

ثم عاد كولمبس إلى إسبانيا يحمل الذهب والفضة والحيوانات الغريبة واثنين
من الهنود المنقوشين البشرة قد بنت عليها الغرارة مالبث أن عندهما مسيحيين .
وقد أطلق عليها كولمبس الهنديين لإعتقاده حتى يوم وفاته ، أن الأرض التي
اكتشفها هي بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن
الذي ضم إلـه وارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها .

وكان النجاح الذي لقيه كولمبس فضل إثارة روح المغامرة البحرية إلى حد
حائل ، فدار البرتغاليون في ١٤٩٧ حول قارة إفريقيا إلى بلاد الهند ولم يحل
سنة ١٥١٥ حتى كانت البرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة .

وفي ١٥١٩ أطلع ماجلان ، وهو بحار برتغالي يعمل في خدمة الإسبان ، من
مدينة أشيبيلية بخمس سفن اتجه بها غرباً ، لم تعد منها إلا واحدة هي فيكتوريا .
التي دخلت البحر حتى بلغت أشيبيلية في ١٥٢٢ . وهي أول سفينة دارت حول
العالم . وكان عليها واحد وثلاثون بحاراً ، هم البقية الباقية من مائتين وثمانين
بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان فإنه قتل بجمائر الفلبين .

لقد إنجست كل العقل الأدري أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق
المطبوع ، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شيء في متناول
اليدين تماماً ، وإنجست أيضاً صورة جديدة لأقاليم غربية وحيوانات ونباتات
غريبة وعبادات عجوبة ومستكشفات تمت وراء البحار وفي أطباق السماء وفي
أساليب الحياة وموادها ؛ فأقبلت العقول بسرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية
اليونانية وطبعتها بعد أن طال قمعها بدفنها ونسيان الناس لها ، فأخذت تداعب
أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبقاليد عصر تنقياً خلال الحرية والكرامة في
أكتاف الحكم الجمهوري .

وقد بدأ دخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ديار أوروبا الغربية

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل في نشر لزامها من جديد بها ؛ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا يعضمان لتنظيم يدهما ويقيدهما في عهد روما الوثنية والمسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتيني يقترب منهئذ من نهايته . ذلك أن الآريين الآريين أخذوا يتفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أمر الساميين والمنفولي المنبه للعقول ، وبفضل المشور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؛ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق الحالية إلى منزلة الصدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعاً .

الفصل الخمسون

إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هاماً بهذا البعث العقلي ، لقد برزت منها أجزاء ولم ينجح الجزء الذي بقي منها من يد التجديد الشامل

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولي الزعامة الاستبدادية النصرانية بأكملها إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وكيف اضطلع بعد ذلك سلعائها على عقول الناس وشئونهم . ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضطهادها للناس ونظامها المركزى إلى تحامل النفوس عليها وانصراف حاسة الشعوب الدينية عنها ، وهى الحاسة التى كانت فيها سلف من الزمان هدتها ودعامتها ، وذكرنا كيف أثمر مكر فردريك الثانى وتشككه ~~فيها~~ على صورة ماتجلى من الأمراء من مصيان لم يرح يرداد وينمو

انتشرت تعاليم ويكليف الإنجليزية فى كل أرجاء أوروبا . وحدث فى ١٩٣٨ أن هالما تفيكيا هو جون هس ، الذى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكليف . وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة المتعلمة ، وأثارت حاسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انه قد بمدينة كوستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس الكنيسة بأكمل هيتها ليفصل فى صددع الأءظم . ودهى هس للشول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالامان فى الذهاب والعودة . ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرقه حياً (١٤١٥) . وبدلاً من أن يؤدى ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمى إذا به يفضو إلى تمرد أتباع هس بتلك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فاتحة تفرق عالم النصرانية اللاتينية . وعند ذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك المصيان ، وذلك البابا هو الذى انتخب خاصة بمجلس كوستانس ليكون رئيساً للسيحية يوم أميد توحيدها .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية هدتها خمس ، فبامت جميعاً بالفشل . لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا فى القرن الخامس عشر كل مقشردى أوروبا

وزعائها المتعطلين ، مثلبا سير ازعاف بالضبط في القرن الثالث عشر على أتباع
والدو . بيد أن أهالي بوهيميا التشيك كانوا على النقيض من أتباع والدو يؤمنون
بالمقاومة . ولم تسكد الحلة الصليبية المسيرة على بوهيميا تسمح تقمة مجلات أتباع
هس وأفاشيد جنودهم من بعيد ، حتى تبخرت وتسلت من ميدان القتال . وبلغ
من أمرها أنها لم تنتظر قط حتى تقاتل (معركة دومازليس ١٤٣١) . والقصد بمدينة
بال في ١٤٣٦ مجلس جديد الكنيسة عقد صلحا كيفما اتفق مع أتباع هس ، أزيلت
بمقتضاها كثير من الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث في القرن الخامس عشر وباء عظيم توله عنه انيار النظام الاجتماعي إلى
درجة كبيرة في كل أرجاء أوروبا ، ولقي العامة من هذا الوباء هتاتواسة شديدة وانتشر
بينهم مفرط السخط والتذمر ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترا
وفرنسا وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه في ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هس
وقضت بقناع ديني . وجاءت الطباغة فكانت ، وثورا قويا زاد في ذلك الطاور ،
إذ إنه لما اتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباغة في هولندة ومنطقة الرين
يستخدمون حروفا قالة الحركة والفك . ثم انتشر في إيطاليا وإنجلترا .
حيث كان كاستون يعمل في طبع الكتب بوسنمستر في ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة المباشرة لانتشار الطباغة تضادف عدد نسخ الكتاب المقدس
والنشاره بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذبوح الجدل بين أفراد الشعب .
لقد أصبح العالم الاوربي عالم قراء ، إلى حد ليس لأي مجتمع في الماضي عهد بمثله
ومن سوء حظ الكنيسة أن إرواء عقول عامة ، على هذه المفاجئة ، بالافكار التي هي
أكثر وضوحا والمعلومات التي هي أقرب منالا ، حدث في وقت غشها فيه الارتباك
والفرقة ، وأصبحت في موقف لا تسطيع فيه أن تبدل دقاعا فعال الأثر . وفي يوم
كان كثير من الأمراء يحشون من وسيلة يصفون بها قبضتها على الثروة الهائلة التي
كانت تدهي امتلاكها في بلادهم .

أما في ألمانيا فإن الحلة على الكنيسة تجمعت حول شخصية راهب سابق يدعى
مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) ، ظهر بمدينة ويتمبرج عام ١٥١٧ ، مشيرا به عند
اعتراضات على أنواع شتى عما تمارسه الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلفية ، فراح

من بعده الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجدد سلاح الكلام المطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراء في كل مكان باللغة الألمانية غاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلاً على هس . ولكن المطبعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ، مما بين مظهر لصداقته وكآتم لها ، لحالوا بينه وبين ورود ذلك المصير .

وبما يجعل ذكره من ذلك العصر الذي تكاثرت فيه الأفكار وضعت فيه للعائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصطلحهم في قسم عرى الرباط الدينية التي تربط شعوبهم بروما ، لحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شعبياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومي . فأخذت كل من إنجلترا واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الدين الكاثوليكي الواحدة بعد الأخرى ، ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرة .

وبدعى أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يمن أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الحقيقية أو الدنمية ، وكل ما في الأمر أنهم استعملوا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما . على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية التماساً لكبحها ، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما ، وإنشاء كنيسة قومية تحت هيمنة التاج . ولكن تعاليم يسوع تنطوي دائماً على حيوية هيجية ، فهي دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام الذات على كل ولا وكل خضوع . علياينا كان ذلك أو دينيا . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن ينفصل معها أيضاً عدد من الطوائف الفرعية التي لا تعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . فقد ظهرت في إنجلترا واسكتلندة مثلاً طوائف استمسكت بالكتاب المقدس بشدة . متخذة منه هاديا في الحياة والعقيدة ، ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة . وقد سمي هؤلاء المخالفون في إنجلترا باسم المنشقين (Non Conformists) ، وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً في سياسة تلك البلاد في أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر . وبلغ من قوة انحراسهم في إنجلترا على أن يكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩) ، ثم أقاموا بها حكومة جمهورية من المنشقين دامت إحدى عشر عاماً خاضعة بالرخاء والرخد .

وانفصال هذا الشطر الكبير من أوروبا الشمالية عن عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم الإصلاح الديني . . على أن وقع هذه الحوادث المسيحية ذاتها وشدة قوتها أحدثت في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في أهميتها عن أي مكان آخر . فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وفضل روح جديد في حياتها . وكان من أبرز العاملين على هذا البعث الجديد جندي إيطالي شاب يدعى أنييجو لورنزي ريكالدي ، وهو الذي يعرف في العالم باسم القديس إغناطيوس دي ليولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً (١٥٣٨) بعد أن بدأ أمره بدءاً (رومانسياً) إلى حد ما . ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التي ظهرت في العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر في إيقاظ الاهتمام السريع الذي اتأبب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلمي في كل أرجاء العالم الكاثوليكي ، وبفضل منافستها ذهبت أوروبا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة في التعليم جارة لها . لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوية لا شديدة المراسم في العهد الحاضر ماضى إلا الأثرة البالغة لهذا الاهتمام الجيزوتي .

الفصل الحادى والخسون

الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة لأشأن في عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أصحبه من شهدتهم أوروبا من الملوك . وقد ظل رديفاً من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شرلمان .

على أن عظمت لم تكن من صنع يديه ، بل هى إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسمليان (١٤٦٩ - ١٥١٩) . ولا يخفى أن بعض الأمور الملكية تبلغ حظها من السلطان المالى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يلفه بالمؤامرة والتدبير . أما آل هابسبرج فالتسروا العظمة العالمية عن طريق المصاهرة والزواج .

وقد ابتداء مكسمليان حياته عاملاً لخدمة إسبانيا والجزء من الأراضي ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصل من آل هابسبرج ؛ فزوج ملكة الأراضي المنخفضة وبرغنديا (ولايكاد اسم زوجته يعطينا هنا فى قليل أو كثير) .

على أن معظم برغنديا مالبث أن أفلت من يده ب وفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضي المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج أميرة برتاني بفرنسا فلم يوفق ، وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فرديريك لثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوق ميلانو أوغل تزوج دوقها ، وأخيراً زوج ابنته من ابنة فرديناند وإيزابيلا الضعيفة العقل وهما نصيرا كولبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد إسبانيا الحديثة التوحيد وسردينيا والعقليتين (١) ، بل حكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشركان (٢) حفيد ميراث معظم القارة الأمريكية ، وقد توارح بين تلك المالم يقع من أوروبا ونصفها بأيدي الترك وانتقل إليه ملك الأراضي المنخفضة فى ١٥٠٦ فلما توفي جده فرديناند

(١) ويقصد بهذا جزيرة سقلية وجنوب إيطاليا . [المترجم]

(٢) شركان : هو شارل الخامس نفسه . [المترجم]

في ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكا على الدولة الإسبانية المترامية الأطراف تليامنة أمه وضمف
حقها ، حتى إذا مات جده مكسيميليان في ١٥١٩ ، التخب عام ١٥٢٠ إمبراطورا
وهو لا يزال في العشرين ، من نعومة الأظفار نسبيا .

كان شابا أشقر لا تبدو على وجهه غشايل النجابة ، فشفته العليا عظيمة وقفته طويلة
تبع بعين نظر حوله فإذا حاله حافل بالخصائص الفنية القوية فإن حصره كان صر
ملوك لشبان أذكيا ، منهم فرسيس الأول الذي تولى عرش فرنسا في ١٥١٥ وعمره
إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنري الثامن الذي ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ في
سن الثالثة عشرة . وهو صر بار ببلاد الهند (١٥٢٦ - ١٥٣٠) . وسليان
القانوني بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر ، هذا إلى أن البابا ليون
العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلا ممتازا جدا . وحاول البابا بمعاونة فرسيس الأول
أن يحول دون انتخاب شرلكان لعرش الإمبراطورية لما خشيانه من ترك ذلك القدر
الهاثل من السلطان في يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرسيس الأول وهنري الثامن
يرضان نفسيهما على ناخب الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج
كان قد أصبح آنذاك تقليدا مديد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) . ونشطت
الرشوة حتى كفت لشرلكان النجاح في الانتخاب .

أبتدأ الملك الشاب حكمه العوبة فاخرة رفيعة في أيدي وزرائه . ثم شرع بعد
ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور . ومالبث أن بدأ يدرك ما يحيط
بمركزه السامي من معقدات حافلة بالأخطار . وأحسن أنه وإن كان مركزا فاخرا
فإنه ضعيف مضطرب كذاك .

وأول ما واجهه منذ ساعة توليه الحكم الموقف الذي أوجده الاضطرابات الناشئة
عن دهوة لورثر بألمانيا . وكانت معارضة البابا في انتخاب إمبراطورا من الأسباب التي
دعته إلى الانحياز إلى دعاة الإصلاح الديني . ولكنه نشأ في إسبانيا ببلاد الكاثوليكية
المتحصة ، ومن ثم قرأنا يناصب لورثر العداء ، ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأبرام
البروتستانت وخاصة منتخب سكسونيا ، وعند ذلك وجد نفسه يواجه صدعا قد أخذ
يفسح ويتهدد بتفريق الوحدة البابية المسيحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل في سبيل
وأبذل الصدع جهودا مضنية شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الملاحون في ألمانيا

بشورة متسعة الأطراف، اختلطت بالفن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة. وما زاد الأمر تعقيداً اجتاحت هذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً. وكان جارشر لكان في ناحية الغرب دوق فرنسايس الأول منافسه المرمى الطموح. ونازحه من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع، والذين استولوا عند ذاك على المجر، وتحالفوا مع فرنسايس. وأخذوا يطالبون بمالهم على دولة النمسا وملكاتها من متأخرات الجزية، أجل إن أموال إسبانيا وجورجيا كانت من إشارة من شارل، ولكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور. وزادت الأزمات المالية متاعب الاجتماعية والسياسية تعقيداً، فاضطرت حاضنته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الخراب والإفلاس.

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنرى الثامن إلى التغلب على فرنسايس الأول وخلفائه الأتراك. وكان ميدان القتال الرئيسى بينهما وشمال إيطاليا؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تقسم بالبلادة والغيباء، كما أن حركات التقدم والتأخر التي كانا يقومان بها اضمحلت قبل كل شيء على وصول الإمدادات. ثم غزا الجيش الألماني فرنسا وأخفق دون الاستيلاء على مرسيلىا، ثم تراجع إلى إيطاليا، حيث ضاعت ميلانو من يده وحوصر بمدينة پافيا. وقد ألقى فرنسايس الأول حول پافيا حصاراً طويلاً بام بالقشل، ثم حاصرت قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً وعند ذلك انقلب البابا وهنرى الثامن على شرلكان لما كان يساورهما دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط، وماعنت القوات الألمانية الحفائقة ميلانو بقيادة كورستابل بوربون وقد تأخرت أعطياتها، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما، وهناك فتحوا المدينة عنوة وانتهبوها في (١٥٢٧).

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجيلو، على حين واصل المغيرون النهب والقتل في المدينة، ثم استطاع في النهاية أن يشتري رحيل القوات الألمانية بأن دفع مالاً بزيادة ألف بندق (١)، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشر سنين لقيت منها أوروبا التفرق والإفلاس، حتى رأى الأمر في النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظلماً في إيطاليا، وماتشب البابا أن توجه في ١٥٣٠ بمدينة بولونيا، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو.

(١) البندقى (Ducats) هو عملة ذهبية معدة بالبنديقية.

وفي نفس ذلك الوقت كان الأتراك يحتاجون بلاد المجر احتياجا. بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه في ١٥٢٦، ثم استولوا على بودابست وأوشكت فيينا أن تقع في قبضة سليمان القانوني في ١٥٢٩. واغتم الإمبراطور وخاضع لهذا التقدم، وبذلك كل ما في مستطاعه، لد الأتراك من بلاده، ولكنه لم يأت أظم العسر في جمع كل أمراء الألمان على الرغم من وجود ذلك الهدوء والموافق على أوايم جميعاً. وظل فرانسيس الأول عاجزاً عن القتال ردسأه من الزمان، ثم نهض لحرب مرة ثانية؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من إسالة منافسه إليه (١٥٢٨) وحمله على التزام جانب المودة إزاءه بعد أن أحمل في جنوب فرنسا يد الثوب والتخريب. وعندئذ فقد فرانسيس مع شريكه عاقبة ضد الترك.

ولكن الأمراء البروتستنت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا الذم على الإتحاد مع روما، كانوا قد كمنوا وتذاك ضد الإمبراطور حلفاً، هو حلف Schmalkeldic فاضطر شارل أن يوجههم إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت خصامه تتجمع في ألمانيا، بدلاً من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر وموقعة المسلمين وضمها إلى حظيرة المسيحية. ولكنه لم يدر ما ويلا، فلم ينهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب لتثبت فيه، وقد اتهم ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خللت من كل حكمة وحفل، اقتتل فيها الأمراء على السيادة. وكانت تندلج برائها أحياناً فتصبح حرباً دينية تأق على الحرب والنسل وتجر وراءها الحراب، أو تبطأ إذا هي مزايرات ومؤامرات ديبلوماسية، لقد كانت ألمانيا كجواب على الأناهي من الأمراء، الذين ظلت سياساتهم تتلوى في ذلك الجراب وتنع إلى ما لا نهاية حتى تقدم الزمن بالقرن الخامس عشر، وما زالت هذه الديبلوماسية تعمل في أوروبا الوعالي تدبها وتخربها مرة في إثر أخرى.

ويلوح أن الإمبراطور يدر كقط الدوائر الحقيقية التي كانت تعمل كلها في تلك المناهب التي أخذت تتجمع على رأسه. لقد كان بالنسبة له صره وركزه رجلاً فاضلاً إلى أقصى حد، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوروبا إلى أشلاء متناثرة إنما هي خلافات دينية حقة، فأكرم من فقد مجالس الديانت (١) واجامع الكنيسة وأحوالا بذلك التوفيق والصلح دون جدوى. وكم مرة أعيد البحث في قانون الإيمان الكنسي

(١) الديانت : مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية (الألمانية) المقدسة .
[المترجم]

وفي مسألة الاعتراف . ودارس التاريخ الألماني مضطر على الرغم منه أن يكدرج
التماسا لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الدين . والتسوية التي أقرها ذات رانسبون
خلف أوجزبرج وما إليها . وهي أمور لا تذكر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور
الباذخ ، تلك الحياة النمسة الزاخرة بالمعوم والواقع الذي لا شك فيه أن واحد أمن هذه
الكثرة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لا يبدوا عليه أن كان يعمل بإخلاص .
وما كان الاضطراب الدين الذي عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة في الحق والصدق والبر
الإجتماعي ، ولا انتشار المرفقة في ذلك ، ما كانت هذه الأشياء جميعاً إلا مجرد ذرائع
للخلاف والمحاكمة اتخذتها أخيلة الأمراء وديلوامسياتهم ، مثال ذلك أن هنري
الثامن ملك إنجلترا الذي بدأ حياته العملية بتأليف كتاب يتدفيه بالكفر والزندقه ،
والذي كافأه البابا بالإععام عليه بلقب دحامي العقيدة ، قد انضم إلى زمرة الأمراء
البروتستنت في ١٥٣٠ ، لرغبته في الطلاق من زوجته الأولى إشاراً منه لفتاة صغيرة
تسمى آن بولين ، ولأنه شاء أيضاً أن يتتبع ثروة لكنيسة الإنجليزية لهاثة ومن
قبله كانت السويد والدانمرك والترويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا في ١٥٤٦ بعد وفاة مارتن لوتر بيشمة أشهر .
ولسنا في حاجة إلى الإهتمام بتفاصيل القتال ، وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكسوني
البروتستنتي لقي هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فيليب ، أمير ميون ، أخرو أكبر
خهم للإمبراطور قبض عليه وأخذ أسيراً بطريقة تداني قبض العمد ، واشترى
رحيل الترك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات في ١٥٤٧ فأراح
الإمبراطور راحة عظيمة . لذا حصل شارل في ١٥٤٧ على ضرب من التسوية
لأموره ، وأخذ يبذل قصارى جهده لإقرار سلم في عالم لا سلام فيه . فوافقت
سنة ١٥٥٢ حتى اندلع لبيب الحرب في كل أرجاء ألمانيا ، ولم ينج الإمبراطور
من الأمر في إننزبروك إلا بمبادرته بالقرار السريع منها ، ثم جاءه معاهدة
بساو فأحدثت في سنة ١٥٥٢ هدوءاً آخر غير ثابت الأركان .

تلك هي المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية في مدى اثنين وثلاثين عاماً . ولا يفوتنا
أن نذكر أن عقل الأوربيين كان متركزاً تماماً حول فكرة الكفاح من أجل إحرار
قصب السيادة في أوروبا . وذلك أن أحداً من عاشوا في ذلك الزمان . لا ترك منهم ولا
الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان . لم يحس حتى ذلك الحين بأى إهتمام سياسي بقارة
أمريكا العظيمة ، ولم يدرك أى مغزى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك

فإن أمريكا كانت عند ذلك مسرحاً لأحداث عظيمة ، فإن كورتز استطاع بصفته من الرهبان وفتح باسم إسبانيا إمبراطورية المكسيك النيولينية (١) العظيمة ، كما أن بيرازو هجر مضيق بنما (١٥٣٠) ، وأخضع لظراً آخر من أقطار السحاب هو بيرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى في أوروبا إلا تدفق الغنضة إلى الخزائن الإسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير وفيه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل في إظهار أصالة الذهنية المميزة إلا بعد عقد معاهدة باسو . إذ اعتراه عند ذلك السأم من عظمت كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما ألم به شعور قوى بأن كل هذه المنافسات الأوروبية عبث لا يطاق . ولم تكن بنته بيليمه جداً في أى يوم من أيام حياته إذ كان بفطرته ميالاً للخمول والكسل ، كما كان يقاسى من التفرس أشد الآلام . فتنازل عن عرشه ، ونقل كل سلطاته الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشئون إسبانيا والأراضي المنخفضة لابنه فيليب ثم انسحب يظله جوم من الجلال والامتياز إلى دير بمدينة بوست ، تحيط به أحرار البلوط والقسطل في التلال الواقعة شمال وادى التاجية . وهناك قضى نحبه في ١٥٥٨ .

ولقد أکثر الكتاب من الحديث عن تقاعده هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تخلياً عن العالم من ذلك الجبار المسكدود الجليل الذى برم بهذه الدنيا واتس السلام في أكفاف الله عن طريق العزلة الصارمة ، ولكن السحابة من الديناميتميز بعزلة ولاصرامة ، ذلك أنه صحب معه خزانة مائة وخمسين تاجاً ، وكان مقره يحوى كل ما للبلاط من نفاسة ملذات مع اتفناء متاعب البلاط ومشاغله ، كما أن فيليب الثانى كان من البر بوالده بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب التنفيذ .

ولئن فقد شارل لكان كل اهتمامه بإدارة شئون أوروبا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« لا تكاد رسالة من الرسائل اليومية المتبادلة بين كورتز وأرجاز تفلو ، وبين الوزير المقيم بمدينة بلد الوليد ، إلا لتدور بدور بدرجة ما حول الإمبراطور وأمره .

إذ يلوح الواحد منها كأنما يقبب الآخر بصورة طبيعية كأنه تملق مستمز عليه ، من التادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار المراسلات مع مصلحة من مصالح الحكومة . ولا بد أن الوزير كان يمد صراً كبيراً في الاحتفاظ بوقاره في أثناء تلاته لرسائل تحفظ فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العجيب ، وثاقى الرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أمر أبا نينحرف عن طريقه السوى لير على جارا نديلا ، ويحضر المائدة الملكية ما يلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه في يوم الصيام الذى يليه ، فإن شاول كان يرى أن سمك النقط الموجود بالمنطقة التى يعيش بها صغيراً جداً ، ولذا رحب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجماً . وكانت الاسماك بجميع أنواعها تلذ له وتمجبه ، وكل شئ يدانى السمك في طبيعته أو عادته . فتعابن الماء والصفادح وأم الخلول تحتل مكاناً هالياً في قائمة الأطعمة الملكية . كما أن الاسماك المحفوظة ولا سيما الانشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكـم أسف الماهل لأنه لم يحضر من تلك الانشوجة فحراً كبيراً من الاراضى المنخفضة ، وإنه لمولع بوجدها من بطنية ثعبان الماء ... (١) .

وقد حصل شارل في ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يبيح له التحل من الصوم ويبيح له الإفطار في الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار المقدسة .

أكل وتطيب ... !! إن ذلك رجوع إلى الأشياء البدائية الأولى ، لم يتعود ذلك الملك قط القراءة ، ولكنه كان يصنى إلى من يقرأ عليه في أثناء تناوله الطعام جرياً على عادة شرلمان ، ثم يلقى على ما يسمع بتعليقات حلوة سماوية . - كما خبر عن ذلك أحد الرواة .

وكثيراً ما كان يسلى نفسه باللعب الميكانيكية ، أو بالإضفاء إلى الموسيقى أو السطات الدينية ، أو النظر في شئون الإمبراطورية التى لم تقتأ تتقاطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التى اشتد بها تعلقه ، سبباً في تحول عقله نحو الدين ، الذى اقتنذ عنده صورة التدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ، وقد دأب في كل يوم جمعة من أيام

الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقية الرهبان من طيب خاطر جلدا كان يبلغ من الشدة أن تدى له جلودهم .

وقد دفعت هذه الرياضات هي والتفرس بشر لكان إلى حال من التمسك كانت اعتبارات السياسة تكسبها حتى تلك الساعة ، فأثار حنقه ظهور التعالم البروتستنتية بمدينة بلد الوليد القريية . وكذب يقول . « أبلغ من القاضى الأعظم لمحكمة التفتيش أن يكون يحرقه هو ورجال مجلسه ، وأن يستأصلوا شاة الشر قبل أن يستفحل » ...

وإنه ليبدى الشك فيها إذا لم يكن من الأنسب في حالة مثل هذا الأمر الكره الاستثناء من نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأذى شفقة وخشية أن يسطى المجرمون ، إذا حتى عنهم فرصة العودة إلى جرمهم ، ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التى اتبعها بالأراضى المنخفضة ، حيث أحرق حيا كل من أصر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة .

ويكاد انصفاه بالجنازات يكون رمزاً لمركزه في التاريخ وكان ضريامن الإلهام أوحى إليه أنه شيئاً عظيم بأوروبا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفعه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة « انتهى » قد أزفت وزيادة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقام في بوسن ، بل كان يقيم صلاة الجنازة على الموتى الغائبين ، وأقام جنازاً لزوجته يوم ذكرها السفوية ، ثم أقام في النهاية جنازته هو : وجلت جدران الكنيسة بالسواد ، لذا لم يكن نور مشاعل الشموع التى أوقدت كافياً لتبديد سدف الظلام التى رامت على المسكن ، وتجمع الرهبان في ثياب الدير ومعهم حاشية الإمبراطور جميعاً ، وقد ارتدت ثياب الحداد القاتمة ، حول نضج ضخم قد جلل هو أيضاً بالسواد ورفع في وسط الكنيسة وعند ذلك أدبعت صلاة في الموتى ، وتصادعت الصلوات للروح لراحل بين حويل الرهبان الحزن ، داعية لما بأن تلقى في الآخرة منازل الأبرار . وذابت تنفوس الاتباع المحروقة دموعاً وأسى ، إذ تصورت لحواطم صورة وفاة مولاهم ، أو لهم مستهم الرحمة لهذا المظهر الحزن من مظاهر الضعف . وتنتشى شارل برداء أسود وحمل في يده شمعة موقدة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، وانتهى بالحفل الأسيف بوضعه الشمعة بيد القسيس وموا لتسليمه ، روحاً لقوى القاهرة .

توفي الإمبراطور بعدهذا الحفل الساخر بأربعة أشهر . وانعلوت بموته الهزيمة
انقصيرة الأجل التي خطب بها الإمبراطورية الرومانية المقدسة فإن دولته نفسها قبل
موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تبرح تكافح
الاقتراب إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أشبه بعليل يعاني سكرات الموت .
ولانزال تعاليدنا البالية الزم تمسّم الجو السياسي إلى يومنا هذا .

الفصل الثاني والخمسون

عصر تجارب سياسية

وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا

تطعمت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية المقدسة في دركات الانحلال المفرط ، وأصبح تاريخ أوروبا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شموه تنلس في دامن الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التي أخذت تنشأ . وقد ظلت التغيرات في المصور الخواي وفي آماط طويلا من الزمان تفسر الأمر المالك ، بل حتى الجنس الحاكم والفة الغالبة دون غيرها . ولكن شكل الحكومة القائم على الملك والمبدل واضح الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأرسخ قدما . على أن تغيرات الأمر المالك في أوروبا الحديثة هذه ، أي منذ القرن السادس عشر لم تعد تهم أحداً في قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصفاً على تلك الأنواع الكثيرة المتزايدة المتعد من التجارب التي تجري في حقول التنظيم السياسي والاجتماعي .

والتاريخ السياسي للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهداً لاشعورياً إلى حد كبير ، أنفقت الإنسانية رغبة منها في تكيف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت في العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تحاول جهود التكيف حقيقة لاشك فيها ، هي أن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة مفرطة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد في كل آن تواتياً وتعلقاً من الظروف المتغيرة ، خاصة وأنه كان في الغالب تكيفاً لاشعورياً يحدث في جميع الأحوال تقريباً من غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان في حلة يكره التغير الإرادي) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير جالمة لما خلقت له مثيرة قلق والكدر ، كما يصبح قصة لإدراك الناس على كره الحاجة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية تحديداً واضحاً عملياً لمواجهة الحاجات والإمكانات التي لا عهد لجميع الحزبات السابقة للحياة بها .

فأفاده التغيرات التي احدثت ظروف الحياة البشرية ، والتي أفادت ذلك الاتزان الذي كان يحكم على الإمبراطورية والسكان والفلاح والتاجر ، مع إقطاعيين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة ، التي عرضت أحوال الناس في العالم القديم لنوع من الموجات المتتامة التي دامت أكثر من مائة قرن ؟ .

إنّ لآثار هذه التغيرات منوعة كثيرة الجوانب ، وما ذلك إلا لأنّ المشئون الإنسانية معقدة إلى أقصى حد ، ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشياء ، تلك المعرفة التي بدأت أولا وقبل كل شيء بين جماعات صغيرة من الأذكىاء - وانتشرت ببطء في البداية ، ثم بسرعة عظيمة جدا في القرون الخمسة الأخيرة - بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان هامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيرا عظيما يرجع إلى تغير حدث في روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جنبا إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالا خفيا دقيقا . وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين التفوق وعدم الرضا إلى إقامة حياة للفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى القسامة العلاقات مع حياة أشمل هي الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها في كل شئونها . تلك هي الخصيصة العامة التي تترك فيها الديانات العظمى جميعا التي انتشرت في كافة أرجاء العالم في أثناء النيف والعشرين قرنا الأخيرة من حياة البشرية سواء في ذلك لليودية والمسيحية والإسلام ، فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تنبئها الديانات القديمة . فهي قوى تختلف تماما في طبيعتها ومفهومها عن ديانات القربان الدموي الوثنية القديمة بكمائها ومعبدها ، التي عدلتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت في الفرد بالتحريج الشعور باحترامه لنفسه وشعوره بالمشاركة والمشاركة في كل المشئون البشرية العامة كما يسبق له مثيل بين أناس الحضارات الحالية .

وكان أوله تغيير جسمي ألم بأحوال الحياة السياسية والاجتماعية تبسيط الكتابة في الحضارات القديمة واتساع مداه استخداماتها وهرأس جعله قيام إمبراطوريات أكبر حجما وأشده نظام سياسي أوسع مجالا ، شيئا ميسورا بل أمرا لا بد منه . وجاءت حركة

تقدم الثانية حيث استخدم الحصان ، ومن بعده الجمل كوسيلة للواصلات ، وحين استعملت المركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الكفاية العسكرية كمنفعة لاستكشاف الحديد الأرضي . ثم طفت أحقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود المسكوكة . وعن تهيئة الديون والتمسك والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والضرر مما ، فزادت الإمبراطوريات سمعة وجمالا . ونمت أفكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم أن أوان اختفاء الآلهة المحلية ، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (التيوكرازيا) فهدت تعاليم الديانات العالمية الكبرى . وأقبلت أيضا تبشير للتاريخ والجغرافيا المعقولة المدونة ، وإدراك الإنسان جملة المطلق لأول مرة ، وأول بحث منظم في سبيل المعرفة .

لقد انقطع إلى حين من الدهر حبل الطريقة الدلية الذي بدأ ببلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الزائفة . ذلك أن النظام السياسي والاجتماعي لن أعظم الضرر والعنت من جراء غارات البرابرة الثورتون ، وزحف الشعوب المغولية نحو الغرب وأدوار الإصلاحات الدينية السنية والأروثة الجامعة . حتى إذا انقضت الحضارة عنها ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للحياة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من الطبوط وسيلة جديدة للاحاطة الجماهير ولتعاون الاجتماعي . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية المنظمة ، أن عاد سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعدا مجموعة متزايدة العدد من المستحدثات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل ، وكانت تاجا ثانويا لفكر المنظم لا مفر منه . وكانت كل هذه المستحدثات تنزع إلى توسيع مجال العمل والضغط وزيادة المنافع أو الإضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كأن مرة بحيث لم تزل في ازدياد يوما في إثر يوم . ولم تكن عقول الناس مهيأة لنشء من ذلك الثقيل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يوم طول الكثرة الكبرى في أوائل القرن العشرين . فتشيطها الأذهان - إلا أقل القليل يعد ذلك به من أية محاولات مصممة بعكس لمواجهة الظروف الجديدة التي كان يخلقها ذلك التدفق الجديد للبتريات . وكأن بتاريخ الإنسانية في أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شيء بقصة قائم جيس يتحرك في قفل وحمل بينما تتدلع النيران في السجن الذي يؤويه ويقيده حرجه . دون أن يستيقظ ، بل

تدخل طليقة النار ودفعوا في أجنات أحلام حقيقة لا تناسبوا المقام - أشبه بهذا كله منه بحال رجل في بقعة شعورية يحس بالخطر المحدق والفرصة الدنية القطوف .
والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لأحياة الأفراد ، لذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخرجات التي تظهر في حضرات النجل التاريخي مستحداث لها أثر فيما بين الناس من مواصلات . وأهم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة في أثناء القرن السادس عشر ظهور الرزق المطبوع والسفينة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصلية البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عادت نفس الفوائد على إضاءة الأخبار وعلى المناقشات ، وعلى عمليات النشاط السياسي الجوهرية . وأما الاختراع الثاني فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماصة . ولا يقل عن هذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها المغول إلى الغرب لأول مرة في القرن الثالث عشر وإدخال التحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تحللت الحصانة والمنعة التي حظي بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم المسورة وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة . ولا ننس أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك ، وكذلك تدهأت دولتا المكسيك وبيرو حيال ما أصابها من رعب من مدافع الإسبان . .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم المطبوعات العلمية ، وهو تجديد أقل شأنًا من سابقه ، وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة القديمة العظيمة السير فرانسيس باكون (١٥١١ - ١٦٢٦) ، وهو الذي تسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام ، وزير مالية إنجلترا . كان تلميذاً لعالم إنجليزي آخر بل لعله هو اللسان المعبر عن ذلك الإنجليزي الذي هو الدكتور جابريل فيلسوف كولشستر التجريبي (١٥٤٠ - ١٦٠٣) ، وكان باكون الثاني هذا يدعو الناس كسبيه الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقة التخصيص اليوناني المهمة المثمرة في كتاب له أسماء الأطلالطين الجديدة وسيلة يبرر بها ما يعلم به من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

ومرغان مانشات الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنتية ، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها ، لم تصبح هذه

الجميات العلمية الاوربية بنابيع فقط تنضح بما لا يقع تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضا منبعها لتقد الدم الذي قضى في النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتي العالمي المضحك الذي تسلط على الفكر البشرى وعاقه عن العمل عدة قرون . ولم يقدر القرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهد اختراعات بلغت من الأثر العميق في حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإنه تجملت في أثنائها المعرفة وأطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتي ثمارها كاملة في القرن التاسع عشر ، وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تساميا واستراليا وزيلندة الجديدة في المصورات الجغرافية . وشرع الناس في بريطانيا العظمى يستخدمون كوك الفهم الحجري في صناعة المآذن فأدى ذلك إلى رخص ثمن الحديد وإلى إمكان حبه واستخدامه على صورة قطع أكبر - فيما كان يستطاع إتاجه قبل ذلك ، حين كان الفهم النباقي هو المستخدم في صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات المصرية الحديثة .

والعلم كاشجار جنة الفردوس ، يحمل الأكمام والأزهار والثمار في نفس الوقت . وبلا انقطاع . وابتدأ العلم يؤتي ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثراء . فكان البخار والعلب أول قطرات النسيم ، وتلتها السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكبارى الضخمة والمباني الكبيرة والملاكينات التي لاحد لتوتم تقريبها ، ولاح أن في الإمكان سد كل حاجة مادية للإنسان بوفرة وغزارة لم يسبق لها مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة العلم الكهربى .

سبق أن شبهنا الحياة السياسية والاقتصادية للإنسان منذ القرن السادس عشر فصاعدا بحالة سجين نائم يرقد غارقا في أحلامه والسهن يحترق من حوله . وكان ذلك الاوربي في القرن السادس عشر لا يزال مستغرقا في أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية الدائرة ، أى طبعه بإمبراطورية رومانية مقدسة تتعدد كلتها بزخامة البكنيسة الكاثولى ليكنيها ولكن الذي حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا إلى لسلطان لاحد عليها لا تزال تدأب في بعض الأسايين على إدخال أشد أنواع الأفكار سخفا . وتدهيرا في مجرى أحلامنا ، فكذلك اندس في الحلم الوجه النائم الامبراطور شارل الخامس ومعه المتهاقنة على الطعام ، على حين كان هنرى الثامن ولويس الثامن وحده العالم الكاثولى يسكن أوروبا .

وتحول الملم في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة، فلا يكاد تاريخ أوروبا خلال تلك الفترة يحوى إلا قصة تروى بصورة مختلطة، عارفاً ما لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطانها عليها استبدادياً مطلقاً وبسط كلتها على الخنفاء من جيرانها ، أو تقص على مسامحة حديث المقاومة الناعمة التي يظهرها أصحاب الأراضي ، كما تحدثنا عندما تزايد التجارة الخارجية والصناعة في انداغل من مقاومة طبقة التجار والمالين التي تزداد عند ذلك عدداً — تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكل تدخل لتاج في شئونهم أو فرض يفرضه عليهم ولم يحرز أى من الطرفين نصراً شاملاً أو حاسماً ؛ فقد يفوز الملك هنا بالكلمة العليا ، بينما يتنقلب صاحب الأملاك في مكان آخر على العامل الملك . وثم مكان يكون فيه الملك متار عالمه القوي وقطب رساه على حين نجد وراءه حدوده المتاخمة له تماماً طبقة تجارية قوية الشكيلة تقيم صرح جمهورية وطيدة . ووجود مثل هذا البون من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات المتنوعة لتلك الفترة تيمينية بحتة ، أو عارضة ألتجتها الصدفة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً في هذه المرحليات القومية ، هي « وزير الملك » ، الذي كثيراً ما يكون في الدول المستمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أعتفا يقف من وراء الملك ، ويخدمه ويتسلط عليه بما يؤديه من خدمات لا يستثنى منها .

ولا يتسع المقام لتدبع هذه المرحليات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندا التجارى تحول إلى المذهب البروتستانتي والجمهورى معاً ، وأزاح عن كامله حكم خيليب الثاني ملك إسبانيا ، وابن الإمبراطور شارل كان . فأما إنجلترا فإن مرمى ثامن بوزيره ولوى والملك إدوارد وريرها بوري ، وضموها أسس نظام استبدادى سطمت حماة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطع عن أس الملك شارل الأول جزاء له على خيانه لتبعة (١٦٤٩) ، وفي ذلك تحول جديد لجرى الفكر السياسى بأوروبا . واتصف بعد ذلك اثنتا عشرة قسة كانت فيها إنجلترا جمهورية (من ١٦٦٠) ؛ ثم غدا التاج مزروع أقوى تنلبه كثيراً كلة البرلمان ، حتى بذل الملك جورج الثالث (١٨٦٠ - ١٨٢٠) جهدا عظيماً وفق فيه إلى حذما إلى استعادة سلطانه . هل أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوروبا توفيقاً ونجاحاً في النهوض بالملكية إلى حد النكال ، فقد رزقه الله وزيرين عظيمين هما ريشيليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢)

ومازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١) شادا له بذلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأييدهما حاول هذانك لويس الرابع عشر (الملقب بالعامل الأعظم ١٦٤٢ - ١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الحارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك المثالي الذي تحتذيه أوروبا كلها . وكان على ما به من معائب - ملكا ذا اقتدار استثنائي ، كما أن نظامه كانت أقوى من شهوراته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإفلاس بتورطه في سياسة خارجية مفرطة النشاط مع هيئة وكرامة عظيمة لا تزال تترزع منا الإحباط أتباعا . وكانت الرغبة المباشرة التي رافقت عليه هي توحيد بلاده وبسط نفوذها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وامتصاص الأراضي المنخفضة الإسبانية ، أما فكرته البعيدة التي هدف إليها فهي أن يصبح ملوك فرنسا خلفاء لشارلمان في دولة رومانية مقدسة يهاد بناؤها . لجمال الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثاني ملك إنجلترا يتلقى منه الأموال ، وكذلك معظم بيلاء بولندة الذين سندهم لك من فورنا . لذا يمكن القول إن تقوده أو بالحري تقود العاجلة إلى إفادة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن شغله الشاغل كان الأبهة والنفخات . فأنقصره العظيم بفرساي بما سوى من صالونات ودهاليز ودرايا وشرقات ضخمة ولافورات وجنات غناء ومجالات ترح فيها الأنظار - كان مثار حسد العالم وإحباطه العظيم .

وتبارى من حوله المقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوروبا يشيد قصره على طقس قصر فرساي متجاوزا بذلك موارده . ولكن على قدر ما يسمح له رعاياه ودائره ؛ وهب كل النبلاء في كل مكان يبدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يؤسمون فيها على مثال الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة في صناعة المنسوجات والأثاث الجميلة وازدهرت فنون الكليات وتدفقت في كل مكان ، فانتشرت صناعات نعت المرمر والقاشاني وأشغال الخشب المذهب وصياغة المعادن والجلد المضبوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر الإنتاج الموسيقي والتصوير الفاخر والطباعة الجميلة والتجليد الأنيق وأبدع الحرف وأعجب الختور . وبين هذه المزايا العظيمة والرياض الفاخرة ، كان جنس مجيب من السادة يتدفق وروح على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذوت عليها المساحيق وترتدى الحرائر وأنحر مات (الدتلا) ويربح فوق أحذية ذات كموب عالية حمراء سافقا توازته بعضى مونة مدمشة ومع هؤلاء سيدات أعجب منهن شأنا ففوقه وسمن أبراج من القصور والمخاطة .

بالمساحيق، وعلى أجسامهم مقادير ضخمة منقوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. ومن بين هؤلاء جيماً، وقمت شخصية لريس العظيم، شمس عالمه المنيرة، غير شاهر بالوجوه الهزيلة المتجمدة الحافة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها أشعة شمس.

ظل الشعب الألماني منقسماً على نفسه سياسياً طوال تلك الفترة التي سادتها المملكات وعمل التجارب في أنواع الحكومات، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء يحاكي كالفردة أبهة فرساي كل حسب درجته. وكانت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨، ١٦٤٨) وبالا على الألمان، إذ إنها ظلت جرحاً دامياً ينف من نشاطهم ومهتهم لمدة مائة عام بعد ذلك، وهي نزاع عرّب بين الألمان والسويديين والبروميين على مقام سياحية متقلبة غير ثابتة. ولا بد للقارئ من خريطة يشهد فيها هذا التوزيع الجغرافي الذي انتهى به ذلك الصراع، وهي الخريطة التي تصور لك أوروبا بعد صلح وستفاليا الذي عقد في ١٦٤٨ وفيما توجد عدداً كبيراً من الإمارات والدوقيات والنبول الحرة وما إلى ذلك، ومنها ما هو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو خارج عنها من ناحية أخرى. وسيلحظ القارئ أن ذراع السويد توغلت كثيراً في أرض ألمانيا، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الرين على الرغم من امتلاكها لقطع متباعدة من الأرض تقوم كالجوثر وسط مملكات الإمبراطور. وأخذت مملكة بروسيا (التي أصبحت مملكة منذ ١٧٠١) تواصل النهوض إلى مرتبة الصدارة وتقتن سلسلة متصلة من الحلفاء من الحروب الطافرة الموقفة. وأقام فردريك الأكبر (١٧٤٠-١٧٨٦) قصره الفرسالي عند بوتسدام، وكانت الفرنسية لفن بلاطه. فريدريش بنها ويقرأ الأدب الفرنسي ويناقش الملك الفرنسي في هافنه.

وفي ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكاً على إنجلترا، فواد فرد آخر في قائمة الملوك الداخليين في الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى.

احتفظ الفرع النمساوي من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطوري، كما احتفظ الفرع الإسباني بإسبانيا. ويمكن ظن أن الفترة الثانية لإمبراطور النمسا، ذلك أن



خريطة رقم (١٤)

غرانديوموسكو، إيفان الأعظم (١٤٦٢-١٥٠٥)، أدمى بمدقوط القسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث للعرش البيزنطي، ووضع شارة النسر البيزنطي ذو الرأسين على دروعه وأسلحته. واتخذ حفيده إيفان الرابع (إيفان الرهيب) (١٥٣٣-١٥٨٤) اللقب الإمبراطوري: قيصر. على أن الروسية كانت تبدو دائماً في أعين الأوروبيين فطراً بعيداً آسيوياً حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر. فإن القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) أدخل الروسية في معترك الشؤون الغربية. فساد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر النيفا، هي بطرسبرج، كانت بمثابة نافذة تطل منها الروسية على أوروبا. كأنه أقام قصره المماثل لقصر فرساي قرب باريس التي تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلاً. مستخدماً في ذلك مهندساً معولياً فرنسياً شيد له شرفة

عظيمة وبافورات ومساقل مائية (شلالات) ومعرضا لصور وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى . وصارت الفرنسية لغة البلاط في روسيا مثلما صارت من قبل لغة في بروسيا .

ومن سوء حظ الملكية البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع التعسفيين روسيا وبروسيا والنمسا .

وكانت بولندية دولة سيئة التنظيم من ملك كبار يحرم كل منهم على حدة الفردية حرصاً شديداً حتى لا يطبق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الذي كانوا ينتخبونه . وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بلدته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفاً مستقلاً .

وكانت سويسرا في ذلك الاوان مكونة من مجموعة من الكانتونات الجمهورية ؛ ثم إن البندقية كانت هي الاخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كعظم المانيا اتسمت بها دوقات وأمراء صغار . أما البابا فكان يقيم في دولته الباباوية حكماً كحكم الأمراء ، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقي موالياً له من الأمراء الكاثوليك بحيث لم يعد يجرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أو على تكبير العالم بدولة النصارية الشامة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوروبا مطلقاً أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تماماً بين برائن الفرقة واستسلمت كلية للخلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر المخطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره . وكان لكل منهم سياسة خارجية تنطوي على العدوان على جيرانه وعلى التحالف العدواني . ونحن الأوروبيين لا نزال نعيش في أيامنا هذه في آخر مرحلة من مراحل البول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لا نزال نكابداً الآلام من تلك الكراهيات والعداوات والشكوك التي تولدت من تلك المرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضاً في الأمراض تنجمه أذن النافذ العصري الأسمى . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليفة هذا الملك أجهت تلك الحروب ، وكيف تولدت هذه الحرب الاخرى من غير قوزير من آخر . وتصور ربح القليل والقال فزك أنصار دارس الذي بأخبار الرشوة والنافسات وتعملاً نفساً استعزوا . هل أن هناك نتيجة

ما ناله ولما دلالتها التي لا تنتفع ، هو أن القراءة [والفكر] تكف مع ذلك من
الانتشار والاتساع ، وأن الاختراعات لم تكف مع ذلك على الرغم من تلك
الامتدادات من الحدود والتهنوم التي تفصل بين الدول . وظهر في القرن الثامن
عشر أدب هينري في تشككه ، مما ذق نقده لبلاطات ذلك العصر وسياساته . ولو
أنك قرأت كتاباً قصة فولتير المساة دلفديد ، لشدت فيها بوضوح تعبيراً
صريحاً عن حالة لاحد لها من التهم بوقوع أوروبا في لجة الارتباك دون توفر
أحد على رسم خطة لإنقاذها .

الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوربيين الجديدة في آسيا وما وراء البحار

وفي نفس الوقت الذي ظلت فيه أوروبا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذي رأيت ، راج سكان غرب أوروبا ، خاصة الهولنديين والإسكندنافيين والإسبان والبرتغاليين والبريطانيين بمدون منطقة كفافهم وراء بحار العالم أجمع . ومن قبل ذلك كانت المعبطة قد دفعت بالافكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين في بدايته ، عل أن الاختراع العظيم الثاني : السفينة الشراعية التي تفتقر المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه الملحة .

ولاشك أن أول ما أقيم وراء البحار من مستقرات الهولنديين ، النازلين حول الاطلنطي الشمال من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستثمار ، بل التجارة والتعدين . وكان الإسبان أول من اقتحم الميدان ، فادهوا السيادة على كل هذا العام الجديد المسمى أمريكا . ومع ذلك فمرحان ما طلب البرتغاليون بنصيبهم في الغنيمة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السابقين إلى الارتياح والفتح ، فأعطى البرازيل لبرتغال ، كأعطاهما كل شيء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسجا غرب جزائر رأس فردى ، كما منح ما بقى بمذلك لاسبانيا (١٤٩٤) . وكان ذلك من أواخر الأعمال التي قامت بها روما كسيدة للعالم (وفي ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمترك المغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحل ١٤٩٧ حتى كان فاسكو دي جاما قد أبحر من لشبونة حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوت ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تبحر في ١٥١٥ عباب بحار جاوة وملقا ، وإذا بالبرتغاليون ينشئون المحطات التجارية ويحصنونها على سواحل المحيط الهندي . ولا تزال البرتغال تملك إلى اليوم ، ودمبيق وجوا ومملكتين صغيرتين أخريين بالهند وماكار بالصين وجزءاً من جزيرة تيمور .

على أن الشعوب التي استعبدت من أمريكا بحكم التسوية البابوية لم تمر حقول إسبانيا والبرتغال أدنى اهتمام، وسرعان ما شرع الإنجليز والفرنسيون والسويديون من وراءهم والهلنديون يدهون الدعاوى في امتلاك أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكي الورع لم يمر تلك التسوية البابوية من الاهتمام إلا بقدر ما أعارها أي أمير بروتستانتي خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوروبا إلى مناطق هذه اللدعات والممتلكات .

كان الإنجليز في النهاية أنجح من دخل طبعنا السابق على الممتلكات وراء البحار . منذ كان أهل الدانمرك والسويديون متورطين إلى أقصى حد في شئون ألمانيا المضطربة المعقدة ، بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال القوات القتالية إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن بددت قوة السويد في ميدان القتال على يد ملك فائن جذاب هو جوستاف أدولف ، أسد الشمال ، البروتستانتي . وماليت الهولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا ، كأن الهولانديين بدورهم كانوا شديدي القرب من فرنسا وعدوانها بحيث لم يتمكنوا من الصمود في وجه البريطانيين . وكان أمم التنافسين في بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات هم البريطانيون والهلنديون والفرنسيون كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والإسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوروبا ميزة عظيمة تعميم منها وهي بحر المانش ، تلك النخوم المائية المسماة « الشماغ القضي silver stream » . لذا كانوا أقل الناس اشتباكا في شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدما .

وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة في الاهتمام بالشئون الأوروبية فطلعت طوال القرن الثامن عشر بأجمعه تضع ما يسنح أمامها من فرص التوسع في الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها في التسلط على إسبانيا وإيطاليا وعلى تلك القوضى المجسمة المسماة ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية بين بريطانيا وإيران القرن السابع عشر كانت قد دفعت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توطلت بها أقدامهم وتزايد عددهم وتكاثر نسلهم ، الأمر الذي عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددي في أثناء الكفاح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا في ١٧٦٠ ، ١٧٥٦ كندا التي سقطت بيد البريطانيين ورجالهم مستعمري أمريكا . وألغضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجد نفسها مهيمنة تماما على جميع من ينزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسا في عهد لويس الثامن عشر ، وذلك أن الإمبراطورية
المنولية العظيمة التي شادها باور وأكبر أولئك الملوك ، قد تحز فيها الآن سوس
الانحلال الشديد ، كما أن قصة استيلاء شركة هندية على مملكة جايبا (سعى شركة الهند
البريطانية الشرقية) من أعجب ما سوى تاريخ الفتح كله من حوادث .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملك إليزابيث إلا شركة
من مقامى البحار ، واضطرتهم الأحوال فخطوة فخطوة إلى إنشاء الجيوش وتسليح
السفن ، وعلى حين لجأة وجدت هذه الشركة التجارية بمآلها من تقاليد أساسها الربح
والمكاسب أنها لا تتعامل فقط في التوابل والأصباغ والشاي والجواهر ، بل وفي
إيرادات الأمراء وملكاتهم بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت لتشتري
وتبيع وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة ، ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدى
إجراءاتها . أفجيب إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبها ومامة
جنودها ، كانوا يوردون إلى انجلترا بحملين بالأسلاب ١٤

ومن البديهي أن الرجال الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ويجدون تحت
رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا
لا يستطيعون وما يجوز وما لا يجوز ، فالحديث نظرهم أرض عجيبة ذات شمس عجيبة :
كما أن سكانها النحاسيين كانوا يدون شعبا هتافا عنهم يخرج تماما عن مجال عطفهم ،
هذا إلى أن ما بدا لها مافضة تدعو إلى مبادئ سلوك غريبة وخيالية . وتهمرت عقول
الإنجليز في بلادهم كلما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليتراشقوا بالثمن القذرة
الشنيعة بين ابتزاز للأموال وقساوات تشعربها الأبدان . وأصدر البرلمان على كلايف
قرارا بالوم ، ومالبث أن اتحرق في ١٧٧٤ . ثم حوكم وارن هاستينجس في ١٧٨٨
وهو مدير عظيم ثمان بلاد الهند ، ثم أخل سبيله في ١٧٩٢ . سقا إليه لموقف غريب
ليس له من سابقة في تاريخ العالم : ذلك أن البرلمان الإنجليزي التي نفسه يحكم من
وراء شركة تجارية ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيرا وأكثر
سكانا من ممتلكات التاج البريطاني جميعا . وكانت الكثرة العظمى من الشعب
الإنجليزي تد الهند بدأ قصيا لا يمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسان يستطيع
بلوغه ، يتعلق إليه الشعبان المفاغرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات حمة كهولا
واسمى الثراء ذوي أخلاق شكسة ضيقة - وهنر على الإنجليز أن يصوروا طريقة



خريطة رقم (١٥)

عيش هؤلاء الملايين التي لا حصر لها من البشر الساجدين في ضياء الشمس بلاد الشرق .
ذلك أن أجيالهم أت عليهم إقامة تلك العورة . وظلت البند بناء على ذلك قطرا .
و رومانيا ، لا تمت إلى الواقع بأدى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن
يقومون بأي إشراف فعال أو هيئة مشرفة على تصرفات الشركة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات
الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صنعة كل محيط في هذا العالم ،
حدثت بآسيا غزواتان برتان عظيمتان فإن الصين أقيمت من كواهلها نير المنول في
١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم عاد
شعب المانشو ، وهو شعب منغولي آخر ، وظل سيدا على بلا الصين حتى ١٩١٢ . وفي
نفس الحين كانت روسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمتها بين دول العالم .

ولاشك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية في العالم القديم ، التي لا هي إلى
الشرق تماما ولا هي إلى الغرب تماما له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية ، ويسود
التفكير في توسعها ذلك إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحي بمنطقة السهوب بها ، هو
شعب القوزاق ، الذي أقام من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين بولنديين والمجر في الغرب
وبين التتار شرقا ، فالقوزاق هم الشعب الضارعي القاطن شرق أوروبا ، وهم يشمون
من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضارعي في منتصف القرن التاسع عشر ، فكل
من أحقق عليه الروسيا حتى ضاقت به ذرعا ، سواء أكان من المجرنين أم من الأبرياء
المضطهدين . وفيهم الموال التاترون والطواقب الدينية والصووس المشردون والقتلة ،
كانوا يلتجئون سهوب الجنوب ملجأ ، وهناك يبدأون حياتهم بدءا جديدا . ويقاؤون
من أجل الحياة والحريّة كلاما من البولنديين والروسين والتتار على السواء . ولا يخلو لنا
أدنى شك في أن خليط القوزاق كان يساهم فيه لا جبر من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التفرع يدخل رويدا رويدا في خدمة القيصر
الروسي العسكرية . على نفس الشاكلة التي تم بها الحكومة البريطانية تحويل عشائر
مرتعات اسكتلندة إلى جنود و فرق ، وعند ذلك منحتم الحكومة أرضا جديدة بآسيا
حيث أصبحوا سلاحا خادا لها ضد قوة المنول الرحل الذابضة المتناصرة ، لحوا أولا
ببلاد التركستان ثم توغلوا عبر سيبيريا حتى نهر هامور .

ومن العسير تفسير الاختلال الذي طرأ على قوة المغول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقش على أيام جيانكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انعدمت آسيا الوسطى من عصرها الذهبي الذي سادت فيه العالم إلى الاختلال والوهن السياسي البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الاوبئة التي لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، فقد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى . والذي يحتمل أن يكون مؤقتاً ليس إلا ، إذا قيس بمقياس التاريخ العالمي العام . ويستند بعض الثقات أن انتقال العالم البوذية إليهم في بلاد الهند كان بدوره عاملاً مهدداً لنفوسهم ، ومما تبكى الحال ، فإن التبار المغوليين والشعوب التركية لم يعد لهم في القرن السادس عشر أي اهتمام إلى الضبط نحو الخارج ، بل كانوا على الضمد من ذلك يخرون في بلادهم ويلتزمون بالخضوع أو يدفنون إلى الزوايا من جانب كل من الروشيا المسيحية في الغرب والصين في الشرق .

وانقضى القرن السادس عشر بأكله والقوزاق ينتشرون شرقاً من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما وجدوا ما يناسبهم من ظروف ذواحية . وكانت حطبات من القلاع والمواقع الحصينة تفصل هؤلاء المستقرين عن جيرانهم كأنها التخوم وتتحرك دائماً إلى الأمام وتجتاح هذه المستقرات في الجنوب ، حيث لم يرح التركان أقوياء ناشطين ؛ على أن روسيا لم يكن لها أي حدود إلى الشمال الشرقي أبداً حتى بلغت المحيط الهادئ نفسه .

الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوروبا بالمنقسمة على نفسها في حالة عجيبة من الاضطراب وهدم الاستقرار ، كاشدها محرومة من كل فكرة سياسية أو دينية جامعة تدهو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصور مخلة يسودها النزاع والحلاف ، على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم بفضل الاستتارة الباطنة التي أحدثتها في أخيلة الناس ظهور الكتاب المطبوع والخريطة المطبوعة ، والفرص التي خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوروبا ضرب من حمى المخامرة المفسكة التي ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزاياء مؤقتة وعارضة ، أو تكاد ، هيطت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه المزايا التي اكتسبوها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والحالية إلى حد كبير من السكان امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوروبا . كما هجرت جنوب إفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا لتسكون وطناً معداً لسكان من الأوروبيين .

ولم يكن ممكناً كولمبس إلى أمريكا أو فاسكودي جاما إلى الهند الدافع الأول الدائم للتجارة فيما منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث في الشرق لأهل آفيا بالسكان والمحافل بالمنتجات ، أن الباحث التجاري ظل غالباً مقتصراً وظلت مستقرات الأوروبيين به تجارية محنة ، وكان سكانها (الأوروبيون) يرجون دائماً أن يوردوا إلى أوطانهم لإغناق أموالهم ، فإن الأوروبيين في أمريكا ، ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد يحملهم على التثبث بتلك البلاد بحثاً عن الذهب والنقعة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجي أخفض كثيراً . ولقد ذهب الأوروبيون إلى أمريكا لا بوضعهم تجاراً مسلحين ، بل كباحثين عن المعادن النفيسة ومعدنين ومنقبين عن المنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فحولوا بذلك إلى الزراعة ، وكانوا في المناطق الشمالية يجهزون القراء ، ثم استلزموا المناجم والمزارع قيام المستقرات (المستوطنات) . فكانها اضطروا هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم

وراء البحار. ثم تراءى الأمر أن أصبح الأوروبيون يبدون البحار هدف قاطع صريح هو أن يمدوا لانفسهم أوطانا جديدة يسكنونها إلى الأبد. كما حدث في بعض الحالات عندما هاجرت طائفة من اليوربتان الإنجليز إلى نيوز إنجلند بأمرىكا في أوائل القرن السابع عشر فراوا من الاضطهاد الدينى ، وكما حدث في القرن الثامن عشر عندما أرسل أولجيشورب أقواما استخلصهم من سجون المدينين بانجلترا إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث في نهاية القرن الثامن عشر عندما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل النازحين الأوروبيين إلى أراضى أمريكا وأستراليا الجديدة الحاروة . ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كائنا ما هو هجرة عظيمة .

ومكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوروبيين ، وانتقلت الثقافة الأوروبية إلى مناطق أوسع كثيرا من تلك التي نشأت وظهرت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التي أحضرت معها مدنية مبنية من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت في الواقع دون أن يدبر خطة تضخمها لسان أو حتى يدرك وجودها ، ولم تنبأ السياسة الأوروبية بظهورها ، لذا لم تعد أية خطة لمواجهة أو فكرة لمعالمتها ، فظل ساسة أوروبا ووزرائها يمدونها بمؤسسات عسكرية في جوهر أمرها ، وموارد لإيراد للدولة أو ، ممتلكات ، — أو ، بلادا تدين بالتبعية ، ، وذلك بعد أن تأصل في سكانها بزمان طويل إحساسهم الحاد بانفصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا يعاملونهم ككذب دليل عاجز عاجز للدولة الأم بعد أن انتشر السكان بزمان مديد في داخل البلاد وأصبحوا ببيدين عن طائفة أى عمليات تأديبية فمالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب ألا يغرب عن بالنا ، أن السفينة الشراعية الماخرة للحيط كانت حمزة الوصل بين أجزاء هذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماما بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للواصلات لم تبرز حتى الحصان ، كما لم يزل تماسكه النظم السياسية ووحدها في البر محدودا بما تقرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وبما إن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطاني ، وكانت فرنسا قد تحتطت عن أمريكا ، وفيما عدا

البرازيل التي كانت تابعة لبرتغال، وجوزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين - فإن منطقة فلوريدا ولوريزيالا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان تابعا لإسبانيا. وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر المين وبحيرة أونتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وزراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد.

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة في منشأها وصفاتها. فقد قامت بها المستعمرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلا عن البريطانية، وكان سكان منطقة ماري لاند من الكاثوليك وسكان نيو إنجلند من متطرفة البروتستانت، وبينما راح أهل نيو إنجلند يزرعون أراضيهم ويعيرون امتلاك الرقيق، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وما وراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الذنوج المجلوبين من الخارج. فثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة. وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالية لا تكاد متاعها تقل عن مشاق عبور الأطلسي.

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصولها المتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضته عليهم فرضا أنانية للحكومة البريطانية بلندن وغاؤها. ذلك أنهم كانت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أى صوت ولا رأى في إنفاق تلك الضرائب، وكان تجاراتهم يضحى بها من أجل المصالح البريطانية، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يفرقهم تيار الشعب البربرى الأسود الذى لا يفتأ يزايد عدده، وإن رعب هؤلاء الفرجينيين في الوقت ذاته رغبة أكيدة في امتلاك الرقيق واستخدامهم.

وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم الملكي يتصف بالقوة والشدّة، وأفضى حناك الملك جورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠) إلى دفع المستعمرات دفعا إلى القتال مع الحكومة البريطانية.

وبما جعل بالبلاد لبس الصراع ذلك التشريع الذى أمر بالتفضيل لصالح الشركات الهندية الشرقية بلندن على حساب أرباب السفن الأمريكيين. لذا هاجمت تلك الشركات

تكررت في ذى الحنود الحمر في ١٧٧٢ ثلاث سفن بحينة بوسطن وألقت في الماء بما كانت تحمل من القناى الذى استورد في ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا عام ١٧٧٥ عندما حاولت الحكومة البريطانية أن تسيطر اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكنجستون الحرب بوسطن ، وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكنجستون وتلاحم الجنان في أول قتال بينهما قرب كرنكورد .

وهكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل المستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة في قطع علاقتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة إعلان الاستقلال ، إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ . وهين جورج واشنطن قائدا عاما للجيش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب في أثناء الكفاح الذى نشب مع الفرنسيين شأنه في ذلك شأن كثير من المستوطنين الأمريكيين في ذلك الزمان . وفي عام ١ٷ٧٧ محرم منه مزرعة فريمان قائدا بريطانيا ، هو الجنرال بورجون واضطره إلى التسليم هندسار اتوجاف في أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك . وفي نفس تلك السنة أعطى الفرنسيون والإسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلةهم البحرية تعطيل بالغا . ثم طرق جيش بريطاني آخر تحت إمرة الجنرال كورنواليس بشبه جزيرة يوركناون بفرجينيا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح بياريس في ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجينيا اتحادا مكونا من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية في عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضعيفة السلطان تتولى الشئون بمقتضى بعض مواد لستورينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولا يحق في أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلى مجتمعات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أدبا إلى إرجاء ذلك الانفصال وهما هذا البريطانيون لهم وإظهار الفرنسيين شيئا من الرغبة في الاعتدال عليهم بما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب المترتب على الانقسام والفرقة ، وتنبه القوم فوضعو في ١٧٨٨ دستوراً اعتمدوه القور ، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يشتمع السلطات خمسة جدا . وما لبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين في ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضغف في الشعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث إننا لو استمرت تمتد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك (وهي الحصان) ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوروبية مثل أسبانيا كان أمراً لا مفر منه . بعض الأيام ، إذ لم يكن لحضرة المجلسات بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطيرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقسم بالمناطق القاصية ، فضلاً عن أن المواعيد التي كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لا يكاد يستطاع تذليله ، ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك في العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقماً تاماً ، إذ سرعان ما ظهر الزورق البخاري النهرى ثم السكة الحديدية والتلغراف ، فأخذت الولايات المتحدة من التزق ، وضمت أهلها المشتتين في نسج واحد هو أول الأمم المصرية العظيمة .

وماهى إلا اثنتان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الإسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوروبا . على أنها لم تستطع أن تنضم شملها في اتحاد يجمعها نظراً لشدة توزعها في أرجاء القارة ، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصحارى وغابات وإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الدوليات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل في البداية لإشعال نار الحروب فيما بينها والثورات في داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقاً آخر إلى ذلك الانفصال الذي لم يكن منه مفر . إذ حدث في ١٨٠٧ أن الجمهورى الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية . ففرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن انفرق البلدان ، أمسيت البرتغال هي التابعة تقريباً للبرازيل وليس العكس . ثم أعلنت البرازيل استقلالها في ١٧٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بيدرو الأول أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقاً بين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل بيدرو إلى أوروبا على ظهر إحدى السفن في ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية .

الفصل الخامس والخمسون

الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا

لم تكذب بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاث عشرة بأمريكا حق قويض الله
سلكه ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت في قلب الملكية العظمى نفسها ، أن
تذكر أوروبا بصورة أجلى وأوضح كثيراً ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية
شيء وقتي تماماً لا دوام له .

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيات المستبدة بأوروبا ،
وذكرنا أنها كانت مشار حسد عدد جم من البلاطات المتنافسة أو الصغرى ، كما
كانت مثالها الختلى . ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والظلميان أفضى
إلى ما أصابها من انهيار مفرح هائل . أجل إنها اتصفت بالذكاء والشجاعة
والمردوان . ولكنها فرطت في حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين
والنبلاء بمأمن من الضرائب بسبب القوانين التي تعفيهم والتي تلقى على عواتق
الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقاً ، وكان النبلاء
يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستولونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألقت نفسها مقلسة غارية الرفاض في ١٧٨٧ ،
وإن اضطرت إلى استدعاء ممثلي الطبقات المختلفة بالملوك لتشاورهم في أمر مشكلات
تقص الإيرادات وشدة زيادة المعروفات ، واجتمع مجلس طبقات الأمة بغير ساعي في
١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يماثل إلى حد ما الضرورة الأولى
البرلمان الإنجليزي ولم يقد ذلك المجلس منذ ١٦١٠ ، وهي فترة من الزمن كانت تحكم
فرنسا في أثنائها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تدميرهم
القوى المديدة لأجل وسرطان مائتتبت الخلافات بين الطبقات الثلاث ، بسبب إصرار
الطبقة الثالثة وهي العامة على الهيمنة على المجلس . وكانت العامة الغلبة في هذه المنازعات ،
فتمول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واجهة العزم على إلزام التاج بالنظام ، مثلاً ألزم

البرلمان البريطاني التاج البريطاني حدود النظام ، وتياً الملك لويس السادس عشر
الكفاح واستحضر المجد من الأقاليم ، فتأثرت عند ذلك باريس وفرنسا .

كان ابيار الملكية المستبدة سرياً جداً : فهم سكان باريس بمن الباستيل
الجمه القبيح الصورة ، وصرعان ما انتشرت الفتن بكل أرجاء فرنسا . وامتدت
أيدي الفلاحين في الشرق والشمال الغربي إلى كثير من قصور النبلاء فأحرقوها ،
وعزقت براءات ألقابهم بكل عنابة ، كما قتل أصحابها وطردوا شر طردة ، فلم
يتنفس شهر واحد حتى انهار نظام الأرستقراطية القديم النادر ، واضطر إلى الفرار
إلى خارج البلاد كثير من كبار الأمراء ومن رجال البلاط من حزب الملكية .
وأقيمت بباريس ومعظم المدن الكبيرة الأخرى حكومة مؤقتة للدينة وأنشأت
حكومات البلديات هذه قوة مسلحة جديدة هي الحرس الوطني ، وهي قوة مسلحة
أنشئت أولاً وقبل كل شيء لمقاومة قوات التاج ، ونظرت الجمعية الوطنية حولها ،
وإذا هي تستدعي لإيجاد نظام سياسي واجتماعي جديد لمهد جديد .

كان القيام بهذا الأمر مهمة شاقة أرهقت قوة تلك الجمعية ، وهكذا تخلت فرنسا
من أهم ما كان يبسطها من مظالم الحكم المطلق المستبد ، فألغت الاعفاء من الضرائب
والوق (موالى الأرض) وألقاب الأرستقراطية وامتيازاتها ، وحاولت أن تقيم
في باريس صرح ملكية دستورية ، فنادر الملك فرساي وأبعتها ، وعاش عيشة
متواضعة بقصر التويلري بباريس .

ومرت ستان زعم الناس خلالها أن الجمعية الوطنية ستستمر في كفاحها حتى
تنتفى حكومة قوية ذات طابع عصري ، فأنشأت أشياء كثيرة صائبة دامت إلى
يومنا هذا وإن كان كثير من إنتاجها تجارياً لم يكن بد من نقضه .

حل أن كثيراً مما أنتجت لم يكن لها أثر فراجحت الجمعية تصني قانون العقوبات
وتنقيح من الشرائع ، وألغت التمييز والحبس التنسي والاضطهاد بسبب الزندقة .
وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسا القديمة كنورماندى وبرغندي وأمثالها .
وضع باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل طبقات الأمة ، وأنشئ نظام للمعالم
بمناز وبسيط ، وإن أسد قيمته كثيراً تميين القاضى فيها بالانتخاب العام إلى مدة
قصيرة من الزمن . فكان الجمهور قد أصبح بذلك حرياً من حكمة استثنائى نهائية عليها

كما صار القضاء كأعضاء الجمعية الوطنية مضطرين إلى أن يمشقوا الجمهور ويسعوا إلى مرضاته واستولت الدولة على ممتلكات الكنيسة الضخمة وتولت إدارتها بنفسها، وحلت جميع المؤسسات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر والإحسان، وأصبح الشعب هو الذي يتحمل مرتبات رجال الدين ولم يكن في ذلك مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين ، الذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة فاضحة بالنسبة لرجال رجال الدين الأثرياء . وزيادة على ذلك أصبح تعيين القضاة والأساقفة بالاقتراع ، وكان ذلك ضربة عنيفة أصابت في الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية التي تتجه فيها السلطات المركزة في يد البابا والكرادلة من أهل إلى أسفل . والواقع الذي لا شك فيه أن الجمعية الوطنية شاءت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق البروتستانتية من حيث التنظيم إن لم يكن من حيث المذهب . ونسبت المنازعات في كل مكان بين قضاة الدولة الذين أنشأتهم الجمعية الوطنية وبين رجال الدين الخارجين عليها (الذين أبوا أن يقسموا بيمين الولاء) والذين ظلوا على ولائهم لروما .

وفي ١٧٩١ انتهت على حين بئنة تجربة الملكية الدستورية بفرنسا بإفلاله الملك والمملكة حين تأمر أمراء صدامتهما الأرستقراطيين والملكيين في الخارج . وتجمعت الجيوش الأجنبية على الحدود الشرقية ، والنسل الملك والمملكة وأطفالها إلى إحدى لجان شهر يومية من قصر التويلري قانون للانضمام إلى الأجانب المنفيين الأرستقراطيين . فقبض عليهم في فاون وأعيدوا إلى باريس ، وعندئذ اشتملت فرنسا كلها بلهيب النزعة القومية الجمهورية ، وأعلنت الجمهورية على الفور ، واندلع ليوب الحرب بين الفرنسيين والنمسا وبروسيا ، وحوكم الملك وقطعت رأسه (يناير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه ، على نفس النسق الذي استنته لإعقلته من قبل .

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي . إذ تأجج ليوب عظيم من الحماسة لفرنسا والجمهورية وأحس الناس أن لابد لهم من القضاء على كل تسامح في الداخل وكل صلح مع الأعداء في الخارج ، فكان لابد في الداخل من استئصال شأفة الملكييين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ، وكان لابد لفرنسا من أن تهمس في الخارج كل حركة ثورية وتقدم لها المعونات فرنسا أن لا بد لأوروبا كلها (بل للعالم كله) أن يمتنع النظام الجمهوري ، وتدفق شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية ، وانتشر في طول البلاد وعرضها لشيديديديجججججججججججججججج الذي لا يزال يلهب الدماء في المروق كإثباتها عيا الكأس . انهارت الجيوش الأجنبية

ورجعه الفهري أمام ذلك التشديد الحماسي والمواخير الفرنسية الوثابة من حملة السونكي ومداقمهم التي تدبرها حملتهم المتوقدة ؛ فلم تسكد ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتى صارت الجنود الفرنسية بمواضع أبعد كثير آمن كل ما بلغت فتوح لويس الرابع عشر ؛ إذ كانوا يقفون في كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية . فهم يحتلون مدينة بروكسل ، وهم يجتاحون ملكة سافوى ، وهم يتقدمون فيشنون الفارة على ما يالس Mayence ، وهم قد استولوا على إقليم نهر الراين من هولندا . وعند ذلك ارتكبت الحكومة الفرنسية حماقة لا تقتفر ، إذ أحرقوا طرد مثلها من إنجلترا عند قتل لويس ، فأعلنت الحرب على إنجلترا . وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة ، وذلك لأن الثورة التي منحت فرنسا جيشاً من المشاة شديد الحماس ومدفعية نابذة مبرأة من ضباطها لأرستقراطيين ومن كثير من الفاروق المعوقة التقدم ، قد دمرت نظام البحرية الفرنسية ، وكان للاستيلاء النفوق المطلق في البحر . وإزاء ذلك التحدي والاستفزاز اتحدت كذا إنجلترا بأكلها ضد فرنسا بعد أن ظهرت بريطانيا حركة ضخمة جداً تدعو إلى التسامح مع الثورة والدعاف عليها .

ولا يتسع المقام لذكر تفاصيل القتال الذي نشب بين فرنسا في السنوات القليلة التالية وبين تحالف تكون ضدها من الدول الأوروبية . وبحسبنا أنها طردت النموسيين إلى الأبد من بلجيكا ، وأنها حولت هولندا إلى جمهورية . وسلم الاستول البولندي وقد تجمد من حوله الماء في نهر تكسل Taxel ، لحفنة من الحياة الفرنسية دون أن يطلق قذيفة واحدة من مدافعه . وصدت هجمات الفرنسيين على إيطاليا ردحاً من الزمان ، فلم يتنبأ لها تقدم إلا في ١٧٩٦ عندما حين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونابرت لقيادة الجيوش الجمهورية الجائمة الملهبة الثياب إلى مبادن النصر بإيطاليا فاشترق بيده ومنت إلى ماتروا وفيرونا . يقول س . ف . أنكسون (١) :

« إن أشد ما أدمش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم . وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش المرتجلة ارتجالاً لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة مالدي الجمهورية من نفود ولو وجدت لما كان من الممكن .

(١) في معاقه التي نمرها بدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان :

« French Revolutionary Wars »

(٢٠ — تاريخ العالم)

تقبلها لاحتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات، التي ربما لزمّت كما كانت في الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن المناهب التي كانت تدعو إلى فرار الجند بالجملة من الجندية في الجيوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور اتنام رجال فرنسا في عام ١٧٩٢ - ١٧٩٤ . ولم يكن معقولا أن يستطاع نقل مؤن لمجيش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التي يحلون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب المصرية : بسرعة الحركة وتطور كامل القوة القوية وعسكرة الجنود بلا خيام في العراء ، وعيشهم على حساب الالهالي واعتمادهم على القوة بدلا من المداورات الحذرة والجيوش الصغيرة المحترفة والخيام والأطعمة والجزايات السكاملة والتلاعب والحداح . فالجيوش الأولى تمثل الروح التي تستلزم حسم الأمر فوراً ، والجيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل في سبيل القليل

وبينا كانت هذه الجيوش الرثة الثياب من المتحمسين تفشد المارسيليز وتقاتل في سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأذهانها تماما ما إذا كانت تنهب البلاد التي تدفقت فيها أو تحررها ، كانت الخامسة الجمهورية بباريس تتلاشى بصورة مزرية بمجدها وكرامتها . ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم شديد التعصب ، هو روبسبير . ومن المسير علينا أن نقضى في هذا الرجل رأي ؛ فإنه كان رجلا ضيف البنية جباناً بفطرته مفرطاً مزهوا بنفسه . ولكنه أوتي الزم الصفات بلوغ القوة ، وهي الإيمان . فراح يعمل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التي خيلها إليه تصوره ، كما أنه كان يترحم أنه لا يعتقد لها إلا شخصه هو . ومن ثم أصبحت عقيدته الراضخة أن بقائه في الحكم هو سبيل لإنقاذ الجمهورية . وخيل إليه أن الروح الحية الجمهورية قد نشأت من تذيبع الملكيين وإعدام الملك ، وتصادف أن قامت بالبلاد بعض الفتن ، شبت إحداها في الغرب بمنطقة لافنديه La Vendée . حيث ثار الأما إلى برعاعة بعض النبلاء ورجال الدين احتجاجا على أخذ جنوداً في الجيش . وعلى حرمات رجال الدين التمسكين بعقيدة السلام الصالح من أملاكهم ، وهبت ثورة أخرى في الجنوب حيث تمردت ليون ومرسيليا ، وسمح أنصار الملكية في طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول برأ . فلم يكن لدى روبسبير فيما يبدو من رد فعل على ذلك إلا مراعاة لإعدام أنصار الملكية .

وابتدأت عكة الثورة عملا ، وابتدأ بذلك سيل منهم من الذبح والتقتيل ، وجاء اختراع المقصلة (الجيلوتين) في أنسب الاوقات لهذه النزعة الدموية فأعدمت الماسكة

بالمقصلة. وكذلك أهدم معظم خصوم روبسبير بالمقصلة ، وأعدم بالمقصلة أيضا كل كافر
أنكر وجود الكائن الأعلى ، الذي أخذه روبسبير وباء ، واقطعت الأيام يوما
بعد يوم وأسبوحا بعد أسبوح ، وهذه الآلة الجهنمية الجديدة لم تكن تفرق بين
الزئورين وتقول هل من مزيد ؟ ولا إخال إلا أن حكم روبسبير كان يشترط على النعم ،
ولا يزال يطلب المزيد منه فالزيد ، كدمن الأفيون حين يطلب منه المزيد فالزيد.

وأخيرا جاء دور روبسبير نفسه فعزل وأعدم بالمقصلة نفسه في صيف ١٧٩٤ ،
وخلفتها حكومة لإدارة مكونة من خمسة رجال وأصلت الحرب الأهلية في الخارج وجمعت
كلية فرنسا في الداخل مدة خمس سنوات . وكان حكمهم أشبه الأشياء بفاجل عجب
وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالتغيرات السريعة . فتناولوا الأمور كما وجدوها .
وفي صدمهم دفعت حية الدعاية لشوكة الجيوش الفرنسية إلى موندونيه في كلدوسيرا
وجنوب ألمانيا وشمال إيطاليا . فكان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في مكانهم
الجمهوريات . ولكن حمية الدعاية التي كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز
الشعوب المحررة ، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التي نزلت بالحكومة الفرنسية . ومالبت
حروبهم أن انحطت ويبدأ رويدا عن مرتبة الحرب المقدسة من أجل الحرية ، وشابهت
أكثر فأكثر الحروب العدوانية المعروفة عن العهود القديمة . وكانت تعاليد السياسية
الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظمى . فأتت
تري تلك التقاليد في أيام حكومة الإدارة قوية عاتية كأنما لم تكن هناك أية ثورة !

ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركزت فيه إلى أقصى حد أناية
الفرنسيين القومية هذه . فلم يكن منه إلا أن وهب تلك الدولة عشر سنوات من
المجد ثم ختمها بملحة الهزيمة النهائية . ولم يكن ذلك لرجل سوى نابليون بونابرت
حينه الذي قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا .

ظل هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص ويدبر
الخطط لرفع شأن نفسه . وأخذ يرقى بالتدريج إلى منزلة الضدادة والقوة العليا . كان
قيمته محدودا إلى درجة كبيرة ، ولكنه كان صاحب قوة عظيمة ، قصدا إلى هذه بصريرة
ضياشرة لا تساهل فيها ولا هراة . بدأ حياته نصيرا أمطر فالمرسان روبسبير ، فهو مدين
بترقياته الأولى إلى إحيائه إياها . ولكن أتى له أن يصرح حتما تلك القوى الجديدة التي
كانت تعمل عجميا في أوروبا . فإن قصارى قصوره في السياسة لم ترفع به إلا إلى

القيام بمحاولة بالية زاعمة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية ، حاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الزومانية المقدسة ، قاصدا أن يستبدل بها أخرى مركزها ياريس ، وأخطر الإمبراطور في فيينا أن يتخلل من لقب إمبراطور الدول الرومانية المقدسة مكتفيا بلقبه الأصل كإمبراطور النمسا فقط . وطلق نابليون زوجته الفرنسية ليتزوج من أميرة نمسوية .

أصبح بالفعل حاكما لفرنسا حين عين قنصلا في ١٧٩٩ ، كما جعل نفسه إمبراطورا لفرنسا في ١٨٠٤ حاكما منه لشرلمان مباشرة . وتوجه البابا ياريس ، حيث تناول منه التاج ووضعه بنفسه على رأسه كما أوصى شرلمان . وتزوج ابنة ملكا على رومانيا .

وانقضت بضعة سنين كان نابليون يتنقل في أثنائها من نصر إلى نصر . ففتح معظم إيطاليا ، إسبانيا ، ودمر روسيا والنمسا ، وتغلط على كل أوروبا غربي روسيا . ولكنه لم يفر قط بالتزاح منصب السيادة على البحر من يد البريطانيين ، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأمير نلسن البريطاني في موقعة الطرف الاخر (١٨٠٥) . وباتت إسبانيا عليه في ١٨٠٨ ، وراح جيش بريطاني بقيادة ولنجت يدفع الجيوش الفرنسية يبط . نحو الشمال حتى طردعا من شبه جزيرة أيبيريا ، وفي ١٨١١ دب ديب الخلاف بين نابليون وبين القيصر إسكندر الاول ، ثم غزا روسيا في ١٨١٢ بجيش عظيم منقطع عدته (٦٠٠.٠٠٠) سائة رجل ، وهي حملة هزمتها الروس بمعاونة شتاء بلادهم القارس ودمرها إلى حد كبير . وحدثت شقت ألمانيا عصا الطاعة عليه ، وانقلب السويدي عليه . فارتدت الجيوش الفرنسية منهزمة كثيرة الجناح ، وأخطر نابليون إلى التنازل عن العرش في فورتينلو (١٨١٤) . ففنى إلى جزيرة إلبا ، ثم عاد إلى فرنسا لبذل آخر سهم في جبهته في ١٨١٥ ، ولكنه هزم في واترلو على يد جيوش الحلفاء من بريطانيين وبروسيين وبلجيكيين .

لقد تبذرت القوى التي أطلقتها الثورة الفرنسية من عقالها وذهبت أدراج الرياح . ولتأم بمدينة فيينا مؤتمر عظيم الحلفاء الظافرين يستهدف أن يبعد جهد المستطاع الظروف التي روتها الزومانية الضيعة كل عرق . وأسفر المؤتمر عن احتفاظ أوروبا مدة تقارب الأربعين عاما بنوح من السلام الناجم عن تبذرت القوى ونفست الجهد .

الفصل السادس والخمسون

السلم الأوربي المقلقل بعد سقوط نابليون

ملك سيان ديجيان دوناً سحابي السلام الاجتماعي والعدل خلال منطفرة ،
ومهدا السيل لفوزة الحروب التي تثبت بين عامي ١٨٥٤ ، ١٨٧١ ، وأول هذين
الأمريين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إحاطة الاختيارات الميمنة
بالتجريب وال تدخل في حرية الفكر والكتابة والطمح ، وتاليا هو تلك الحدود
التيمة المنجية التي وسما سلة قينا .

وقد تجلى إسبانيا أولا بأوضح صورة جليتميل الملكية التاميل إلى العودة إلى
الأحرار والأوضاع القديمة في إعادة ، وإذا هي تميدا جيداً حتى عاكف التغيير نفسه .
ومن قبل ذلك فبارود ، التي تسمى كانت المستمرات إلى جاية قد حلت حذور الولايات
التي ست . وثارت على نظام "ولالطيس" الأوربي . عند انصب نابليون أعاد جوزيف
على عرش إسبانيا في (٨ - ١٨٠٨) . وكانت الجزائر بوليناو متخذ أمريكا الجنوبية من بعد
الأوربي . كان جورج واشنطن في التملك . ولم تسلم إسبانيا أن تقضى على هذه
شورة ، كان أمدعا غير ثمرة ظلما كان أمد . حرب استقلال الولايات المتحدة من
غير . حتى تازحت القسا في النهاية تمسبا متامع روح والمالقة لنفسه ، وحرب
مساعدة شارك أوروبا لإسبانيا في ذلك الكفاح ، ففي ذلك الاقتراح صاروا من
بريطانيا ، ولكن اقضى قضائيا على اقتراح إرجاع سلطان الملكية فالك ، هو
الطرف لم يبع الذي اتخذه مونرو ويمن الولايات المتحدة في ١٨٢٣ . حين طرعا
منه ذلك . ترداد ، فانه أعلن أن الولايات المتحدة تد كل تدخل من جانب الدول
الأوربية في هذه الكرة الشرق حلالا ، وهكذا انصب مونرو ، القاضي
في توجده أمريكا دولة تابعة لأخرى ملوذج أمريكا ، وهو الذي أيد نظام الدول
الطيس عن أمريكا مدة تربو على مائة سنة ، وأتاح لدول أمريكا الإسبانية الجديدة
أن تصوخ مصارها على الطريقة التي ترعها لنفسها .

ولكن الملكية الإسبانية وإن قدت مستمراتها قد كانت تسطيع على الأقل أن

تفعل ما تشاء في أوروبا تحت حماية التضامن الأوروبي ، لذا تولي جيش فرنسي سحق حركة عصيان شعبية شبت بإسبانيا في ١٨٢٣ . إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوروبي ، وراحت فرنسا في نفس الوقت تقمع ثورة اندلعت في نابلي .

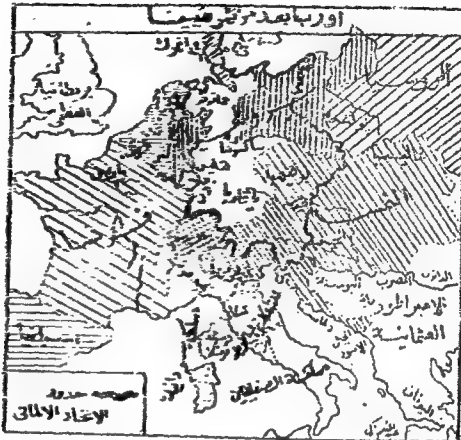
وقد توفي لويس الثامن عشر في ١٨٢٤ وخلفه شاول العاشر . وكرس شارل كل جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجماعات ، وإعادة الحكم المطلق إلى نصابه . فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ مليون من الفريكات تعويضاً للنبل عما حل بهم في ١٧٨٩ من حرقة قصورهم ومصادرة أموالهم . ومالئت باريس أن تارت في ١٨٣٠ على ذلك الملك الذي تمثلت فيه كل مظاهر العهد البائد ، وحلت محله على العرش لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان ، أحد النبلاء الذين أدموا في عهد الإرهاب ، ولم تستطع الملكيات الأخرى بالقارة الأوروبية التدخل في هذه الحالة لما شهدت من استحسان بريطانيا الصريح لتلك الثورة . ولما آمنت من وجود حركة تحرير وتسامح بألمانيا وفرنسا ، هذا إلى أن فرنسا كانت لا تزال - قبل كل شيء - محتفظة بنظامها الملكي . وقد بقي هذا الرجل لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) ثمانية عشر عاماً ملكاً دستوريا لفرنسا .

تلك هي التقلبات القلقة التي كانت تعبت بقرارات مؤتمر فيينا ، والتي أثارها من مكنها تصرفات الملكيين الرجعية . فظلت اتوترات التي تمنحنت عنها التخوم غير المدروسة هلبا التي وضعها الدبلوماسيون في فيينا يشند هودها من آن لأن . ولكن خطر ما حل سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيراً . ذلك أن من أشد الألام ورجبها للتأهب على روس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تتكلم لغات مختلفة وتقرأ بالتبعية أدياباً لغوية متباينة وتمتلك أفكاراً عامة متفاوتة ، خاصة إذا زادت المنازعات الدينية من شر هذه الفوارق . وليس هناك إلا شيء واحد يستطيع تقريره رطب شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها ورجلاً وثيقاً هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم كحاجات الدفاع المشترك عند السوييرين الجليبين ، بل إن سويسرا نفسها تقوم فيها الاستقلال الذاتي المحلي إلى أبعد حد . على أن نظام الكاتونات يكون ألزماً وأوجب إذا كانت البلاد قطراً ككندونيا يحيط بها السكان فيه في رقع صغيرة من القرى والأحياء المتباينة الاجناس . ولو أن القاري نظر إلى قارة أوروبا كإرسمها مؤتمر فيينا ، لشهد بعيني رأسه أن ذلك المؤتمر كان كن لا يهدف إلا إلى استئارة أشد أنواع الاستيلاء المحلي في كل ناحية مستباحه .

دمر ذلك المؤتمر جمهورية مولده بدون مبرو . وكيدس في كتيه واحدة كلا من

الهولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية. والسكان بالاراضى
الإسبانية القديمة (والنسوية أيضاً) ، وأقام منها ملكة الاراضى المنخفضة. ولم
يقصر على أن يسلم للمسيوين الناطقين بالألمانية ، جمهورية البندقية العريقة ، بل
وشمال إيطاليا ، كل حتى مدينة ميلانو. ثم جمع مقاطعة ساذوى الفرنسية الفتحة مع أجزاء من
إيطاليا ، وأحيا من جديد ملكة سردينيا البائدة . فأما دولة النمسا والمجر وهما من
قديم الزمان خليط متفجر من قوميات المتناحرة من الألمان والمجر والتشيك وسلوفاك
واليوغوسلاف والرومانيين فضلا عن الإيطاليين الذين ضوا إليهم آنذاك فقد أصبح
المؤتلف فيها أصعب وأصعب - من أقر المؤتلف من الممتلكات التي استقطعتها النمسا من
بولندا ١٧٧٢ ، ١٧٩٥ ، وأقر المؤتلف أيضاً تسليم الشطر الأعظم من الشعب
البولندى الحر الكاثوليكي المعقيدة الجمهورى النزعة إلى الحكم الأقل حضارة . حكم
قيصر روسيا صاحب المعقيدة الأرثوذكسية اليونانية ، غير أن روسيا البروتستانتية
استولت بدورها على نواح هامة من ذلك القطر النمسي . وأقر المؤتلف أيضاً استيلاء
القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب منه تماماً. وربط شبي السويد والترويج المختلفين
تمام الاختلاف ، بعضهم إلى بعض في ظل حرش واحد وسيلفظ القارى أن ألمانيا
تركزت في حالة من الفوضى والارتباك لها خطورتها التامة. فإن كلا من بروسيا والنمسا
كانت داخلة جزئياً في اتحاد ألماني وعارضة عنه ، وهو يضم العدد الجلم من الولايات
الصغرى ، وأصبح ملك الدانمرك دعوا في الاتحاد الألماني بسبب بعض ممتلكات
ناطقة بالألمانية في هولشتاين وقعت في حوزته . وألحق لوكسمبرج بالاتحاد
الألماني وإن كان حاكماً ملكاً الاراضى المنخفضة أيضاً ، مع أن كثيراً من شعوبها
كانوا يتكلمون الفرنسية .

وهنا أغفل المؤتمرون إغفالاً تاماً حقيقة واحدة هي أن الأقوام الذين
ينطقون بالألمانية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الألمانية ، وأن أقوام الذين يتحدثون
بالإيطالية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الإيطالية وأقوام الذين يتحدثون
بالبولندية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة البولندية ، سيكونون دون أدنى
ريب أسعد حالاً وأشد هواناً لباقي البشرية وأقل ضرراً بها إذا هم أداروا شئونهم
الخاصة على الطريقة التي يرضون وفي حدود لغتهم القومية ، فلا غرابة إذن أن
تعلن أغنية من أشد ماذاع في ألمانيا من الإغاني الشعبية في تلك الأيام أنه « حيثما
نفاق اللسان الألماني، فذلك أرض الأجداد الألمانية » .



خريطة رقم (١٧)

أعلنت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية بالثورة التي اندلعت بفرنسا ١٨٢٠ . حيث أعلنت الثورة على ربهما قسرا بالبولنديين في ملكها الأراضي المنخفضة ودعت الدول من احتمال قيام جمهورية بتلك البلاد والحقاق بفرنسا ، فسارعت بالتدخل لتهديد ذلك الموقف ، وأعلنت بلاد البلجيك ملكا ليو بولندا ولأميرسا كس كورج جونا ، وحدثت في نفس تلك السنة ١٨٢٠ أيضا ثورات في إيطاليا وألمانيا لم يكتب لها التوفيق ، كما حدثت ثورة أخرى أشد خطرا بكثير بمنطقة الروسية من بولندا . وقامت بمدينة وارسو حكومة جمهورية بولندية صمدت هناك مدة كاملة أمام قوات القيصر نيقولا الأول (الذي خلف اسكندر في ١٨٢٥) ثم أعلنت إخمادا تجلى فيه عظيم العنف والقسوة وحرم العلق بالغة البولندية وجعلت الديانة الأرثوذكسية اليونانية ديناً رسمياً للدولة بطل الكاثوليكية .

وقد حدث في ١٨٢١ أن شن اليونان صاعقة على الترك ، وظفوا بقاتلهم
حرب الحياة أو الموت ، والحكومات الأوروبية واقعة موقف المتفرج . واحتج
الأحرار على المجهود الذي يبذل في أوروبا ، واتهموا المتطوعين أقواجا من كل
بلد أوروبي للانضمام إلى الصلة ، وأخيراً انتحلت بريطانيا وفرنسا والروسيا خطوة
مشتركة فمالة قضاة الإمبراطور الفرنسيون ، الأسطول التركي المصري بحركة توارين
(١٨٢٧) ، واجتاح القبحر حدود تركيا . وأعطت سابعة أدوة (١٨٢٩)
حرية بلاد اليونان واستقلالها ، ولكن لم يسمح لها بأن تستعيد من جديد قائلها
الجمهورية العتيقة ، واتمس اليونان ملك لائق هو الأمير أوتو البافاري ، كما
حين لولايات النموب (وهو بلاد رومانيا الحالية) حاكم مسيحي ، ونصب آخر
على بلاد العرب (وهو جزء من المنطقة اليوغلافية) . ومع ذلك لم يكن بد
من إزاحة الشيء الكثير من العمل قبل طرد الأتراك نهائياً من تلك الأصقاع .

الفصل السابع والخمسون

نمو العرفان المادى

فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وبينما ازاعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتزلزل زلازها فى أوروبا ، وبينما الخريطة المرقمة التى أنشأتها معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ تحول بصورة مجببة كبتليات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فيينا (١٨١٥) المرقمة هى أيضاً ، وبينما السفينة الشراعية تبسط النفوذ الأوروبى على أرجاء العالم قاطبة ، كان يدارج ذلك فى العالم الأوروبى وما اصطليخ بصباغته من بلاد ، نمو مطرد فى المعرفة وتنقية عامة للأفكار الناس وآراءهم المتصلة ، بهذا العالم الذى فيه يعيشون .

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعدل تام عن الحياة السياسية وإن لم ينتجا فى تلك الحياة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر أية ثمرة أحاذة مباشرة . ثم لإنهما لم يؤثرا فى الفكر الشعبى تأثيراً حقيقياً فى أثناء تلك الفترة ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما بعد ، بل لم تظهر إلا وهى على أتم قوتها - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إن الذى حدث إنما هو عملية جرت بصغر رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال مؤسرين ذوى أرواح حرة مستقلة . ولولا وجود تلك الشخصية التى يسميها الإنجليز بالسيد المتنتهان ، لما بدأت العملية العالمية ببلاد الإغريق قط ، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوروبا أبداً . ولعبت الجامعات دوراً فى هذا الشأن ، ولكنها لم تقم بالدور الأول الرئيسى ، فى الفكر الفلسفى والعلمى لتلك المدة . والمتعلم الذى يتلقى الهبات المالية يجنح إلى الجبن والحفاظة على القديم وتعمزه روح الابتكار والمبادأة ويقاوم كل تجديد ، مالم يحفز به الاحتكاك بالعقول الحرة المستقلة .

وقد ذكرنا من قبل أن الجمعية الملكية تكونت فى ١٦٦٢ ، ولحظنا ، أنهجرت فى سبيل تحقيق أسلام باكون فى كتابه الأطلاتلس الجديد . وتواصل إبان القرن الثامن عشر أشور الكثير من تنقية الأفكار العامة عن : - المادة والحركة ، كما تم الشيء

الكثير من التقدم الرياضى ، ونمو متظم فى استخدام المعدات فى كل من المنجم والمركب (الميكروسكوب والتلسكوب) وتجديد أهمية المبذولة فى تصنيف التاريخ الطبيعى وتبويه ، واتعاش عظيم فى علم التشريح ، وفى تلك الحقبة أيضاً بدأ علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) الذى تمكن به أرمطون وتوقعه ليوناردو دافنتى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، يبدل مجروده الكبيرة فى تأويل سجل الصخور .

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة فى علم المعادن وعاد تقدم علم المعادن بالفضل العظيم على المخترعات المادية ، حيث يمر معالجة قطع من المعادن وغيرها من المواد أكبر وزناً وأصغرها . وظهنت مكتبات ذات معيار جديد وبكثرة لم يسبق لها مثيل ، فأحدثت فى الصناعة انقلاباً هاملاً .

واستطاع تريفريك فى ١٨٠٤ أن يكيف آلة جيمس وإاط البخارية لاستزادى النقل والحركة ، وبذلك صنع أول قاطرة بخارية . ولم يلبث أول خط حديدى أن افتتح فى ١٨٢٦ بين ستوكن ودارلينجتون ، وإن بلغت سرعة القاطرة ٥.٥ وكت ، التى صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلاً فى الساعة ، وهى تجر وزناً هائلاً من العربات زنته ثلاثة عشر طناً . وتكاثرت السكك الحديدية منذ ١٨٢٥ . فلم ينصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوروبا (١) .

وهنا حدث تغيير لحاقى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة ، هى أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها . وقد سار نابليون من فلان إلى باريس بعد هزيمته فى الروسيا فى مدة ٣١٢ ساعة . قطع فيها ما يبدأ ١٤٠٠ ميل وكانت تحت خدمته كل ما يستطيع تقديمه الملك من ميزات ، فلم يزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وما كان الركاب العادى يستطيع أن ية يوم تلك الرحلة فى ضعف تلك المدة مما تميل . وكانت تلك هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السفر بين روما وبلاد النال فى القرن الأول الميلادى . ثم ظهر التأثير الهائل على حين بنة . وبفضل السكة الحديدية خففت مدة هذه الرحلة لأكبر كادى إلى ما دون ثمان وأربعين ساعة ، ومعنى ذلك أنها خففت المسافات بأوروبا إلى نحو عشر ما كانت

(١) أنشأت ممراتى خط السكك الحديدية فى العالم بيزة مرة وللأسكنة زيارته ١٨٥٢ [الترجم]

عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم في مساحات أكبر شرمحات من التي كان في أيام كان إدارتها في الماضي على يد إدارة مركزية واحدة . ولقد تركت الناس حتى الآن المنزى التام لتلك الإمكانيات ، ذلك أن أوروبا تقطع أوصالها حدود ونجوم سمحت في عصر الحصان والطريق ، على أن المسكة الحديدية كن لها بأمر يكأثر مباشر فماله . فقد كان معناها بالولايات المتحدة التي تزحف في بلد غربا ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مهما بعد موضع النجوم الجديدة التي تتقدم في كل قرن بأرض القارة ، بل كان معناها هو الوحدة ، التي تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار .

وكان الزورق البخاري على كل حال سابقا قليلا على القاطرة البخارية في مراحلها الأولى ، فإن زورقا بخاريا هو شارلوت دناس ، كان يمتد قناة خليج لكلايد Firth of Clyde ١٨٠٢ ، وكان لأمر بكى اسمه فالترن باخرة أسماها كليموتس با آلات من صنع بريطانيا ، وتعمل في أهالي نهر الهدسون وراه ليوروك وكانت أول باخرة أُنزلت إلى البحر أمريكية أيضا هي الفينكس ، التي كانت تغفل بين نيويورك (هوبوكين) وفيلادلفيا ، وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخار (إذا كان البخار هو أيضا) عبرت المحيط الأطلسي (١٨١٩) واسمها السافانا — أمريكية هي الأخرى ، وكل هذه السفن لا تخرج من زوايق تستخدم العجلة الرافعة (١) . وليست سفن الرافعات بقادرة على شق جباب البحار الهائجة الأمواج . فإن مجاديف العجلة تصطم بفأفة السرعة . وعندئذ يصبح المركب ضعيفا عاجزا عن كل حركة ، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعة القروية على شيء من البطء . وإذا لم يكن بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة القروية وسيلة عملية مشرفة . ولم تستطع حولة السفينة البخارية البحرية تتغلق على حولة السفينة الشراعية إلا وقد أتمف الفرق . ومن بعده سار التطور في الملاحة البحرية بخطى سريعة ، ولأول مرة في التاريخ أخفقت أسى سمرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التأكد من موهذو ضرر لهم . فإن صبور الأطلنطي انحنى كذا إلى حين قريب مغامرة غير مأمونة العواقب ، تمتد إلى أساميع خديعة (ربما وصلت إلى شهور) لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت في ١٩١٠ إلى حافة أسرخ البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تجديد ساعة الوصول قريبا .

(١) العجلة الرافعة أو الدواليب البدال : عجلة مخنقة تنضم للبيئة بواسطة الواح شبيهة عموديا على محيطها والألواح تدفع الماء عندما تدار العجلة [للترجم] .

وفي الوقت الذي تطور فيه النقل البخاري برا وبحرا، ولتأتمن وسيلة أخرى جديدة أخاذة أضمنت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث فولتا وجالفاي وفاراداي في مختلف أنواع الظواهر الكهربائية . فظهر التلغراف الكهربائي على مسرح الوجود في ١٨٢٥ . ومد أول سلك بحري ، كابل ، برقي تحت البحر في ١٨٥١ بين فرنسا وإنجلترا ، وماهى إلا بضع سنين حتى هم لنظم البرق العالم المدين بأكمله، وحتى أتمت الأخبار التي كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البعد والتسلك تعرف في كل أرجاء الأرض في وقت واحد تقريباً .

ولامراء أن هذه الاختراعات : القاطرة البخارية والبرق الكهربائي، تبنت لأغنية الناس في منتصف القرن التاسع عشر مخترعات رائدة بل مسجلات خارقة ، على أنها لم تسكون إلا باكورتين بارزتين قيعتين في بستان ضخم تتم فيه عملية أوتنم وأوسع كثيراً . فإن المعارف والمهارة الفنية التطبيقية (Technical) أخذت تنمو وتتميز بسرعة خارقة وإلى درجة خارقة أيضاً بالقياس إلى ما تم قبل ذلك في كل عصر مضى . وثمة شيء كان يبدو في البداية أقل بروزاً بكثير في حياة الإنسان العادية ولكنه كان في النهاية أهم كثيراً من أي شيء آخر ، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية متنوعة مكونة لمواد أخرى . مثلاً ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بواسطة الفحم المصنوع من الخشب ، وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرَق ويصلى الشكل المطلوب . فمن ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فني وعندئذ كانت جودة الصنف وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من الحديد يمكن معالجتها في مثل تلك الظروف ليزيد في أقصى الحالات حجماً (في القرن السادس عشر) على طينين أو ثلاثة (فن الطبيعي إذن أن يكون لحجم المدافع حداً أقصى لا يتعداه) وجاء تنوير الصهر الهوائي في القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال السكوك . على أنك لا تجد ألواح الحديد المسحوبة بين الإسطوانات الضاغطة (الدرافيل) إلا في القرن الثامن عشر (١٧٢٨) ، كما لا توجد أسياخه وقصبانه المسحوبة بين تلك الإسطوانات نفسها إلا في (١٧٨٢) . كما أن مطرقة نازميث البخارية لم تخرج إلا أخيراً في ١٨٣٨ .

وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار لانه عاطلة في كل ما يتصل باستخراج المعادن وصناعتها . فلم يكن من المستطاع النهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمشغنة البدائية ،

لا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين العصرية تلك الآلات الأولى لراأت فيها قطعاً من الحرية قبيحة الصورة مستوجبة للرثاء ، ولكنها كانت أفعى ما بدت عليه المادون آنذاك من قدام ، ثم جاءت طريقة بسمر متأخرة في ١٨٥٦ ، وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقة الفرن المفتوح الذي كان في إسمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد وتنقيتها وصيها على شاكفة ولطاق لم يسمع الناس بمثلهما أبداً ، ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربائي رأيت أطنافاً من الفولاذ المتوهج المبيض من شدة الحرارة وهي تغلي وتهدر غليان اللبن في إنائه ، وليس في الإمكان أن تقاس ثمار شيء مما أحرز الإنسان في الماضي من تقدم ، بما ترى من تحكّم المطلق في كتل ضخمة من الفولاذ والحديد بل وعلى قوامها وتكوينها . وفي الحق أن السكك الحديدية والآلات القديمة يختلف أنواعها ، لم تكن إلا الانهيارات الأولى لطرائق الحديثة في معالجة المادون . وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما ظهرت الكباري الفولاذية الضخمة ، فضلاً عن طريقة جديدة لبناء الصلب على إطلاق هائل جداً ، وأدرك الناس في وقت متأخر : أنهم الشاراسكهم الحديدية على قضبان تسجل في المسافة بينها الخشبية والتخوف ، وأنه كان في إمكانهم أن يجعلوا أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعباً وأحفل بالراحة والدور لو أنهم زادوا كثيراً في المعايير .

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالاعمال سمن تزويد حولتها كثيراً إلى التيطن ، أما اليوم فليس هناك أي عجب في باخرة حولتها خمسون ألفاً ، ومن الناس من يسخر بهذا النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم في الحميم ليس غير ، ولكن تلك السخرية تسمهم بقصور العقل ، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم إذا الإطار الفولاذي ليس كما يتوهمون ضرورة متضمنة من سيطرة الماضي الصغيرة أو بنائه لصغير ، وإنما هي تختلف عن سابقة في النوع ، كما أنه أخف حملاً وأقوى بناءً ومرونةً لأن تصنع منها آهن وأنتني ؛ مما يعني لا يقوم من السوابق الموروثة ولا بطرق العملية الفجة غير العلمية ، بل على الحساب الدقيق المعقد . كانت المادة في المنزل القديم والسفينة القديمة هي المذلة ، إذا لم يكن بد من تحمى مستلزمات المادة ونوعها والتمسك معها تمشياً أعمى ؛ أما في الملقب الجديد فقد قبض الإنسان على المادة وأخضعها لإرادته ، وبذل في تكوينها ما شاء له فله . تصور ذلك تفهم والحديد والرمل ، التي استخرجت من الحجارة والمناجم

كيف تمتد إليها يد الإنسان وعلمه بالاستخراج والتنشيل والصر والصب . وإذا
 في برج رشيق من الفولاذ والبلور ، ويسلو المدينة المزدحمة بأكثر من ستمائة قدم ١٩
 ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على
 سبيل التمثيل . والإيضاح ولر شئنا لقصصنا عليك قصة عائلة لهذه عن تسلط العلم على
 معدنى النحاس والتصدير ، بل وعلى طائفة جمّة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر
 القرن التاسع عشر ولا تذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والالومنيوم ، وهكذا
 لم يحظ الانقلاب الميكانيكي بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة ، إلا بفضل هيمنة
 الإنسان العظيمة المتزايدة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور
 والجبس والمصيص وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتكوينها ، ومع ذلك فإن ثلث هذه
 الميادين عند مرحلة الثمار الأولى والتباشير لم تتجاوزها . أجل إن القوة أصبحت ملك
 يميننا ، ولكن بقي علينا أن نعلم كيف نستعمل قوتنا تلك ، ثم إن الشيء الكثير
 من استخدامنا الآن لمبات العلم السخية هذه كان في البداية سوقياً ، يتطوّر على الذوق
 التبعي أو الفناء أو الفظاعة ، ولم يكد الفنان والمهندس المنفذ شجاً وزان بعد مرحلة
 الابتداء الأولى في الاستفادة بتلك الأنواع التي لا حصر لها ولا نهاية من المواد التي
 أصبحت اليوم تحت تصرفهما .

واطردهم علم الكبرياء إلى جوار هذا الاتساع الكبير في الإمكانات الميكانيكية ،
 ولم يشرع هذا الحق من حقول الأبحاث أن يؤق ثماراً كان لها في حقول الناس أثر
 حقيق إلا في ثمانينات (١) القرن التاسع عشر ، وإذا بالعلم فجاء بالنور والكهربى ،
 والجهر الكهربى ، كما بدأ يقرب للأذهان كافة أن في الإمكان نقل القوة ، أى لإرسال
 قوه يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سلك
 من النحاس . كما ينقل الماء في الأنابيب .

.. كان البريطانيون والفرنسيون في بادئ الأمر هما الشعبان اللذان سبقا غيرهما في
 ضمائر تكاثر المعرفة ذلك ؛ ولكن مائتسب الألمان الذين تلقوا درسا في الدالة على يد
 نابليون أن أبدوا من الحية والمثابرة في الأبحاث العلمية ما جعلهم يدركون هؤلاء الرواد
 ويسبقوهم ، وكان العلم في بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليز
 الإسكتلنديين الذين يعملون خارج نطاق اللوذعية والإحاطة المألوف .

وكانت جامعات بريطانيا في ذلك الحين في حالة تدهور تروى. وقد صرفت جل
مها في إظهار الخدعة، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة، وكذلك
شأن التعليم في فرنسا إذ كانت تعود تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس الآباء
اليسوعيين (الجزويت)، لذا لم يصيب على الألمان أن ينشوا هيئة من الباحثين. ربما
كانت صغيرة بالقياس إلى ما في الأمر من إمكانيات، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلك الفترة
الصغيرة من المخترعين والمخربين ببريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبي فيما.
ومع أن هذه الأبحاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسا أقوى دول العالم
وأغناها، فإنها لم تعد على رجال العلم والاختراع بقوة ولا قوة.

فإن رجل العلم المخلص لعمله يعيش بالضرورة في جو من الزهد في الدنيا وفيه من
الانشغال بأبحاثه العلمية بحيث لا يجد مجالاً لتدبير الخطط والمشاريع لجمع المال من
طريقها. ولذا فسرمان ما يقع استثمار اختراعاته الاقتصادية ببناء السهول وبطريقة طبيعية
جداً في قبضة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال، لذا نرى في تاريخ بلادنا أن كل
طبقة جديدة من الأغنياء أبرزها ببريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي
والفني كانت تمتع تماماً بأن تترك الأوزة التي تبض لها بيضة الذهب تنضو من المروج
إن لم تبد منها تماماً نفس تلك الرغبة الجامحة التي أبدأها علماء الدراسات الكلامية (١)
رجال الدين ببريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلها. فلقد زعموا أن
المكتشفين والمخترعين يظهرون بالعلمية ليستفيد من وراثتهم من يفوقهم ذكاً.

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحكما العقل، فإن علماء الألمان النظريين لم يظهروا
نحو العلم الجديد مثل تلك البهتاء العنيفة. لذا سمحوا له بأن ينمو ويتطور. ثم إن رجال
الأعمال وصاحب المصنع لم يستشعروا نحو رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذي
خامر منافسها البريطاني. وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت محصولاً يزرع
ويستجيب للخصبات. لذا أنزلوا أقلار رجل العلم عن معين من فرصة الثراء، وكانت ميزانية
مصرفاتهم العامة على البحث العلمي أعظم نسبياً، كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم
بموفقوا الجزاء. وإذا برجل العلم في ألمانيا يجعل لفته الألمانية في النصف الثاني من القرن

(١) يقصد بالدراسات الكلامية دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية واللاتينية وتسمى أحياناً
بالفلسفة المدرسية.

للتاسع عشر لفة ضرورية لا يستغنى عنها كل داور العلوم يريد أن يظل ملماً بأخر ما أنتجت العقول في ناحية تخصصه وثمة فروع بعينها وبخاصة الكيمياء ، أحرزت فيها ألمانيا تنوعاً عظيماً جداً على جاراتها الفزيات . ولم تظهر آثار المجهود الألمانية إلا بان سبينات وسبينات القرن (١) ، بل بعد الثلاثينات ، وظل الألمان من ثم يتفوقون باطراد على بريطانيا وفرنسا في ميادين التقدم الفنى والصناعى .

وجاءت بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلم والاختراع عندما ظهر في ثلاثينات القرن طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متفجر ، محل قوة تمدد البخار . وأدخلت الآلات الخفيفة العظيمة الكفاية التى أمكن صنعها بفضل هذا الاختراع إلى السيارات ، وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت في النهاية ذروة من خفة الوزن والكفاية جعلت العالم ان - الذى عرف الناس من قديم الزمان أنه شيء يمكن - من الامور الواقعية المحققة . فإن لانجلى الأستاذ محمد سميشن بواشنطن صنع في ١٨٩٧ ، آلة تتأير بنجاح ، وإن لم يتسع حجمها لحل جسم كان ينشئ . ثم أصعد الطائرة صالحة لحل الإنسان في ١٩٠٩ . ظهرت الطائرة بعد أن لاحظ في الأفق فكرة توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد اتقان السكك الحديدية والنقل بالسيارات على الطريق العام ، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد لمسوظف المسافة بين نقطة ما على سطح الأرض ونقطة أخرى ، وفي القرن الثامن عشر كانت المسافة بين لندن وإدبرة تستغرق ثمانية أيام ، ولكن الذى حدث في ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوى كتبت تقريراً قالت فيه : « إن المسافة من لندن إلى ملبورن ، وهى تعادل نصف محيط الأرض . ربما ، أمكن أن تقطع في مدى بضع سنوات في نفس تلك الأيام الثمانية » .

ولكن ينبغي علينا أن لا نبالغ كثير فى تأكيد هذه التخصيصات الباهرة في المسافات الزمنية الفاصلة بين مكان وآخر . فامى إلا نلاحظوا - دة من نولكى توسيع الإمكانيات البشرية توسيعاً أبعد فوراً وأعظم شأناً . مثال ذلك أن علم الزراعة والكيمياء الزراعية أحرزوا تقدمات عظيمة لهذه تماماً في أثناء القرن التاسع عشر . وبلغ من سعة علم الناس بفضلها أن اتجوا أربعة أو خمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من نفس المساحة من الأرض في القرن السابع عشر . وحدث تقدم في علم الطب .

(١) وما العبدان السابع والثامن من القرن .

أشد من هذا خرقاً لكل متاد مألوف ؛ فواد متوسط عمر الإنسان ، وزادت
كفايته اليومية ، وتناقص ضياع الأرواح بسبب سوء الصحة .

من هذا كله يرى القارىء أن بين أدينا تغييراً كلياً في الحياة البشرية بلغ من
عمقه وعموله أن خلق مرحلة جديدة في التاريخ الإنسان . ثم هذا الانقلاب الميكانيكي
في مدة لا تزيد كثيراً عن قرن . وفي تلك المدة خطا الإنسان في ناحية أحوال حياته
المادية خطوة أوسع من تلك التي خطاها في أثناء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر
الحجري القديم وعصر الزراعة ، أو بين أيام بني ملك مصر وجورج الثالث . لقد
ظهر إلى عالم الوجود إطار مادي هائل أحاط بشئون الإنسان . ولا ينفي أنه يتطلب منا
القدر العظيم من إعادة التكييف مناهجنا وأساليبنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .
يبد أن عمليات إعادة التكييف تلك قد تولدت بالضرورة من تطور الانقلاب
الميكانيكي كما أنها لم تتجاوز بعد مراحلها الاستهلاكية الأولى .

الفصل الثامن والخمسون

الانقلاب الصناعي

تجنىح كثير من كتب التاريخ إلى خطط بين ما سميناه ، الانقلاب الميكانيكي ، الذي هو شيء جديد تماماً في الخبرة البشرية تولد من تطور العلم المنظم ونموه ، وهو من ثم خطوة جديدة لاختراع الزراعة أو استكشاف المعادن سواء بسواء ، وبين شيء آخر مختلف مصادره وأصوله تها الاختلاف . شيء له من قبل سابقة تاريخية قديمة : هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمونه الانقلاب الصناعي . سارت كل الدولتين جنباً إلى جنب ، بل لقد كانتا تتفاعلان إحداهما مع الأخرى . ولكنهما كانتا مختلفتين أصلاً وجوهراً . لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعي من نوع ما ، ولو لم يعرف الناس الفحم والبخار أو المكائن ، ولكن لولا تلك الحالة يلزم بشدة أكثر نفس الطريق الذي سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التي حدثت في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يكرر على مسامعنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجردين من أملاكهم وعصبات المال والمزارع الضعيفة والأرواح المالية الطالقة والنظام المالي المدر للنظام الاجتماعي . وحتى طريقة المصانع نفسها ظهرت في الوجود قبل استحداث القوة واختراع المكائن . فالمصانع ليست ثمرة الآلة بل ثمرة تقسيم العمل ، فكان المال المدربون المرمقون بالكسح والعمل يصنعون أشيئاً من أمثال قبعات السيدات وجلب الكرتون والآلات ، ولطوبون الخرافات ونسج الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل حتى البوابل للمائة في خفصة الصناعة . وكان بروما في أيام أوغسطس كثير من المصانع . مثال ذلك : أن الكتب الجديدة كانت تمل على حشود مصفوفة من النساخين في مصانع باعة الكتب . وسيبقى كل خازن مدقق قراءاً يمان ما كتبه دانيال ديفو وما تحتويه نشرات فيلديج السياسية ، أن فكرة حشد الفقراء ليعملوا مجتمعين في مؤسسات للحصول على أرزاقهم كانت شيئاً ما لولا بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودها في نفس زمن السير توماس مور بوكابه اليوتوريا ١٥١٦ . لا جرم أنه كان تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

والواقع أن تاريخ أوروبا الغربية الإجتماعى والاقتصادى ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يرسم من جديد على الدول الرومانية في القرون الثلاثة السابقة للبلاد .

غير أن تفكك أوروبا سياسياً ، وثوراتها السياسية الشيفة على الملوك ، وصاعدة العامة . مضافاً إليها على الأرجح قابلية الذكاء الأوروبي للفرق للأفكار والمخترعات الميكانيكية وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماماً .

ولاشك أن الأفكار الداعية إلى تكافل الناس وتساكنهم كانت بفضل المسيحية أوسع انتشاراً في العالم الأوربي الجديد ، ولم يكن التنفيذ السياسى على مثل هذه الدرجة من التركيز ، ومن ثم أقلع كل رجل نشيط حريص على الإجراء عن فكرة الرقيق وحصانات الممل وتحويل فكره عتاراً لقوة الآلة والمكنة . .

وغنى عن البيان أن الانقلاب الميكانيكى : عملية الإخراص والاكتشاف الميكانيكة ، كانت شيئاً جديداً في خبرة الإنسانية بهذه الدنيا ، كما أنها واصلت تطورها غير عابئة بما قد تحمته من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصناعية ، وذلك في حين أن الانقلاب الصناعى كان ولا يزال ككل الشئون الإنسانية - مرحلة تنبؤات تردده كل آن عفاً وانحرفاً بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكى في ظروف الإنسان وأحواله من التنبؤات المتراصة . والواقع أن الفرق الجوهرى بين تكليس القرون وإفادة طبقت صغار الزراع وأرباب الأعمال ، وبين مرحلة المليون الكبار في أثناء القرون الأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الجديدة للمائة لذلك من توكيز رأس المال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، الواقع أن ذلك الفرق الجوهرى ينحصر في الفرق العميق بين نوعى العمل والعمل المكنة تولد عن الانقلاب الميكانيكى .

لقد كان الإنسان يصدّر القوة المحركة في العالم القديم . فكان كل شيء يستمد اجتماعاً تاماً على القوة الدافعة والحركة المادية من سواها الجبر وحضائهم : حضلات الجهلاء والأذلاء من الناس ؛ ولما تنكر أن قد شاركهم في ذلك إلى حد قليل حضلات بعض الحيوانات التى جاءت في صورة الثيران وما تحميه والحيل وما تحميه ، إلى غير ذلك . . لحيثما وجب رفع ثقل من الأثقال كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وحيثما

تقوم الأمور استخراج صنعة من حجر ، كان الرجال هم الذين يطحنونها ، وجبنا
لزم حث أحد الحثول حرفة الرجال بمساعدة الثيران ، وكان المركب البخارية تظهر
لدى الرومان هو السفينة القديمة بما تحمل على جرائها من صفوف محققين يزعمون ذلك
أقصى حد ، لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تنخرق عهد الحضارات الأولى أعمال
الكبح الشيف الآلات البحت ، على أن الآلات للذفرقة بالقوة لم تبشر في البداية بأى
أمل في خلاص المكثودين من ذلك الكبح الآل الذى لا ذك فيه ، فكانت فرق
ضخمة من الرجال تستخدم في تطهير القرع ، وفي شق أفاق السكك الحديدية وقوم
المصنوع على حثاق الأنهار وما أشبه ذلك وتزايد عدد عمال المناجم زيادة عاتقة .
ولكن اتساع مدى الوسائل الميسرة وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيراً ،
وكما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المتعلق الراشح للوقت الجديد يفرض
نفسه بصورة أسرع . فلم يعد البشر يعجبون كمصدر لقوة البحت دون تمييز ذلك
أن ما يستطيع السكان البشرى عمله بصورة آلية كان شيئاً تستطيع الآلة أن تنه
بدرجة أسرع وأحسن . فلم يعد الأمر يحتاج السكان البشرى الآن إلا حيث يجب
استخدام العقل والذكاء في الاختيار . فقد صارت الكائنات البشرية تطلب الآن
ككائنات بشرية ، أما ذلك الكادح المسخر الذى اعتدت عليه الحضارات السابقة
تجبراً ، ذلك الخلق الذى عليه الطاقة السعيد ، والذى كان مهتادة كاسدة لازوم
لها ، فقد صار ضرورى لصالح البشرية .

وقد أطلق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعة والتعدين إعطائه على
أحدث المصناعات الحديثة ، إذ ظهرت قيادى الحثول والبذر والحصاد الآلات سرية
لتقوم بعمل عشرات الرجال . كانت المدينة الرومانية مؤسسة على كراجل كائنات
إنسانية زهيدة الأجر ذليلة النفس ، أما الحضارة المصرية فيباد بتزجها على عاتق
قوة ميكانيكية ، وخيمة . وانقضت مائة سنة كانت القوة تزاد في أمتانها في كل
يوم ونحاً والعالم غلام . فتن انحطت للكائنات أن تنظر داخل المناجم يجلبين
أو ثلاثة حتى يمين دورها ، فإ ذلك إلا لسبب بسيط ، وهو أن اليد العاملة ظلت
ردحاً من الزمان أو خمس من المكثات .

بذلك حدث في حياة الناس انقلاب ذواحية قصوى . لقد كان أكبرهم يقض
متنوع اتق أو الخلق في المدينيات القديمة هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكتفونه

من الكادحين الأذلاء . فإذا تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر انضح للاذكياء أنه لا مفر للرجل العادي من أن يملأ من موزة الكادح الدليل ؛ إذ لم يكن مهيئاً من أن يتمم - لكي يحصل على الكفاية الصناعية على الأقل - ولم يكن مندوخ من أن يفهم ما يراد منه . لقد ظل التعليم الشعبي يسرى بأوروبا سريعاً وبعيداً بطيئاً منذ أيام الحداثة المسيحية الأولى ، على غرار ما كان بأسيا حيثما قدم الإسلام ، وذلك لغزوة صميم المآثر من شيئاً قليلاً من العقيدة التي تستلزمه في الآخرة ، وتمكنت من قراءة التوراة القليل من كتبه المقدسة التي تنقل إليه عقيدته تلك . وأفضت المجدالات بين المسيحيين بما انطوت عليه من تنافس لكسب الانتصار ، إلى تهيئة الجو لجنى ثمار التعليم الشعبي العالم - مثال ذلك : أن منازعات الطوائف الدينية بالمثل ترا حاجتها لكسب الانتصار إلى أن ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم المزاجية على الأطفال ، منها المدارس القومية التابعة للحكومية ، والمدارس البريطانية التابعة للخارجين عليها ، بل حتى المدارس الكاثوليكية الأولية . وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي في كل أرجاء العالم المتطبع بالطابع الغربي . ولم يسأير هذا التقدم تقدم آخر مماثلة في تعليم الطبقة العليا لاجل حدث شؤم من التقدم لاجرم ولكنه لا يتساوى مع الأول بناتاً - وهكذا لم تلبث قهراً لتطويع التي كانت قسم العالم حتى الآن إلى فئة غارة وجمرة غير غارة ، أن باتت لا تزد من فرق في المستوى التربوي لا يكاد يدرك . ومن وراء هذه العملية كلها يكن الانقلاب للميكانيكي ، غير حابي في الظاهر بالأحرار والاجتماعية ، ولكنه يلجأ بأصرار في الواقع ودون وعاد على أن يقضى تماماً كل أرجاء الأرض على وجود طبقة حلقية الآية .

ولم يفهم أحد من عامة الناس يوماً أبداً معنى الانقلاب الاقتصادي ولا أدرك كنهه ، قالوا طين الرومان العادي لم يمس قط بالتغيرات التي يعيش في كنهها ينفس الوضوح والشمول الذين تشهدهما نحن بها . أما الانقلاب الصناعي فكان وهو يدلف في طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشر عملية متسلسلة يتزايد وضوح تكاملها كنهه وأحداً لماهية الذين وقعوا تحت تأثيرها ، وذلك لأنهم أصبحوا يستطيعون أن يقرأوا القرارة والمناقشة والبراسل ، ولأنهم كانوا ينتقلون في البلاد ، ويخضعون للتجارب كما لم يخضعوا أمثالهم من قبل .

الفصل التاسع والخمسون

تطور الآراء

السياسة والاجتماعية المعاصرة

تستلهم الحضارات القديمة وعرفها وآراءها السياسية، وترعرعت يبطء صرا [بعد عر دون أن يرسم إنسان لها خة أو يتبا إنسان لها بشء، ولم يحدث إلا في القرن السادس ق . م ، قرعة المراجعة الطم البشرية ، أن فكر الناس بطلا في علاقاتهم بعضهم بعض، وأن ناقشوا الأولوية والفرح والأولوية تغير المعتقد المسترة والقوانين السائدة وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها .

وقد سبق الإشارة للتغير العسكري الجيد التي لاحظت تباينه بل عرضت أن ومدينة الإسكندرية ، وكيف تفرحت المدياح لملكها لفرقة وتطبت ساقها من يوم التمسيد الذي واستنداد الحكوماء الحلقى ، مما جعل ذلك التغير فأسئل على ما تفرق في من الأمثلة حالكة . ولم يبدأ نور التفكير الجري يتخذ من جديد صورة فاة خلال ذلك الليل الدامس الذي وإن على أوروبا إلا حين أقل القربان الخامس عشر والسادس عشر . وقد حاولنا أن نعرض عليك شيئا بين فضل تلك الرياح العظيمة التي أطرها حب استطلاع العرب وفحوص للتول في تبديده بعض ما نشروا لسله العقيلة لأوروبا من النجوم ، وأول من على بالزبد تفر المرة للادية بفرج ناس . فكانت أول الآثار التي عادت على الإنسان من استر ذلك إنسانية متاهدية أحرزها وقوة مادية جعل عليها . ذلك أن السياسة البشرية ، وطعم النفس لفرص والاجتماعي ، وطعم التربة والاقتصاد ليست دقيقة ومعتدة في حد ذاتها الحسب ، بل من ترتبط ارتباطا وثيقا لا انفصام له بالناس . الكثير من الناس الماكية وقد سادت التقدم فيها على أياها ، كما أنه على ساحة عظيمة . والناس يستمعون يبدوء تأمل ذلك

أشد الآراء تبايناً حول النجوم أو الذرات ، ولكن الآراء المتصلة بطرائق الفيش
عندنا تمس كل فرد حوثنا ، وتمسك عليه .

وكما حدث بيلاد اليونان تماماً حيث سبقه تطلعات افلاطون الجريئة بحث ارسطو
لرصين من الحقيقة ، حدث في أوروبا أيضاً أن خبث أول الأبحاث السياسية في المرحلة
الجديدة في فوالب قصص ، واليوتونيا (١) ، ، التي قلب مباشرة من « جمهورية »
افلاطون و « فوالب » ، و « اليوتونيا » التي ألغى السير توماس مور عما كاذبة صجية
لافلاطون كانت نمرتها دستور قانون جديد على أساس الاقتراء . يا محقره . هل أن اليوتونيا
« النابولية » ، فيلسوف كميلالا المسلة « مدينة الشمس » ، كانت أبدياً أقل الخيال
وأقل ثماراً واقعية ،

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر لاحظ ظهروا قدور خنم ومتزايد من المؤلفات
في العلوم السياسية والاجتماعية . ومن أوائل الأساطين في طبعة هذه الأبحاث جون
لوك ، وهو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز . وعالم من علماء أكسفورد ، وجه عنايته
في البداية إلى الكيمياء والقلب . هل أن مقالاته التي كتبها في موضوعات الحكومة
والتماسيح والزرية تكشف عن عقل شديد الوعى والإدراك لإمكانات البناء الاجتماعي .
وظهر في فرنسا شخص يعاقل لوك يا محقره ، وإن تأخرت قليلاً ، هو مونتسكيو
(١٦٨٩ - ١٧٥٥) ، الذي وضع للنظم الاجتماعية والسياسية والفنية تحت عدسة
التحليل اللطيف . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه في فرنسا أنه خلق ثوب البيئة الحرة
التي كان يحمل للملكية المطلقة ، وهو يشارك لوك في فضل إلهامه كثير من الأفكار
الرائجة التي ظلت آنذاك تحول دون بلد المحاولات المتعمدة الواجبة لإعادة بناء
المجتمع الإنساني .

وكان الجيل الذي جاء بعده في الملتفات الوسطى والمتأخرة من القرن الثامن
عشر جريئاً في تملأه الفكرية في موضوعات نتيجة الخفية والفكرية التي أقام

(١) اليوتونيا ويسمى العرب « الطوبى » ، والمارايين « المدينة القائمة » : دولة مثالية
صنفت عليها السياسة والفنية والاقتصادية بالكمال اللطيف .

صروحها ، وراحه طائفة من اذكيا الكتاب، هه الموسويون، وكلهم رجل
 قاتر الروح حر النفس متخرج من مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت)، وراحت
 تضع الخطة لعالم جديد (١٧٦٦) . واول جوار للموسويين نهض الاقتصاديون أو
 الفيزيوقراطيون ، الذين زاحوا بيهرون أبحاثا تجريبية وفحنت في إنتاج الأطعمة والسلع
 وتوزيها ، وطلق مورالي مؤلفه قانون الطبيعة Code de La Nature ،
 يشهد بنظام الملكية الخاصة ، ويترج تنظيم المجتمع على أسس شيوعية ، فهو للبشر
 الآن تلك المدونة الضخمة المتخلفة الفرق والمذاهب من المفكرين المشددين
 (الجامعين Collectivists) في القرن التاسع عشر ، الذين تطلق عليهم جميعاً
 ودون تمييز اسم الاشتراكيين (Socialists) .

ما هي تلك الاشتراكية ؟ إن للاشتراكية مائة تعريف وتعريف ، كما أن
 للاشتراكيين ألف فرقة وطائفة . والاشتراكية لا تخرج في جوهرها عن قداسة فكرة
 الملكية تحت حذو المصلحة العامة ، وسنستعرض الآن بإيجاز شديد تاريخ تلك الفكرة
 على مر العصور ، فإنها هي وفكرة الدولة أو الشمونية (Internationalism) (١)
 مما فكرت أن الرعيبان الثان يدور حولها القطر الأعظم من حياتنا السياسية .

وترجع فكرة الملكية إلى ما ركب في الجنس البشري من غريزة للملكية ، فقبل
 أن يكون الإنسان إنساناً حراً زمن مديد ، كان جده القرد الأعلى (٢) يملك
 الممتلكات ، والامتلاك البدائي يقوم في الغنى الذي يقاتل من أجله أحد الحيوانات ،
 خسة الكلب والعنقة ، والخنزيرة ووجلها والقطى النافر وسره يهوى أمانة الملكية
 المنازعة ، ولنا تصور أن علم الاجتماع به عبارة أنه ولا أسنف من قولهم
 « الشيوعية البدائية » ، ذلك أن الرجل العجوز في قبة الناقة في أبكر الصور
 الحجرية القديمة كان يصرح على امتلاك زوجته وبناته وآلامه وطاله للرق المحيط به ،
 قائداً جالس أي رجل آخر خلال حاله المومي قاته ، بل ذبحه إن استطاع .

(١) الدولة مذهب سياسي يدمر ما قائم على مبدأ الأغرة للشامة بين الناس ، ولما يترج
 إلى التلايل من أثر فلول المصالح والأخلاق والمثل (أو بجمليتها) التي تنجم من الأجاس
 والأمم . [الترجم]

(٢) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الإنسان القردون التي سبق أن أعار إليها في القصور
 الأولى من الكتاب . [الترجم]

ونمت القبية على كر الصور كما أجد التمتع عن ذلك أبكتن في كتاب
 ، primal Law ، بفضل تسامح الرجل الجور بالتدريج لإزاء وجود الأشياء
 الذين يصنونه سناً ، وإزاء امتلاكهم الزواجات الرأى بتصميمين من خارج القبية ،
 وإزاء الآلات والمخلوقات يصنعونها والميد التي يمتدونه ، فكان المجتمع الإنساني
 قد نما بسبب التسامح المتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذلك ، وكل تسامح
 اقتضته الضرورة التي تدعو الرجال إلى التكيف لطرد قبية أخرى إلى خارج عالمهم
 المرنق المحيط بهم ، فمن لم تكن قباله قباله بالهوا الأتاه أرخص أو أرخص ، فذلك
 إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا ، ولا شك أن كل منا كان يفضل لو كانت الأرض
 أرضه هو ، ولكن ذلك شيء لا يمكن أن يكون ، ففي تلك الحالة يضرنا الآخرون ،
 ولذا فإن الجماعة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تخفيف حدة الملكية ، والامتلاك
 عند الوحش المتوحش وعند البدائي شيء أشد حدة مما هو في العالم المتحضر اليوم ،
 فهو أقوى تأخلاً في غرائزنا منه في حقولنا .

وليس لحدثة الامتلاك للميتوحش الطبيعي أو الرجل غير المتعلق عصرنا هذا
 أي حدود بعدد ما ، فكل ما استطعت أن قتال من أجله أمكنك أن تملكه ، سواء
 أ كان ذلك امرأة أم أسيراً تبقى على حياته أم بيعة تبيع عليها أم طرقات غارة أم
 عبيداً أم أي شيء آخر ، فلما اتسع أفق المجتمع ظهر غروب ما من قانون لكي
 يحول دون القتال القاتل ، فأتى الإنسان صنع وسائل في مرحلة لتسوية مشكلات
 الامتلاك ، وبمقتضاها أصبح الرجل يستطيع أن يملك الأشياء ، كإنه أول من صنع
 أو أسكنه أو إدعاه لنفسه ، وبات يدعو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع سداد دينه
 ينفي أن يصبح ملكاً له ، ويبادل هذا في يسلطه وسهه الطبيعي زعمهم بأن الرجل
 ينبغي له بعد أن يدعى امتلاك قطعة من الأرض أن يرضى على كل من شاء استعمالها
 شيئاً من المال أو العين .

ولم يشرع الإنسان بمن أن تلك الملكية غير المحدودة لا شيء . كانت سبلوا للأزواج
 والمضائق إلا بناية البط والتدريج ، وحين أفرقت عليه تباشر إمكانيات الحياة المنظمة ،
 فوجد الناس يملكون في عالم ملكه كله انهم أو يدعى ملكية . وليت الأمر اقتصر
 على ذلك وحده . . . فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها لو كانهم أو يدعى ملكيتهم .

ومن السور علينا الآن أن نتخبط الشكاحات الاجتماعية التي أندلعت في الحضارة
البابكية ، على أن التاريخ الذي روينا عن الجمهورية الرومانية يظهر فيها عتد
يستقط على هوى الديون ، وفضه إلى أنها تصبح مثار الإزجاج والمناجاة لكلمة
كلمة ، ولنا قد وجب التورع والتعاضد ، وأن ملكية الأرض ضرورية لحدوث بدعة كانت
من الأخرى تطوى على المناجاة والإزجاج ، ثم أتت بعد ذلك بابل حدث بدعة بابل
للناجاة امتلاك الرقيق . وأخيراً نجد في تعاليم ذلك التورع العظيم يسوع الناصري من
المجوع والظن على الملكية مالم يحدث من قبل : ليس هو القاتل ، لأن يلج الخيل
في سم الخياط ليس من أن يدخل الأعتياء ملكوت السماوات ، ويروج أن أجواء
العالم في الحسنة والشر أو التلاخ قرنا الماخية لملكات بالتفاهة الم التورع الذي
الذي يمكن أن يسمح بامتلاكه من الممتلكات . وبعد يسوع الناصري بقصة عشر
قرنا نجد أجواء العالم التي منها تعاليم النصرانية من مبدأ قريب مقتبسة بأه لا يجوز
للإنسان امتلاك أخيه الإنسان . وثم فكرة أخرى تولدت أركانها ثمرها فيما
يتعلق بأفراح أخرى من الممتلكات . وهي فكرة أن الإنسان حر يستطيع أن
يصل ما يشاء فيما يملك .

ولكن ذلك العالم الذي تحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال
من حيث تلك المسائل في مرحلة الفلك والقساويل والاستهلام . لم يكن قد حصل على
ثم . بلغ القدر الكافي من الوضوح ، فضلاً عن أن يبلغ القدر الكافي من التباح
والاستقرار ، لكي يطعن إليه ويبنى على أساسه . فقد كان من بين مداخله من
البواحت الأولى وبما كان الكيفية من شرافة الفرق وتبدد في الاستغلال المتناهي .
لذا كان ادلاخ الثورة الفرنسية تفرز ويحيل إلى حكماء ، وهو قاية الملكية الخاصة
من التمرائب . ولكن مبدأ المساواة التي احتضنت تلك الثورة تفرز في تارة لجلها
تعتقد الملكية التي تحت طاعتها ، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين فيما أخذوا
عطية منهم لا يملكون أرواحاً يتجشرون منها ، ولا طعماً يأكلوه ، كما أن اللاد
يأبون . بالبداعة . أن يفسروم أو يؤرم مالم يملوا ويكسبوا ١١ واشتد
لذلك شكوى القبراء .

ولم يكن لدى إحدى الحملات السياسية الخاصة من جزاء لينا التورع والفساد
في التفسير . قد شهدوا أن يتناولوا في الملكية وقروما ، ولكن كانت هناك أيضاً

جامعة الاشتراكيين البدائيين أو الفيويين إن شئت سمحاً أدق - الذين كانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر ، ولأنهم لو ادركوا إنشاء الملكية الخاصة إنشاء تاماً ، فارتأوا أن الدولة (وغيرهم أنها دولة ديكتاتورية طبياً) تنكح جميع المستلزمات .

لذا فإن المفارقات العجيبة أن رجلاً متوجعاً ينفرد إلى الهدف نفسه من الحرية والسمادة يقرحون من ناحية جعل الملكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع ، ويقترحون من ناحية أخرى القضاء عليها قضاء مبرماً . ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً . ومفتاح هذا التناقض العجيب يكمن في أن الاشتراك والملكية ليسا شيئاً واحداً بل مجموعة كبيرة من أشياء مختلفة .

وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لا ولمرة يدركون أن الملكية ليست شيئاً واحداً ولا بسيطاً ، ولكنها شيء معقد كبير من طليقات ذات قيم مختلفة وأثار مختلفة ، وأن أشياء (منها حل سيل المثال جسم الإنسان وأدوات الثنائ والياب وفرشة الإنسان) إنما هي تلك ذات شخصية إلى أقصى حد وبصورة لا سبيل إلى حلها أو علاجها ، وأن هناك مجالاً عظيماً من الأشياء ، منها مثلاً السكك الحديدية وأنواع مختلفة من المسكنات والبيوت والحدائق المزروعة وقوارب القزعة وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصة جداً لتحديد المدى والقيود التي تدرج بمقتضاها تحت مفاهيم الملكية الخاصة . وإلى أي حد تقع في الملكية العامة ، ومن ثم يصعب تقديرها الدولة وتوجيهها الناس من أجل مصلحة الجماعة . ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عملياً إلى ميدان السياسة ، وإلى مجال مشكلة إنشاء النظام الإداري للتيقن للدولة ، ومبادئ المحافظة عليه . وهي تفتح أبواب مسائل تدخل في جميع علم النفس الاجتماعي ، كأنها تتفاعل مع أبحاث علم التربية . ولذا فإن هذه الملكية لا يزال عليها اعتبارها حالة معدمة أكثر منه علماً أصولاً ثابتة . فكان هناك من جهة علمية في القرن التاسع عشر (*Individuelle*) الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الراحة في التصرف فيما نملك ، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيين الذين يطالبون بجمع طليقاتنا في كثير من التواحي وبالحكم من تصرفاتنا في تلك التواحي . ولو نظرنا بين الفاحصين إلى الواقع العملي لوجدت

ألا من درجت القوارق التي تقبل من مطرقة المرددين، الذين لا يكادون يثيرون
فرض ضريبة من أي نوع تقبل حكومة من الحكومات، ومن الشيوعيين الذين
يشكرون الملكية إنكراً باتاً .

والاشتراكي السلي في هذه الأيام يمكن أن يطلق عليه اسم الجماهير وهو يرضى
بقيام قدر جسم من الملكية الخاصة، ولكنه يرى أن بوضع أمثال التعليم والنقل
والمناجم وامتلاك الأرض وسائط الإنتاج للجمهور لا راداً لسياسة ومال ذلك من
شئون في يد دولة على مستوى رفيع من التنظيم. والظاهر لنا خلاف ذلك إلا بأن كثيراً
من الرغبات المعقولة قد أخفوا بجهنم بالتدرج نحو الاختيار كاستمالة تقوم على
الحراسة المالية والحاجة الضرورية عليها. ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكاً أن
الرجل غير المتعلم لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح في الشؤون المعقدة، وأن كل محاولة
تخطى في سبيل إقامة دولة أكثر تعقيداً وكره وظيفة وتدهيها الدولة من ذوي الجهد
الخاصة (Private Enterprise) لترواها بنفسها تقتضي بالضرورة قيام ما يوجبها
من التقدم القوي، كما تقتضي تنظيم نوع من النقد والضبط والميمنة، وذلك في حين
أن كلا من المحافظة الموجودة الآن والوسائل السياسية التي تدبها الدولة المعاصرة
لنا حالياً مما من المتعاجة والسفاهة بمنزلة كبيرة جداً لا تسمح بأي توسيع ممكن
للمناشط الحديثة .

على أنه جلد حين من الدهر أدت فيه الأزمات التي نشبت بين صاحب العمل والعمال
ولاسيما ما كان منها بين صاحب العمل الأثافي والعامل المتبرم الشديد، إلى انتشار نوع
الشيوعية الأولى الشديدة الشك في كل أرجاء العالم، وهو النوع الذي يرتبط باسم ماركس
وقد أسس ماركس نظرياته على اعتقاده أن هؤلاء الرجال معدودون بتبعدها احتياجاتهم
ولوازمهم الاقتصادية، وأن هناك عقبات في المصالح يقوم في منازعاتها الرأسمالية بين
طبقات الناس الغنية صاحبة العمل وبين الطبقة العاملة .

ومن البديهي أن تقدم التعليم الذي استلزمه الانقلاب الليكاريكي لابد أن يحمل
هذه الغالبية الكبيرة العلة ذات، وهي طبقية، بل يصلها ترددات كل يوم صلافة مننا
في خصوصيتها لأقلية الحاكمة ذات، الرعي الطبقية، هي أيضاً عقبات ماركس بأن العمال
ذوي الرعي الحقيقي يستولون على السلطة بطرقها، ويستحوذون بذلك السلطة الاجتماعية

جديدة : ولا شك أن المحصورة والتمرد واحتمال الثورة أمور مفرومة إلى حد كاف ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أي شيء آخر إلا أن يكون ذلك الشيء حدوث عملية تدمير المجتمع .

حاول ماركس أن يجعل المحصورات الطبقة تعمل على المحصورات القومية ؛ وأنصار المذهب على التعاقب ثلاث منظمات هي الدولية الأولى والثانية والثالثة ولكن في الإمكان الوصول أيضاً إلى أهداف تلك الدولية ، وأرناهم طريق نقطة البداية التي تبدأ عندها آراء مذهب الفردية المعصري ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم سميث الكاتب الاقتصادي الإنجليزي العظيم ، كان إذا اقتناهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء في العالم من قيام التجارة حرة لا يعوقها عائق بأى جزء من أجزائه . وأنصار المذهب الفردي بما يظهرون من عداوة الدولة إنما يعادون أيضاً التعريفات الجمركية والحدود السياسية وكل ما يعوق حرية التصرف والحركة من قيود قد تبررها التخوم القومية . ولعله لما يشوقنا أنهم مذهبين من مذاهب الفكر يتماهدان في روحهما ذلك التباعد الشديد ، ومختلفان في المادية والروح ، وأعلى بهما مذهب اشتراكية حرب الطبقات المنسوب لأنصار ماركس ، والفلسفة الفردية الداعية إلى حرية التجارة المنسوبة إلى رجال الأعمال البريطانيين في عهد الملك كنسكوريا . أقول تشدهما يتجهان في النهاية - على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية نحو نفس الدعوة إلى معالجة الشؤون الإنسانية معالجة عالمية شاملة تتجاوز تحريم كل دولة بقائمه حالياً وقبيلهما . ولا شك أن منطق الحقيقة الواقعة يقتصر دائماً على منطق الآراء النظرية ، ذلك أننا بدأنا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين . ولأن لهم نقط إبداء متباينة تماماً خطياً فهما جزء من بحث عام : بحث عن أفكار وثقافات جديدة اجتماعية وسياسية أوسع مدى ، يستطيع الناس أو يحاولوا العمل معاً على أساسها ، بحث إبداء ثمانية بأوروبا واشتد ساعده في نفس الوقت الذي انضمت فيه فئة للناس في فكرتي الثورة الرومانية للفتنة والمسيحية ، وفي نفس الوقت الذي وسع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم فتجاوز بها عالم البحر المتوسط إلى الدنيا بما رحبت .

على أن مواصلة الحديث في موضوع تفصيل وتطور أفكارنا الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية حتى تصل به إلى ما يدور في أياض هذه من أبحاث ومناقشات ، يكون مبتدأ إدخال مشكلات جدلية بالغة مخرج تماماً عن مجال هذا الكتاب وأهدافه ، ولكننا حين نعهد هذه الأشياء كما نشهد الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمي العام النسيخة الآفاق. نلحظ بأننا مضطرون أن نعرف أن الذي نرى من إعادة صوغ هذه الأفكار التوجيهية في العقل البشري لا يزال ناقصاً - حتى لنكاد لا نستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الفهم عن الكمال . إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة أخذت تبلور فعلاً ، كما أنها قوية الأثر اليوم في الأحداث السياسية والتصرفات العامة ؛ ولكنها يعودنا حتى الآن شيء من الوضوح وشيء من قوة الإقناع حتى نستطيع أن نضطر الناس بصورة محددة ومنظمة إلى إدراكها . ذلك أن تصرفات الناس تتردد كثيراً بين الإبقاء على التقاليد والإقدام على الجديد ، كما أنهم ينحرفون على الجلبة إلى الشبه التقليدي ، على أنها لوقورت بأفكار الناس قبل زمننا هذا بما لا يتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده ، لئلا لنا بالفعل تباشير معالم نظام جديد لشئون البشر في طور التشكل . ولا شك أنها معالم متقلعة تنفخ في هذه النقطة وتلك ، وتصورها التقلبات في نظامها رغبة في استدامتها ، ومع ذلك فهي لا تفرح زائد وضوحاً . كما أن خطوطها الرئيسية لا تقفأ يقل فيها التغير ويبدأ ويبدأ .

ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كراياتهم بشكل أوضح وأصعب ، وأن البشرية أخذت تصبح مجتمعاً واحداً من نواح عدة ، وفي مجال رحب ومتزايد من الأمور ، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم في مثل تلك الشئون هيمنة وضبط يشملان العالم طراً . مثال ذلك ، أن الناس يزادون كل يوم إدراكاً بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصادي واحد ، وأن الاستقلال المصحح لموارده العالمية يتطلب توجيهها واحد شاملاً ، وأن القوة الكبرى والمجال الأكبر الذي خولها الاختراع والاختراعات الجهد البشري يشملان الإدارة الجزئية المنكوبة بالمنازعات والمشاحنات في مثل تلك الشئون أحفل بالاختلاف وأشد تقيداً وإعلاقاً لتلك الموارء ، ثم إن وسائل الإصلاح المالية والتفدية تصبح هي أيضاً موضع اهتمام على علم ولا يمكن معالجتها بنجاح إلا على أسس عالمية عامة . وقد اضطر الناس كافة أن الأمراض المديدة وزيادة هذه السكان ومبرتهم من الشئون العالمية أيضاً . أما الحرب فإن زيادة قوة النشاط البحرية ومجالها قد جعلت منها (الحرب) وسيلة لا تناسب فوائدها مع التدمير

والقصاد الذين يرتبان عليها ، بل لقد أصبحت حديج الآثر وإن استعملت كوسيلة
سحجة قيحة لتسوية المشكلات الناشئة بين حكومة وأخرى وشعب وآخر ، هذه
الأمور جميعاً تهاجر مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالاً
وأحظم شمولاً بما بلغت أي حكومة قامت إلى اليوم .

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هذه المشكلات هو إنشاء
حكومة عليا بشكل ما للعالم كله تقوم على الفتح والقوة أو الائتلاف بين الحكومات
الموجودة ، وقياساً على النظم الموجودة وتمثلياً ، فكر الناس في إنشاء برلمان البشرية ،
وفي (كونغرس) العالم ، وفي تعيين رئيس أو إمبراطور للأرض . وبديهي أن يكون
رد الفعل الطبيعي الأول لفكرة متجهاً إلى مثل تلك النتائج ، ولكن مناقشة وتبعية
الآراء والمحاولات في مدى تحسينها قد أوغنت على الجملة الاعتقاد في الفكرة الأولى
الراضية ، فإن ما عترض سبيل تلك الدولة الواحدة العالمية من مقومات كان عظيماً جداً .
ويبدو أن الفكر يتجه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة أو المنظمات المخولة
سلطة عالمية شاملة من تنسيق الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعة أو تلك من الشؤون
أو القيام بها ، وهي هيئات تنهم بدراسة تهديد الثروة الطبيعية أو تنميتها . ويأخذ
التوازن بين ظروف الهالك وأحوالهم ، وبالسلام العالمي وبمشكلات العملة والسكان
والصحة وما إلى ذلك .

وعندئذ قد يكشف العالم أن جميع مصالحه العامة تتألف ككل واحد ، على حين
يفوته في نفس الوقت أن يدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية . ولكن قبل أن يبلغ
الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية ، وقبل أن توضع مثل تلك التنظيمات
الدولية فوق الشبهات والفترات الوطنية الضيقة ، لابد أن يقتنع عقل البشر عامة
بفكرة تلك الوحدة الإنسانية . وأن تكون الفكرة المتطرفة بالبشرية كعائلة واحدة ،
فكرة تعلم وتفهم الناس كافة في كل أرجاء العالم بأسره .

وقد عاش روح الديانات العامة العظيمة حضرة قرون أو يزيد مكافئاً لما خلق من قبل
صيانة ونشر فكرة تلك الأخوة العالمية . ولكن المقدور انقضب والتشكك انبثج
تولدت في الماضي من المنازعات القبلية والقومية والعنصرية لأحوال تسد السبيل إلى
اليوم . بل تسد السبيل تماماً وبشجاعة قلم - أمام انتشار الآراء الروسية والبواحات

السمعة التي تجعل من الرجل منا غادما للبشرية كلها. إن فكرة الأخوة البشرية تكافح الآن للاستيلاء على أرواح البشر، كما كانت الخطبة فكرتها المسيحية للاستيلاء على روح أوروبا في أثناء فترة الارتباك والفرقوس التي عشناها في القرنين السادس والسابع للحقبة المسيحية. ولا بد من أن يتم الانتشار مثل تلك الأفكار ونصرها على يد جبهة ضخمة من البشرين المخلصين للتواضعين، وليس في مقدور أى كاتب معاصر أن يذهب العلم بالمدى الذى بلغه اليوم مثل ذلك العمل ولا نوع الحصول الذى يبتعث لنا الآن.

والظاهر أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية تختلط بالمشكلات الدولية اختلاطا لا سبيل إلى قسمه، كأن حل كل مشكلة منها ينصرف في الخامس نفس روح الخدمة الإنسانية الذى يستطيع أن يدخل القلب الإنسانى ويملأه إلهاما، وإن ارتباط الشعوب وهندامها وأمايتها لتعكس آثارها بل تنعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد من الملاك أو المملأ وهندامه أو أنانيت إزاء الصالح العام، وغلو الأفراد في روح الملكية بماثل، بل هو جرد لا يتجزأ من الشراة المشعة التي تبديها الشعوب والأباطرة. وذلك أنها تمار الميول الفردية نفسها، وتناج نفس الجبهات والتقاليد. والشيوعية الدولية إنما هي اشتراكية الأمم. وما يستطيع إنسان بمحض هذه المشكلات أن يشعر أن علم النفس بالغ الآن بقدر الكافي من العمق والقوة أو أن الطرائق والتطبيقات التربوية أخذت حظها الكامل من قوة التخطيط، بحيث تسكن لإيجاد حل حقيق ونهاي لهذه الأناز الملهمة المتعلقة باختلاط البشر وتعاونهم. فمن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالمية السلام فعالة الأرض. حقا كسكان العالم في ١٨٢٠ من حيث عجزهم عن إنشاء السكك الحديدية الكهربائية. ولكن تلك الفكرة ليست - على الرغم من كل مالدنيان من مقدمات بعيدة التحقيق، وما يدرينا قلما قريب قرب الأخرى.

وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته، وما يستطيع فكر أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر، كما أن من المحال علينا أن نمدبر أو نتنبأ كم من أجيال البشرية سيخطر إلخوض أهوال الحروب ومزاولة تبديد الأروال والأفانرو ومكابدة الخوف وعدم الطمانينة والشقاء قبل أن يوزغ بحر السلام العظيم يبدو أن التاريخ با كله يتجه صوبه ومشير إليه بالبنان، سلام يعمر القلب وسلام يعم الدنيا، أقول يوزغ ذلك القبح فيضع حدا لحياتنا المبددة لقتوى والأفانرو والحالية من كل هدف ترى إليه. وبديهي أن ما نقرحه لهذه الأمور من حلول لا تزال قائمة لجبهة يعوزها النضج.

ذلك أن الأهواء تكتنفها والشبهات تمتزجها . أجل إن جهدا عظيما يبذل الآن في ناحية الإنشاء والبناء الفكري ، ولكنه لا يزال ناقصاً . كما أن تصوراتنا للمعنى العام لذلك الأمر تزداد في كل يوم وضوحاً وضبطاً . فهل يحدث ذلك بسرعة أم ببطء ؟ ذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه . ولكننا كلما زادت جلاء وأدب بلغ تأثيرها في عقول الناس وأخيلتهم ، ولعل السبب في قوة تأثيرها الراهنة إنما يرجع إلى حاجتها إلى التأكيد إلى إقتدارها إلى الصحة الحقة . ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة . هل أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارية عندما يحظى بالدقة واليقين . وبما فاز بتلك القوة فوزاً سريعاً . وعندئذ لابد وأن يؤدي ذلك الفهم الجلي إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوي .

الفصل الستون

امتداد رقعة الولايات المتحدة

كانت أمريكا الشمالية أول أعظم في العالم تجمعت فيه أروع وأسرع ثمار الحضارات الحديثة في وسائل النقل . والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحية السياسية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر، كاتيلورث تلك الأفكار نفسها في دستورهما . فإنها استغنت عن كنيسة الدولة وتاجها، وأبنت أن تسمح بوجود الألقاب فيها ، وأظهرت قيمة شديدة في حماية الملكية بوصفها ضرورية من الحرية ، كما أنها قد منحت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات . وكانت طرائق التصويت عندهم فجيدة بصورة بربرية لا مثيل لها ، ولذا فإن حياتها السياسية سرعان ما وقعت في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم ، ولكن ذلك لم يمنع الشعب الحديث التحرر من إظهار همه ونشاط في الجهد واهتمام بالمسائل العامة تفوق ما بذله أى شعب معاصره .

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أطلقنا الإشارة إليها . ومن العجيب حقاً أن أمريكا التي تدعى أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل كانت أقل الدول إحساساً بها ، ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخاري والطراف وما إلى ذلك من مستحدثات كإنما هي جزء طبيعي من نموها ، والواقع أنها لم تكن كذلك . وكل ما حدث ، هو أن هذه الأشياء وصلت في النسب الأوقات فأخذت وحدة أمريكا . وكان الزورق النهري البخاري أول واضح للحبر الأساس للولايات المتحدة ، وكانت السكك الحديدية هي الدعامة الثانية لها . فلولاً هذين الأخيرين ، لاستحال قيام الولايات المتحدة ، تلك الأمة الضخمة التي تعمر قارة بأكملها . ولولاها لاصار السباح السكان غرباً أبداً كثير أولئك السياح هم هذا يمكن يستطيع قتل لولاها تجارز السهول الوسيطة العظيمة . فقد استغرق وصول الاستقرار العملي من الساحل الشرقي إلى نهر الميسوري حوالي مائتي سنة ، ومع أنها مسافة قتل كثير من أصناف الطريق بين المحيطين ، وأول ولاية أسست هو والنهر هي ولاية الميسوري .

الممتدة على الزورق البخارى والى قامت فى ١٨٢١ . على أن بقية المسافة إلى المحيط الهادى تمت فى بضعة عشرات السنين ..

ولو كان فى متناول أيدينا استخدام السيما لامتلاك بعض خريطة لأمريكا الشمالية بعد عام منذ ١٦٠٠ فابعدا ، مع وضع نقط صغيرة لتمثيل مئات الناصر الذين كانوا بها ، على أن تمثل كل نقطة مائة ، ووضع نجوم لتمثيل المدن التى يبلغ عدد سكانها مائة ألف فأكثر .

وعند ذلك يرى القارى أن التثقيب سيظل مائى عام يزحف ببطء على امتداد المناطق الساحلية والمياه والأنهار الماخلة لللاحة ، وأنه ينتشر بتدرج أبداً كثيراً فى ولايتى إنديانا وكتاكي وغيرهما . ثم يحدث فى زمن ما يقارب ١٨١٠ تغيير مفاجئ ، إذ تنشط الأمور كثيراً فى مجارى الأنهار . وعند ذلك تتكاثر النقط وتنتشر . وما ذلك إلا لظهور الزورق البخارى . وعندئذ تظهر النقط الامامية وهى تتقدم سريعاً فوق أراضي كنساس ونبراسكا مبتدئة من عدد من نقط الارتحال على امتداد الأنهار العظيمة .

ثم تظهر سنة ١٨٣٠ الخطوط السوداء المثلثة فى الخرائط السكك الحديدية . ومنذ ذلك الحين لا تكتفى النقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط بل تنطلق مبرولة . فإنها تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جداً حتى لتكاد تقول إن ضرباً من الرشاشة هو الذى يقذفها على الخريطة ، وعلى حين فجأة تظهر هنا وهناك أول النجوم التى تشير إلى أول المدن العظيمة الحاوية لمائة ألف من السكان . وإذا هى فى البداية مدينة أو اثنتان لا تلبث أن تصبح عدداً كثيراً من المدن . وكل منها كمقدمة فى الشبكة النامية للسكك الحديدية .

وقد كان نمو الولايات المتحدة تطوراً لا عهد للناس بمثله فى تاريخ هذا العالم فإنها حدثت من نوع جديد . وما كان من الممكن قبل ذلك لشوء مثل هذا المجتمع ، ولو أنه ظهر دون سكك حديدية فلاشك أنه لم يكن محيى من أن يشرق بدداً قبل عصرنا هذا بزمان طويل . فلزم يوجد التفراف أو السكك الحديدية لاصبحت إدارة كاليفورنيا من مدينة يمين أسهل كثيراً من واشنطن ، على أن هذا العدد الهائل من سكان الولايات المتحدة الأمريكية لم يمتدح على نحو زهيب خارق وحسب ، بل ظل منسجماً

متناسقاً، بل الواقع الذي لاشك فيه أنهم زادوا انسجاماً وانساقاً. فالرجل الذي يسكن سان فرانسيسكو أقرب اليوم إلى رجل نيويورك من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيو إنجلند قبل يومنا هذا بقرن من الزمان كما أن عملية التمثيل ماضية في طريقها لا يعوقها عائق. فكيان الولايات المتحدة تنسجه ونحيك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف، فتجعل منه حل التدرج مجتمعاً هائلاً موحداً، يتحدث ويفكر ويتصرف في السجام تام مع نفسه، ولن يمضي زمن حتى يؤدي التطيران واجبه من المشاركة في هذه العملية.

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شيء جديد حقاً لا يظفر له في التاريخ. أجل سبقهما في الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مائة مليون نسمة، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة، ولم يحدث قط أن ظهر حل هذا المعيار قبلها شعب واحد بمفرده، لذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشيء الجديد. ذلك أننا نسمى الولايات المتحدة قسراً، ولكن شتان بين الدينين، فالفرق بينها كالفرق بين السيارة والعربة التي يجرها حصان، لقد أنشأتها جهود متباينة وظروف متباينة، وهما تقبلان على أعمال الحياة بضرورة مختلفة وتتناولانها بطريقة مختلفة تماماً. فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مذى هائل وإمكانات، تقف في منتصف الطريق بين دولة أوربية من الطراز القديم وبين ولايات متحدة تفضل العالم أجمع.

على أن الشعب الأمريكي مر وهو في طريقه إلى هذه العظمة والعظماء ينتق في مرحلة من مراحل الفضال العنيف القاسي. ذلك أن الزورق الناري البخاري وسكة الحديد والتلغراف وما إليها من وسائل النقل المريحة، لم تظهر بالسرعة الكافية لتجنيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشمالية، فكانت الولايات الأولى تملك الرقيق، وكانت الثانية ولايات كل من فيها من الناس حر طليق، ولم تشر السكك الحديدية والزورق البخاري في البداية إلا لثمرة واحدة هي زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة أفعاً لأن كان يعنتها شطرا الولايات المتحدة، فإذا ترايقت وحدة الشقين لتجنيب لوسائل المواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة والحاجة: فهل ينبغي أن تنود فكرة الجنوب أو تنقلب روح الشمال؟ وكان احتمال تمام الطرفين ضيقاً. ذلك أن الروح الشمالية كانت حرة تدعو إلى تركية الفردية، أما الجنوبية فتجذب نحو المزارع الصنعتية ونحو تسلط سادة ذوي رعي طبق على جماهير سوداء ذليلة.

وكانت كل منطقة جديدة تنظم أمورها وتصبح ولاية من تقدم خيل السكان غرباً ، أى كل جزء يضاف إلى النظام الأمريكى الهائل المتواصل إلغاء ، يتحول إلى مسرح الصراع بين الصكرتين : فهل ينبغي أن تكون الولاية الجديدة ولاية مواطنين أحرار أم سيؤدما نظام المزرعة الكبيرة والعبد المملوك ؟ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية زاحمت منذ ١٨٣٣ لا تقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه بل تشتر الأرى العام فى البلاد كلها لإلغائه إلغاء تاماً ، ولم تلبث المسألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضوع إدخال ولاية تكساس فى الاتحاد . كانت ولاية تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن معظم سكانها كانوا مستوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التى تبيع الرق ، فلما انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها فى ١٨٣٥ ، ألحقت بالولايات المتحدة فى ١٨٤٤ ، وكان الرق محظوراً بتكساس بمقتضى القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب أخذ يطالب آتئذ بإباحة الرق بها وضمها إليه ، وفلانم له ما أراد .

وفى ذلك الحين نفسه أخذ نمو الملاحق فى المحيط وتطورها يجلب من أوربا حشوداً متزايدة من المهاجرين زادت كثيراً فى سكان الولايات الشمالية الأخرى بمبقراتهم غرباً مما ترتب عليه تحويل مناطق إيو ويسكنسن ومينيسوتا وأوريجون وكلها مناطق زراعية شالية - إلى ولايات ، فأدى ذلك إلى منح الشمال المناوى للرق فرصة التفوق فى كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وشارت ثائرة الجنوب الأراع فقطن ، لنمو قوة أنصار حركة إلغاء الرقى وتديدن لمصلحه ، وخشى منه هذا التفوق فى الكونجرس ، فشرع يتحدث مطالباً بالانفصال عن الاتحاد ، بل لقد شرع الجنوبيون يحملون بضم المكسيك إليهم فى الجنوب هى وجزائر الهند الغربية ، وبإنشاء دولة عظيمة تبيع الرق وتتصل من الشمال وتمتد حدودها حتى بنما .

حتى أن انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للدولة ١٨٦٥ - وهو يدين بمذهب عدم مد حدودها جنوباً - دعا الجنوب إلى الإقدام على الإنسلاخ عن الاتحاد ، وأصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوماً بالانفصال ، وتلعبت لفرغى شعار الحرب . وانضمت إليها بعد ذلك ولايات المسيسي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس ، واجتمع بمدينة متجمري بولاية ألاباما مؤتمر انتخاب جفرسون دافير رئيساً لولايات الجنوب المؤلفة ، واضعد دستوراً يناصر بوجه خاص الرقيق الأبيض .

وتصادف أن كان أبراهام لنكولن وجلا يمثل تهما طراز الشعب الجديد الذي
ترسخت أقدامه بعد حرب الاستقلال. قضى أيامه الأولى يعيش في غيرة تيار السكان
العام المتجه غرباً . ولد بولاية كنتو كى في ١٨٠٩ ، ثم انتقل إلى إنديانا وهو غلام ، فإلى
إلينوا فيما بعد . وكانت الحياة في مجاهل غابات إنديانا في أثناء تلك الأيام خشنة مليئة
بشظف العيش ، ولم يكن المنزل الذى عاش فيه ، إلا كشكاً من الكتل الخشبية ومف
البرية . كما أنه لم يصب من التعليم إلا قسطاً ضئيلاً ومقطوعاً . ولكن أمه علمته القراءة منذ
حديثه ومن ثم أصبح قارئاً منزهاً واسع الاطلاع . ولما بلغ السابعة عشرة أصبح
شاباً رياضياً ضخم الجثة يهوى المصارعة والعدو . وعمل رعاة من الزمن كاتباً بأحد
التاجر ، ثم فتح متجرأ مع شريك كبير ، فوقع في رقة ديون لم يتيسر له سداها إلا
في مدى خمسة عشر عاماً . ومالئث أن انتخب في ١٨٣٤ عضواً في مجلس النواب عن
ولاية إلينوا وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره . وكانت مسألة الرق يتأجج
لميها بولاية إلينوا بوجه خاص وذلك لأن السناتور دو جلاس الزعيم الكبير لحزب
نشر الرق في الكونجرس القوي ، كان عضو مجلس الشيوخ عن تلك المقاطعة . وقد
أوقى دو جلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعة ، وظل لنكولن يضع سنين يحاربه
بالخطب والفتريات ، وهو يرقى إلى النوم إلى نفس مكانة خصمه القوي المسكين
الظافر . وبلغ كفاحهما ذروته في حملة الرئاسة الانتخابية في ١٨٦٠ ، حيث انتخب
لنكولن رئيساً في ٤ مارس ١٨٦١ ، وقد تم انفصال الولايات الجنوبية عن حكم
الحكومة الاتحادية بواشنطن ، وبدأت العمليات الحربية .

فانك في هذه الحرب الأهلية الأمريكية بجيوش ارتجال دون سابق تدريب ،
وأخذت تنمو على الدوام بضع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف ، حتى تناهى الأمر
إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل ، ودارت وحى تلك الحرب فوق منطقة
مترامية من الأرض تمتد بين ولاية نيو مكسيكو والمحيط الاطلنطى شرقاً ، وكانت مدينتا
واشنطن وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين ، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن
تضاعف الهيم في أثناء ذلك الكفاح الرائع الذى كان يتدرج ذهاباً ورجوعاً عبر التلال
والغابات بولايتى تيسى وفرجينيا ويتحد مع نهر المسيسى . كان كفاحاً بدت فيه القوى
والثروات وأزهقت فيه الأرواح على مجور هيب جامع . فإذا تم هجوم أحبه على الفور
هجوم مضاد ، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوماً أصعبه دياشى اليأس ، ثم عاد

الرجاء فأنزل ثم خيم اليأس مرة ثانية؛ فيوما تلوح واشتعلن كأنما هي في قبضة ولايات الجنوب المؤتلفة. أو تكاد، ويوما تكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى حثيثة إلى ريتشموند. وكان جنود ولايات الجنوب للمؤتلفة يقاتلون بحب امرأة قائد مقتدر عظيم الجنرال لين كولن فافهم الشمالون في الهدوء والموارد. ولكن قيادة الاتحاد الشمالى كانت أدنى كفاية بكثير، لذا كان القواد هناك يعزلون ريعين مكائهم آخرون جدد؛ حتى تم النصر في النهاية تحت قيادة شيرمان وجرائت على جيوش الجنوب المهلهلة الشياب المستنزفة للموارد والدماء. ففي أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان اختراق حيدرة الجنوب وتقدم من تلقى إلى الساحل بحر قاجورجيا، وما راها بلاها الجنوب وفي صميم أقاليمه، ثم انصرف شمالا لولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية، وأطبق على مؤخرة جيوش الجنوب. وفي الوقت ذاته كان جرائت يشل جيش لى أمام ريتشموند من كل حركة حتى أطبق عليه جيوش شيرمان. ولم يلبث لى أن سلم بحيشه في ٩ من أبريل سنة ١٨٦٥ قرب أبوما نكس كورت هاوس، ولم ينقض شهر واحد حتى ألقت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسلحتها، وانتهت دولة الجنوب.

أجهد هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات شعب الولايات المتحدة إجمادا ماديا ومعنويا وخطيا هائلا. ذلك أن مبدأ استقلال الولاية كان عزيزا محبيا لدى أنفس كثيرة، وأن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب في الواقع على إلغاء الرق إرغاما. ولقد بلغ الأمر بالناس في الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين، أن كان الإسخوة وأبناء العيمة؛ بل الآباء وأبناءهم، ينحازون إلى شيع متضادة ويمجدون أنفسهم يتقاتلون في جيوش حتمادية، وكان الشمال يحس أن قضيته تقوم على الحق والعدل، ولكن جماهير غفيرة من الناس لم تكن ترى أن ما يدعروا إليهم من حق وعدل كان متصفا بالكمال مبرا من المييب أو فوق التجريح والتجدي. ولكن لنكون لم يساوره أى شك، فإنه ظل يحتفظ بصفا ذهنه على الرغم من تلك البلبلة الشديدة. وكان يؤمن بالاندا ووقف مدافعا دونه، وكان يناصر السلام الشامل للأمريكا، وكان عدو الرق، وإن عد الرق مسألة قانونية، أما هيدف الأول فهو ألا تنمزق وحدة الولايات المتحدة إلى شقين حثييين ومتناحرين.

ولما شرح الكونفدرلس وقواد الاتحاد فذكرون في أثناء المراحل الأولى للحرب في القبرج في تلك رقيب الرقيق اعترض عليهم لشكون وخفف من غلواء جاسمتهم. ذلك

أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل ومع دفع التعويض اللازم ، فلم يتطور الموقف بحيث يسمح للكونجرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري للتعويضات إلا في يناير سنة ١٨٦٥ ، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية .

وبينا الحرب تهر ساقها متشابكة في ١٨٦٢-١٨٦٣ ، نمت تأثيرة الانفعالات الأولى والحاسات الأولى ، وأخذت أمريكا تتعلم كل دروس التهرم بالحرب والاشتراك منها . ونظر الرئيس فلم يجد حوله إلا خوفاً ودعامة مريضة وقواداً معزولين وسياسيين حزينين ملتئمين ، كما لم يجد خلفه إلا شعباً متفككاً متعباً ، ولا أمامه إلا قواداً أغبياء وجنوداً مبتئين ، ولما انشك أن عواء الوحيد في تلك الليلة كان شهوره بأن دافين في ريشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالاً . وخرجت الحكومة البريطانية عن السلوك الكريم وسمحت لوكلاء الجنوب بالجملة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن مريضة للقرصنة في المحيط ، وأن يزودوها بالرجال وأشهرها هي الألباما . فكانت تعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار . وذلك على حين راح الجيش الفرنسي بالمكسيك يمرغ في الوحل مذهب مورنو . وتواردت على الرئيس مقترحات قاتلة بايقاف الحرب ، وترك نتائج المناقشات تجري فيها بعد ، والاتفاض بالولايات المتحدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك ، ولكنه أنى أن يصفى إلى مثل تلك المقترحات ما لم تصبح كلمة الاتحاد وسلطته هل العليا . فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون بمثل هذه الأعمال كضرب واحد لا كشميين منفصلين .

لقد ظل لنكون ربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهوراً طويلة فضنية سفلت بالهزائم والجهد عديم الجدوى وفي مراحل قائمة من الفقرة والانقسام وخور المعزمية ، وليس بين أيدينا أية حادثة تدل على أنه تردد يوماً عن هدفه . ومرت عليه فترات لم يكن يجد في أثناءها شيئاً يعمل ، فترات كان يجلس في أثناءها في البيت الأبيض صامتاً لا يتحرك ، كأنه تمثال صارم متجهج المعزمية والتصميم ووجامت عليه أوقات كان يخفف فيها الأعباء عن عقله بالازاح والفكاهة المكشوفة .

ولقد فاز لنكون بما اشتهى ، فانضاله الاتحاد قد تكمل بالظفر . ودخل الرئيس مدينة ريشموند بعد تسليمها بيوم واحد ، وسمع بقسليم الجزال لي . ثم عاد إلى واشنطن ، والتي آخر خطبة عامة له يوم ١١ من أبريل . وكان مذهبه الذي يدن به هو

الصالح وإعادته تكوين الحكومات الموالية في الولايات المنهزمة، وذهب في مساء ١٤- من أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح ، أطلق الرصاص على مؤخر رأسه. يمثل اسمه بوث وجرحه جرحاً قاتلاً ، وكان يحقد عليه لسبب ما ، فقتل إلى الأوج دون أن يراه أحد . ولكن لنكون كان قد أدى ما عليه ، وعم إنقاذ الاتحاد .

وعند بداية الحرب الأهلية ، لم يكن هناك خط حديدي يمتد إلى ساحل المحيط الهادئ ؛ ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة كأنها نبات سريع النمو ، وإذا هي حتى اليوم تقبض على أراضي الولايات المتحدة الشاسعة المترامية وتضمها بعضها إلى بعض وتفسجها وحدة عقلية ومادية لاسبيل إلى حلها . هي أعظم مجتمع حقيق في العالم ، حتى يجيء الوقت الذي يتعلم فيه هامة السنين القراء

الفصل الحادى والثون

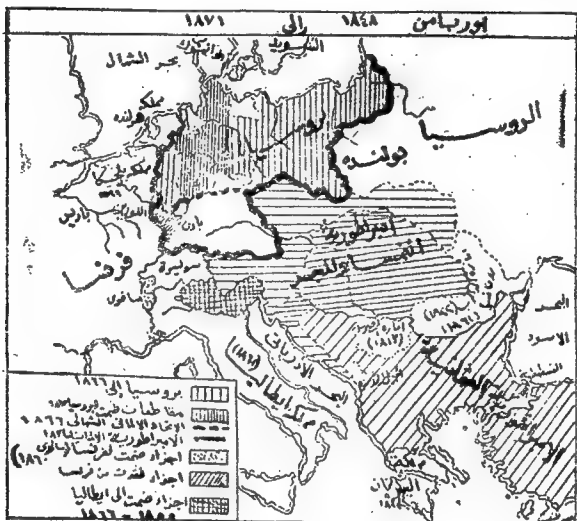
المانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدثت بعد الحزات العنيفة التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية ومنامرات نابليون أن اسقطت أوروبا من جديد لفترة سلام يسودها القلق والاضطراب وإن شملتها الظروف السياسية التى كانت بها قبل ذلك بحسين تاما، ولكن فى صورة جديدة إلى درجة ما . ولم تظهر حتى منتصف القرن ، أية نتائج سياسية ملحوظة للوسائل الجديدة فى معالجة الصلب ولا السكة الحديدية أو الباخرة . على أن التوتر الاجتماعى الناجم عن نمو الصناعة فى المدن سار أشواطا . وظلت فرنسا قطرا يادى القلق . إذ جاءت بعد ثورة ١٨٣٠ ثورة أخرى فى ١٨٤٨ . ثم نبوا نابليون الثالث وهو ابن أخ لنابليون الأول - رئاسة الجمهورية أولا . وأعلن نفسه إمبراطورا فى ١٨٥٢ .

ثم شرع من فوره فى إعادة تشييد باريس . وحولها من مدينة جميلة غير صحيحة من مدن القرن السابع عشر ، إلى المدينة الواسعة الأطراف اللاتينية الطابع الرخامية الجانف التى تشهدها اليوم . وشرع من فوره فى إعادة بناء فرنسا ، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية ظاهرها الطابع المعصرى المشرق . وأبدى شيئا من الميل إلى بعض روح المنافسة بين الدول الكبرى ، التى ظلت تشغل أوروبا تماما بحروب غير معدية فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . واتخذ نقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٦) نفس النزعات المدوانية وأخذ يضبط جنوبا على الإمبراطورية التركية وقد شخص بصره إلى مدينة القسطنطينية .

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت فى أوروبا دورة جديدة من الحروب . وكلها فى الغالب حروب غايتها الرفعة وتوازن القوى ، فهاجمت إنجلترا وفرنسا وملكسبردينيا دولة الروس بلاد القرم دفاعا عن تركيا ، وفتاقت على زعامة ألمانيا كل من بروسيا (ومعها إيطاليا كحليفة) والنمسا . وخررت فرنسا شمال إيطاليا من ربة النمسا وقيضت مقاطعة سافوى ثمنا لذلك التحرير ، ومن ثم أخذت إيطاليا توحد نفسها بالتدريج فى نطاق ملكة واحدة . وعندئذ قبض نصحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح

المكسيك في أثناء الحرب الأهلية في أمريكا ؛ فتنصب فيها إمبراطوراً هو مسكلمان، ثم يبادر بالتخلي عنه وتركه يواجه المقاتلين بمفرده ، ومالبث أهل المكسيك أن أعدهوه رعباً بالرماس ، بمجرد أن كثرت عن أنيابها حكومات الولايات المتحدة المنتصرة في معركة الاتحاد .



خريطة (رقم ١٨)

وفي ١٨٧٠ نشب بين فرنسا وبروسيا صراع على السيادة في أوروبا بعد أن ظل يهدد الانفجار أمداً طويلاً. وقد تمكنت بروسيا بذلك الكفاح منذ زمن بعيد، بينما كان الفساد المالي ينتشر في أحشاء فرنسا داخلياً. ولذا كانت هزيمتها سريعة شديدة أخاذة. وغزا الألمان فرنسا في أغسطس، فسلم جيش فرنسي كبير بقيادة الإمبراطور نفسه دون قيد أو شرط قرب سيدان في سبتمبر، ثم سلم آخر في شهر أكتوبر عند Metz، وبسقطت باريس في أيدي الألمان (يناير ١٨٧١) بعد أن حوصرت وضربت بالمدافع.

ووقع الصلح بمدينة فرنكفورت ، وبه ونزت فرنسا من مقاطعتي الألزاس واللورين
للألمان . كما توحدت ألمانيا كلها هذا التماسا في إمبراطورية ، وأصبح ملك بروسيا ،
إمبراطورا لألمانيا ، فزاد عدد القياصرة في أوروبا قيصرا جديدا .

ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة في قارة أوروبا . ونشبت
حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ - ١٨٧٨) ، لكن الحدود الأوروبية ظلت
ثابتة بصورة قلقة طوال ثلاثين السنة التالية ، لم يداخلها في أثنائها إلا تعديلات
بسيطة بمنطقة البلقان .

الفصل الثاني والتون

الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار

بفضل السفن البخارية والنسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشرة بتمزق إمبراطوريات وتحطم أحلام لدعاة التوسع. ذلك أن الرحلة الطويلة المصنية من بريطانيا وإسبانيا إلى مستعمراتهما بأمر يكبح حول دون الروح والغدو المجرى بين الوطن الأم وبناته المستعمرات ، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة وأصبحت مجتمعات جديدة منفصلة متميزة ، لها أفكارها المتميزة ومصالحها بل حتى طرائقها الخاصة في الخلق والتعبير . وكانت كلما تمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التي كانت حمزة الوصل بينهما . أجل إن من الجائز أن تملق محطات تجارية ضعيفة تقوم في مجاهل البرية (كالتي كانت لفرنسا بكندا) أو مؤسسات تجارية بين ظهري مجتمعات غربية كبيرة (كالتي كانت لبريطانيا ببلاد الهند) تتعلق في سبيل البقاء البحث بالآلة التي أمدتها بالموثوق ومنحتها مبرور وجودها . ذلك وحده ولا شيء غيره كان فيما يخيل لكثير من مفكرى أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكم وراء البحار ، وما وافق ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنى حد الإمبراطوريات الأوروبية الكبيرة غير المنظمة الحدود ، التي كانت تبدو بارزة الضخامة في خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، ولم ينبج من هذا المصير إلا الإمبراطورية الروسية التي ظلت تحف عبر آسيا محتفظة دائما بخصامتها وأكثر .

وكانت الإمبراطورية البريطانية تكون في ١٨١٥ من مناطق كندا الساحلية القليلة السكان وبوحيها المحيطة بالأنهار والبحيرات ، وأقاليم داخلية ضخمة من البراري كان كل ما فيها من المستقرات لا يتجاوز حتى ذلك التاريخ محطات تجارية القراء التابعة لشركة خليج هدسون ، فضلا عن تلك شبه جزيرة الهند ، الذي تحكمه شركة الهند الشرقية ، والمناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصالح التي كان يسكنها السود وبعض المستقرين الهولنديين ذوي النفوس المتمردة ، ثم بضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية ،

ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على العمال الأرقاء، بجزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية وأمريكا الجنوبية، كما كان لها هذا ذلك مستودعان للحريرين يقومان في آخر أطراف العالم هند خليج يوتاني بأستراليا وجزيرة تصاليا. أما إسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا وبضعة مستقرات بجزائر الفلبين، على حين تبقى البرتغال بقايا ضئيلة مما كانت تدعى ملكيته قديماً.

أما هولندية فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانا الفرنسية، كأنما كان ذلك هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوروبية، أو الذي يحتمل أن تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم. ولم يكن ثم أحد يبدى روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية.

وبينا كانت أوروبا مفتتكة في حروب نابليون، كانت شركة الهند الشرقية تلعب في الهند برياسة جمهرة متعاقبة من المديرين النور ذاته الذي لعبه بلك البلاد من قبل التركمان ومن شابههم من غزاة شماليين. وواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فينا، من جباية الضرائب وشن الحروب وإرسال السفراء إلى الدول الآسيوية، كأنما هي دولة شبه مستقلة. ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب.

ويشعخع المقام هنا لتفاصيل الطريقة التي استطاعت بها الشركة البريطانية أن تشق طريقها نحو السيادة، بأن تكون نارة حطفا لهذه الدول في نارة أخرى حطفا لتلك، حتى غدت في النهاية قاهرة الجميع. امتد سلطانها حتى شمل أسام وإقليم السند وأوده، بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصورة الإجمالية المألوفة للتلاميذ المدارس عندنا اليوم، فهي خريطة مكونة من رقع صغيرة من الإمارات الوطنية التي يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعة تحت الحكم البريطاني المباشر.

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية التابعة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطاني في سنة ١٨٥٩، بعد تمرد خطير قام به الجنود الوطنيون بالهند. وبمقتضى قانون صدر بعنوان «قانون إصلاح حكومة الهند»، أصبح المدير العام نائباً للملك يمثل العامل صاحب التاج، وحل محل الشركة وزير الهند، مشول أمام البرلمان البريطاني. ورغبة في

الوصول بالأمر إلى غاية الطبيعة ، حمل الورد يكون فيلد الملك فيكتور يافى سنة ١٨٧٧ على المتأداة بنفسها إمبراطورة الهند .

والهند وبرطانيا تر بطن في الوقت الحاضر على هذه الأسس المتجنية الحارقة (١) . ذلك أن الهند لاتزال إمبراطورية ، المغول العظيم ، ولكن المغول العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى الخرجة . فالهند دولة حكم ، ملق ليس بها حامل ملق . فلها يجمع بين مساوى الملكية المطلقة وبين مالوظفين في ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول ولا يمس إلى التواحي الشخصية بأية طلاقة ، فالهندي الذي له علامة لا يبدأ أمامه أهلا يلجأ إليه ، فالإمبراطورة الأرو من ذهب ، لذا لم يكن أمامه من من إذاعة النشرات بالجلطة أو الإجماء إلى التواب بالقاء سؤال بمحاسن العموم البريطانى . وكلما زاد البرلمان الشغلا بالشئون البريطانية قل ما تلقاه الهند من التفاته ورعايته وزاد وقوها تحت رحمة زمرتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وفيما هذا الهند لم يتدر لاية إمبراطورية أو ودية الحصول على أى توسع عظيم حتى بلغت المراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها . وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين البريطانيين تميل إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدرا لضعف الدولة لا قوتها . وتمت المستوطنات الأسترالية ببطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنفط سنة ١٨٤٢ . وأخرى للذهب فى سنة ١٨٥١ إلى إعطائها أهمية جديدة . فكان تحسين وسائل النقل جعل الصوف الأسترالى سلعة تجارية قابلة للتصدير المتزايد فى الأسواق الأوروبية . هذا إلى أن كندا لم تصب قدما ملحوظا إلا فى عام ١٨٤٩ . إذ كانت تدور كلكتها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، لدا حدثت بهادة ثورات خطيرة ، فلم ينفذ من تاتها الداخلية فى النهاية إلا صدور دستور جديد سنة ١٨٦٧ أنشأ دومينيون كندا الاتحادى . والسكك الحديدية هى لاجرم صاحبة الفضل فى تيسير مستقبل كندا ، فلما مكنت من قبلها الولايات المتحدة من التوسع غربا ، ومن بيع قمحا وغيره من المنتجات فى أوروبا ، مكنتها على الرغم من نموها السريع المترامى من أن تظل مستمعا واحدا تصدقه اللغة والمحافظة والمصلحة

(١) استقلت الهند فى عام ١٩٤٧ ولان ظلت تتقوى إلى الكومنولث (أمم معومة الأمم البريطانية) ثم أصبحت جمهورية .
[الترجمة]

المشركة ، والواقع الذي لاشك في أن شركة الجديدة والسفينة التجارية وأسلاك
الطيران البحري كانت تعتبر تماماً جميع أحوال التطور الاستعماري .

وكانت لا تتجسس مستترات بحرية نيوزيلندة قبل ١٨٤٠ ، كما أن شركة
لاواحي نيوزيلندة كانت قد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة ، ولم تلبث
نيوزيلندة أن ألحقت هي أيضاً سنة ١٨٤٠ بالملكات الاستعمارية لتتاج البحر طاق .

وكانت كندا كما ذكرنا آتياً أول الملكات البريطانية التي استجابت بقوة
للامكانيات الاقتصادية الجديدة التي فتحت أبوابها وسائل النقل الجديدة . سرعان
ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية غاصتها جمهوريات الأرجنتين تضم من حيث تجارة
الماشى واللحوم وزراعة البن ، بتزايد قرب السوق الأوروبية ، وإلى ذلك الحين
كانت أم السلع التي تجتذب دولاً أوروبا إلى اهتمام المناطق الهجينة غير الآمنة بالسكان ،
هي الذهب أو غيره من المعادن أو الترابيل والأفاوية أو الحاج أو المبيد ، ولكن
زيادة السكان بأوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع أخذت تثير الحكومات على
البحث في الخارج عن الأغذية الرئيسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على أسس طرية
أوجد الحاجة إلى مواد علم جديدة ، كاللحوم والزيوت من جميع الأصناف
والعظام ومواد أخرى كان بغل شأها قبل الآن ، وكان جلياً لبيان أن بريطانيا
العتشى وهولندة والبرتغال كانت تفتنى ثمار وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة
بسبب سيطرتها الكبيرة على منتجات الأقاليم الحارة . ثم شرعت ألمانيا بعد عام
١٨٧١ ومن ورائها على الفور فرنسا فإيطاليا فيما بعد ، تشخص يعمرها باحتة
عن مناطق اللواد الخام لم يضمها إليه أحد ، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع
العمري بها بصورة مشرة ورمحة .

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله ، ولم ينح منه إلا أمريكا
التي وقت فيها مبدأ مورور آتذاك حائلا دون مثل تلك المناخرات الباحثة من
أرض لا تجد من يحميا سياسيا .

وكانت إفريقيا أقرب اقاربات إلى أوروبا ، وهي مليحة بالإمكانيات التي يكتملها
النموذج والإيهام . كانت في ١٨٥٠ بدأ تقيط بالأسرار القائمة لحداء ، وظل يمكن
مفروفا من أقطارها ، إلا مصر والأقاليم الساحلية ، ويضيق المقام هنا عن قصة
(٢٢ - تاريخ العالم)

المستكشفين والحنافين المدعومة الذين اخترقوا لأول مرة غابات تلك المناطق الإفريقية ،
وعن ذكر المملاء السياسيين والمديرين والتجار والمستوطنين ورجال العلم الذين ما لبثوا
أن ساروا في أثرهم ، وبفضل ارتداد إفريقية رفع التام عن أجناس بشرية مدممة كالأنعام
مثلاً ، وعن حيوانات صجية كالزواكي ، وعن فواكه وأزهار وحشرات بدئية ،
وأمراض عظيمة ، ومناظر أخاذة لغابات والجبال ، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة
ومساقط مائية ضخمة : عالم جديد بأسره . بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت (عند مبابو)
بقايا حضارة بائنة لم يسجلها التاريخ ، هي آثار مفاخرة اتجهت جنوباً لشعب
قديم غير معروف . إلى هذا العالم الجديد وفد الأوروبيون ، ووجدوا البندقية به
في أيدي تجار الرقيق العرب ، كما وجدوا حياة الزنوج في اضطراب شامل .

وما انقضت خمسون عاماً وحلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت إفريقية كلها قد رسمت
خريطةا وارتدت مجامعها وقدرت قيمتها وقسمت بين الدول الأوروبية ، ولم يكن
أحد في أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصليين . أجل إن
النحاس العربي لم يطرده من الميدان فقط بل أيدى تماماً ، ولكن الجشع والشراسة
على المطاط الذي كان محصولاً برياً يجمعه الأهالي قسراً في إقليم الكونغو البلجيكي ،
وهو جشع تفاقم شره بسبب الاستخدامات التي نشبت بين الحكام الأوروبيين
غير ذوي الخبرة وبين الأهالي ، أفضى ذلك كله إلى اقتراف أشنع النطاقات ، ولا
تستطيع دولة أوروبية واحدة أن تدعى طهارة اليد تماماً من آثام تلك الحقبة .



خريطة رقم (١٩)

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنت بها بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في ١٨٨٢ والبقاء فيها على الرغم من أن مصر كانت من الناحية الدولية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولا كيف أوشك هذا التناطف على المستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في ١٨٩٨ عندما حاول الكولونيل مارشاند في فاشوده ، أن يستولى على النيل الأعلى في أثناء عبوره أواسط إفريقيا من الساحل الغربي .

ولن يتيسر لنا أيضا أن نحدد كيف سمحت الحكومة البريطانية أولا البويراي المستوطنين الهولنديين بمنطقتي نهر الأورانج والترفسال أن ينشئوا جمهوريات مستقلة بمناطق إفريقيا الداخلية ، ثم عادت فنقدم على ما فعلت وضمت جمهوريات الترفسال في ١٨٧٧ ؛ ولا كيف ناضل بوير الترفسال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعد معركة تل ماجوبا في ١٨٨١ . وأثيرت حول معركة تل ماجوبا حملة صحفية لجوج جعلتها كالغصة في حلق الشعب البريطاني أو القريحة في ذاكرته لذا لم تلبث الحرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وكانت حربا دامت ثلاث سنين كبدت الشعب البريطاني نفقات طائلة وانتهت بتسليم الجمهوريتين .

على أن فترة خضوعهما لم تدم طويلا . إذ لم يلبث حرب الأحرار البريطاني في ١٩٠٧ بعد سقوط الوزارة الاستعمارية في قبرتها ، أن أخذ على عاتقه حل مشكلة جنوب إفريقيا ، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين ، وأن صارتا بدافع رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس ولاتال في اتحاد ضم ولايات جنوب إفريقيا بين دفتي جمهورية موحدة تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطاني .

لتم تقسيم إفريقيا في أربع قرن . وبقيت هناك ثلاث دول صغيرة تسياسا حافظت على استقلالها . هي ليبيريا وهي مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أنشئت على ساحل إفريقيا الغربي ، ومراكش التي يحكمها سلطان مسلم ، وبلاد الحبشة ، هي خطر محتمل يدين بضرب من النصرانية عتيق عجيب . وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإفرازه من عادية إيطاليا في معركة عدوه ١٨٩٦ .

الفصل الثالث والستون

العدوان الأوروبي على آسيا ونهوض اليابان

لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عدواً خفياً من الناس قد قيل حقا هذا التفسير
الأرض المتسرع لإفريقية بوعنه نسوة قائمة جديدة لشئون هذا العالم ، ولكن
الواجب يتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس قبلوه على ذلك الوصف . لم يكن
أفضل الأوروبي في القرن التاسع عشر إلا نصيب خفيف من العلم بالتاريخ ، كما
أنه لم يكون لنفسه حتى آنذاك عادة النقد القاطع لا يترقب من قبل أن المزايا الموثقة
البحث التي أتاحها الانقلاب للمكايكي يولد القرب الأوروبيين دون بقية سكان العالم
القديم ، كانه شيئاً يده كل من يجعل جهلاً مطلقاً أحداثاً كثيرة كترح المنون
وآيات تشهد بأن الأوروبيين يترغمون البشرية زعامة مستديرة وطيدة الأركان ،
فكانهم لم يشعروا بأن في الإمكان قول العلم واقتباس شرائعهم . وكانهم لم يدركوا
أن الصين أو الهندى كان يستطيع أن يتناول يديه مشعل البحث العلمى بغير
مقدرة الفرنسي أو الإنجليزي تماماً . وكانوا يعتقدون أن القرب دفناً فكرياً غلر
عليه ، وأن الشرق جبل على شوه فطرى من التكسل والمحافظة على القديم ، وأن هذه
حال تضن للأوروبي السيادة العالمية إلى أبد الأبد .

وكانت ماثبة ذلك النهوس الجنونى أن وزارات الخارجية يستخف أنظار
أوروبا لم تكف قطع بالتسابق مع البريطانيين طلباً للناطق الناعرة غير المتطورة
على سطح الكرة الأرضية ، بل راحت تقطع أنظار آسيا الممددة الآلة بالسكان
كأنها لم يكن أولئك الأهلون أيضاً إلا مواد خاما للاستثمار والاستغلال . ومن
البدى أن استثمار الطبقة البريطانية الحاكمة يولد الهند ، ذلك الاستثمار للزعزعة
الأركان فى باطنه وواقع حقيقته والفاخر فى ظاهره ، وأن تملك هولنديون
الترامية الأطراف الكثرة الأرباح والثروات بجوار الهند الشرقية كانت تملأ
الدول الكبرى المنافسة لها بأحلام أسلحة مشابهة لهذه بلاد فارس ، وبالإمبراطورية
الصينية التي شرعت تفكك ، وبأقاليم أخرى بالهند والصين واليابان .

واستولت ألمانيا في ١٩١٨ على كيوتو عاصمة اليابان ، فأبى اليابانيون ذلك بالاستيلاء على أراضيها وطلبوا من الروس أن يستولوا على مستعمراتها في بورت آرثر . وانبثقت في الصين روح الكراهية للأوروبيين . وقلعوا بكبر من المذابح أممرا فيا أينهم في الأوروبيين وفي الصينيين الذين احتقروا المسيحية ، كما هاجموا في ١٩٠٠ سفوف الدول الأجنبية في بكين وحسروها . وأولست إلى يتكهن حلة تجارية لدول أوربية عظيمة ، فقامت بإقتاد السفوف ومزقتهم فملا من الممتلكات الأجنبية والنصف . وبعد ذلك استولى الروس على منشوريا كما اجتاحت البرمائيون بلاد الصين في ١٩٠٤ .

منالك غرض في ميدان الكتابين الدول العظمى قوة جديدة في اليابان ، ولم تلبس اليابانيون حتى آنذاك إلا دوراً صغيراً في طر محاطاً ؛ ذلك أن حضارتها المنزلة لم تضرب بهم كبراً جداً في الحياة المتمدنة البشري فبقوا قد عثت الشيء الكثير ولم تطل إلا القليل والتسبب الياباني الحقيقي تسمى إلى الجنس المنزلة . وما حضارتهم وكتابهم ، وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا أفرع مما للصين - ولكن تاريخهم منع « ورومانس » ، وقد تطور بينهم في أثناء القرون الأولى للحضبة المسيحية نظام إقطاع وقرابية ، ولا إختلاص جعلتهم على كوريا والصين إلا أنظر الشرق لحروب الإحتلال جبرنا . وقلعوا غشاليان على الاتصال بأوروبا لأول مرة في القرن السادس عشر ؛ ثم وصل إليها في ١٥٤٢ بعض البرتغاليين فلدن في سفينة صينية ، ثم زلما في ١٥٤٩ حشر سيويو ، هو فرانسيس زافيير الذي بدأ حشر الناس هناك . وقد وجدت اليابانيون بسلامة بالآوروبيين ودخلوا الزمن ، تراء البشر من المسيحيين في أثناء أن حضرة إلى حضرتهم عدداً كبيراً من الأبطال . وولد حين من الدهر كان فيه شخصاً معلوماً آدمز مستقروا اليابانيين وموضع تقيم أكثر من الأوروبيين جميعاً . فأرام كيف جنون السفن الكبيرة . ومن ثم ظلم اليابانيون على سفنهم في بلادهم وحلات إلى بلاد الغرب وبعثت ، ثم تشبه خلافاً متقددين في المسيحية الإسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستانت الإنجليز واليوالديين ، وراح كل منهم يحفر اليابانيين من أطاع الآخرين وحظهم السياسية . وحلى الجزويت يوماً بدور من الدول الرفعة والغيرة ، فاحتلوا ينحون في أثناء عمل اليوتشين بالانضباط واللبط والإمالة المبرزة ، وأخيراً فتح اليابانيون لأن الأوروبيين حصول تذكير لهم لاسيلاً إلى الصعوبة من أن المسيحية الكاثوليكية يؤمن بها من لم تكن إلا استولوا على شرق آسيا فاستولوا على الشرق الأوسط

(الذين كانوا يملكون آفا جزائر الفيلين) فأزروا بالمسيحين اضطهادا عظيما، ثم
أفلوا أبراب الياباني في ١٦٣٨ إقالاتا ما في وجه الأوربيين، فظلت كذلك لما تروى على
ما تقي سنة . وانقطعت صلة اليابانيين في أثناء هذين القرنين عن قبة تجزأ العالم كما تاحت
لكنهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض ؛ إذ حرم عليهم بناء أية سفينة بكبر حوسبا
عن حجم زورق الانتقال الساحل . وخطر على اليابانيين متادرة البلاد إلى الخارج ،
ومنح الأوربيون من دخول البلاد .

ظلت اليابان قرنين كاملين بمعزل عن مجرى التاريخ الرميح وواصلت العيش في
ظل إقصاء جذاب ، كانت خمسة في المائة من السكان في أثناءها هي الساموراي ، أي المقاتلة
ومهم النبلاء ، وعائلاتهم ، تحكم قبة السكان حكما جائرا مطلقا لا تاحاط له ولا حدود .
حدث ذلك كله في العالم الخارجي الضخم بواصل خدمه ووسع آفاق آراءه وظل قنواء .
فتكاثرت السفن المجدبة لشكل التي تمر بموار الرءوس الأرضية قيا بابة الممتدة في البحر
وكانت بعض السفن تتحطم أحيانا ويطلب نوتيتها إلى الشاطئ . ثم جاء ثم القدر عن
طريق المستوطنة الهولندية القائمة على جزائر ديشيا ، وهي مزة الوصول بينهم وبين العالم
الخارجي أن اليابان لم تكن تسار ركب القوة في العالم الغربي . وأقبلت في ١٨٢٧
سفينة دخلت خليج ييدو وافقت عليها عينا من نجوم وشقق ملونة ، وقد حلت بعض
الملاحين اليابانيين الذين انتظمهم والتيان يدفعهم ميذا في المحيط الهادئ . وعندئذ
أطلقت المدافع على السفينة فاحتطرت إلى الانسحاب . وسرعان ما عاهد هذا العلم إلى
الظهور ثانية برفرف فوق سفن أخرى . منها واحدة جلت في ١٨٤٩ للعالية بإطلاق
وسراح ثمانية عشر بطرا تحطمت سفينتهم باليابان . ثم جلت في ١٨٥٢ أربع سفن
حربية أمريكية بقيادة قائد الأسطول برى Perry ورفضت أن تستجب ، فألقى القائد
مراسيه في المياه الخرمة على الأجانب ، وأرسل رسلا إلى الحكام الذين كانوا يشتركون
وقد في حكم اليابان . ثم عادت في ١٨٥٤ بشرة سفن ، سفن ضخام مفعلة بنفسها البخار
وقد زودت بالمدافع الكبيرة ، وقدم مقترحات تتعلق بالتجارة والاصال بالخارج ، لم
يسع اليابانيين إلقبولها . وتول القائد إل البريف بحرس مكون من خمائة رجل
لكي يوقع المعاهدة . ووقعت المعاهدة . وهي لا تتكاد تصفق أمينا تتبد مؤلا .
الزوار الوافدين من العالم الخارجي ، وهم يتخفون شوارع مديتهم .

وما لبث الصلور سار بريطانيا أن حذا حذر أمريكا . وروى نيل طعم كانت أملا
مائل على مضيق شيونوسيكي أن يلقى مدافعه على السفن الأجنبية ، فاحت

مخازنة بحرية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية تدمرت بمطاردتها
وبذلك شمل حشد المقاتلين بالسيوف ، وأخير أجد أسطول هولاء الحلفاء في
١٨٦٥ ، فالتى مراسيد عارج كيوتو وكوسو على اليابسة فذلكا للمعاداة اعطراة
إلى فتح أبوابها على مصاريفها العالم .

أذلك هذه الأحداث اليابانيين إلى أصوصه . فبواحدة وذلك مدعش يعلون
على رفع ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوروبية . ولم يحدث قط في تاريخ
العالم بأسره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة الموهلة التي خطتها عند ذلك اليابان .
كانت في ١٨٦٦ شعباً يعيش في القرون الوسطى ، ويمثل صورة حزلة خيالية لأشد
أنواع نظم الإقطاع ، الرومانس ، تطرفاً ، على أن شعباً أصبح في ١٨٩٩ ، معطياً
تماماً بالطابع الغربي . ويعيش على مستوى أرق الدول الغربية تقدماً ، فبدت
تماماً بذلك إكتناح الناس بأن آسيا كانت تأخر أغن أوروبا تأخر لا مرد له ولا رجاء
في إصلاحه . وجمبت كل تقدم أحرزته أوروبا يبدو بالموازنة بطيئاً مترايماً .

ويضيق المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ - ١٨٩٥ .
وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربي . إذ دلت على أن لها جيشاً
قادراً ذا نظام غربي ، وأسطولاً صديراً ولكنه سليم . على أن دلالة نهضتها ومغزاه
وإن لقيت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة ، الذين شرعنا آنفاً نعاملها
كدولة أوروبية ، إلا أن تلك الدلالة لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المنسقة في
البحث عن دهاء ، جديدة بقيادة آسيا . ذلك أن روسيا كانت تتقدم جنوباً خلال
منفوريا إلى شبه جزيرة كوريا ، وأن فراسا قد وطدت أقدامها آنفاً بمطقتي توكين
وأنام ، على حين راح أحد ألمانيا ترمس كالذهب الجامع باحثه من مستعمرة لها . واجتمعت
الدول الثلاث على منع اليابان من اجتثاث أية ثمرة للحرب مع الصين . وكانت منبهة
القوى من جراء تلك الحرب ، كما أن الدول الثلاث مددتها بالحرب .

وحضمت اليابان إلى حين وأخذت تجمع قواها . فلم تقض عشر سنوات حتى أصبحت
على أهبة الاستعداد للحرب مع روسيا ، وهي حرب تؤذن بحقيقة جديدة في تاريخ آسيا
أى بانتهاء فترة الصلف الأوربي . ولا شك أن الذهب الروسي كان بطبيعة الحال جاعلاً
بكل تفاصيل تلك المتاعب التي كانت تدبر لدى النصف الآخر من العالم وهو منها براء ،
كما أن العقلاء من سياسة روسيا كانوا يمارضون هذه الفتوح والهجرات الحفقاء ، ولكن

قتصر كان يحيط به جمع من النصارى المالكين ، فهم قترانوكه ايلد عومته ،
وكابوا قد غرقوا إلى ايقانهم في ضامرتهم التي اقرضوا يا تب تقضى مشوروا
والصين ، فلم يوردوا يطبقون الاسحاب من طال اليقان ، ولذا اقبلت اليابان
في نقل جبرشها عبر البحر إلى كوريا ، كما شرعت الروسية في ابرامه ملك
القطارات المحملة بالفلادين الروس عبر سكة حديد سيبيريا لكي يمر تراق تلك
المبادىء الحربية القاصية .

وهزم الروس برا وبراء السوء قياتهم وهم القزاة في احاطتهم . وتطلع
الاسطول الروس بمر البلطيق حول افرقية لكي يجره اليابانيون من آخره
يعضيق نوسيا . وثار العامة في الروسية وقد اتخيم إلى أقصى حد هذه القصة
القاصحة التي نزلت بأبنائهم تلك البلاد القاصية دون جد . فخطر قيصر إلى ايلد
الحرب في ١٩٠٥ . فأعاد إلى اليابان النصف الجنوبي من جزيرة ستالين التي
استولت عليه الروسية في ١٨٧٥ ، وتخل من مشوروا وتزلجن كوريا اليابان ،
لقد اقبلت نهاية اجنيان أوروبا لآسيا واخذت أوروبا ترق كل ساعة لما
أرادت بها في الماضي عجم عود تلك القلعة لزجبر انجولوط .

الفصل الرابع والستون

الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نسطط متقش من الإيجاز اختلاط طبيعة الأجزاء لتكون
منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ التي أصبحت في التاريخ والكتلة الجديدة
حم أجوانها بعضها إلى بعض . كنه ولا تزال خليطاً سياسياً فريداً ياتسلا ؛
إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلاً .

ومركز تلك المجموعة كلها ولول دولة فيها مما لمسورة للتوجه إلى الملكة
البريطانية المتحدة ، التي تتويجاً بها على إرثه (حد رقية شطر عظيم من الشعب
الإيرلندي) . وكانت الأقطاب في التاريخ طاق للكون من البراءة المتحدة
اللائق (عشرة (دور) واستكملت لتولدة ، هي التي تتجديس الرزق وتووعها
وسايتها ، وتعد ذلك بين على أخبارات السياسة البريطانية الداخلية فغفلت زارة
حي الحكومة العليا قتالة ، ولها سلطان إعلان الحرب وعند الصلح في كل أرجاء
الإمبراطورية .

ويل الولايات البريطانية في السياسة المجهورة وأصل التوجه إلى
وكتما ونيرة وعلا (وهي أقدم المملكات البريطانية ١٠٨٢) ونيوزلند وجنوب
إفريقية ، وكلها مستقلة فلا كاً أنها دول تحكم نفسها بنفسها في تعامل مع بريطانيا
العظمى ، ولكن يقيم بكل منها مثل الحاج تيه العكوة للترمة في دست الحكم .

وبعد ذلك تهي . الإمبراطورية الهندية وهي مبرورة مكية للإمبراطورية للقول
الأعظم ، وتماهيست الآن بتأثيرها من ولايات كامبرجيات تستعير طر عتانيلا
يوربا وتحم كذلك عمة عدن ، وفي تلك الإمبراطورية المتحدة يجب الحاج
البريطان ووزارة الهند (تحت وفاة الران) دون الأسرة التركية القديمة .

(١) تحت هذه السياسة لا رة صلاحت جوردن وتوضع لها ير اللان

ثم نصت مصر ذات المركز القامض الى ازالة اسما جزء من الإمبراطورية التركية ولا تزال تحتفظ بأهلها الخاضعين ، ولكنها نصحت حكم الموظفين البريطانيين ذلك الحكم الذي يكاد يكون استبداديا .

ثم ولاية السودان المصري الإنجليزي الذي هو في حال أشد غموضاً ، والذي يحيط ويديره البريطانيون بالاشتراك مع الحكومة المصرية (الواقعة تحت الهيمنة البريطانية) . ثم إن هناك عدداً من المجتمعات المستعملة بالحكم الذاتي إلى حد ما ، منها ما هو إنجليزي الأصل ومنها ما ليس كذلك ، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة والبيئات التنفيذية المعنية بأوامر ورأسهم ، مثل مالطة وجمايكا وجزائر باما وبرموده ، وبعد ذلك مستعمرات التاج ، التي قد ترب فيها حكم الحكومة البريطانية (عن طريق وزارة المستعمرات) من نوع الحكم الاستبدادي المطلق كقوة الشان في سيلان ونيوزيلندا وفيجي (التي كان لها مجلس متين) وجبل طارق وست هيلانة (التي لها حاكم) .

ثم مساحات مترامية من أقاليم مدارية (بوجه خاص) وهي أقاليم لإنتاج المواد الخام ، لها مجتمعات ضئيلة سياسياً ومتأخرة حضارياً ، وكلها بحيات إسمية ، يديرها مندوب سام يعين فوق حكمهم الأهالي (شاند باسوتولاند) أو فوق شركات تستمتع بمرسوم ملكي (كما هو الحال في روديسيا) . وكانت وزارة الخارجية في بعض الحالات ووزارة المستعمرات في بعضها الآخر ، ووزارة الهند أحياناً ، هي التي عملت على الحصول على تلك المنسلكات التي تقع تحت هذا الصنف الأخير الذي يد من حيث المركز أدنى المنسلكات شأناً وتعيداً ، ولكن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مسئولة عنها في معظم الحالات .

لهذا أفضح الآن ما تقدم أن وزارة واحدة لم تنضم قط على الإمبراطورية البريطانية كلها ولا تحدد لإدراكها عقل واحد ، في خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو قللت تراكت بعضها فوق بعض ، خليط يختلف تماماً عن كل شيء حل اسم الإمبراطورية قبلاً ، كما أنها أصبحت تقدم قيام سلام وأمن مسمى الرقعة ؛ من أجل ذلك تغفلها بأمرها كثير من الشعوب التابعة لها - على الرغم مما أبداه موظفوها من عظام وعدم كفاية ، وعلى الرغم مما تفعل في جمهورها بريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية الأمانة المطلوبة منه . والإمبراطورية البريطانية تتألف من كل ما ذكره الجغويون للإمبراطورية

اللاتينية ؛ فطرقها طرق بحرية ، كما أن حمزة الرسل بين أطرافها من الأسطول البريطاني
فإن تماسكها ككل الإمبراطوريات يستمد كل الاحتياط من وسائل المواصلات ، وقد أدى
تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر
إلى إمكان قيام نظم مناسبة على يد بياض العلم البريطاني ، Pax Britannica ، كما أن
ظهر تطورات جديدة في وسائل النقل الجوي أو البري السريع وبما أنضحت أية
لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك الميزة وجعلها غير مناسبة .

الفصل الخامس والستون

عصر التسليح في أوروبا والحرب العظمى

١٩١٤ - ١٩١٨

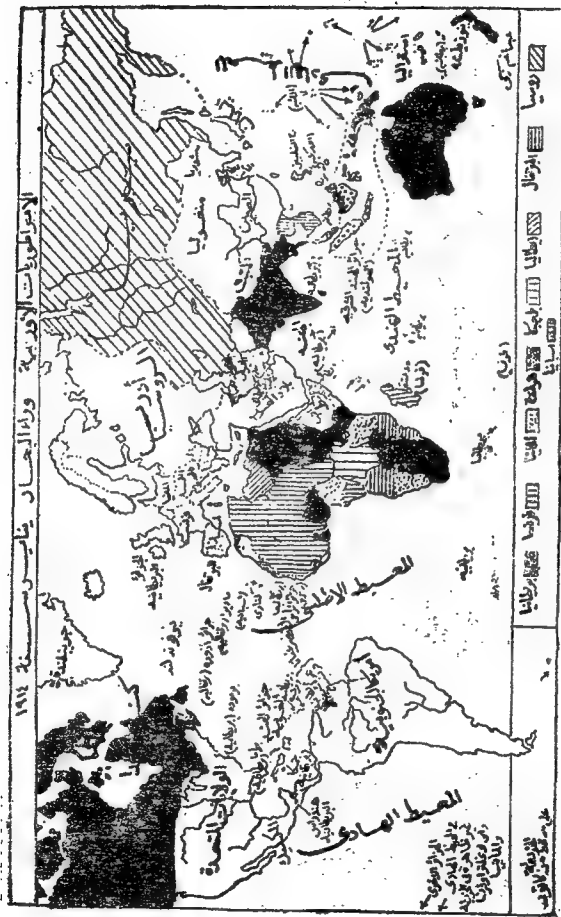
إن تقدم العلوم الطبيعية والمادية الذي تولدت عنه جمهورية أمريكا كانت قد اتجهت إلى
تعمد حل الزورق البخاري وسكة الحديد ، وتمنح من قِبل الإمبراطورية القيصرية
المطلقة والقائمة على الباخرة ، وامتداد ما في كل لورده العالم ، قد أحتى إلى قيام نتائج
أخرى مختلفة عن هذه تماماً في الأمم المزدهرة بالسكان في أوروبا ، ذلك أنها وجدت
نفسها عسيرة داخل تخوم وضعت في أثناء عصر الحصان والطريق البري وأن كل أمل
لها في التوسع وراء البحار قد سبقها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير وكانت أوروبا
هي الوحيدة التي وجدت أمامها سبيل إلى التوسع شرقاً ففتحت عبر سبيلها خطاً حديدياً
عظيماً مازالت به حتى توصلت في القتال مع اليابان ، ثم تقدمت جنوباً بشرق نحو
حدود فارس والهند فأرجمت بريطانيا بذلك . لما بقية الدول الأوروبية كانت في
حال من ازدهار السكان متزايدة التناغم . فاضطروا إلى تنطع شتوتهم على أساس
أرجح رغبة منهم في الوصول إلى أقصى ما في الحياة الإنسانية وجاهزاً من
إمكانات : - وذلك إما بإقامة حرب من الأعداء الإقليميين وإما بالخضوع لأعداء
تفرغتهم عليهم دولة أخرى مهيمنة . وقد مالت الآراء العصرية في معظم الدول إلى
إلغاء تلك الاتعادات الإدارية ، ولكن التقاليد السياسية كانت تعيق بكل قواها
قارة أوروبا نحو التوجه الثاني من الأعداء .

كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث ، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة
إشارة وجهت للناس وهم بين حيلولة وراج سيجر - مع فكرة توحيد أوروبا
كلها برعاية الألمان . وانضممت أرمية أويمون طاماً من السلم التي للخطر بخطر
سياسة أوروبا في أنفائها تركز حول ذلك الاحتمال ولكن فرنسا لم تكن أذية التناغم على
العظمى في أوروبا منذ أيام عصر إمبراطورية شارلمان ، تحولت إلى تعاضد حصر

الطليعى بعد عاقبة وثيقة مع أترسيا ، كما أن ألمانيا دخلت معها بلوتق وياخ
بالإمبراطورية النموية (التي زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ
ألم نابليون الأول) كما دخلت معها إلى حد أقل بسلطة إيطاليا الحديثة . . .
وذلك بريطانيا العظمى في البداية مترددة كعادتها تنضم وبعلا في شئون أوروبا
وتؤخر أخرى . ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الانخراط الوثيق بالفرق الفرنسي
الروس بسبب تختم الأسطول الأتالي تخلفا بلدى السولان . وقد أضحت أطماع
الإمبراطور غيورج الثاني (١٨٤٨ - ١٩١٨) في المنطقة البلخنة إلى انقطاع
ألمانيا قبل الأوان في مظاهرات ولاء البحار عاتبت بل انضمام اليابان والولايات
المتحدة مع بريطانيا العظمى في دائرة أحداثها .

تنافست كل هذه الشعوب في التسلح . وأخذت نسبة الإنتاج أقوى الموجة
إلى صنع المدافع والنادات الحربية والذخائر الحربية وما إليها تزيد من سنة إلى
أخرى . وأخذ ميدان الأمور ينتج مرتشاه ما بعد عام نحو الحرب ، ولكن
الحكمة كانت تعود فتدق . يتجنب للحرب ثم اندلع فيها آخر الأمر ، فهاجت
ألمانيا والنمسا كلا من فرنسا والروسيا وصربيا واخترفت الجيوش الألمانية بطيحا
الوصول إلى فرنسا ، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور متاصرة للبيكا موادخلت
مها حليفها اليابان ، وصربان ما أضحت تركيا إلى صفوف الألمان . ثم عادت
إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا في ١٩١٥ ، وانحازت بلغار إلى دول
وسط أوروبا في أكتوبر من تلك السنة . ثم اضطرت رومانيا في ١٩١٦ إلى الانخول
في الحرب ضد الألمان وتلتها الولايات المتحدة والأمم في ١٩١٧ . وحينئذ المقام في
هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من الزوم على هذه الكارثة المنظمة . فليس
السؤال الآن كقوامية هو . لماذا لم يتمكن الناس بشعوب الحرب العظمى ؟ ، بل
لماذا لم يحولوا دون ذلك ؟ ، بل إن العلم بأن مشرقات الألمان من الناس كانوا من
شدة الوثنية العمياء أو النباوة أو بلاءة النفس بحيث لم يستطيعوا أن يتصوروا تلك
الكارثة بخلاوة عظمها نحو الوحشة الأوروبية القائمة على أسس مرمجة كريمة ، وأخطر
كثيراً لدى الإنسانية من العلم بأن ثقافة قلية من الناس قد عملت على إسقاطها .

والجمال الذي ينأيدنا لا يسمح بلدى حالي يقتصر التفاصيل للفتنة الحرب . على أنه
تبين جلياً بعد بحث مشهور أن تقدم العلوم التقنية العصرية قد غي طيخ الحرب تغييراً



حقيقاً ، ولا شك أن علم الطبيعة يمنح الإنسان القوة والسلط على القولاذ والمساكن والأمراض ؛ وإن كان استخدام هذه القوة أو سوء استعمالها يمتد على فئمة العالم الخلقية والسياسية ، لذا فإن حكومات أوروبا التي كانت تبتوحى الإلهام من سياسات حقيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك ، وجدت طوع عينا قوى لا نظير لها تستطيع بها التدمير والمقاومة في وقت واحد ، وأصبحت الحرب شعة من عمار شملت العالم كله وأنت على الأخضر واليابس ، وأزلت من الحسائر بكل من الظافر والمتمزم ما لا يقاسب البنة مع قيمة المسائل المتنازع عليها ، وأبتدت الحرب بمرحلة من الاندفاع المائل من الألمان نحو باريس قابله في الشرق اجتياح الروس لبروسيا الشرقية ، ولكن حذين الهجومين صدا ، ورد المهاجم على حقيقه في الحالين ، ثم تطورت قوة الدفاع ؛ فأدخلت التحسينات السريعة على حرب الخنادق ، حتى اضطرت جيوش الفريقين أن تظل ردحاً من الزمن في خنادق تمتد في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يمكنها القيام بأى تقدم بغير تكبد خسائر فادحة ، وكانت جيوش كل من الطرفين تعد بالملايين ، وقد نظم من ورائهم السكان بكامل عددهم بنية إمداد جبية القتال بالميرة (الطعام) والذخيرة . فكان كل أنواع النشاط الإنتاجى قد انقطعت تقريباً إلا ما أسهم بتعصيب في العمليات الحربية .

وأخذ كل شباب أوروبا ورجالها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل أو إلى المصانع التي أنشئت آنذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول ، وحلت النساء في الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة ، وأغلب الظن أن أكثر من نصف السكان في الدول الأوروبية المتحاربة قد غيروا أعمالهم ومنهم تغييراً تاماً في أثناء ذلك الكداح المبول . فكانهم لم يحوا اجتياجاً من يشتم انتزاعاً وأنزلوا بيثة أخرى . وفيدت التربية والأبحاث العلمية المادية ببقود جعلتها قاصرة أو موجهة تماماً إلى أهداف الحرب المباشرة ، كما أن توزيع الأخبار ونشرها قد أصيب بالعجز والفساد والتشويه بما فرض عليهما من رقابة عسكرية وما داخلهما من أعمال الدعاية .

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدريج إلى دور من الاعتماد على السكان غير المحاربين وراء الجبهة ، وذلك بدمج موارد الطعام والقنارات الحربية ، كما أنه

حدث تقدم متواصل في حجم المدافع المستعملة ومدامها . وفي مستحدثات تطوى على البراعم من أمثال القنابل الغاز السام وتلك القنابل الصغيرة المتحركة المسماة بالذبايات ، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود . بالتحديد على أن الحرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب الحديثة أعظم انقلاب . فبعد أن كان الحرب ابتهاجا أن أصبح لها ثلاثة ، وكانت الحرب قبل هذه الحقبة من تاريخ الإنسانية لا تحدث إلا حيث ترسخ الجنود وتلقى ، فأما الآن فإنها تدور رحاها في كل مكان ، وقد حلت مناطق زبلن أولا ثم قاذفة القنابل فيما بعد وحس الحرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقة متزايدة الاتساع للنشاط المدنى البعيد من الجبهة . واختفى من الدنيا التميز القديم الذى كان يفرق حسب أصول الحرب المتميزة بين المدنيين من السكان والمحاربين منهم ، فكل منتج الطعام ، وكل حائك الثياب ، وكل قاطع شجرة أو مصانع لنزول ، وكل عملة السكك الحديدية ، وكل غزن من المخازن ، أصبح يعد ميذا مباحا لتدمير ووسائله . وكان كل شهر ينقض من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية يوسع نطاق الرعب منها . ولم يبرح الحال كذلك ، حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوروبا في حالة حصار دائم وتعرض لهجمات لا تتقطع ليلة واحدة ، فكانت المدن المكشورة ككتن وباريس تقضى الليلة بعد الليلة ساهرة لا ينمض لها جفن . والقنابل تنفجر من فوق رأسها ، والمدافع المضادة للطائرات تحدث ضوضاء لا تطاق ، على حين تجلجل آلات المطاق وسيارات الإسفاف بسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة ، وكانت آثار ذلك فى عقول المستنير وصغار الأطفال وصحتم صرعة ومدمرة بوجه خاص .

على أن الأوبئة التى كانت من قديم قديم متبعا دائما على الحروب ، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه فى ١٩١٨ . فإن علم الطب غل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام ، ثم انتشر فى العالم وباء عظيم من الإنفلونزا قضى على خمسة ملايين من الناس ، وكذلك أبعد شيخ الجماعة إلى حين ، ومع ذلك فإن عظم أوروبا كان متبدية ١٩١٨ يعيش فى حالة من المجاعة والخفق والفتنة ، فقد هبط إنتاج الطعام فى كل أرجاء العالم هبوطا عظيما بسبب استدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال ، فضلا عن أن توزيع ما أمكن إنتاجه من الأطعمة كان يعزل دونه عيش القروايات وإفسادها فى البحر وانقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحدود بين الدول ، وبسبب ما لآخرى نظام المراسلات المالية من اضطراب وفساد . وعندئذ وحسب الحكومات الخطة بما على

موارد الطعام الضئيلة المتناقصة ، وراحت توزع الأطعمة جراتاً على شعوبها .
وفضلاً عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة من هذه القتياب
والمنازل ومن نقص كثير من لوازم الحياة العادية ، وأصبحت الأعمال الحرة والحياة
الاقتصادية بأعمق الاضطراب . ورأى القلق والمم على النفوس جميعاً . وأصبح
معظم الناس يعيشون عيشة خنك لم يألوهما قبلاً .

توقفت الأعمال الجارية في نوفمبر ١٩١٨ إذ إن دول أوروبا الوسطى انهارت
بعد جهد هائل بذل في ربيع ١٩١٨ ، كاد يدفع الألمان إلى باريس قسماً . ذلك
أنهم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم .

الفصل السادس والستون

النظام الجديد بالروسيا

وقبل انهيار دول أوروبا الوسطى بثلث سنة كاملة انهارت القيصرية الروسية بالشرقية التي ادعت أنها استمرار الامبراطورية البيزنطية . فقد ظلت تلك القيصرية تشرى فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب بوضع سنوات ، إذ كان البلاط القيصرى واقعاً تحت سيطرة دجال دين منتهك ، هوراسيوين ، فضلا عن أن الاداة العسكرية المدنية والعسكرية كانت في حالة مفرطة من عدم الكفاية والرشوة والفساد . ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية . فاستدعى لحل السلاح جيش حرم من المجندين ، لم يكن له هناك عسكري كاف ولا العدد الكافي من الضباط الأكفاء ، ولم يلبث ذلك الجيش العظيم المسمى بالإمداد الضعيف القيادة أن قذف بلا نظام إلى الحدود النموية والألمانية .

ولاسيلا إلى الشك في أن مبادرة الجيوش الروسية إلى الظهور في بروسيا في سبتمبر ١٩١٤ صرف مهم الألمان والتفاتهم من تقدمهم السريع الأول المظفر على باريس ، فكان آلام ووفاة عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوي القيادة السيئة هي التي أنقذت فرنسا من البرية النامية في تلك الحلة الأولى الخطيرة ، وجعلت أوروبا الغربية بأكلها مدينة بالفضل لذلك الشعب العظيم الأسيف . وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية المتراعية الأطراف شديداً مضيقاً لم تقو على احتجاله قواها . فإن الجنود الروس الماديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال بدون مدفعية تمدد لهم وتظاهروا ، بل حتى دون ذخيرة للبنادق ، لقد أقدمهم ضباطهم وقوادهم في حالة من حالات الهذيان الجنوني المشتعل بالحماسة العسكرية ، فظلوا إلى حين يقاسون الآلام صاعتين مثلاً تقاسما العجائز . ولكن الصبر والعمل حدا حتى لدى أشد الناس جبلا . فأخذ يفضي شعورهم الاشتراكي العميق من القيصرية بين تلك الجيوش المجهشة من الرجال الذين غدر بهم كبارهم وأضاهوا حياتهم هدراً . لذا غدت روسيا منذ نهاية ١٩١٥ ، مصدر قلق

تزايد الحلفاء الغربيين ، فإنها ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير ، وانتشرت في الجو إشاعات تشير إلى قرب عقد المباح المبرر بينهما وبين ألمانيا .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتس في أثناء وليمة عشاء أقيمت بمدينة بتروغراد ، وبذل المخلصون من الرجال جهوداً متآخراً لتنظيم القيصرية . ولكن الأمور كانت تندفع في شهر مارس اندفاعاً سريعاً ؛ فإن الفتن التي شبت ببتروغراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية ، وحاولت الحكومة إلغاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة التمثيلية في البلاد ، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار ، ثم ألقت الأمير لافوف حكومة مؤقتة ، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ من مارس . وانقضت فترة من الوقت على الناس في أثنائها أن في الإلمام كان قيام ثورة مستقلة ذات ضوابط ، ولكن في ظل قيصر جديد . ولكن انضح جلياً أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز المدى ولم يعد في إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه . ذلك أن الشعب الروسي قد سئم سامة الموت كل مافي أوروبا من نظم قديمة : مقياساً قوياً من حروب ومن دول مضطربة ؛ لقد كان يلتمس الراحة - والراحة السريعة العاجلة بما يقاسى من تعاسات لا تحصى . ولم يكن الحلفاء يدركون ألبتة حقائق الموقف في الروسية ، فإن رجال الدبلوماسية فيهم كانوا يحملون الشئون الروسية جهلاً تاماً ، إذ كانوا من عليه القوم الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسي أكثر منهم إلى الروسية نفسها . فلا غرابة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد . ولم تكن نفوس هؤلاء الدبلوماسيين تنطوي على الكثير من حسن النية نحو المذاهب والنزعات الجمهورية ، لهذا أظهروا ميلاً واضحاً إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة بعد استماعهم . وكان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فصيح جذاب هو كيرلسكي ، الذي وجد نفسه غرضاً لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غوراً ، هي الثورة الاشتراكية ، في داخل بلاده ، كأوجد حكومات الحلفاء في الخارج تعاطفاً بغير وفاء اهتمام . لم يسمح له خلفاؤه أن يعطى القلاخين الروس الأرض التي يظهرون عليها ولا أن يمنحهم السلم وراء حدودهم . وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية تهقن ذلك الحليف المنك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد ، فلما قدم الألمان في تلك الساعة على مهاجمة رينن برا وبحرا ، خارت عزائم إدارة البحر البريطانيون في قيام بحملة في بحر البلطيق لإنقاذها أو تخفيف الضغط عنها ، وبهذا اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة

أن تقاتل الألمان وحدها دون معاونة من أحد. ويخفى لنا أن للعظمى أن البريطانيين وحلفاءهم تحركوا للألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها فيم عدا بضع هجمات قامت بها غواصاتهم، وذلك على الرغم من تفوقهم البحري ومن الاعتراضات المبررة التي قدمها لورد فيشر الأدميرال الإنجليزي العظيم (١٨٤١ - ١٩٢٠) .

ومع ذلك فإن الشعب الروسي كان مصمما على وضع حد للحرب، مهما كلفه ذلك من فخر . فقد ظهرت إلى عالم الوجود بمدينة برودغراد هينة مثل الله الوعاة الجند. هي هينة السوفييت ، التي أخذت تطالب بمقدونيمودول للاشتراكين بمدينة استوكهولم . وكانت حين الظلم تحدث في ذلك الأوان بيرلين، وتغفل السأم من الحرب بكل من النساء والألمانيا إلى قرارة النفوس، وتدلنا الأحداث التالية دلالة لاسيل إلى الشك معها. لكنه لو أن ذلك المؤتمر قد اجتمع بمقدونيمودول في ١٩١٧ يقوم على أسس ديمقراطية ولا تحدث بألمانيا ثورة في ذلك الوقت نفسه وأخذ كيرلسكي يتضرع إلى حلفائه الغربيين أن يسمعوا بانقاد ذلك المؤتمر . ولكنهم رفضوا ذلك الطلب بحافة أن يؤدي قبوله إلى انتشار المذاهب الاشتراكية والجمهورية في أرجاء العالم قاطبة، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطاني الفكرة، وظلت الجمهورية الروسية المعتدلة النسبة تقاتل دون أن تلتقي هونا منويا أو ماديا من الحلفاء ، وقامت بهجوم أخير يائس. في يوليو . ولكن الهجوم أخفق بعد أن أحرز بضع انتصارات أولية ، والفرقة الثانية ذبح الروسيون ذبحاً عظيماً .

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال الروسيا فتمرد الجند في الجيوش الروسية وبخاصة في الجبهة النجالية ، ولم تلبث حكومة كيرلسكي أن خلمت في ٧ من نوفمبر ١٩٢٧ ، وأن استولى على مقاليد الأمور السوفييت، الذين سيطر عليهم الاشتراكيون البلاشفة برئاسة لينين ، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الغربية . وفي ٢٧ مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين روسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك .

وسرعان ما انتزع أن هؤلاء الاشتراكين البلاشفة كانوا رجالا مختلفون في طبيعتهم تماما عن فصحاء المستورجين والثوريين الذين أقاموا حكومة كيرلسكي. فإنهم كانوا شيوعيين ماركسيين متعصبين . وكانوا يعتقدون أن توليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة قراشتراكية عالمية عامة، فانطلقوا ينفرون النظام الاجتماعي والاقتصادي

على البلاد ويدون في ذلك أقصى غاية الإيمان المطلق وعدم الخجوة التامة. أما دول أوروبا الغربية وأمريكا فقد بلغنا من أخبار السوء عن تلك الثورة، كأنها كانت من العجز التام بحيث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الحارة أو تمد إليها يد المون. فضلا عن أن الصحافة هبت لتحقير هؤلاء المقتضين والحط من كرامتهم، كاهت الطباقات الحاكمة لتحطيمهم مما يكن أحاس ذلك التحطيم ومما يكن الثمن الذي يدفعونه هم أنفسهم أو روسيا في سبيل ذلك. وتواصلت عليهم في صحافة العالم حملات الدعاية الحاملة لأسوأ التخرصات المزعجة البشعة، وراحت تلك الصحافة دون رادع يردعها تصور زعماء البلاشفة في صورة الوحوش البشعة الشنيعة الملعونة الأيدي بالحاء والنهب والذين يتعرجون في أحوال الملهذات اليسمية تمرغات جعل فناء تلك البلاط القيصري في أثناء خثرة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناصلة البياض طاهرة الذيل. وسيرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الحائرة القوى وشجع كل فائر عليها وكل مفير، وأمد بالسلح ومنح الأموال.

ولم يترك أعداء النظام البلشفي المذعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها مهما بانفت من السفالة أو البشاعة. وهكذا نجد في ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأفسدت نظامها حرب شديدة استمرت خمس سنوات، يقاتلون حملة عسكرية بريطانية نزلت عند أركان الجبل. وطاردة ليا بابين في شرق سيبيريا، وقاتلون الرومانيين في الجنوب ومهم جنود فرنسيون ويونانيون، ويقاومون الأميرال كولاشاك الروسي بتبيرييا، والجنرال ديفيكين بالقرم يحاوله الأسطول القرلسي.

ثم كاد جيش إستوني بقيادة الجنرال بودينيتش أن يصل إلى بطرسبرج في بوليه من تلك السنة. وفي ١٩٢٠ هاجم البولنديون روسيا بتعريض من فرنسا. كما أن مغيرار جميعا جديدا، هو الجنرال والجل، تولي العمل الذي تغلغلته الجنرال دينيكين وراح يفتروطنه ويعيث في أوجاعه فسادا. ثم إن بحارة الأسطول الراسي عند كرواستاد تمردوا في مارس ١٩٢١. ولكن الحكومة الروسية براسة لينين جعلت كل هذه الهجمات بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبة، وظهرها حامية للشعب في روسيا دون تردد في أثناء تلك الظروف المقلطة السيرة. حتى إذا وافقت نهاية ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعترفتا على صورة ما بالحكم الشيوعي في روسيا.

ولكن لن وقت الحكومة البلشفية في مكائحتها التدخل الاجنبى والثورات الداخلية ، فانها كانت أقل حظا من التوفيق في إقامة نظام اجتماعى جديد بالروسيا مؤسس على الأفكار الشيوعية . ذلك أن الفلاح الروسى ماله صغير متلف على امتلاك الأرض ، بعيد عن الشيوعية في فكره وأساليبه بعد السلب من الأرض ؛ أجل أعطته الثورة أراضى المالك الكبير السابق ، ولكن الثورة لم تستطع أن تحمله على زراعة المواد الغذائية مقابل أى شئ . إلا العملة القابلة للتداول ، كما أن الثورة دمرت قيمة النقود قريبا . وأصيب الإنتاج الزراعى بضربة شديدة من جراء اختلال نظام السكك الحديدية وأجهزتها في أثناء الحرب ، حتى لقد انكشف فأصبح مجرد زراعة للوادئ الغذائية يقوم بها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . أما المدن فقد شلتها المجاعات . وبذلك محاولات مستعجلة سببها التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعى بحيث تتشبه مع النظريات فبادت هى الأخرى بالفشل . فلو أنك نظرت إلى الروسيا في ١٩٢٠ أشهدت فيها منظرا عجبيا لم تسبق مشاهدته . هو منظر الحضارة العصرية وهى في حالة من الالييار التام ،

فإن الهدأ كان يأكل السكك الحديدية ويحلبها إلى خرقة غير صالحة للاستعمال ، كما أن المدن ظلت تتحول إلى خرائب ، وارتفعت نسبة الوفيات في كل مكان ارتفاعا شديدا . ومع ذلك كله ظلت البلاد تقا تل أعداءها الذين كانوا يطرقون أبوابها من كل جانب . وحل بالبلاديين الفلاحين الزراعيين في ١٩٢١ قسط وبجاعة شديدة في المناطق الجنوبية الشرقية التى خربتها الحرب . ومات ملايين الناس جوعا .

إزاء هذه الظروف المروية حرم المسئولون على التقليل من مرفة عملية البناء والتعمير . وتبنى القوم سياسة اقتصادية جديدة . وأباحوا قدر من حرية الملكية الخاصة . وأعادوا نظام النشاط الشخصى والمجهود الخاص ، فترتب على ذلك أن عادت إلى حدماء مياه النشاط الإنتاجى إلى مجاريها . وعندئذ أحسن الناس كأنما الروسيا تنحرف عن مذاهب الاشتراكية الإنفعالية وتعيد لها أحوال تكاد تماثل تلك التى شلتها الولايات المتحدة قبل ذلك بمائة عام ، ونفدت بالبلاد طبقا من المزارعين الأثرياء م الكولاك . وهم الظن الذى يقابل المزارع الأمريكى الصغير ، وتكاثر عدد صغار التجار الموسرين . على أن الحريه العميه لم يكن ميالا إلى التدخل عن أهدافه على تلك الصورة . ولإلى السابح . روسيا بأن تتبع الخطوات التى اجتازتها أمريكا قبل ذلك بمائة سنة . لئلا يشعان .

ظهرت في ١٩٢٨ حملة قوة لإمداد البلاد إلى المنهاج الصغير في الخطوط القوية ، فأنتهى مشروع خمس سنوات ، روى إلى أحداث توسع سريع جنوب في الصناعة تمتع بإشراف الدولة ، وخاصة في المنتجات الأساسية القوية ، وفي نفس الوقت استقبلت الزراعة الحديثة (الجامعة) ذات التعلق الواسع بإنتاج المزارعين القروى . وقد حرمت روسيا من قيادة لينين الحكيمة في ٢١ من يناير ١٩٢٤ ، وكانت طريقة معالجة خليقة ستألف الأمور أخيراً من طريقته . وضعت تلك الخطة موضع التنفيذ على الرغم مما عترضها من صواب مائة ، أهمها جهل العامة وأميته وتأخرهم العام ، وفي عدة ألافاء من رؤساء العمال والصناع القوتين ، وأستاح العالم الغربى من بذل أية مساعدة بل واتخاذ جانب المحصرة الإيجابية .

ومع ذلك فإن تقوم أطروا أن الجانب الصناعى من الخطة أصاب قدر أجسام من النجاح . نعم أحاطوا القى . الكثير هدروا أو هزمهم إيجاباً بالناسيب أكثر روى بين الأمور ، غير أنهم أصابو من الخير ما لا سيل إلى إنكاره ، ومع ذلك فإن أثر هذه التغيرات المبرمة السريعة لم يكن مرضياً تماماً في حالة الإنتاج القروى : كما أن شتاء أهولم ١٩٣٣ - ١٩٣٤ أنزل بالروسيا للمرة الثانية قفصاً عظيماً في الأظلمة .

أما بقية أجزاء العالم التى كانت تواصل العمل بنظام أرباخ أو أس المال القروى وتقيم نتائجها ، فقد كانت تنظر إلى تلك التجربة القروية بين اعتلاط فيها سبب الاستطلاع بعدم الثقة والاحترام . وذلك فيما كان النظام القديم نفسه يتصرف بسيره ، فإنه كان يضيق قوة الثراء ويحصرها على جزء صغير متناقص من السكان ، كما أنه أخذ يفقد قوة اندفاعه التقدمية بسرعة كبيرة جداً . لقد أصبح قلقاً غير راض عن تصرفاته . وانتشرت فتنة . وضع المشروعات في أرجاء العالم بسر علق بقرى ويزيد الفعاليات الاقتصادية التى ستحدث عنها في الفصل التالي تكررت تلك المشروعات . حتى إذا وافقت سنة ١٩٣٣ لم يد أى سياسى يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بنهضة ومشروع ، وحسبك هذا على الأقل تقدير روسيا من عالم كله .

ظلت روسيا حتى ١٩٣٤ على الرغم من دمارها المحصولى ١٩٣٣ ، يماثلها النجاح في جميع مراحلتها ، فزاد الإنتاج مرة ثانية وتكاثرت الأنام والماشية ودخلت البلاد أفواج من سياح الأوربيين والأمريكيين . وأخذوا يتناولون زفيا الكافيار وشرب القوداك .

وقامت في البلاد نهضة عظيمة في البحث العلمي ، وخاصة في المسائل التناسلية والاستكشافات الفلكية ، وفذت أشغال عامة عظيمة منها سدالديبر وسقروا وسك حديد التركستان / سيبريا - وأنجزت البلاد قدرا جسيما من المبانى المجددة وهكفت على إعادة تجديد مراقها وعنادها . غير أنها ظلت تعاني السكت التام لكل نقدا اضطر أى نوع من المعارضة إلى الاستتار . ولا يفر عن البال أن كل معارضة مكبوتة لابد أن تتحول في النهاية إلى معارضة إجرامية . وكانت الفرقة والانقسام تنخر في كيان النظام الجديد . إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناخضة شديدة على السلطان بين تروتسكى الذى يرجع إلى قيادته العسكرية النابية الفضل الأكبر في نجاح الدفاع عن الجمهورية ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعى : ولا تزال التفاصيل المضبوطة والمقدمة لذلك النضال خافية علينا ، ولكن أحدا من الرجلين لم يوهب قوة لينين العسكرية ولا راحة نفوذه الشبهى ، كان تروتسكى لسانا موهوبا ولكن كان مغرورا ؛ وأولى ستالين صفة العناد الرهيب ، ومالبت تروتسكى أن تفي خارج البلاد في يولية ١٩٢٨ بعد أن طرد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، فنزل تركيا وألثم فرنسا ثم الزويج ، واستقر به المطاف أخيرا بالمكسيك ، وهو يحمل في كل مكان حل به لواء المعارضة الجدلوية المبرزة العنف ضد زملائه السابقين ، ويمرق وحدة أنصار اليسار في العالم كله إلى جريبين متنازعين .

اما في روسيا نفسها فالظاهر أن كفا حافضيا أخذ ينسب بين الموظفين والمستخدمين المعارضين وبين حكم ستالين ودولته ، على أن قدرا من هذا التاريخ لا يزال يكتنفه الغموض الشديد ، إذ لا مجال للشك في أنه كانت هناك مقاراة كالأشك في أنه حدث التدمير حركة الولاء للحكومة ومن المحتمل أيضا أن هذا الضرب من المعارضة الذى ليس من الضروري أن يكون منظما كان يحدث حتى في أيام لينين نفسه ، ولكنه اتخذ بعد وفاته بصورة ملموسة تماما أكثر . وراحت حكومة السوفييت تسلك في هذا الكفاح حينا من الدهر مسلك القصد والاعتدال . فإن موظفين مسئولين منهم مهندسون بريطانيون متهمون قدموا للحاكة بتهمة تعمد تعطيل عملية طبع روسيا بالطابع المصرى واليكالبيك مع سبق الإصرار ، ثم ظهرت في الأفق في أثناء المحاكمات التالية عناصر الخوارج والديمقراطيين السياسية . على أن معظم المتهمين كان لا يحكم عليهم إلا بالسجن أو القتل ، حتى قتل واحد من أشد الوزراء الذين وثق فيهم ستالين واطمان . ليهم في أول ديسمبر

١٩٣٤ . فبعد تلك الحادثة اشتدت الأمور في الروسيا عصفاً وتجهماً ، وقد توفيت زوجة ستالين على حين بئنة في ربيع ١٩٣٤ في ظروف لا يزال ينشأها إلى اليوم الغموض - . ولقد زعم بعضهم أنها اتحرت حرقاً على ما يقاسيه الفلاحون من العذاب في ظل مشروع الخبز السحرة الأول ، ولا شك في أن يزيد عدواه خطاؤه القداماء فقد زاد رويداً رويداً من مدى عزله وتباعده . والظاهر أنه لم يبق له صديق عظم إلا الكاتب مكسيم جوركي الذي مات في ١٩٣٦ . وتماقت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى ، وأخذت بوادر القسوة تتجلى في استخلاص أدلة الإدانة ويناتها ، كما أصبحت حقوق الإعدام هي القصاص المأدب فأعدم عماء البلشفية السابقة واحد بعد آخر ، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة ، وأعدم أطباء جوركي بتهمة أنهم تسببوا في وفاته ، ولم يزل ستالين يزداد في عزه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبداً لا يقبل صلحاً ولا تراجعاً ، ولكن على الرغم من أن هذا هو حال الكرملين في أثناء كتابة هذه السطور (في ربيع ١٩٣٨) فالظاهر أن حياة الروسيا المادية تسير في طريق الجدل التام مع تناقص الصعوبات بالتدريج وتنازل التذمر الشعبي إلى درجة لا تكاد تذكر . وليس لهذا الموقف من سابق في التاريخ ، كما أنه يكاد يكون من المحال التنبؤ باحتمال الدلال الروسيا عليها وبطبيعة ذلك الإبلال إذا حدث .

الفصل السابع والستون

عصبة الأمم

بلغ من فظاعة الحرب العظمى في تلك الوقت وما جلبت من الكوارث والاحزان أن زعمت أخيلة الناس أنه ليس معقولا ألا تؤذن تلك الحرب بنهاية عصر ، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني تكون أسدح حالا ، وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل . ومن المعلوم أن عقولنا تنجح دائما إلى الاعتقاد بالتعويض - فإنا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما تصوره في أنفسنا من مزايا . ولم تنفخ هذه الأوهام والادعاءات التي أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ببطء شديد . ولكن ما نحن قد شعرنا بتحقيق أن ذلك الصراع على بشاعته وشدة ضخامته لم يضع حداً لشيء ، ولم يفسأ شيئاً ، ولا سوى شيئاً . نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس ، وبهدقوى العالم وأشاع فيه الفقر والفساد ، فحطم الروسيا تحطياً مطلقاً . ولم يكن على كل حال إلا تذكرة حادة غيفة بأننا نعيش هيش الحماقة والارتباك دون خطة مرسومة ولا بعد نظر مرشد في عالم خطر لا يحمل لنا عطفاً ولا وداً . فإن الانانيات وشبهات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم التي جرفت البشرية إلى غمرات تلك الحاجة - خرجت منها سليمة إلى حد جعل في الإمكان مما ما حدثت كأزمة أخرى مماثلة بمجرد تماثل العالم قليلا عما أصابه من إلهالك وإجهاد في أثناء الحرب . أجل أذاحت الحرب عن كهل أوروبا تهديد القيصرية الألمانية ، كما حطمت القيصرية الروسية . وأزالت عدداً لا بأس به من الملكيات . ولكن أوروبا لاتزال ترفرف فيها كثرة من الرأيات . ولا تزال الحدود وشير الغيظ في النفوس ، كما لاتزال جيوش جرارة تكس في محازم 'مقادير جديدة من العناد العربي .

ولم يكن مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرساي إلا اجتماعاً عامي لا يكتفي بظروف الدنيا ، لم يوفق إلا إلى دفع منازعات العرب ومزاياهم إلى تناهبها لا عقلية . فلم يسمح للألمان ولا القسويين أو الأتراك أو البنارباي نصيب في مدا ولا يحول بكونوا يتكفون

إلا قبول القرارات التي تملي عليهم . كان مؤتمرا يضم الطائفتين الفاتحين وكان اختيار موضع انعقاد المؤتمر موفق بوجه خاص ، وذلك من وجهة نظر الصحة البشرية ، فإن فرساي هي المدينة نفسها التي أعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة في ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوفى الوضوح ، وتسلطت على الأذهان فكرة قاهرة تدعو إلى إقامة مشهد ميلودرامى ، هنيئ يعكس المسرحية الأولى في قاعة المرايا نفسها .

ومهما تكن المكارم التي ظهرت إبان المراحل الباكورة للحرب العظمى فإنها ولت من زمن بعيد . وكان سكان الدول المنتصرة شديدي التيقظ لما كانوا من خسائر وآلام ، منضين كل الإغضاء عن أن العدو المنهزم قد شرب من نفس السكاس ، كانت الحرب نتيجة طبيعية لا بد منها لتنافس القوميات بأوروبا وغية كل تنظيم اتحادى لتلك القوى المتنافسة ؛ والحرب هي النهاية القصوى المنطقية والضرورية للقوميات المستقلة ذات السيادة التي تعيش في حيز ضيق جداً وتملك هناك عسكراً مفرط القوة ؛ ولو لم يجرى الحرب العظمى على الصورة التي جاءت بها ، لظهرت في صورة أخرى مائلة - كما لا شك في أنها ستعود على إطلاق أظفوعها وتقدميرا في مدى عشرين أو ثلاثين سنة إن لم يسبقها اتحاد سياسى يمنع حدوثها . ولا شك في أن الدول التي تنظم شؤونها ابتداء الحرب مضطربة بالتحقيق إلى الحرب اضطراب كل دجاجة إلى وضع البيض ، ولكن عواصف هذه البلاد المحرونة التي أبهكتها الحرب أظفقت تلك الحقيقة ، لذا هومت جميع شعوب الاضطراب المنهزمة كأنها هي مسئولة خلقياً وما ديا عن كل ما حدث من أضرار ، وهي تضر الطريقة التي كانوا سيماملون بها دون شك الفحوج المنتصرة ولو كانت نتيجة الحرب في صالح أولئك المنزعين . وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ما حدث ، وزعم الألمان أن الموم هو الروس والفرنسيون والإنجليز ، ولكن أقلية ذكية أدركت أن الموم في الموضوع هو الوضع السياسي لأوروبا ، وكان المقصود من معاهدة فرساي أن تكون مثالية وانقيابية ؛ لحمت على المفلولين عقوبات قاذحة ، إذ حاولت أن تمنع التعويضات للمستمرين وشعوبهم المجرمة البتالة بفرض ديون باعطة على أمم قد أظفست من قبل ، كأن يحاولوا إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسمى لمنع الحرب كانت محاولة تحمل صراحة أنها غير عظيمة وغير كافية .

ومن المشكوك فيه أن أوروبا - لو تركت وشأنها - كانت تجل أى محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظيمياً يكفل سلاماً دائماً ، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلت إلى معترك

السياسة العملية الرئيس ولين ، وليس الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت دعامتها
 الرئيسية هي أمريكا ، ذلك أن الولايات المتحدة - تلك الدولة العصرية الجديدة - لم تنتج
 حتى الآن أية فكرة مميزة تنطق بالعلاقات الدولية عدا مبدأ مونرو ، الذي وفي العالم
 الجديد غائلة للتدخل الأوربي ، وما هي الآن تستدعي لجأه للسامية الفكرية في مشكلة
 ذلك الزمان المأثرة ، ولكن لا يحتسبها لم تسعها بشيء ، وكان الشعب الأمريكي يمنح بفطرته
 نحو السلام العالمي الدائم ، وذلك بغض النظر عما يرتبط بذلك الاجتماع من عدم
 الثقة وسوء الظن التقليدي في سياسة العالم القديم وعما ألفه الأمريكيون من عادة التباعد
 عن اشتباكات العالم القديم ومشكلاته ، فكان الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدؤون
 في تسكين فكرة من إيجاد حل أمريكي لمشكلات العالم عندما جرت لهم حلة الفروقات
 الألمانية إلى معترك الحرب في صف الحلفاء أعداء الألمان ، ولم يكن مشروع الرئيس
 ولين لتسكين هممة الأمم إلا محاربة منسرة منمجة لإيجاد مشروع عالمي أمريكي
 للزعة تماما ، فألتأ لها تصمما فجيجاً وناقصاً وخطراً ، ولكنه أخذ في أوربا على
 أنه وجهة نظر أمريكية ناجحة ، ذلك أن البشرية عموماً كانت في ١٩١٨-١٩١٩ قد
 اشتد بها الضيق بالحرب والتطيف بأي شئ أو تضيعة على إقامة كل ما من شأنه منع
 حدوثها ثانية ، ولكن حكومة واحدة في العالم القديم لم تشأ أن تنزل قيد أنملة عما
 تستمتع به من سيادة واستقلال في سبيل الوصول إلى تلك الغاية . والظاهر أن التصريحات
 العالمية التي فاه بها الرئيس ولين حول هممة الأمم العالمية ، قد وقعت موقع
 القبول من قلوب شعوب الأرض كلها وإن نطقت بالحكومات ، وزعم الناس أن تلك
 التصريحات تدبر عن مقاصد أمريكية بالحق ، وكانوا استجاباتهم لها ماثلة ، ومن سوء الحظ
 أن الرئيس ولين كان مضطراً أن يمايل مع الحكومات لأمم الشعوب ، وكان رجلاً
 تصدر عنه ومضات ماثلة من الروى والاحلام فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه
 أناني محدود ، فلا راية إذن أن تتبدد موجة الحماسة العظيمة التي أثارها ، وتذهب سدى .
 يقول الدكتور ديون في كتابه : « مؤتمر السلام » : « كانت أوربا عندما من
 الرئيس شواطئها كمنطقة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع الماسر ، إذ لم يحدث
 قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى اتباع زعيم كوسى يأخذهم إلى أرض الميعاد التي
 حلال انتظارها والتي تمنع العروب وتجعل الحصار البحري ، وقد تصور أنه ذلك الزعيم
 يوانغني الناس أمانه في فرنسا بدافع الرغبة والمجبة ، وأخبرني زعماء الليبيراليس أنهم
 شكروا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم مستعدون لخوض البحر للماء والسنة

النيران لما وئته على تحقيق خطاه النبلية . وكان اسمه عند الطبقات العاملة بإيطاليا بوقاً
يدوى صوته في أفلاك السماوات فتتزعج جنات الأرض له وتعود جديدة مطهرة .
واعتبره الألمان هو ومذهبه وسيلة منجاتهم وملاذم الأكبر ، وقال المرحلون
الشجاع الباسل : لو أن الرئيس ولسن مخاطب الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً ،
لتقبلوه بهدير وسحب ودون أدنى تذمر ولتبدأوا في تنفيذه على الفور ، فأما بلاد
النمسا الألمانية فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص . وكان مجرد ذكر اسمه
يلسما للتأملين وترياقاً للتسكويين

تلك وأمثالها هي الآمال الجارية التي أثارها في النفوس الرئيس ولسن . ولكن
القصة المزنة حقاً هي ألا يخيب تلك الآمال تماماً وأن العصبة جاءت ضيقة غير ذات
غناء ، فكأنه شخصياً قد زاد موقع فاجعنا الإنسانية المشتركة ، إذ إنه باع الغاية في ضم
أحلامه والنهاية في عدم الكفاية في أعماله ، وقد تجمدت أمريكا كل تصرفات رئيسها ،
وأبت أن تقبل العصبة التي تقبلتها منه أو بيا . إذ إن الشعب أخذ يتحقق ببطء أنه دفع
بسرعة في تيار تجربة لم يتيها لها أبداً وتحققت أوربا من جهتها بأن أمريكا تمد تلك شيئاً
تستطيع تقديمه للعالم القديم وهو رزح في محنته . ولدت تلك العصبة قبل الآن ،
وتشوهت منذ ميلادها فأصبحت هي ودستورها التفصيل غير العملي وتحدد لمعاتها إلى
الواضح ، حقبة كأداء في طريق أية نسوية فعالة وأي تنظيم جديد مشر العلاقات الدولية .
ألقت تلك العصبة على المسائل خلا من الإجماع الذي ما كان يشاها لو لم تنشأ تلك العصبة ،
ومع هذا فإن ذلك اللبيب الخافي الذي شمل العالم في البداية ترحيباً بالمشروع ، ذلك
الاستعداد الجبل الذي أبداه الناس في كل حقع من أصقاع العالم - وأقول للتأمل ولا
أقول للحكومات - لإقامة ضوابط عالية تتحكم في الحرب ، إنما هو شيء جديد ينبغي
تسجيله في أي سفر تاريخي مع التقدير اللازم من التأكيد والتشديد ، ذلك أنه يقوم في
هذه الأيام وتنمو باطراد من وراء ظهور الحكومات نصيرة النظر التي تفرق كلمة
البشرية وتسمى تدبير شئونها ، قوة حقيقية تطالب بالوحدة العالمية والنظام العالمي .

غير أن تلك القوة لا تزال تلتزم التطبيق الفعال ، فإن صاحب فرساي صلحا سياسياً
بعنا ، كما أن العصبة نفسها كانت منظمة سياسية . كانت محاولة لتوزيع أحوال البشرية
في الوقت الذي قبلت فيه على حلاتها - الحكومة القائمة والأفكار السائدة المنطقية بالدولة
بوصفها شئونا لا نفر منها ، وهنا يكن الخطأ الذي أخذ يصنع بالتدريج لعين البشرية

فإن الحكومات والدول ليست إلا أمورا مؤقتة ، كما أن في الإمكان تعديلها ، بل لابد من تعديلها بحيث تتناسب وتتناسب الحاجات الإنسانية واتساع مداها ، على أن القوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر ، وهي تعتمد على الأفكار الخاصة بالملكية والسلوك ، كما أن هذه الأفكار بدورها تتولد عن التربية ، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية - إن هو إلا اكتشاف مجموعات من الأفكار التي رسخت في عقول الناس وتطبيقها ، كما أن العلاج الناجح للتأهب الاجتماعية والاقتصادية إنما يقوم في إصلاح كل تأويل خاطئ - وكل فهم مغلوط ، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ في عصر مؤثرات تبدل جهودا بطيئة سمجة لإعادة تكييف شئونه ، ولو تأملت ما دار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدما عطرذا ، فإنها كانت تنفتح في البداية بروح قومية وسياسية بحتة ، وإذا هي تحول أخيرا إلى إدراك أوسع وأجراً للوحدة التي تجمع تحتها رفاهية البشرية المالية والاقتصادية ، ولا يخفى مع ذلك كله ، أن الجمهير ورجال السياسة والصحافة يعملون ببطء وتكرار ، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أصيبت في غضون ذلك بارتباك كبير كما تفشت البطالة والفقر بصورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن ، إذ إن حيوية الجنس أصيبف بالعطب ، كما أن الأمن العام قد تدهور ، فزاد عدد الجرائم ، وتجلت في الحياة السياسية حالة غير مألوقة من عدم الاستقرار . وإن تعطيل هذا الخوض في تفاصيل تلك المحن ، فإنها قد تكون مؤذنة بانبيار الحضارة وقد لا تكون وهي لا ترقى في الزمن الحاضر إلى التهديد بشيء يشبه الانبيار ، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقدر ما إذا كان الجنس البشري قادرا على إنتاج القوة الخلقية ، أى الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم المظرد الذي جعل القرن التاسع عشر صفحة حافلة بالفتنار والمصرة في تاريخ البشر .

الفصل الثامن والستون

إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايتها الأولى عصبة عاريتين متصيرين ، كان غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التي أنشأتها معاهدة فرساي - وهي الحدود التي تمكنت في رسمها وروح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل المواقف الاقتصادية التي تنجم عنها . ففرضت على المنزولين كما أسلفنا مبالغ فادحة يدفعونها على سبيل التعويض ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية قد انتشعت بنشأة شفاف من المباريات الرشيقة . حقا لأنه لم تقم على الطريقة القديمة المستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجراء كثيرة من الإمبراطورية التركية المحطمة ، ولكنها وضعت تحت انتداب ، المتصيرين - وهي لفظة مباركة أنتجت قريحتهم الوقادة ١١ . فإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سلمتها لأصحاب الشأن . وحتى الحلفاء أنفسهم لم يبدوا أي سماحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم . فنالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأشبعت طامع إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة . ونكس الأحرار والاشتراكيون ببريطانيا العظمى والدول الديمقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة وفكر ، فأصبحت السياسة التقدمية في العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاما تقريباً .

وكان الأطفال يفلدون في بريطانيا العظمى مثلاً ، أن العصبة تمثل العدالة الدولية وتضمن السلام العالمي ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبت هذه الفكرة في الأذهان ، ولكن أطفال الأنظار التي لم تحصل على نصيب مرضي من الغنائم والطبقات التي وزعت فرساي كانوا يلتفتون غذاء هتليا أقل تهدة للأنفس ، ولم تكن تتقضى عشرينات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الذين يستطيع اليوم أن نسميهم باسم المتصيرين الحق ، حتى أخذ ملايين وعلايين من الألمان والمجرين والإيطاليين واليابانيين بين أطفال الدشبان يقنن دوزسا توحى ضرورة إجراء تعديل حثيف في نسوية جنيف . لقد شب هؤلاء الأطفال في عالم من الاغراب الاقتصادية ،

التي سبقت أسبابه بحث أروق في الفصل التالي . ذلك لأننا عندنا اعتقادنا الاستقلال
يسمى بكل ما يصف به القلب حيوية وثقة وإلهام حركة ، كان تجمع ستة بعد
أخرى ، ولم يكن يفوت أنه إنسان إلا سخط ووزارة الخارجية التي كان يتحقق
أنه لا يمر من حدوث اضطراب دول جديد ، ولكن وزارات الخارجية المختلفة
استسكت بتناد بالورايا العامة التي اعترضتها من الحرب العظمى .

عند أول اجتماع مجلس العصبة بباريس في ١٥ من يناير ١٩٢٠ ، هم المندوبون
ذلك بلندن وبروكسل ، حتى أقيم قرما أخيراً بمدينة جنيف قبل انتهاء تلك السنة .
ومناك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ .

وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة بقرار حية قبل أن تستقر
العصبة في قرما الرسمي ، فإن قالوا أصعب بالخطورة في كثير الأحيان دأرت رحله
في أثناء السنة التالية يلا دالمجور وروثندة وكتوانيا وسبيريا وفويس وتركيا وآسيا
الصغرى وسوريا وسماكتو والبرازيل واليمن ، كشتبت الحرب الأهلية بالروثندة ،
ولكن في الإمكان اجترار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب
العظمى . إن جز مثل هذا القول .

قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك اتهم بانبار عسكري كبير على مرقم من
أنقرة في سبتمبر ١٩٢٢ ، فطرد اليونان من آسيا الصغرى وترقيا على يد مصطفى كماله
وتمت مدينة لومبر وأحرقت وقتل فيها آلاف من الناس وكان الحلفاء قد وعدوا
الروسيا القيصرية في أثناء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية ، ولكن
الروسيا السوفيتية لم تكن لها رغبة خاصة في التورط في ذلك الأمر . ذلك أن تلك العاصمة
الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برئاسة الجنرال ملن الإنجليزي في ٢٩٢١ .
ولكنها ردت بتمتني معاهدة لوزان ١٩٢٢ إلى الترك عقب هزيمة اليونان بعد
خاوجات طويلة ، ودخلت تركيا بدعامة كمال في دور سريع من الدول والاطمئنان
بالاستقلال الأوروبية ، فخرج من البلاط الامبراطوري القديم وهي السلطات والطرهوش
وفصل القباء عن الرجلة وأصبحت تركيا جمهورية ، ومع أن القسطنطينية ردت
إلى أصحابها السابقين ، فإن (كمال) احتفظ بمناصبه أنقرة .

كانت السنوات التي أعقبت توقيع معاهدة فرساي سنوات عتة فاسية بالكلية .

فإن تلك المعاهدة حكمت على المندحرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب وبدفع تعويضات قاذحة للظافرين . ومن الجلى أن المقصود من ذلك واستعباد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر . فكان عليهم أن يهقروا ويكسحوا ويقدموا الثروات ليستهلكها المنتهرون . على أن ذلك كان يعاوى على عقدة عنصرية . إذ من الواضح أنه لا سبيل إلى تسديد هذه الثروات الباهظة إلا بالسلع المصدرة ، فالصادر من المنزوم فيض كبير من السلع المصدرة ، لآدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء المظافرين لذلك اضطروا إلى أن يحيطوا بأنفسهم بمواجز من الترفيعات الجركية لوقاية معالهم ، بحيث إنهم لو فرض أن الألمان جنحوا حافاً إلى عيشة الكسح الشديد المتواصل لسداد الالتزامات المفروضة عليهم ، لما استطاعوا التغلب على تلك المواجز ، وظلوا بذلك مثقلين اقتصادياً بما يشككس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة .

ولاترعى لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين لإلحاقه الجمهوريات المتحدة التي بذلتها ألمانيا والنمسا المندحرة لوصولها إلى درجة مقبولة من العيش في ظل تلك الظروف القاسية ، وإلا قصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماماً عن النظر فيما يليق من صعوبات لا سبيل لهم إلى التغلب عليها ومن إماتتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الذات ومن مشاركة مقبولة وشريفة في الشؤون الأوروبية . وفي غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سنأً وينجح مرجلاً ضخماً من الطاقة الحافقة النافرة .

انتهى حكم أسرة هويزولرن بفرانكفورت إلى هولندة في نوفمبر ١٩١٨ ، وأصبحت قراره سلسلة محاولات لإنشاء جمهورية ألمانية . وخصيق مجال هذا الفصل عن تفصيل المراتب الاقتصادية المتبعة التي أنتت بالدولة الألمانية والدعوب التي لم يكن مقر من مردجها فيها ، والدم والتصميم الشديد التمام الذي أبداه الماسيون والكرهية على إلزالات عقوبات المعاهدة بهم إلى أقصى حد ، إذ إنه كان يرى أن لا بد للألمان من أن تداس بالارجل ولعل ذلك أقصى ما يبلغه قصر النظر الدياسي . وسرماً لما احتلت الأراضي الألمانية احتلالاً تأديبياً ، وراجل بوادى الروه ورجنودسودن الستالندومى إمامة لم يقترها : الألمان بسهولة ، وبذات أيضاً عارلة لسلخ منطقة الرين عن ألمانيا وإنشاء جمهورية بها تمت رعاية الفرنسيين ، كما حدثت بالبلاد هذه ثورات شيوعية ، وظهورت إلى عالم الرجودديكتاتورية ملكية برعامة الجنرال لودندورف دامت أياماً قليلة بمدينة ميونيخ . وكان الدكتور شرزلمان (ومنه الرئيس إبيرت) يكافح بكل جهده في لين في ظل

هذه الولايات جميعاً في سبيل المحافظة على ضم شتات ألمانيا في ريج محرو .

وبينا ألمانيا غارقة في خضم هذا الارتباك المضى أخذ صوت جديد يرتفع ويلا
الاسماع ، كان صوتاً غليظاً هو التنصب لبراهم ، ولكنه كان يقول ما كان يحسن به ملايين
من الألمان الذين جن جنونهم . خاصة منهم جماهير شباب ما بعد الحرب المتزايدى العدد .
و لقد خدع الأعداء ألمانيا وعالمها . - تلك هى النعمة التى أخذ يضرب عليها ذلك
الصوت ؛ و لابد من جهود فائق لإرجاعها إلى مكانة العزة التى كانت تحتلها قبل
١٩١٤ - فهما تكن التضحية التى تبذل في سبيل ذلك ، ثم يقول الصوت و إن
ألمانيا لم تهزم قط ، لأن ذلك ضرب من الخيال ، كما أنها غدر بها من الداخل . إذ
حانها بوجه خاص رعاياها اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية ، فلا
بد لها من العودة إلى نقابها المنصرى ، إلى حياة المحارب العنيفة التى كانت تتيقنون
الآرى ، ، ذلك هو صوت تعاش نمسوى اسمه أدولف هتلر ، لم تكن تستمع إليه
الأذان حتى كان له صدى لا سبيل إلى زده في قلوب طبقة الشباب الهائلة المتزايدة العدد
الذين صاروا آنذاك يعيشون دون مطعم معقول لهم في الحياة ، وتكونت على تلك
الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشد هودها . وقام عليها حزب سياسى عسكرى هو
الحزب القومى الاشتراكى (النازى) .

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى إصرارهم المزعج على
العيش كشمب منفصل يختلف في كنهه من الأوجه من الروح القومى العام ، سببا في
اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالنبأ أيضاً ، ولا يتسع المجال هنا
ليتمتع خط حركة النازية هذه من النجاح وتقلبه بين العنف المتشرد والقوة والسلطان ،
ولا كفاف العناصر الأكثر اعتدالاً في الحياة السياسية الألمانية في سبيل إيقاف تيارها ،
ولكن الذى حدث أن هتلر أصبح في ١٩٣٣ مستشار الامبراطورية ، كما أنه وقف
بجانبه على أبواب السلطة العليا في البلاد .

والظاهر أن الديبلوماسيين ورجال السياسة كانوا اطواراً زدهم قوامه مدارج القوة
لا يقدرون قوة حتى قدرها ، فلم يدرك أحد إلى أى حد أصبح ذلك الرجل مثلاً
لشاعر التنصب والكبرياء العميق التى تتراخم في نفوس الألمان ، كأن التفكير فيها
يحتمل أن يحسن به وأن يفعله ذلك الجيل الجديد من الألمان أبناء الحرب العظمى وما

بعدها ، كان فوق الطاقة العقلية لوزارات الخارجية ، ولا تزال السياسة الخارجية لعبة حقاء ، تدور بين الليثات المنوية التي يطلق عليها المؤرخون أسماء جرمانيا ولافرانس وبريطانيا وهلم جرا ، مع الوثائق والمساومات المبرمة ، فهي لا تتناول إلا الأجسام البفرية إلا حين تلجأ نهايتها إلى الحرب ، ولا يزال واجبا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير .

وكانت تحدث في إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها على الفور أوجه خلاف الحركة النازية ، (ذلك أنها لم تكن مثلاً تعادى لليهود) ، وكلما تعمق الحركات كان زاد أثر إحداها المحفوظ في الأخرى . أجل إنها كانت في البداية تحتلقتين تماما ، وكان زعيم إيطاليا هو بنيتو موسوليني ، وكانت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه ضئيلة جدا في مراحل حياتهما العملية الأولى ، ولكنهما مالبثتا حتى اكتشفا فيما بعد أوجه التماثل بينهما في شيء من الدهشة . والرجلان هما الثمرة الطبيعية لتطور الاجتماعى المصر - وأعني بذلك أنها انظما طبقية الشباب المتمردة المحرومة من كل مدف من تظهر الآن في كل قطر يتحطم اقتصاديا ، ومنحورها وسيلة للتعبير وإظهار النشاط .

بدأ موسوليني حياته اشتراكيا ثوريا ، إذ كان محررا لصحيفة اشتراكية هي الألفاتى Avanti ، واشتهر قبل الحرب بأنه زعيم جري وقوى . فاختلط مع معظم زملائه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا في تلك الحرب إلى صف الحلفاء واستقلال عن رعايا : محرر صحيفة الألفاتى وأصدر صحيفة Il Popolo del Italia ليشرح فيها آراءه . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها إيطاليا بأى امتياز عسكري عظيم ، حدثت بالبلاد الشيء الكثير من الاضطراب الاجتماعى بوضع حركات ثورية وتأثرة . وكانت الحكومة ضعيفة مترددة حتى لاح الكثير من المراقبين أن فى الإمكان حدوث انقلاب شيعى . وأحسن موسوليني بنفسه الفلق القوى الذى أحسه هتلر ، وشرع ينظم حركة قوية من القمصان السود هي حركة الفاشيستية ، ويدعو بقوة إلى تكوين حكومة حازمة لا تقوم فقط على جماهير الشعب بل على رجال المال والأعمال أيضا ، فلقى من كبار المالىين ورجال الصناعة تأييدا جسيما ، ولذلك لأنهم كان لديهم فيما يحتمل فكرة مبالغ فيها عن قدرة الثوريين الجدد على نزع أملاكهم وأموالهم ، كما ساورهم اقتناع أحق بأن فى الإمكان التحكم فى ذلك المنافع من أذى الفرض منه كإتباع للاضطرابات ، ومن سوء حظهم أنهم بالتوافق الخوف من الحزب والوقوف الاستجابة بالسود ،

على أن موسوليني لم يظهر في أية مرحلة من مراحل حياته أي ميل إلى اعتبار نفسه خادماً لردوس الأموال الخاصة . ذلك أن نظريته في الدولة المتكاملة الأفراذ الموحدة الجهود كانت تقطوعاً شاملاً على تحكم صارم جداً في تصرفات المخاضرين الاقتصاديين الأفراد .

تمت حركة قبل حركة هتلر بضع سنوات ، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يبادوا في الحرب بنفس المدى الذي بلغه ، مثل نظرائهم في فرنسا ، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها الفارات والجلد والاضطهاد قام بها أتباعه ذرو القصدان السودوكيوراواتما ، الإرهاب المتوسمين الشباب وبين المؤمنين بمبدأ الحرب الطبقات ، وحدث الزحف على روما في أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد المنظمة الفاشية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعاً لا يعوق سبله عائق . لقد سبق ضربه هتلر بحوالي عشر سنوات في الوصول إلى السلطة الديكتاتورية .

وكانت الظروف والأسباب المتماثلة في كل أرجاء أوروبا وبلاذ الصين واليابان تبحث على قيام نوع واحد متماثل من الكفاح وتنتج نتائج متماثلة تقريباً ، وكان اليساريون الشديدين التمسك بلا هوادة بالمبادئ النظرية يحطمون النظام الاجتماعي والسياسي القديم في كل مكان ، ويتشاجرون فيما بينهم كما كانوا يهيمون السبيل في كل مكان لقيام الزعماء العسكريين والديكتاتوريين ، أي الرجال ذوي القوة ، الذين ينشرون حكومات أساسها الحكم الشخصي القوي الشديدي ومعمون بصورة أشد وأعتف حرية الكلام وحرية التصرف السياسي ولا يبيحونها إلا لأنفسهم ، فأما المبادئ التي كانوا يستقونها فأمر لم يكن له وزن ، فربما كانت هي الشيوعية أو الدولة المتكاملة ، وما كانت تلك المبادئ إلا حالهم التي هم عليها وأفعالهم التي يفعلون . إذ ما إلامية التي تعود في النهاية من بلوغ منصب الديكتاتورية بالطرق غير المشروعة سواء أكانت يسارية أم يمينية . لا شك أن النتيجة العملية واحدة في الحالتين . وهجر الناس بكل مكان تحكمه ديكتاتورية ، كل بحث على خلاف وكل مثل عليا دولية وعادوا إلى نزعة الدولة القومية العسكرية ، وكانت الديكتاتورية الروسية أشد الديكتاتوريات ميلا إلى السلم ، ذلك أنها كانت قائمة بحدودها وحاولت أن تمنح مع عصبة الأمم ذات الكيان الهزيل ، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابان راحت تعامل المنظمة السيئة التكوين بقدر متزايد من الاحتقار .

كانت ليا بان كاملة السلاح والعدة وظلت كعظم الحلفاء المتصربين عنضة بسلحها بعد الحرب ؛ وكانت تعد العدة لعرف أنظار شبابها الفلق بهجوم تشنه على الصين الثالثة المشبعة بالقوضى . على حين راحت ألمانيا وإيطاليا تبدلان جهودا جارية فى سبيل تحسين أجسام جيها الناشئ . وتمويده على النظام ، وتمهلان على التوضى بقواتهما الجوية نهضة قوية عاتية ، وكان فى تسليح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرساي ، ولكن إيطاليا كانت حرة لا يقيد هذا ذلك التيد . وهكذا راحت مدارس تلك الدول الثلاث ومخافتها تيث باستمرار فى الشيب وتروح العدوان الحربى .

وقد حدث فى بعض نواحي أوروبا أن النجوم التى رسمتها العصبة لم تنفذ أبداً ، فإن مدينة فلنا مثلاً التى منحت لدولة لتوانيا ، قد قتلت عليها الروس والبولنديون والتوانيون ، ثم ظلت فى يد البولنديين ، وعلى سبيل التوضى استولت لتوانيا على المدينة فى ١٩٢٣ واستولت معها على ميناء كل من الحماية الفرنسية التى وضعتها بها العصبة ثم تركت المدينة لتوانيا فى النهاية .

وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العصبة منذ وقت مبكر أيضاً عندما اغتالت عصبة يونانية جزر الألبانيا يعمل فى قومسيون الحدود الألبانية اليونانية ، وعند ذلك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالمدافع دون انتظار تنفرض من العصبة وطالبت اليونان بالتوضى . ثم سوى الموقف باعتماد العصبة لما عملت إيطاليا .

وهناك مصدر متاهب آخر هو مدينة فيومى ، وهى مدينة منحت لكرواتيا ، فأغارت عليها قوة من المفارمين العسكريين بقيادة الشاعر المؤهب بنفسه دانو تزيو فى ١٩١٩ ، وبعد أن تبادلتها الأيدى عدة مرات صارت ملكا لإيطاليا إلى الأبد منذ ١٩٢٤ ، وطبيعى أن هذه لم تكن إلا أمورا صغية لسيا ، ولكننا كانت نحذيراً لأبأس به يتندر بقلة التقدير الذى كانت تحظى به فى أعين الناس قوانين العصبة .

وكان الشرق الأوسط هو الميدان الذى تجلّى فيه بطلان النسبة العالمية للعصبة لأول مرة على نطاق واسع ، ولم يظهر أى واحد من رجال السياسة والتدبير الغربيين المؤقرين الذين خلقوا العصبة وأداروا مقاليد شئونها آنذاك ، أنه كان يلهم فهماً جيداً للمشكلات الخاصة المعجبة بجمع ربما بلغ عددهم أربعين مليون إنسان ، وقد انهار هيكله السياسى

التقدم والاجتماعى والاقتصادى فى مدى جيل واحد ، ذلك أن الصين لم تكن فى نظرم إلا واحدة من تلك الكائنات الأسطورية ذات الوجود القانونى (أعنى دولة) كفرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها ، والتى تستطيع أن تقاضى الدول ويقاضونها ، وأن تقوم بالتعهدات وتحمل الديون وتجمع الجوائد ، وبينما الصين غارقة فى لجة هذه الفوضى العامة ، أخذ نفر من المثقفين الصينيين يمثلون الصين الجديدة صورة معنوية جديدة ، وأنشأوا منظمة هى الكومنتانج التى ظلت بضع سنوات بعد ١٩١٢ تكافح فى سبيل خلق د. وطنية ، ذات طابع عصرى بالصين . ولم يكن نفر من أن تحدث فى ذلك النظر المائل خلافاً عظيمة فى رأى وفى المشاعر الشعبية الإقليمية ، وأن تولد بها القصر العظيمة للصوبية وقطع الطرق ، وما زاد الموقف تفاقم أنه على الرغم من كل ما تدعيه العصبية من احترام القوميات ، سلت اليابان مقاطعة شانتونج التى استولت عليها ألمانيا قبل الحرب ، ثم تخلت عنها اليابان ثم عادت فاحتلتها . ويضيق هذا الكتاب الموجو عن متابعة ظهور وتوارى الوعاء المختلفين ، أمثال صن يات صن ذى النزعة الصربية . والجنرال المسيحي فنج ، والمغولى تشانج تسون الذى كان يهدف إلى العرش الإمبراطورى ، كما يضيق من ذكر تنقلات قصة الحكم بين بكين وفانكين وكاتون ، وأدوار كراهية الأجانب الانقلاب عليهم ، وتوالى تدخل روسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين المرتبكة . ولكن ما لبث الناس أن تبينوا جلياً أن اليابان هى الممتدى الأكبر ببلاد الصين ، وأنها أخذت على هامتها أن تواصل طبقاً للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى المضى قدماً حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة . لذا فصلت منشوريا عن الصين ١٩٣٢ واعتبرتها دولة عجيبة تحت هيمنة اليابان .

وفى غضون ذلك أخذ التطور للمطرد الطيران وإمكانيات الحرب الجوية يغير روح المعاهد الدولية بالمعالم الجع وإن غير ما إلى ما هو أسوأ ولكن جميع زارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لا بد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة ، وقد أصبحت فتواجية من حيث قوتها وأداة حرية قديمة الطراز ، وحلها عليها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الأفكار القديمة المتلقة ، بالجبهة البرية ، وبالطرق البحرية ، قد مارت إلى الضمحل وزوال . وكانت الدول الميالة إلى الانتقام والعدوان أوهف الجميع احساساً بهذا التغير فى الظروف ، لذا راحت تنمي

بإصلاحها المجرى تسمية سرية وخفية وبالقوة ، أما بريطانيا وفرنسا التي كان لها حقوق
عسكرية لا يتجزأ عنها منازع في ، والشريكات الحلفاء من القرن ، بقاها أدركا بمتة
أنها قد تها تهوقها المجرى إلى الفترة التي تسبقها باسم ، ولا يكتفون المرف ، ، ولم
يبرح روح ألمانيا الجديدة ، دعاية مثل وهورنج وإيطاليا الفاشية يرداد على الأيام
جسورة ، فأخذوا إيمان دول القرب بقية وإطمئنان مرادين ، وأدركت العلاقة
السكرية باليابان قيمة توزع القوات أور بافرادت من عدوانها على الصين ومن ثم
شرعت الجيوش اليابانية تسيطر أخفا على منشوريا وغزو ولاية جيمو وفي نهاية
١٩٣٧ ، فبلغت سور الصين الأعظم في ١٩٣٧ .

ولم تكن أي من بريطانيا أو فرنسا أو روسيا راغبة في الحرب. فلم تعد عليهم إذ تفتت إلا بخسران كل شيء. وعدم اكتساب أي شيء. ولم تكن واحدة منها تحت إرشاد سياسيين كبار لهم أوله حقيقة دراسة الأعداء وإخلاص في معاملتهم بالصحة كأداة من أدوات السلام. ذلك أن الدول التي يسمونها بالديمقراطية كان يوزعها الإيمان بكفاية وسيلتها، كما أن ثلاثهن كانت تحرقها. حل أشكال مختلفة. حوادث المتاعب الاقتصادية والمالية الخاصة بكل. وراحت الدول المدعوية للتلاحق بخط عيب بين التهديد الحقيقي والتهويز والبلق. تحرق سادة فرنسا وصحة الأمم تحرقاً تاماً وبهائماً.

فما انتهت ١٩٣٤ حتى ذهب خلاف حد هذا إلى المصلحة. ولم تلبس إيطاليا أن
خاضت في حربي عاتية لتسجل لاد المصلحة. استخدمت فيها بطرحة
ولا مرادة القتال المرة والغاز الحاسم حتى انصرفت على المصلحة في مايو ١٩٣٦،
على أن الإيطاليين وجدوا العيشة قسراً أصعب عليهم استيلاء واستغلاله.

وفي صيف تلك السنة نفسها واجهت الحكومة المصرية بحرب طارئة صليبية
لأن أخضا حراع مرمر مع الرطين ومعلقة الشيوعين القلايين، إذ فرجت
بمجان عسكري يقوده الجنرال فرانكو على رأس المنتدلين الكثرين وتربط بالسر
للألمانيا وإيطاليا. وقد أخفق ذلك الصليبي في قيام ثورة حذيفة صالحة لأن الأسباب
التي أوجعها الحكومة عديدة، ولقد توفي شيعة المورة وحشي حرب خروسي حذيفة
مدة ستين، كانت ألمانيا وإيطاليا يزدادان على الدولام اشتراكا طائفا فيها، فكان

المغزبون يضربون المدن والمدافع بكل قسوة حتى قتل في هذه العمليات الحرية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثيل من النساء والأطفال. ومع ذلك فإن أحد ألم يطن الحرب منذ البداية إلى النهاية ، وفي نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا من الناحية الدولية في حالة سلم مع أسبانيا ، مثلاً كانت اليابان من الناحية الثانوية في سلام مع الصين .

وفي ربيع ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجأة بلاد النمسا وضمته إلى ألمانيا في تحد صريح للسلح الذي نعمت عليه معاهدة فرساي في هذا الصدد ، ولم تلق الحركة أية مقاومة فعالة لا من داخل النمسا ولا من خارجها ، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (ومن وراءه موسوليني حليفه المتين) يسيطر على الموقف بصورة ملحوظة وشموخة في شئون العالم كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة العزیزة الجانب المسموعة الكلمة ، على أن الخوف من الهجوم الجوي (ولعله كان خوفاً مبالغاً فيه) قد دخل الدول الديمقراطية من كل فكر أو حركة . وعندئذ اجتدسابق جنونى على التسلح يفوق في فداحة تكاليفه وإمناكه للدول السابق الذى انتهى بنشوب الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

إن عدم اتباع سياسات راندما العزم والبساطة في تلك اللعبة الدولية ، وتبخر كبرياء أمريكا وفرنسا وبريطانيا بل حتى حقها بنفسها ، أمور لن تتضح إلا إذا أدركنا أن كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطان والقوة في الماضي تقاسى من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية المنيعة والتي ساء فهمها وإن اختلفت صور النتائج في كل منها فإنها هي أيضاً كان يحدث بها انقلاب جوهري في طرائق الإنتاج واضطراب في التوزيع أخذ اغضيان على الطب المستديم الحال الدائمين ، كأخذ امع حصى الزمن ونحو الضخام ضمان عمل طبقة العمال المدربة تقديماً طبقة أخرى من العاطلين التلقين الساعطين . وظهر أثر ذلك القصور بالولايات المتحدة في شكل هبوط في استهلاك السلع ، ولما كان استثمار الأموال قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً في أثناء الحرب ، ثم في فترة الاستقرار المالي بعد الحرب ، فقد نشأ من ذلك تفاقم الناس على بيع الصكوك المالية ، ومن ثم تولدت عنه أزمة مالية ، ولم تلبث الأزمة أن صمت عدداً كبيراً من المصارف الأمريكية كان حراً قبل ذلك من كل رقابة مالية ، على أن البلاد كانت حسنة الحظ في أثناء فترة الذعر المالي ١٩٢١ - ١٩٢٢ التي نجمت عن تلك الحال ، إذ وجدت على رأسها زعيمها فرانكلين روزفلت . فوضع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل وسحول وجهة الدول من النزعة الفردية التنظيمية التي كانت تكسب الثروات وتبدموارد البلاد في حماية التكديس تلك إلى اقتصاد مرسوم الحق طبعه بالعاطل العصري ، هو حركة

النظام الجديد The New Deal. ولكن ذلك المشروع كان يتطلب قدراً من الطابع
الاشتراكي الذي يستلزم بدوره طائفة من المواطنين الذين يوجد عدداً كبيراً مما كان
لديه من الرجال المدربين والمثليين، وكانت ذمّة أخلاق الرعي المجدية في تغيير
أعماله منذ البداية كما هو في أقسام حوزة الكوخ حيث أقيم فعلاً على كثر من نظم
القضائي الأمريكي من المحكمة العليا فتازلاً - من التحول من المهدو اليه في الطريقة
وكانت أمريكا لا تزال تقاسي الآلام المبرحة من تلك التجربة الكبرى في الاتحاد
والجديد في ١٩٣٧ - ١٩٣٨ يوم بدأت تهبطها أول موجة من اضطراب الحرب
في العالم القديم. فأخذت تدرك الخطر الذي قد يهدد كلاً من منطقة الساحل الشرق
والغرب وأصبحت الإمبراطورية البريطانية بأية كرامة خطيرة كما أن الخطر المزمع
أخذ يترامى قريباً دائماً واحداً لبيان أكثر فأكثر كازات حجوم العاترات
وسرعها. هذا إل أنه لاح أن الاستعداد للحرب قد يعود على البلاد تحقيقاً لثقة
البطالة، لذا فإنها وإن ظلت تطلق بأحلامها في المرة قد انشقت يدور حقيقته
النسل الذي كانت تزعمه من قبل بريطانيا وفرنسا.

وتراكت الصرايات الاقتصادية فوق رأس بريطانيا العظمى في نهاية عصرها
بأشواط في ثورة الشعب على الفئتين الحزبتين، حيث فرضت حركاتها على جمل
الدخل، وفقرت ضريبة التركة وصرفت على ما طين ممتلكات قد لزموا لتكاد،
وبذلك أبعدت شبح التوتر الثوري وإن كانه طبقة الشباب السائل في تحريك
الطرائق، ومعه على أنفسهم وعلى المجتمع أياً. على أن تكون المصالح والتجريب
وزيادة التعليم أو الاستفادة من هذا الشباب الياس ليس لم تكن إلا حاية طيلة
لسياً، إذ أن صاحب القوة القوية وصاحب المجهود القوي والالية القوية كانوا من
القوة السياسية بريطانيا العظمى بحيث دعوا كل طليق القناع الاشتراكية في
الصناعة أو الموارد الطبيعية. وتبته بريطانيا العظمى يدور ما في ١٩٣٧ إلى أن خطر
الحرب أمر واقع وأخذت تتساق كلمة مع بقية العالم في تلو الصير في العرووات
المسكرة. أدرك أذكاء الناس بأنه ما دام استقلال الدول القوية ذات القيادة
قائماً، وتعليم الأكاذيب المنعوية مستمراً بطريقة منظمة، والتجديدات القوية
والثقافية رافعة الرأس، وكذلك ما دام نظام الامتلاك الغني لم يوارثه وقرن أجل
مصلحة الفرد قائماً، وما دام التلاعب بالمال في سبيل وضع الدخل للملك كاستمراد

فلن يبرح بزاداد الإضطراب وعدم الاستقرار والاضطراب الحاد الآن يتنا، كالتمزج الحياة والفكر البشري تكسر إلى أقصى حد لحمة عوالم الحرب وعودياتها ومخاوفها وشهواتها التي تزداد على كراياهم هذا وتعمق انوار الواقع أن جنس البشري يتهدده مع نوع من الجنون العسكري الذي قد يضطر بناخلة فطرتهم طريق حرب قاسية ترجع بنا القهقري، وتبوي بنا إلى حياة لا يلا طاشو. إلا الألم والخذاء والشموات البدائية، ولا تهم إلا بضائل قلة لا تتجاوز الخط الإسرطلى.

على أن اكتشاف الاتجاهات أسهل كثيرا من الاحتذاء إلى الهواء، كما أن ما أفتقه جميع الاشتراكيين والاقتصاديين من نشاط عقل في سبيل تشخيص متاعنا وتعيين سياسة تقوم على التكيف، قد لقي بسبب حاجتنا الملحة كل احتقار. فقد عقد عند لا يحمى من المؤتمرات والاجتماعات وأعلن الشراء الكبير من التصريحات وظهرت ثمرات عظيمة من التضامات وأصاف الحقائق التي لا رابط بينها، واستلكت الآفاق بدعوة التآزر والتناقد دون أية تنحية بالذات، وعم العالم ظهف على شيء اسمه السلام، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سلمية وقوية وخلاقة. ومن العجيب أن كل دعوة لتهدئة والسلم تطوى على عنصر جسم من الكسل والخراسي، وإذا قدر الناس يوما أن يجمعوا في أيديهم من القوة، ما يكفل قيام منظمة السلام تصفد بالسكافية في أرجاء العالم وسياتهما، كان ذلك من طريق عنقوف بالورود والشم كل مقاومة. ألا ترى أن السلم الروماني Pax Romana كان نعمة الاستيلاء. والفتح فكذا ذلك السلام العالمي (Pax Munda) يطلب بالتأكيد تصميا وحرما وإنشا ومعالجة حازمة لكل تمنع أو معاندة.

الفصل التاسع والستون

الحرب العالمية الثانية

سنفصّل الآن في تفصيل نأيا الأحداث المتعاقبة التي أدت إلى تصويده الحرب التي لا تزال رسماً تدور اليوم (١) .

في ١٩ مارس ١٩٣٨ اقترح المستر تشيترز وزير الخارجية الروسية أن تتحد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمراً للتباحث في حروبهم وتقييمهم بعمل مشترك لمنع العدوان في المستقبل ، وخاصة أواسط أوروبا . ولم يحج للتياولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة في هذا التشاور ، وذلك كما قال المستر تشيترز دلالة لا تريد أن تتناقص في أمر العدوان مع المعتدي نفسه ، وكان ذلك احتراماً واحداً بسيطاً ربما أمكن به تجنب الحرب الأوروبية تماماً أو التضاء طياً على الأقل قبل أن تستفحل ، بيد أن جنون كرامة الشيوعية لدى الأغلبية البرلمانية المخلقة كان أقوى كثيراً من خوفها من الخطر الألماني . وقد ظل هذا الاقتراح القوي مصداقاً ستالين في مارس ١٩٣٩ ومولوتوف في مايو ، سياسة الروسيا العتية المائمة إلى مقبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقعيه ، حتى بعد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أبت أن تتضامن مع الروسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاتحاد الأفاق .

وكانت الخطوة التالية في البرنامج الألماني هي القضاء على شيكوسلوفاكيا التي تخم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلد المصنوع المام القوي أشكياً معروطاً بالآلات من ثلاث جوانح . وعندئذ بدأت أبواق الدعاية في بث دعوة صاخبة معلنة دفاعاً عن الآلات التي أصغر واحداً معاهدة فرساي . تمسك بفكرة التتخوم الاستراتيجية الجديدة على حجمهم الذي يميّاه وثقت ذلك تهديدات بإعلان الحرب وبعض مقاولات حذرية حمية توارثت أنها كانت مزلية وهجينة سخاً ، فلن اختار حتماً ألمانيا أن تواجه العالم في شخص يتخون مستحقين .

(١) كتب المؤلف هذا الفصل قبل أن تنهي الحرب كامر وانتهى من كتابه .

فإن بريطانيا بدورها قد وقع اختيارها على المستر تشمبرلن المعروف عديم الكفاية الممانع
للغور رئيساً للدولة . ذلك أن غدواته وروحاته إلى ألمانيا في سبتمبر ١٩٣٨ أصبحت
اليوم مصدر الأسف الشديد لما ترات المبررة لدى كل إنجليز وذاكي ، ولكن لا يرب
عن البالد أنه عندما عاد إلى مطار هستن بعد قطعه من الدكتور بنيتش وبذبح الضرورة
الواضحة القاضية بالمبادرة إلى قمع ألمانيا قمعاً جاحياً مشتركاً بين روسيا وفرنسا
وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا . وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية استازت بها تشيكوسلوفاكيا
وحصوله مقابل ذلك كله على قصاصة لا قيمة لها من الورق بتوقيع هتلر ، وذلك عندما
أعلن الجمهور المجتمع بدا ونجستريت : « إنه السلام في زمنا أيها الأصدقاء الطيبون وإن
لا يصحكم الآن أن تعودوا إلى يوتسكم وتناموا في فراشكم قري الأهين . » وانطلقت
ألسن الجماهير بهتاف الفرح والسرور ، وهي حقيقة ينبغي أن لا ننساها أبداً ، وذهب
الجمهور إلى بيت لينام قرر العين .

ومن البدييات في تدبير الطبيعة ونظامها القاسي المبرر أن أجزاء الحماقة والضعف
يكون على الدوام شديداً صارماً كجزاء الجريئة والإجرام سواء بسواء ، وهما هي ذى
بريطانيا ومعها البشرية جماء تدفعان عن القلص الذي مما قضى به الشرف والواجب .
ذلك أن ألمانيا لم تبر بمعداتها لحظة واحدة ، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجوز
أن يبلغ لسان من السداجة وسرعة التصديق مبلغاً يجعله يعتقد أنها كانت تنوي حقاً
أن تبر بكلمتها . وظلت ألمانيا ساهرة متيقظة ، على حين أن شعب إنجلترا وأصدقاء المستر
تشمبرلن الطيبين ، ذهب إلى فراشة قري العين ، وتقدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق
القشكية المحددة لها ثم واصلت سيرها . فأثارت استياء المستر تشمبرلن وزالت
تشيكوسلوفاكيا من الوجود في ملدن ١٩٣٩ ، وأخذت مصانع سكودا تنتج الذخائر
لجيوش الألمانية التي أخذت قوتها تضاعف بمرور الوقت . ولم تلبث بولندة والجر أن
وعدتا بشراة على الدولة المصرية ، غير آبهة بما قد يصيبها من نفسها . فالتهمت بولندة منطقة
تشككن Teschen واستولت الجر على سلطنة أوكرايا .

ولم تترك بولندة دولة قوية ثنائياً بسلام بامتلاك أملاكها الجديدة . إذ أنها كانت
الهدف الثاني للروح الألمانية . وهنا جعلت مسألة دنازج سبباً ظاهرياً بالخلاف الواضح
المعروف وأخذ الموقف يتطور سريعاً ، ولكن تردد المستر تشمبرلن وبلاذبه بريطانيا
أصبح يدعو إلى المزيد من الزلاء . ومن قبل ، جنت بريطانيا عن الدفاع عن

تسيكوسلوفاكيا، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى خشيتهما من البلشفية وشكوكهما فيها . وكانت لا تزال فيما يظهر تصدقون مثل بأن غرضه الحقيقي هو تعليم الشيوعية ، كما لا تزال تداعها الآمال في أن ترحل إلى ألمانيا شرقاً ، على حين أن كل ما فعله القرب هو القيام بالدور غير الكريم - وإن يكن مريحاً - الذي يقوم به متقبو المسكرات . ولكن بولندا كانت بها حكومة استبدادية لا تحتمل المعارضة، رجعية وكاثوليكية كما كانت تناصب روسيا العداء ، هذا إلى أن المستر تشمبرلان كان يكابد الآلام بسبب نزائده نفور الناس من «غامراته في ميونيخ» ، فتولدت في نفسه روح انتقامية شديدة ضد هتلر ؛ ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع الشمل لكبح جماح ألمانيا ، ولكن تلك المفاوضات باتت بدورها بالفشل بسبب ما تبديه الطبقات البريطة الألمانية من نفور من القيام بأي تعاون مخلص مع روسيا . وذلك أن الثورة الاجتماعية ، وليس ألمانيا ، هي الشبح الرهيب الذي يفزعهم .

وذهبت مدينة «ل المتوازية في مارس إلى الرينج الألماني . وفي أبريل ١٩٣٩ م. ضم الإيطاليون إليهم ألمانيا بنتوا في تحد رصين لمصبة الأوم ، إلى ذلك من الاعتداءات ، فأثارت وشاشر الاحتجاجات المألوف غير المجدى ، وحدثت السحب من العصبة وشلا كرمي آخر من كراسيها . وفي مايو أعطى المستر تشيفوف الدول الغربية آخر إشارة تحذيرية ، بأن استقال من منصبه ، بعد أن ظل على الدوام يتخذ موقف التعاون الجلي المتواحل مع الديمقراطية الغربية ، السحب لتشيوف إلى القاعدة الخلفية حيث قام «صحيفا أريباجر باه وثوقاه» ، وخلفه المستر مولوتوف الذي كان استهزأ روسيا أكثر من سلفه وأقل متبلاً إلى دول القرب . ولم تقم وزارة الخارجية البريطانية معنى إشارة تشيفوف ، والواقع أنها لم تظهر منذ الثورة الروسية أنها لا سطت أي حدث جرى في روسيا أمكنها تجنب رؤيته . ذلك أذهبتا فزوال روسيا من الوجود كانت رغبة واضحة جلية .

على أن بريطانيا ما لبست أن تحركت في الساعة الثالثة والعشرين ففقدت مع بولندا في ٢٤ أغسطس حلفاً الساعدة المتبادلة . وقد سبق هذا الحلف معاهدة عدم إعتداء بين ألمانيا والروسيا ، ذلك أن فون ريبترب ووزير الخارجية الألمانية ذهب إلى روسيا ، ومن الجلي أنه تمكن من إقناع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على

سربلين ، وعندئذ أدارت الروسيا ظهرها للديموقراطيات الغربية وهي في حالة من غضب وشك الذي له ما يبرره ونظمت ألمانيا تماما عن كل ما كانت تدعيه من الداء الكومنترن (١) ، ذلك الداء الذي كان له حتى آنذاك أكبر الفضل في وجود صلب على التنازع بين الطبقات المسموعة الكلبة بفرسا وبريطانيا العظمى ، فان هذا الداء قد أدى الفرض المطلوب منه . فإن الألمان اجتازوا حدود بولندة في أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب في الثالث من سبتمبر ، وهكذا أصبح بريطانيا الطيوز قرو الأعيان يومهم وإذا ببلادهم مثلثة في الحرب مع أحكم وأدق الشعوب المتفاعة تنظيها ، وإذا بهم يجدون أنفسهم ناقصي التاد وغير مستدين للحرب ، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة البحر عديمة الكفاية غير جديرة بالثقة ، وقد نفر منهم تماما في ذات الحين أقوى حقايقهم شكيمة . وضع ذلك فاتهم قضا نصف السنة التالية في حال من السبات العميق ، وذلك لسوء استعدادهم عسكريا ونفسيا ولاهم طمشتوا تطمينا غير كريم .

وكانت الحملة الألمانية على بولندة قصيرة الأجل ولكنها تتمم بالكفاية . ولعل قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، كما أن معظم المطارات البولندية عبرت بالقنابل وعطلت أعمالها بواسطة الجهات الجوية الحاشدة على أن الجيوش البولندية التي قاومت ببسالة عظيمة ما لبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلل الدبابات الألمانية وراء ظهرها ، وبسبب تفوق الألمان الجارفين في القتاد ، كما أن القيادة الألمانية العليا أعلنت في ١٢ من سبتمبر أن المدن المفتوحة والقرى والجزر ستضرب بقنابل المدافع والطائرات أيضا . ولحق كل مقاومة يديها الأهلالي المدينون البولنديون ، وذبح المدينون البولنديون في مذابح كثيرة . ومع ذلك لم يزل سلاح الجو البريطاني والفرنسي أدنى جهد لتخفيف الضغط عن بولندة بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات . ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تراجع إلى ليتوانيا والمجر ورومانيا ، وفرت الحكومة إلى رومانيا ، وسقطت وارسو في ٢٧ من سبتمبر .

وفي السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة . وذلك بعد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولندة قد غلبت

(١) الكومنترن : هي الحجة الشيوعية الدولية أو الحجة الدولية المتفاعة . [للترجم]

على أمرها تماما . وتقدمت تلك القوات إلى نفس النجوم التي كانت للروسيا بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ بمقتضى اتفاقية كيرزون ، وقل جدا من أجزاء تلك المنطقة التي حادرا إلى امتلاكها ما كان به سكان بولنديون حقيقيون . وعند ذلك ردت لتروانيا مدينة قلنا التي أخذت من قبل تحديا لعصبة الأمم ، ثم اتجهت الروسية بذلك إلى عقد الاتفاقيات مع دول البلطيق الثلاث (التي رفضت فرنسا وبريطانيا كما ذكرنا قبل ذلك أن تمنحها ماضيا مشتركا) ، وتم لها بمقتضاها التحكم الفعلي في وسائل دفاعها الجوية والساحلية بواسطة القوات الروسية . واتضح القيان أن روسيا رأت أن تنفيذ من المواقف لتقوية قبضتها وهيبتها على سواحل بحر البلطيق ، ذلك أنها كانت على الدوام في خوف من أن تهاجمها الدول الرأسمالية مجتمعة ، وكان لها ما يبرر اعتقادها في أن تعد فتلدة رأس الحرب التي يأتيها هذا الهجوم من قبلها . وربما كانت روسيا مبالغة في هذه المخاوف . أجل إن المدافع الفنلندية كانت تتحكم في المداخل إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أية دولة أخرى لتقبلها . ولعل من المستحيل علينا أن نتصور أن أمريكا تقبل وجود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة ستاتن في استسلام وصبر جميل .

لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤد إلى نتيجة ، فعمدت روسيا إلى الحرب وهاجمت طائراتها المدن الفنلندية بسلسلة من الغارات . وهي وحشية كان في إمكان روسيا أن تستغني عنها تماما . وكانت الحرب حربا شاقة باهظة الثمن على السوفييت . على أن فنلندة ما لبثت في النهاية أن اعترفت بالهزيمة وعقدت الصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف .

وفي نفس الحين كانت الحرب في الناحية الغربية من أوروبا مقصورة على البحر بوجه خاص . فإن الفرنسيين والألمان كانوا يواجهون بعضهم بعضا من وراء خطوط قوية التحصينات هي خطا ماجينو وسجفريد . . أجل قام الفرنسيون بهجوم فاتر على الجناح الشمالي من الجبهة . ثم عاد الألمان لمواصلة حرب القواصات فبادوا بالقتل والخسائر ، فإن الأسطول البريطاني عدل استعماله وسائل فنية جديدة ، استطاع بها القضاء على تلك الآفة بهمة عظيمة ، ولم يلق في سبيل ذلك إلا إغارة ضئيلة لا ماض من مشاة وهي بارجة أو ما إلى ذلك ، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس من فضلا عن بضع سفن صغيرة ، وكانت خسائر السفن المحروسة في القوافل أقل كثيرا .

من كل ما كان متوقفا ، لذا وصلت للزمن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى ، بل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن فوق ما فقدوه ، فإن الدراسة جي قد حقيق عليها الحقائق واقضت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هي إكستر Exeter وأخيل Achilles وأجاكس Ajax ، حتى اضطرت فيما بعد إلى تعزيز إغراق نفسها على معاودة القتال ، ثم اتسروا بها .

ثم جاء نصف سنة أخرى دامت في أثنائها حالة الخمول والتوقف التي شملت الجبهة الغربية ، وزادت قوة بريطانيا في الاستعداد الحرب ، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود ومقادير هائلة من المدافع والمعدات الحربية تصير بحر المانش .

وتخلت فترة الخمول هذه حركة قدر القريسيين أن يأسفوا عليها فيما بعد هي مطاردتهم واحتطادهم لزعهاء الشيوعيين والعمال اليساريين . والظاهر أنها لم تكن موجهة فقط إلى الشيوعيين بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضا ، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الذين لا يتجاوزون الخمسين نائبا واضعرتهم إلى الاختفاء كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حلت في طول البلاد وعرضها وعين مكائهم وظفون خصوميون . وأقل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حماقة بحتة ، وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة بين الجنود وصف الضباط ، سواء أتوا من المدن أو من بين القلاحين ، وكان كثير منها لا يزالون يرون روسيا رمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يقسامون : أهم قاتلون فقط من أجل الأثرياء في فرنسا ؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الأخيرة فضلا عن صفوف الجنود ، وللرة الثالثة استطاع المعتدى أن يدرس إصفيته بين الرجعية وبين باحث الثورة في الرجل العادي ، وذلك لأن الخيانة تمكنت أيضا في أحزاب اليمين المؤيدة للسير دلايديه ، ولا كتبها خيانة من نوع أقوى وأشد أخذت تسرب دون أن يدركها أو يتحداها أحد .

وزاد من متاعب المنتفوسة الشقاء بدرجة غير مألوفة ، وتعد من الأمل إلى أقصى حد في الحصول الجديد أوروبا كلها ، ثم انتقل محور الالتفات لجأة في منتصف فبراير إلى بلاد العوديج ، إذ أصبح حياد تلك البلاد موضع شك ، ذلك أن الملك ماكون كان شديد الميل للانحياز للولاء لهم ، كما أن عامة الشعب كانوا يعمر اطينين بروسهم ، ولكن الخلق مشرورا يجدكون لجأة أن شقة المياه العذبة المحاذية لساخلى والنرويج وفي

حدود الأميال الثلاثة التي تعدها القوارب مياناً إقليمية، كانت تستخدم عمراً عليه فيه السفن الألمانية مواد كثيرة وتصل منه إل مرض البحر لما حدة البرطانيين . وتقائم الأمر تماماً عندما حدث ما يسمى باسم حادثة التورك . فان عدداً يراوح بين الثلاثة والأربعة من بحارة السفن التي أغرقها البارجة جراف سي قبل تدميرها قد هربوا في ذلك الحجاز الساحل باعثناء من سلطات الموانئ القرويجية . وأرسلت مدمرة بريطانية لتتبعهم ، وعلى الرغم من اعتراض زورقين زوريجيين مساحين وإنكار موطنى البناء القرويجيين وجود أى أسرى على ظهر السفينة . فان المدمرة تقدمت في يوسنج فيورد ، واحتل بحارتها السفينة للمنية ، التي شحطت على الأرض في أثناء الحركة ، ثم أطلقوا سراح الأسرى .

تطور الموقف باسكتدافياً منذ تلك اللحظة ففزا الألمان القرويج والدانمرك في وقت واحد وسلبت الدانمرك على القنور ، وقاومت وأسلو هجوم الممتدين ، ولكن خابها الحزب الفاشسى القرويجي نفسه . وانقضت بعد ذلك بضعة أسابيع من المقاومة المضطربة . وفي تلك الأثناء كان الجمهور بريطانيا ينذى بما لانهاء لمن الأكاذيب والنشر الأجوف . فكان كل من المستر تشمبرلن والسيد إدوارد إيرلسايد *Ernest* رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية . يقولان في القنار الأجوف الكناكب . فيقول الجنرال إيرلسايد إن هتلر قد ، قامه القطار ، وردد المستر تشمبرلن هذه العبارة الحافلة بالإلهام ١١٩ خاصة وأن هتلر قد كشف نفسه الآن ؛ وأخرجت القنرة رأسها من بين أطباق دوقتها ١١١ واستخرب بريطانيا ضربتها الآن ! اوربما كان يمكنها توجيه ضربتها إفضلاً ، ولكنها لم تفعل ؛ وذلك لأن قيادتها العليا وإدارة البحرية فيها لم يؤتيا الكفاية والعزم اللازمين لقيام بذلك . وقال الجنرال إيرلسايد : إن الجيش الألماني جيش رفيع الاستيلز حراً ، ولكن ليس فيه عناصر ختم في الحرب السابقة برتبة أعلى من رتبة اليوزباشى . غير أن البرطانيين كان لديهم أمثال إيرلسايد من القنور المحنكين ! وقد غزا الألمان الدانمرك والقرويج في ٩ من إبريل . ولما حل يوم ٨ من مايو أجرى مجلس العموم البريطاني تحميلاً حول تلك الهزيمة الضعفاء . وتعل أن تخطط وأساليب هؤلاء القادة المحنكين لم تكن إلا حيلة وبلاهة هباء . وإليك بضع عبارات من خطبة القنار البستر لريد جروج :
و لقد نبع هتلر في وضع وطنه في مراكز استراتيجية أحسن كثيراً مما يليه أسلافه

في ١٩١٤ . فقد وقعت في أيدي الألمان اسكندنافيا والترويج ، وهي من أعظم
الإمكانيات الاستراتيجية في الحرب . وليس ثمة قائمة تعود من يوم السويد ،
والألمان ينزلون من يمينها ويسارها . وبأي حق يستطيع أن يلوم الدول العنصرية ؟
وبحق قد وعدنا بانقلدها وحاجتها . ونحن لم نرسل طيارة واحدة إلى بولندا
وتأخرنا أكثر من اللازم في بلاد الترويج . فهل يستطيع عاقل أن يشك أن
حيثنا قد انحطت ؟ لقد ألقينا الرعود لتشيكوسلوفاكيا وبولندا وفنلندة . وأصبحت
وعودنا قائمة في عرض الطريق .

لقد وعدونا بإعادة تسليح البلاد في ١٩٣٥ ، وعرض على المجلس اقتراحات
فعلية في ١٩٣٦ ، وعرف الكل أن كل ما عمل قد تم بغير حمة تحدوه وبغير أثر
خالد عاد مندودون يا هك قوي أو ذكاء ، ثم جاءت الحرب . فلم تزد سرعة الأمور
شيئاً يذكر بل بقي الحال على ما كان عليه من التواهي وعدم الكفاية . وعرف العالم
كله أنه بلادنا وضعت في أسوأ مركز استراتيجي وقعت فيه في تاريخها .

لقد قال المستر تشمبرلين إن ورائي أصدقاؤني ، وليست المسألة مسألة من هم
أصدقاء رئيس الوزراء . بل الأمر أعظم من ذلك كثيراً وأخطر . إذ لا بد لرئيس
الوزراء أن يتذكر أنه التقى هذا المدور الجبار في وقت السلم والحرب ، وأنه لقي على
يديه الهزيمة دائماً ، لقد طالبنا بالتضحية . والشعب مستعد لاشك لبذلها مادامت له
زهامة . ولإني أقولها الآن باتزان تام ، إن في إمكان رئيس الوزراء أن يضرب
لنا مثلاً في التضحية ، إذ لا يستطيع شيء أن يؤدي إلى النصر في هذه الحرب أكثر
من تضحيته بمقاييد الحكم . .

وبينا بريطانيا لاتزال تحاول بكل جهد إزاحة كابوس المستر تشمبرلين
الجامم على صدرها كرئيس لوزرائها ، ظلت ألمانيا تتجسد بلا هوادة في صورة
الثالوث الشرس الرهيب جورينج وجوبلز وهتلر . واستمرت آمال البشرية تتحطم
وترجع القهقري . ولم يفكر أحد حتى في عزل السيد إدموند أيرلسايد من منصبه .
وما لبث أن وهب للاشتراك في كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا ، فان الضربة
التالية لقنون الحرب الفرنسية البريطانية المتداخلة قد أنزلت في العاشر من مايو ،
عندما اجتاحت ألمانيا بزد مونددة رينلاند . - في وقت واحد .

ومنها بدأ جميعاً لعين دارس التاريخ في السنوات التالية (إن في التاريخ ما هو
في السنوات التالية) فالواقع أن واحداً من تلك الأقطار الثلاثة لم تحكروها على الرغم
من هذا الخطر المحتمل البسيط ، في إعداد خطة للدفاع بالإشتراك مع فرنسا وبريطانيا .
ولعبت نفس العناصر الخائفة المترددة دوراً فيما أعقب ذلك من كلفة . ومن الأسف
أن الفرنسيين لم يمدو خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية ، وأن خطة الحلفاء القيام
بحرب حركة ، في الجناح الأيسر المكشوف كانت ناقصة براء جداً ، وقاتل للورق
والخلفاء من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال ، ولكن قضت طهم الحيا قوراء
حدودهم ، كما ظهروا استخدام الألمان الهائل لرجال المظلات ، وهو أمر لم يكن مستعداً
له بالمرة خيال قواد الحلفاء ، الذين لم يتبع لهم إلا خمس أو ست سنوات ليدروا ما كانت
الفسكرة . ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس المعبر الذي اتجه جري كادفن
آلاف من السكان تحت الانقاض ، ولم تحض أربعة أيام حتى انهارت كل مقاومة هولندية .
وفرت المملكة إلى إنجلترا وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بروح البطولة .

وتراجل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء المتقلصة . وكان في أيديهم سلاح شديد
فقال هود بابات سكودا التي أعدها المستر تشمبرلن لألمانيا في السنة السابقة . وأخذ
الخط الفرنسي في الانكسار قرب سيدان . واندفع الألمان في الاتجاه الشرق غربيين
الثغرة التي فتحوها . فركوا باريس من يسارهم وتقدموا نحو بحر المانش و إنجلترا .
لم يستطع الحلفاء سد الثغرة ، لذا حيل بين قوة كبيرة من الإنجليز والفرنسيين
والبلجيكيين في الشمال وبين الاتصال بوسائل الدفاع الرئيسية بفرنسا ، ولا سيما
وشيكا دانياً . وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشمال بريطانيا ، لذا كان قطعها
كشفاً لبريطانيا وتمريضاً لها الأخطار . وعندئذ خطر لك ليوبولد الذي كان قد
التمس المعونة من فرنسا وبريطانيا عندما اجتمعت بلاده ، أنه قد حان الآن وقت عمل
ينطوى على أعظم مظاهر الجبن والحياة . ففتح باب المفاوضات مع الألمان وأمر جيوشه
بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار في ٢٨ من مايو ، دون إخطار حلفاءه في خط
لنصيحة حكومته الإجماعية ، ودون أن يلقي بالألمان الجنود البريطانيين والفرنسيين
الذين جاءوا لمساعدة وطنه تلبية لندائه في ساعة المصيرة .

وأوشك الجيش البريطاني على الوقوع في الأسر لولا أن الله من قسطنطين
جندوه وصف ضباطه الجديرة بالإعجاب بقيادة سيده وحياة دامت ونتاج أمير مكتوف

للأعداء ، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالا حتى عاد إلى دلكرك ، وتمسك بها بضعة أيام حربية ، كما استطاع على الرغم من تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزها اثلا ، أن يعبر بحر المانش ، إلى إنجلترا مع الجيوش الفرنسية والجنود البلجيكيين الموالين . وبلغ من إبداع سلوك الجيش ، وعما لحوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من أوان البقالة الزائفة ، أن امتلأ الجمهور البريطاني بالسرور أكثر منه بالاستياء والكدر . وقال المستر وستون تشرشل الذى خلف فى النهاية المستر تشمبرلن فى رئاسة الوزارة محمرا القمب : « ليس الانسحاب الناجح نصرا ، وخسر الخفاء قدرا هائلا من المدافع والمواد الحربية ، كما أن المقاومة الفرنسية الرئيسية أخذت تتهاوى .

وتغشى التقدير بين صفوف الجند . وشرح المستر تشرشل فى التفكير فى انسحاب الإمبراطورية البريطانية إلى كندا . هل أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد للألمان أن الإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية المرة نفسها وإن سقطت بمحطرة صريعة فى الميدان . ولكن أكثر الناس أساءوا فهم عباراته إلى أقصى حد ، وبناء على هذه الإشارة منه ، أسرعت الطبقات الثرية والنافذة الكلمة تدافع تدافعا غير كريم لفرار بأولادهم إلى كندا وأمريكا . على أن بريطانيا ربحت الكثير بسبب هذا الجلاء ومهما تكن نتيجة الحرب ، فإننا نشك فى أن يتحسس هؤلاء المنفيون بإرادتهم العودة إلى بلادهم .

وعندئذ رأى موسوليني أن قد آن له أن يعلن الحرب ، فأعلنها فى ١٠ من يونيو . وأخذ الجنود الإيطاليون يكترون من الاشارات وتحريك الأيدي على الحدود والآلية كما أخذت صور للدوشى على الأراضي الفرنسية . وتحول انهيار الجيوش الفرنسية إلى تشتت شامل . وغادر الناس باريس وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بورجو . وخطب المسيو رينو فى ١٢ من يونيو خطبة نهائية يائسة القصر فيها المون من الرئيس روزفلت . وقال : إن الكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها . وودع عليه الرئيس بسرعة مبرا عن أسمى أنواع المواطنين ووعد بتقديم المساعدات المادية ، ولكنه ختم حديثه بهذه الالفاظ ذات المعنيين : « إنى أعرف أنك تفهم أن أقواله هذه لا تحمل أى معنى يدل على تمهيد بالانسحول فى المسائل العسكرية . إذ لا يمكن أحد القيام بمثل ذلك التمهيد إلا الكونجرس وحده . »

وعند ذلك استقال المسيو رينر وظفه في رئاسة الوزارة المارشال بيتان الشيخ الكبير القاني وتولى معه وزارة الدفاع الجنرال فيجان الأصغر منه قليلا. وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها العدو تسليما تاما، وكان حالها المشي من التمحس ١١ ثم عدت الحكومة البريطانية في اللحظة الأخيرة إلى تقديم اقتراح بتسليم بريطانيا وفرنسا معا.

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تماهتا على عدم القيام بعمل متصل، ولكن ذلك العهد نسي آنذاك، وللرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسجون من فرنسا جنوها يحيط بها الأعداء. وانهالت الجيوش الألمانية المظفرة على فرنسا، وفعل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر المانش، وهي البقية الأخير من دوقية نورماندى التي ظلت تابعة لتاج البريطانى ١٠٦٦- تقع في يد الألمان، وعندئذ شعر البريطانيون بخطورة مركزهم، ولكن قوة فعالة جديدة دبت إليهم، ووجدت لسانها المبرق المستر تشرشل. وكانت موانئ فرنسا الحرية وأسطولها أيضا فوق كل شيء، مصدر تهديد لا يمكن الاستهانة به، وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طامعة، وأقيمت في لندن لجنة قوية فرنسية برئاسة الجنرال ديغول (de Gaulle)، لتنظيم استرداد فرنسا من براثن الأعداء. على حين أن بقية الأسطول الفرنسي قد قبض عليه أو حط من السلاح أو ضم إلى بريطانيا. وهاجم الأميرال سومر فيل قوة معارضة لبريطانيا عند وهران. شهابا رجتان من الدرجة الأولى هما استراسبورج وديركرك وحطبا عن العمل.

لما التقى البريطانيون بالأسطول الإيطالى أول لقاء بحرى خطير، راحت حجة الباباجة الإيطالية الممتازة بارثولوميو كولوني، وهي من أسرع بولوج العالم، إذا أصابتها على الرغم من ذلك قذيفة من المدفعة الأسترالية بدق وأغرقتها. حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا على ظهر جزيرتهم وعلى متن الهواء وصفحة الماء، أخذ سددهم الحر ينفض عنه العدا الذى ظل يتجمع على سفنهم في أثناء سنوات الانسلاط الطويلة.

وللشيطان الحور قد داخل بعض النفوس المرتابة عندما عاد السيلامو كرايد إلى البطيرة لتنظيم الدفاع الداخلى، ولكنه سرعان ما رقى إلى رتبة المارشال القوي وضع لقب الورودية، وأحيل إلى الاستبداد بنصف مرتب وأبعد عن طريق القصر. ونما حرس وطني أخذت كفايته تزداد، وحل الترقب الانفعال محل التخوف المزعزع، وأخذ يتضح للعيان ازدياد تفوق القوات الجوية البريطانية، التي أخذت تعجب إليها

التياب من كل طبقة من طبقات الشعب، وومن البتة الإمبراطورية بأكملها الملقاة
سواء بمرء، وأبقت الأيام حقاء حذائهم إلى أقصى حد، وكان احتمال الزمن يقتصر
دويجات عديدة كلما تأخر يوماً.

وتركو الاعتناء بشئ على أسبائيل والبحر الأبيض المتوسط فكانت قد خاضت لمراسم
إلى الشرق، واضمحلت النار جميعاً أن للروسيا رأياً خاصاً بمنسجها جعلها على الأقل
لا تميل إلى الحلف على الألمان كالانحياز إلى الحلف على الحليقة البريطانية الحاكمة.
ضادت إلى قرية تعرفها المواجهة لآلمانيا، وتحسين مراكزها على نهر الدانوب والبحر
الأسود، ثم طلبت بموجب عام إعادة معلق يسار ايلابو كوفيتا الشمالية، التي اقامتها
منها رومانيا في ١٩١٨، ولم تلبث رومانيا أن أذعن ذلك الطلب بعد أن لجأت إلى
ألمانيا دون جدوى، ثم استجابت الروسيا بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول
البلطيق في وقتها المناسب بشكل عجيب، وعن ثم دخلت الثلاثا الاتحاد السوفيتي.
وأما هذا العمل شعوراً منويا بعيد المدى التي حكومتها الولايات المتحدة، فإنها
استنكرت اخفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت خرد فلندا من مصب نهر النيفا،
فأهل المتكروفل هل وزير الدولة الأمريكي بخطاب شديد منحنحها، فأجابته المستر
مولوتوف قوميسر الشؤون الخارجية الروسي إجابة شديدة وبهذه المذهب الشيوعي
المألوفة، حيث قال: إنني أؤكد أن أريكان تمنى بأمرها الخاصة، ولم يلبث شقة الخلاف
أن زادت بين هاتين الدولتين العظيمتين المهتمتين كليهما بفعالية السلام العاجزين
إن افترقا عن الوصول إليه، ومع ذلك فلم تكن هناك في العالم حقيقة واحدة تدعو
إلى اختلافهما في الرأي إلا حكمة نصيب للطرفين من حمة الخيال.

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية في حيف. ١٩٤٤ في جميع قرائه ليقال قتالا
جدياً، فإن دعاية ذلك الاتحاد كانت مبهمة حقاً، وأفتشت عين شخصية وشبه سرية
من جنسويترن لمعالجة شئون جورج اللاجئين الأجانب الحاشدة المتزايدة ببريطانيا
العظمى. وكان على رأس هذه اللجنة شخص اسمه المستر لويديجر من اغنداسم كاليف
ليستر في ١٩٢٤ ثم منح لقب اللوردية في ١٩٣٩ تصاعدهم اللورد ديسويلتون ويلوس
أه ياتر على صورة تنسكرونا يلوي النوع الساتية (١) في بعض الأجانب

(١) الساتية: عشب من الأعشاب الساتية، القسوة الجوز مظلومة، وهو عشب نوع من
البحر يسمى جنون يختار الأجانب.

الجنوى أو بمنيل من عملاء النازية ، ولا ذلك إلا أنى وأعضد الاضطهاد ليد
الشعوب نفسها التي كان ينبغي على بريطانيا أن تخصص اليهم طاقا المروءة التي كانت لها
في سبيل إعادة الرتبة الحرة إلى أوروبا . فقد تروا مساعدة شريرة توحى لا تطرق على
حكمة ، معاملة ألحقت بشرف بريطانيا حررا لأسير إلى إصلاحه على أحد أعداء
النازية والفاشية ولتروا معاملة فظيمة جداً ، وحيل بينهم وبين زوجاتهم وعلاقتهم ،
وأبعدوا عن البلاد ، ودفع كثير منهم إلى الانتحار . وقد بدأ ابن اللص يقطع لهد
كننج ويلرستون وبلورن الذي واجهت فيه بريطانيا المحالة لخدمة بحرياتها
على مصادقة وإيواء ومساعدة رجال المراكب التوريق كل دولة لثورية وبريطانيا
المظلمى هي التي أوقعت تجارة الرقيق ، وكان عما يفخر به البريطانيون أنه حيا
رفرف عليهم أشنع الناس بثوب الحرية . فاما الآن فإن العالم وقف كالصق
يسأل نفسه أسيئت إنجلترا ذلك الماضي المجيد ؟ أكان كل ذلك المديون من
الديمقراطية مجرد دهمى جوفاء ؟

وما زاد من الواقع السيئ لهذا الاضطهاد أن الحكومة لم تطلب أية تحقيقات حتى
يعدم إصدار أى بيان واضح عن أهدافها من الحرب وما كانت كل قوة حرة في العالم
خارج الإمبراطورية وداخلها تتوسل مطالبة بإسقاط ذلك اللين . ومع ذلك فقد
الشعوب البريطانية التي أخذت تتنشط وجمعت قسما من قوتها على طيها أيديهم
أغلال نزعات المحافظين التوريق (١) القاسية التي أوقعتهم فيها الحرب ...

هكذا واصل البريطانيون القتال في الوقت الذي ساد فيه ميلادهم كقاع جهنم طرد
النور ، وحدث هجوم جوى عظيم وشروا على لندن في سبتمبر وأكتوبر وأبريل
تجدد عامة الشعب وصبرهم القوي كما أظهرت الزيادة التواضع في السلاح الجوى البريطاني ،
وأخذت أمريكا بإعادة فرنسكين ديلاو وروقت تولد على الأيام حقائق لما يملك
البريطانيون من جهد في الحرب ، وباتخاذ التي دخلت الحرب في مرحلة جديدة
هيوشنوسولين كانت تسير حيثما طرقها إلى مصر وقناطر السويس وبلغ من جهتها النصر
أله ضم إليه ألمانيا (١٩٣٩) وهاجم بلاطيرن (١٩٤١) وكانت مصر في محنة
لذلك انشغلوا المنتخ الأرواح . وعند ذلك كان أسلاك الجور حواكيا لمناجاة جندوا

(١) التوريق Torydom منب جديد المعلقة على التميم .

عن رئاسة القوات البريطانية ، كما أن الجيوش اليونانية قد سما بكفائها الرئيس
مشكساح إلى الدرجة القصوى . وظهر قائد بريطاني من طراز جديد أكثر كفاية
هو الجنرال ويلز ، فحرب الجيوش الإيطالية بشمال إفريقيا وأستراليا والحشة حربة
قاصحة ومريعة أدهشت أبناء قومه كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم . ولم تنقض عشرة
أسابيع حتى تمزقت المئانة الفاشيستية المستنفذة . وهزم صفوفات الكومونولث البريطاني
الناهضة لثقليلة العدد والقوية العزم الجيدة العتاد - الجيوش الإيطالية المتناثرة من البحر
الأحمر إلى طرابلس وأسرتها ، كما قهر اليونانيون بمؤازرة السلاح الجوي البريطاني
الجيوش الإيطالية بألبانيا . ولا شك ان لو أتيح للبريطانيين قيادة كهذه تتناز بالذكاء
والعزم لا يمكنهم في ١٩٤٠ تحطيم هجمة النازيين على النرويج . ولم تبحر الاكاذوبة
المسماة بالنازية قائمة حتى ساعة كتابة هذه السطور (مارس ١٩٤١) ولكن لو أن
أمريكا مدت يد العون المادي فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن
يعالجوا شأنها على النحو الذي حالجوا به الفاشية . ولا يزال المحيط الأطلنطي ممترا
لكفاح غير مضمون العاقبة . فالسفن البريطانية تفرق فيه بوفرة كما تفرق أخرى
حوالة لبريطانيا . وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل في قيام عالم جديد لا يزال يملأ
النفوس بالرجاء . فهل يحقق ذلك الأمل ؟ .

الفصل السابعون

أزمة التكيف البشرى

ليس خبراً من المبالغة أن البشرية مصابة في الوقت الحاضر بمس من الجنون، وأنها ليست بحاجة إلى شيء كحاجتنا إلى معاودة ضبط النفس العقل في الجنس كله. إننا نتم الفردي بالجنون إن جانباً أفعالنا العنيفة جادة التوافق مع ظروفه التي فيها يعيش بمجانبة تجل مصدر خطر على نفسه وعلى الآخرين. والظاهر أن هذا التعريف الجنون ينطبق في الوقت الحاضر على الجنس البشرى بأكمله، وليس من المجاز في شيء بل هو الحقيقة المجردة. بينما، أن يقال إن على الإنسان أن يتمالك عقله أو يتمالك أو يملك ويذهب بجفاء. أليس كذلك أن يهلك أو يبدأ مرحلة جديدة عظم فيها قوة وجدداً أفضح، وكان به لا يوجد سيلاً وسطاً بين هذين التقيضين. فهو غير بين المالك الأعلى والحسيض الأوهده وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو.

تعميقاً في هذه الخلاصة الموجزة لتاريخ البشرى على القمل المتصل للمجتمع البشرى، ولستنا كيف كان كل تحسين في وسائل المواصلات والنقل يضطر الناس إلى تكيف أنفسهم الحياة الاجتماعية موسعة الآفاق على الرغم من كل مقاومة تبعت عن خروجه بالولاء الطبيعة والديانات الشقيقة والتعيز ومألوف العادات، مع ما يقترن بذلك غالباً من الإسراف المائل في النفوس والتبديد للريع السائدة. كأننا لحسنات في الفصول ٧٨ و ٥٨ و ٥٩ بوجه خاص على صنوف الارتباك والفرص التي خلقها العلم والاختراع الحرفي أثناء القرن الماضي، ووجهنا البعيد خاصة نحو موضوع المشتقات التي ينتجها تقدم أو ضاع الملكية عندنا لآراء تلك التربية العامة الهزيلة الموجودة لدينا اليوم، فقد أصبحت كلمة السكان العظمى متحدة. وربما كان الفصل التاسع والجنسون أم مافي قصتنا من فصول، وربما كان جذرياً بأن يلقي عليه القارئ. نظرة أخرى. وهناك ميزة خاصة اختصت بها الملكية هي ضوئها السائلة كنقود أو كرهود يدفع النقود. ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون النقود تشمل قداماً من عناية الناس واهتمامهم، ولكن قدراً كبيراً من الأبحاث التي جرت كان غير ذي جذري لما جرت به عادة الناس من معالجة النقود كشئ أو نظام.

في حد ذاته ، على حين أنها جزء مركب من مجموعة معقدة ، من العلاقات ، هو مركب الملكية والتقد ، الذي كلما حللته جزء على جزء الكل . مثال ذلك أنه عندما تتضمن العملة ترقيم الأسعار ، يزداد الماتون بما يمكن أن يكون ، فإذا ان التضخم وانكسفت العملة حل المدينون عبثاً تهيلاً . والتفرد تغيير طبيعتها إذا أصبحت ما يمكن شراؤه وبيعها ، ويصرح المعلمون في شيء من القوة أن لا يجدوا لا ثبات على البنوك الخاصة بمد ضرباً من اغتصاب السلطة ، والتفرد تغيير طبيعتها بتغير النواحي التي تستخدم فيها ، وليس هناك عملة واحدة . بل عملات عديدة . والشيوعية نوع من التفرد كما أن هناك نوعاً آخر لا نصار المذهب الفردي (١) المتطرف ونوع لكل نظام آخر يمكن أن يتواضع عليه في شئون الحكم والتوجيه وحرية التصرف .

فإذا أموز جهاز العملة والاتحاد القدر الكافي من القوة العقلية ومن التنظيم والقيادة . ظل ميداناً يرتفع فيه المنازعة والمضارب ، وظل مصدراً لإفساد لا نهاية له لنظام الحياة الاقتصادية البرية ، ولكن أين لنا بالتحويذة التي تبدي هذا الارتباك . لا جرم أن ذلك يستلزم جهداً عظيماً هائلاً ومنظماً . ولن نخرج نقاسي حتى نبذل ذلك الجهد فضلاً عما سنعرض له من غاطر دنيئة في حياتنا الدولية المثبوسة ، قاسي قلة اطمئنان وبعثاً لاحت في أحد الأيام شيئاً لا يصدق العقل ، في ظل ظروفنا الاقتصادية الضالة . وليس في أيامنا هذه رجل عادي في أي مكان يمكن أن يقال إنه يأمن من الفقر والحاجة .

وقد شرعنا الآن فقط إدراك الخيارات العميق الحق لتغيرات ظروف الحياة البشرية التي تدور الآن . وفي القرن التاسع عشر كان الرجل الناشط يختلف هبات القوة والثروة التي كان العلم يهبها له دون أن يحس إلا بأقل قدر من الفكر ودون أن يدرك الثمن الذي ربما أصبح من الواجب دفعه مقابلها ، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتطالب بسداد الثمن ، وقد بلغ من تغير مقياس المسافات وبلغ من عظم القوة والمادية التي في يد البشر ، أن أصبحت السيادة المتصلة التي للدول الحاضرة أمر استحيلاً ، ومع ذلك فإننا نطلق بترك السيادة بينما يمر علينا المصائب . فلا بد من أن تبدو بشكل ما ، الأرواح المتصلة بالمال ، وبشكل ما ، لا بد من الحكم العالمي في الحياة السياسية والاقتصادية

(١) مذهب الفردي : مذهب ليبرالي واقتصادي يدعو بتفوق الفرد ومصلحته على حقوق الجماعة والدولة ومصلحتها .
[الترجمة]

وفي بيولوجيا الترح جفة عامة من أن يعالج بالتنظيم .

والضرورة تمت تغيير من الأشياء الثابتة تنهرا يطس معالمها القديمة تماما .
وينبئى تقارنى- الإنجليزي أن لا يمر في نفسه كثيرا احتمال انتهاء السيادة البريطانية العالمية، فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السيادة برهة واستخدمناها أسوأ استخدام .
أجل إننا أحيانا أمورنا عتزة تنطوى على السباحة والحرية ، ولكننا لم تأت منها القدر الكاف لتبرر زعامتنا العالمية ، لذا وجب علينا خلال الضيق النفسى الذى يمر بنا أن نهمل أنفسنا للاعتراف بحقيقة ما كنا لنعترف البتة بهائى أيام دزرائيل والغرور الذى أفاذه كبلنج :- وهى أن المصير المثلل للالسان هو المنهج نحو المساواة والوحدة فى أرجاء العالم قاطبة . أما العزة والسؤدد ففكرة بالية ومرفوضة ، كما أن الهمة مثل أهل دير جدير بالثقة ، فليتنا الآن أن نوطن أنفسنا طوعا أو كرها . على الديمقراطية العالمية حتى لا يصيبنا جميعا ما هو أسوأ من ذلك .

والآن يتضح لدينا تماما أنه لابد البشرية من القيام بمجهود تعميرى هائل لإن شاءت أن تجنب شدة الزيادة فى تلك الممارات المنيفة وتلك المذابح العالمية التى أمتعتها الحرب العظمى ؛ ولذلك فإن فكرة مرتجلة منجعة كفكرة إنشاء عصبة الأمم ، وإن محروقة مهلهلة مرفدة من المؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك ولا تنير فى العالم شيئا مع ادعائها تسوية كل شئ ، لن تكون علاجا للحاجات السياسية المعقدة للقرن الجديد الذى ينتظرنا . وهما تكن الأمور مستعجلة وخاطرة ، فلا بد من أن يسبق كل تنظيم دالى جديد وفعال نهضة عقلية كبرى ، ولا بد من لشوء تطور منظم وتطبيق منظم لعلوم العلاقات البشرية ولعلم النفس الفردى و علم النفس الجماعى ولعلم المالية والاقتصاد والزراعة ، وكلها علوم لا تزال فى مهد طفولتها . فاما الافكار النضجة والبايدة والميتة والمختصرة سواء منها الخلقى والسياسى فلا بد من استبدالها بفكرة أخرى أوضح وأبسط توضح اشتراك الجنس البشرى كافة فى الأصول والمصائر .

وإذا كالتساخطار والارتباكات والكوارث التى تنكس على رأس الإنسان فى هذه الأيام هائله تفوق كل غير قماضية مرت به ، لا ذلك إلا لأن العلم جلبه من القوة ملهم يكنز فمن قبل لإطلاا ، كما أن المنهج العلمى القائم على الفكر غير اليأس والصبر والواقع إلى أقصى حد ، والتخطيط الناقذ والمتمركز إلى أقصى حد ، يقول إن ذلك للنهج

نفسه الذى وهبه هذه القوى التى لم ينميا له بعد التحكم فيها ، يمنحه أيضاً الأمل فى التحكم فى تلك القوى ، فالبشرية لا تزال بعد يافعة لم تتجاوز المراهقة . وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإتهاك ، بل متاعب القوة المتزايدة التى لم تلق بعد تنظيمها . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة وركباً واحداً ، شأناً فى هذا الكتاب ، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة المستمر المتجه إلى أعلى والمهادف إلى الإلزام والتحكم ، لشهدنا آماد هذا الزمان ومخاطره فى صورها النفسية الخفية . ونحن الآن فى أول مطالع لجر العظمة البشرية . ولكننا نلذ وميضاً بما نستطيع الحياة أن تفعله لنا ، نمسه فى جمال الزهر والقروب وفى الحركة السعيدة المتقنة لعنابر الحيوانات وفى سحر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر ، كما أننا نجد إشارة إلى ما تستطيع الإدارة البشرية عمله بواسطة الإمكانيات المادية ، نجد ما تحيا أنتجته يد الصانع من فنون التشكيل والتصوير ومن الموسيقى الرائعة ، وفى قليل من المبادئ الشائعة العظيمة والحدائق البديعة الفناء . لا جرم أن الأحلام عملاً رموسنا ، وأن فى أيدينا فى الزمن الراهن قوة غير منظمة ولكنها لا يبرح زداد . فهل يستطيع شك أن يداخلنا فى أن جنسنا لا بد أن يحقق تماماً أجراً تخيلنا وأشد ما غلوا ، وأنه سيحصل على الوحدة والسلام ، وأنه سيعيش ، أى أن أبناء أصلابنا وثمرات حيواتنا سيعيشون فى عالم سيصبح من الفخامة والجمال بحال تفوق كل خصر أو جنة نعرفها ، وأنه سينطلق من قوة إلى قوة فى دائرة المغامرة والتحصيل لا يبرح قطرها يزداد ؟ فما صنم الإنسان ، والاتصارات المفسرة التى أحرزها فى ساحة الرأفة ، وكل هذه القصة التى سردناها عليك ، ليست إلا مقدمة للأشياء التى يبق على الإنسان أن يتمها بعد .

الفصل الحادى والسبعون

من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤

العقل البشرى فى أقصى توتره^(١)

- ١ -

الاحداث بين ١٩٤١ و ١٩٤٤

أوصلت الفصول السابقة هذا المنفى فى تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤٠-١٩٤١ .
وليس هناك ما يستحق التمييز إلا النذر اليسير من حيث تتابع المصادف . وقد
حذفت بعض العبارات فى بعض النسخ لدواعى سياسية ولكنها أهدت الآن إلى
هذه النسخة . وقد سجل الكتاب اليوم وحفقت حقوق نشره للوفاء ككل
متكامل ، وإن يكون لاحد حذر ولا إذن بإجراء مثل ذلك الحذف .

ولئن ظل تتابع الحقائق فى هذا الكتاب منها من كل تغيير ، ويمكننا الآن إعادته
إلى سيرته الأولى الكاملة ، فلقد ألم تغير جسم القيم المناطة بتتابعها . على أنه جدير بأن
الخواص فى ذلك الموضوع أن تذكر أحداث تلك الفترة . وفى إمكاننا أن نفعل ذلك
باختصار ، وذلك لأن كثيرًا من تلك الأحداث لا تزال ناضرة فى ذاكرة القارئ .
وفى ١٩٤٠ - ١٩٤١ كان جميع العالم غير المعتمد يستال القنصا أولت ويحضر
الاستراتيجية بأصدقائه المحتملين . واستطاع مثل على الرغم من أن كان يصد عنه ، كاذب .
لا يكاد يصدقها عقل أن يعقد المعاهدات ويتفاهم مع جميع ضحاياها الذين قرو إقامتهم فى
شراكه هذا اليهود الذين كانت نعمته عليهم قاطعة . ويلوح أن الأمريكين كانوا بمنأى من
دائرة أطباعه فى تلك الآونة . فكان هدفه غزو العالم المتركون لآوروبا وساروا وتوف
وبوريس ملك بلغاريا ، ومثل الحكومة الألمانية المؤيدة للقائمة فى يوغوسلافيا ، فى إثر

(١) هذا الفصل أضافه المؤلف قبيل وفاته وظهر فى أحدث طبعة الكتاب [المخرج]

خطرات المستر همبولن وذهبوا للفارضة مع هتلر . وظلت بريطانيا تعمل وحدها
صيه معزوم لم يرحش شدة تزداد كل يوم ، على أن هتلر أحس بعد التفاهة مع مولو توف
بالتق من ناحية الروسية . وكانت الروسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى ، لذلك كانت
أقرب مصدر للنظر عليه . أجل قد تكون بريطانيا قوية في دفاعها ، ولكنها كانت
حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم .

لما اجتاحت هتلر بلاد الروس في ٢٢ من يونيو ١٩٤١ . وذلك لأن غزو بريطانيا كان
من اليسور وإرجاؤه حتى يقضى على الروسيا . كانت السلطات المسئولة في أمريكا منقسمة
إلى مسكرين ، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكن بد من أن يقضى إلى تحالف وثيق
بين روزفلت وهتلر العجوز . وربما سهل على الألمان إحصال الجنود إلى إنجلترا ، ولكن
استرجاع المجتمع ثافية كان من أعسر الأمور على الرغم من وجود أتباع موزلى ومن
إليهم ومساعدتهم لهم . وكانت قبضة الألمان بمدة هنا وهناك وفى كل مكان ، ولكنهم
كانوا مترقبين إلى أقصى حد ، على حين اكتسب الإنجليزى العادى شهرة صلاحية
العود . وربما استغند منه فيها مليوناً من الرجال بينما ليس لديهم ربع مليون يستطيع
الاستعداد ختم لغز العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكر الاعتقال لأسرى الحرب ،
ومن ثم ينزل النازيون إلى أرض إنجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لن استبقى النظام المختلئ رأسه خارج المصيدة البريطانية فإنه لما مع ذلك
إلى شن هجوم عنيف على الروح المعنوية لسكان لندن الشديدي التخلط السيئ التعلیم
الأقرباء المراس . وعندئذ بدأت التفارات الجوية التى تسمى باسم معركة بريطانيا ،
فتبعت بنمو الكتابة الجوية لدى البريطانيين ، وما وافى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى
كانت ١٨ طائفة معادية قد أسقطت مقابل ٢٢١ طائفة بريطانية قتل من ملاحيا
٦٠٠ وبالجائون بالمخلات الراقية ثم عادوا إلى المعمان القتال ولكن سكان لندن
المدين دفنوا اثماً أفدح من هذا . فقد كان القتلى حتى ه نوفمبر أربعة عشر ألفاً ،
وكان المرحى حريقاً ، أربع أخماسهم جميعاً فى لندن وحدها . ودمرت فى ذلك
الهجوم الجوى النازى دار نقابات العمال بلندن وثمانية من الكنائس التى بناها السير
كريستوفر رن ، وتكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطانى قائلاً لأمريكا : « اعطونا
الأدوات تم لكم اللهمة ، وذلك لأن أمريكا كانت لاتزال جالسة فى مقاهدها تصفق
لبريطانيا صفيحاً حاداً ، ولكن دون أن يبدو عليها أى مظهر يفي . بمدها يد العمل

في ذلك الكفاح. وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدمير إنجلترا وساعدوا في القيام بالهجوم .

ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئا أشد عمقا وأكثر خطرة وأوسع مجالا من مؤامرة النازي على سائر البشرية ، ظهرت تحت الشمس لم تأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة ، ذلك أنه قد توصلت في آسيا الدعاية المضادة للأوربيين ستين طويلة ، وكان سميت تلك الدعاية خيال اليابانيين الناشط الخبيث العدواني ولم تجد تلك الدعاية لنفسها منفذاً كبيراً في اللغة الهندوستانية ، تلك اللغة التي تعني الخناق على كل دعاية إلى نظم الغرب وعاداته ، ولكنها وجدت من يعبر عنها بالغات الوطنية في صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين وسمت كل أرجاء الصين . وكانت اليابان في كل مكان تتخذ صورة الزهيدة المناصرة للعالم الآسيوي المناهض ، الذي سطرت المقادير أن يسلط في النهاية على هذا الكوكب ، والذي كان أبناؤه قد ملأوا البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الآسيويين شديداً والاصطباغ بالخصاصة الأمريكية ، يندس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون ؛ ومن أسير الأمور ردم ثانية إلى تقاليدهم القومية ، ولم يكن اليابانيون يضمرون للألمان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذي يضمرونه للأوربيين كافة ، وكان رأي هتلر في البداية في ذلك الشعب الأصفر الصغير الأجسام لا يقل عن هذا الخطأ واحتماراً .

ولم يلبث هذا المشروع الذي طال الأمد بإعدادة ، أن قذف على العالم في ٧ من ديسمبر ١٩٤١ على حين كان الدبلوماسيون اليابانيون لا يرحلون يخفون من الشبهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات في واشنطن . وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكي يرقد هادئاً في مياه بيرل هاربور قاعدة البحرية عندما فاجأه اليابانيون ، وفقدت في تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدرعات وسفبتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية التتيا أنها في حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأغرقت البارجتان البرنس أوف ويلز والريالين (لأنهما كانتا بلا هون جوى ١١١) بطرايد ألقيت من الطائرات اليابانية ، وهل لي أن أكرر هذه الكلمات المشحونة بالهوان الأسيفي . . . لأنهما كانتا بلا هون جوى ؟ ولستأ نعرف إلى يومنا هذا من كان المسئول عن ذلك التدمير . . .

تقدم مد وقل هجوم الإيطاليين ، وتقدم إلى غزاه ، ولكن سحب جيوشه إلى البلقان أحفلكه ، فتقدم رومل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية ، وقار الجزائر موته رمى في أكتوبر ولوفير ١٩٤٢ بمركبة العلبين المدفعية ، ومن ثم بدأ تقدم سريع على حين زلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيادة الجنرال أيرنهاور . فوقع الألمان بين تارن قسلبوا في سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، ثم استوجب الملك مصطفى الإمبراطورية الإيطالية بشرق إفريقيا ترقية مراكز الحلفاء في الشرق الأوسط ، فاحتل مصر والسودان وأظهرت شيئا من العطف على المحور .

وفي أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد وتأمين عظيم .

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق ضيقة من ١٩٤٣ - ١٩٤٥ . وفي يوليو سقط موسوليني ، وفي ٣ من سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة المدة وأعلنت الحرب على ألمانيا في ١٣ من أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تعارب حربا مريرة حتى كسرت في مايو ١٩٤٤ على الخط القوطي بالقرب من بيزا ثم استسلم الألمان بعد ذلك في أبريل ١٩٤٥ .

وخل الألمان عند ستالينجراد عشر مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم في ربيع ١٩٤٤ وحردوا جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا ، ثم بدى هجوم طام أخرجت به قتلعة ورومانيا وبلغاريا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندا ويوغوسلافيا ، ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان في أكتوبر ، وفي نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدي الألمان ، وأسدى أنصار هتلر إلى الحلفاء مساعدة شجيرة ، ومتمهم مرموسى أخير حرر بولندا ودخل تشيكوسلوفاكيا وبلغ برلين (يناير - مايو ١٩٤٥) .

وبعدت الطرق الجبلية الثانية في الغرب ، بقى ألمانيا بالطائرات بناءة الشدة ، وقصص الجبهة جبال فرنسا الغربية بقيادة أيرنهاور ، ثم تقدمت الجنود المتحالفة من الساحل الجنوبي بسرعة إلى الشمال ، فلما وصلت الجيوش إلى حدود ألمانيا هاجمها رولفند

بمنطقة الإردن Ardenuss فصدما إلى حين ، ثم ما لبثت أن كثرت خطى جيفريد وعبرت الرين في مارس ، وفي ٧ من مايو سالت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

وسرعان ما اجتاحت اليابانيون شبه جزيرة الملايو واسبوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندي والهادي ، ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما في يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يوليو ١٩٤٥ تم استرداد الفلبين ، وكان الاستيلاء على أوجيا وأوكيناوا مقدمة الهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قبلة ذرية أسقطت على دير وشيافى ٦ من أغسطس وأخرى على نجازاكي في ٩ من أغسطس ، وأعلنت الروس الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا . وفي ١٤ من أغسطس أعلن ديمو هيتز قبوله لشروط الحلفاء .

- ٢ -

معرفتنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى ١٩٤٠ (١) . ومنذ ذلك الحين حدثت سلسلة متتابعة من الأحداث أرغمت المشاهد الذي إدغام على أن يدرك أن قصة البشرية قد بلغت غايتها آنفا ، وأن الإنسان العاقل Homo sapiens ، وهو الإسم الذي سره أن يطلقه على نفسه يد في صورته الحالية شيئا متروكا لاغناء فيه . ذلك أن التجموع في مسالكها قد انقلبت عليه ولا بد له من أن ينقل مكانه الحيوان آخر أحسن تكيفا لمواجهة المصير الذي لا يبرح يطبق على البشرية بصورة أسرع وأسرع .

وربما كان ذلك الحيوان المتكيف الجديد صنفا آخر غريبا عنا تماما ، وربما نراها كعدليل جديد لفصيلة البشرية Homindae بل حتى كاستمرار مباشر للأمة

(١) وأضاف المترجم بقعة عما عقب ذلك من أحداث الحرب العظمى .
(٧٧ - تاريخ العالم)

البشرية ، ولكن لا شك في أنه لن يكون بشرياً فليس أمام الإنسان إلا عرجان أحدهما يرتفع قائماً إلى السماء وثانيهما حوى سحيقاً إلى الحضيض . فأمر الطبيعة الحتم الذي لا مرادة فيه في زماننا هذا وفي كل أوان هو أن يتكيف أو يموت .

وما أكثر من لا يمتنعون منا بشدة هذا التغيير الفجيع بين السماء والحضيض ، فإن القوى التي أنشأتنا في نهاية تلك السلسلة المديدة من الكائنات الحية حينئذ يتشبث بفكرة الاعتداد بالنفس تتور به نفوسنا ضد مجرد التفكير في إخلاء العالم . القرآن أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى قدرة مزودة بالجراثيم الويلة المعدة للقضاء علينا ولم أعني أن أحضر الجنس البشري وهو يهود بأفئاسه ، وأن يكون لي رأي في حلول السيد الجديد للخلقة محله في النهاية ، وإن كانت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته المرتقب ذاك أن يسامحني كما فعل أوديب أباه ، فيقضى غلي أنا أيضاً !

قلب العرف فيما حولك من هذا الكوكب تجد بقايا الإنسان وأعماله متثرة في أرنجائه ، ولا بد لمعلمنا من بذل جهد فكري هائل قبل أن يدركوا أن هذا التوزيع المنسق للتجهيزات الإنسانية ليس إلا ثمرة مائة ألف سنة الأخيرة . ولا يد أن المراد ذات النشاط الإشعاعي وحملية تحلل الراديوم قد بدأت في المجموعة الشمسية في مدة تقارب ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأنها توقفت فعلاً قبل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض بزمان طويل ، يقول الدكتور ن . م . فذر بمسجل كاندش بكبرديج : « إن جميع الأنواع ذات النشاط الإشعاعي طبيعية بحتة ، بمعنى أنه لا بد أن أحوالاً قد حدثت في مرحلة ما من مراحل التطور الكوني ، ولعلها لا تزال تحدث في بطون النجوم الأشد حرارة ، التي حدث بها إنتاجها ولا يزال يمكن الحدوث ، على أن هذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ ساعة انفصالها عن الشمس ، كما أننا كما كان للأرض قد جرت عادتنا التقليدية بالابتعاد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التي يظهر لنا أنها عاشت على كوكبنا تلك الفترة التي تقارب ثلاثة آلاف المليون سنة (3×10^9 سنة) منذ أن حدث الانفصال . »

وقد حدثت في الفصول الأولى لهذا الموجز التاريخي حديث الحياة على هذا الكوكب بتقديرنا في ١٩٤٠ . ولم يكن حديثنا آنذاك راحياً بأي حال من حدود الزمان التي يذكرها الدكتور فذر بجلاء تام فإذا نظرنا في اتجاهات أخرى وجدنا أنفسنا اليوم

لواجه أشد أنواع الكشف عن المستور من طبيعة الحياة قلباً للأرواح . وسيمجد الكاتب في هذا الفصل الحثاى الذى سيكون من الأنسب تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه ، إلى النقاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها وإعادة سردهما على الأجماع في نور التحقيقات الجديدة التى فرضت نفسها قسراً في عقول المشاهدين الأذكياء ، وهى لن تكون من حيث الجوهر إلى نفس القصة التى سردهما من قبل ولكنها ستصاغ صوغاً جديداً في إطار من الآفاق الموسعة توسعاً هائلاً . وهذا الإطار الزمنى شأله شأن القضاء ، إنما هو ضرب من الفكر الذى يشكل عقولنا ، فمن تفكر فيه ونستقصر صفة عاده فيه ، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج على حدود الزمان وعن الأبد ، على أن هذه ليست إلا مصطلحات سلبية لا تحتوى على أى مدلول مطلقاً ، فإن أخيلتنا الإيجابية لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء الدقات الأولى لساعة الراديرم .

ثم أصبح السكوكب الأرضى فيما بعد على التدرج موطناً يمكننا لذلك الرائد العجيب : الحياة . وكان يدور حول الشمس بسرعة لا يعلها أحد وعلى مسافة لا يدبرها . ثم اكتسبت الأرض بعد ذلك قرأ تاجها تمكنت موجة من موجات المد أن تهبط من سرعتها حتى ألزمت في النهاية أن يدبر وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الأبد ، ومن ثم يكون الشهر القمري يوماً قريبا ، وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تأخير مشابه إزاء الشمس ، بحيث إن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الأخيرة المتأخرة ، لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف . وفي زمن ما من ذلك الطور المتدفع وفي ظل غيمة من كثيف السحاب البخارية بدأت سلسلة الدقات الإيقاعية التى يسميها الحياة .

على أن ظلمات البحر العميق التى لانهاية لها ، وجفاف الأرض اليابسة الذى لا مرادة فيه ، لم ينظروا على أية إمكانيات للدقات الإيقاعية . فى شيء لم يكن ليوجد . كما قال الأستاذ ج . ب . س هولدين في إحدى مقالاته المبسطة الجديرة بالإعجاب . إلا في المنطقة التى يقبداها على الساحل المد والجزر . فكان النور يقبب الظلام وتقبب الظلمة النور ، وبدأت الحياة - تلك الدقة العجيبة في المادة الموات . فإن علماء الحفريات الذين يبحثون على الدوام عن شيء عديم في ظلمات سجل الصخور ، ويجدون إشارات تليها بوجود طور حرم من كل أثر الحياة لا يعلم أحد مداه قبل أن تفضأ أشعة الشمس فعلا من خلال ذلك الستار البخارى واقتضت العملية المسماة بالحياة .

ولا تزال فقرات تناوب هذه العلاقات الإيقاعية البعيدة شيئاً غير محقق. فإنها كانت في درجة أولية قصوى بحيث لا يوجد أقرب نظير لها إلا في العناصر النشائية المبكرو سكوية للحياة المعاصرة أو في مياه البحر السطحية ، فكان هناك تكرار هائل في الديا طيم (١) وما ماثلها ، وحدث في زمن مبكر جداً من القصة أن أنتجت نظرة مواتية مادة خضراء هو الكلوروفيل ، التي كانت تنتج تحت نور الشمس من مجاشبه دائم يستمر مادام النور موجوداً . ولذا فإن سجل الصنخور يتحول فجأة من العدماء الحياة إلى أضرب كثيرة من أشكال الحياة بمنطقة المد والجزر .

وهذه الأشكال بكل ما حوت من أضرب يتجلى فيها غيل مشترك ، هو النزوع إلى فرض وجودها *Leanviol* وهي تظهر في أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء الذي أصبح الموضوع الجوهرى لتاريخ الحياة ، ثم لا تلبث هذه المادة الحية أن تنقسم في لحظة باكرة جداً إلى أجزاء فردية ، يمكنها أن تواجه الظروف المتغيرة وتظل حية متواران سيف غير هاتيك أو هلك ، وكأني بهذه الأفراد غالبة من أى دافع للصراع مع الطعام الذى تتنازله أو مع إحداها الأخرى . فإذا هي التقت تدفقت سماً ثم تباعدت ثانية وقد زادها الالتقاء قوة ظاهرة ، ويحدث تجديد الشباب والحياة ذاك دون وجود أى علامة للتأخر الجسدى ، فهي أمر يتم بين أُنْدَاد .

- ٣ -

بزوغ فجر العائلة

من الأمور التى بدأت بدايات واضحة في تاريخ الحياة تكوين تفرق بين أفراد بحيث يتفرد فريق منهم للخاطرة ويتعرض للتجارب وللموت التام ، على حين يواصل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية .

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكب تبدأ وتتسمى كبريئات مخصبة . ومنها ما يجرم ويتقسم ، ومنها ما ينتشر بالتقطع أو التوالد

(١) *ديا طيم* (*Diatom*) : أحد أفراد فصيلة من فصائل الطحالب الجهرية ذات الخلية الواحدة ولها عاريتان وتطبخان كالصنخور وغطائه .

المعزى (كافي الذبابة الخضراء) وما يماثل ذلك ، ولكن أمثال الرسائل تتوالد هذه تبقى النوع ثابتا ، غير قابل للتكيف ويبدأ عن كل مناعة ، ولا يهأن بحدوث إن عاجلا أو آجلا ، إن قدر النوع البقاء - تغيير غاية القوة والتنوع في الذكر والانثى اللذين نجهدهما مستقرين آنفا في صورتها الزائفة في أبكر فصل من فصول الحفريات هنرنا عليه .

وهناك تقلبات بعيدة في تمايز الجنسين حتى في النوع نفسه تتضمنها الضرورات المتغيرة التي تفرضها الحياة ، وقل من وقف ليتمعن في جنس النر أو القرعة عندما يلتقي به صدقة ، ولكن كيف يتضح جنس قطرة مارة بنا أو أرب أو قفد ، أو ذئبة في - به حين يلتقي امرئنا أو ذبابة أو سطحية ؟

رحق مياسم الجنس في الإنسان العاقل ، أقل ظهوراً اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مائة سنة ، ذلك أن المبالغة في تضيق الخضرة بالضغط الشديد عليه بالمشيدات قد توقفت اليوم . وكذلك اختفى أيضاً قدر كبير من تدليل النبات تدليلاً لانهم لمعنى . وكان للدراجه بعض الفضل في ذلك الانطلاق . فإن النبات النامية تنشط نفسها بالانطلاق بدراجتها بلطف وتجد الفائدة تعود عليها من ذلك بيناجتها فأخضعها من الراحة في فراشها . وكلما كنت بنا أزمة أغشى على جداتنا ولكن من ذا الذي يسمع اليوم عن نساء يغمى عليهن ؟ فالآن ينشئ على الرجال أكثر من النساء ؟

لقد حدث في أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن تغيير عظيم في علاقة الجنسين ببعضها ببعض في المجتمع البريطاني ، وبالعلاقات المتعلقة بالمعرف والزواج ، وبالتواقيات الاجتماعية المترتبة على تلك التغيرات . فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات ، على حين يزعم العالم اليوم بالزوجين الشابين . ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفاً حرماً متزوجاً من ربيع مزهر . وربما عاد رأي الناس أدراجة ثانية . وربما يمكن حاشده خروجاً على الحالة الأولى . وربما استطاع التشريع المتشاعل خلع متصوفة ونقص الطعام وما ماله من عمليات اقتصادية ، وموجات العطف على الاحومة أو الثفور منها والشعور القوي أو العدماء والميل الطبيعي إلى الوقوع في شرك التفرام معتقنا بالرغبة في تثبيت إحدى العلاقات بواسطة مصلحة مشتركة مستديرة ، ونقصر نالاً لطفال الحسنى التكوين جثمانياً وعقلياً ، ربما قدر لهذه جميعاً أن تظلم أدولاً

لا حصر لها في إنتاج إنسانية جديدة قادرة على التكيف بكفاءة مع الظروف التي
تهدد من حولنا كالمزحل وتضطربنا إلى أن نفحص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها .

وتدعى الميثاق الدينية عامة والكاثوليكية خاصة أنهم يقومون على حماية نظام
العائلة . والواقع أنهم لا يعملون في ذلك السبيل أي شيء . فإن العائلة موجودة منذ
تنازلت الحيوانات وتزاوجت ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها ، ولكن التدخل
الكنهوتي قد خط من قدر هذه العلاقة الواضحة البسيطة حين وسم الأطفال الذين لم
يرلدوا لأب شرعي بأن حملهم تم في ظل الخطيئة ، جاءلا من مولد لم غير الشرعي
شيئاً غريباً بطريقة لا تفهم لها معنى ، ومقاييماً مبدأً بين الحقوق والإمكانات
الجمهورية المتعلقة بحياة العائلة وبين الصناعات حتى يفوت الأوان فلا يعودون يستفيدون
من معرفتهم بها .

- ٤ -

انتحار الجنس بالتضخم

يعيش الفرد البشري إلى سن كبيرة جداً ، بالقياس إلى حياة المخلوقات المحيطة به .
رسالة الراديوم (١) تعطينا كمثال للحياة فترة عظمى أقل كثيراً من عشرة آلاف مليون
من السنين الأرضية ، ولعلها أقل كثيراً من خمسة آلاف مليون سنة ، وفي كل هذه
الفترة الزمنية كان يحدث تماقبات مستمرة في أشكال الحياة التي تسود الموقف على ظهر
البسيطة . أجل لتضاد كل منها بدورها ثم عاد كل منها فأزيع من المشهد بدوره أيضاً
وحل محله شكل أحسن تكيفاً . وانصاع كل منها لمجموعة معينة من القوانين لا مفر
من إطاعتها ، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها .

ولكن أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حتم . فالأمر الذي لا مرد له هو أن
حش — أجل حش وبأكبر ما يمكن من الوفرة الواخنة . حش أكثر من إخوانك

(١) المفروض أن المؤلف يتبع إحصاء الراديوم المستعمل في مرور بعضات الساعة في
تجارب الزمن .

وكن أكبر حبا منهم واتهم منهم أكثر . وفي الأيام الأولى ، كان ذلك الأمر لم يغير مقيده بأي دافع يدمر إلى المساعدة المتبادلة متافس مشترك . لكن الأفراد الكبار طعام الصغار ، وإن لم يأكلوا فلا ، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر . فسرسل الصغور لا يظهر فيه دائما في نهاية كل فصل من فصله إلا الأفراد الضخم .

ويبدو كوكبنا ويتغير مناخه تنهرا يجعل سيد الحقيقة تقديم القرطاض وغير متجانس مع ما يحيط به من بيئة ، وإذن فلا فرق له من أن يذهب . والعادة لو إن لم يكن ذلك دائما . أن يظفنه شكل الحياة عتف تماما والله يستعصم فيقذفه في ذلك عدة حتى يدركه الطعام ، وعند ذلك يعود إلى وفرة عدده الأولى ، وإن لم تكن الحقيقة أعدت بدلا منه . ومن العلوم أن القروش وأشباهاها تعيش وتموت بتقولات من منها شيء . يصبح خفية . ونحن نعرف أن هناك في هذا الأمر قروشا مائة تصل من رأسها في ضياء الشمس منذ عصور متابقة ، منذ أن وجد لها القروش الكثر من الأسماك لتتبعه وتتذى به . فمن في ذلك كله تنبسط في غيايب الشمس والتجني .

٥.

النضج المبكر : إحدى وسائل البقاء

أنجبت الطبيعة في ليلها الأبدية ما كانت الحياة مستعدة له من أجل راحة سرعة إخصاب البرصان وانجابها بالنسبة للأطوار الأخرى من دور طليق قروشي ألا يذهب عن بالنا دائما في مثل هذه المسائل أن مآله إما مردودة حية كلية وليس شكلا قابلا بالغ ، وحدث المرة بعد المرة أن الطليق ضلكت شكلا بالتمام السجل فصلا تماما وألته وجلت مرحلة البرقة *Larva* الشكل التاسع تاليا .

وجاء على السجل حين مبكر كانت سيد الحقيقة في التوريكات ~~مستعدة~~ والسلك النجمي وما إليها ، بما حوت من تكوين إشعاعي . ولم يكن لها شيء من قوة التنقل الحركي في أثناء طور بلوغها أو كان ليلها من قدر قليل ، كما كان لكثير منها كاز بقيات *Crinoids* مثبنا في الجذور وقد تحولت للزترات ~~مستعدة~~ مرموزة

الأشكال المشعة الأخرى إلى إنتاج الميلوز، وكانت بارزة الزهرة النباتية في طريقة
حيثها وعاداتها : وكانت تلقى في الماء يعضها الخصب . وساعد على انتشار هذا
البويض لنشوء تكوينات إضافية صلب بها عود البرقات المنقذة على غير مدى
ورومت محركها قوة دافعة مستقلة وسمى العمود الفقري لهذه الأشكال المنبعثة
المنقذة باسم الحبل الظهري *Notochord* كما أطلق اسم الحبلات على شكل
الحبسة المسمين الطبيعة الجديدة *New Fore* و *Asi* الطراز المتأخر ،
الذى كان الحبل الظهري هو البشير الآن بهما ، يسميا الحبلات *Chordata*
كنقيض لسلسلة الأشكال التي ليس لها حبل ظهري من أمثال السمك النجمي وقنفذ
البحر وخيار البحر وهكذا دواليك . وكلها كانت سادة للخلقة في زمانها . ولا يخفى
أن عالم الحيوانات الفقارية الضخم بأجمعه بما في ذلك الإنسان يدين بوجوده
لهذه الزهرة التي أصابت الطبيعة ، ولم تكن تنطوي على أى سبب عقلي بأى حال ،
لقد حدثت هكذا وكفى .

يتبدى الحبل الظهري في تطور الحيوانات الفقارية جميعاً ، ولكن تنزوه
وتعمل محله في جميع الأشكال العليا مادة غضروفية أو عظمية . وهو يظل في سمك
الجريت *Hagfish* والجلسكيات *Lampreys* طول حياتها ، وهو يصل إلى
مواعدها مثلاً في هذا النوع الأخير .

— ٦ —

التقصوطة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب المواضع التي يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول كلمة موجزة
عن الصدام الذي لامر من حدوثه والنشأ الآن بينه وبين الشباب إن المؤلف يتقبل
حقائق الحياة بهذه بدو . واقتناع تام ولا يقبل لها أى شكل آخر . ولكنه لا يمتقد أن
أى شاب يضر مثلاً من سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدري يتقبلها بنفس الروح
تلقى يتقبلها بها . فإن كل شاب حتى قرابة ذلك السن في حالة صراع من العالم وبينى
أن يحصل على ما يريد منه ، فإن هو فعل ذلك فلا بد أن يكون شاباً ضئيل الحظ
جداماً المحبوبة حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد القليل . وتقبل الأشياء على دلائها .

ولكن كاتب هذه السطور يدلف في ستة الثامنة والتسعين ، بعد أن عاش عيش المرح واليسار وقد دفاً كلنا يديه على نار الحياة ، وهاهو الآن مستعد للرحيل هنا وقد أخذت تنحدر به في دور من الملة والوسوسة . وهكذا ينتظر خاتمته وهو رقب البشرية وهي لا تزال متحمسة لاستخدام ما جمعه من خبرة استخداماً نافعاً يمينها في هذا الزمن زمن الاضطراب العقل . ولكنها لا تكاد تلك القوة المتهورة التي تدفها للوصول مع الحياة نتيجة حاسمة ، وهو جزء ضروري من تكوين أى فنى سوى ذكرها كان أم أنى .

وكل إنسان تجاوز فترة التكوين بحس نفس إحساسات المؤلف . فهو قد كون نفسه عندئذ ، ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثاله من كبار السن يصوغون ويبتكرون ويفصلون بكل بساطة صيغ الفكر التي صبوا فيها معتقداتهم ولكن مع زيادة مميته في الحدة في مدظم الأحوال . وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه المتواصل بعلم البيولوجيا ربما كان السبب في اتصاله الوثيق بالعقائى الحبة اتصالاً أوثق من اتصال السياسيين أو المضاربين الممالين أو رجال الدين أو رجال الأعمال الكثيرى المشاغل ، على أن ذلك ليس وسيلة رتق الصدع القائم بين المسنين والشباب . وسواء أكتانحن المسنين رقب ما حولنا بأمل أو بسوء نية ، بحسد أو بكرم خلق ، فإننا لا نملك إلا أن نرغب ولا نستطيع تجاوز ذلك . لقد هشنا بالضرورة أربعين تقريباً . والشباب هم الحياة . ولا يقد أمل إلا طيم .

عنوة جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا (ص ٤) إلى أن دوران الأرض حول نفسها ودورتها السنوية في مدارها قد أخذت سرعتهم في المبط ، فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت سردات تلك الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد المصور بالكرة لسجل الصخور (إذا هو قيس بدقة وضبط ساعة الراديو) لابد أن يلحقه تخفيض هائل يتناسب تماماً وسرعة العصر الكاينوزوى . أجل إن الأشكال هي نفسها متداخلة تغيير ، ولكن بالنسب مختلفة . وربما كان ذلك التباطؤ الديوى مستمرا وربما لم يكن كذلك ، على أن

استمراره هو الارجح في نظر المؤلف . ولكن من يدري؟ على أن أحوال سموات
الفرد والنوع يلوح أنها كانت تتقلب سريعاً ومتسماً في تلك الأزمنة المتدفقة .

ولكننا على يقين من شيء واحد . وذلك أنه على الرغم مما اجتمع لنا من المجموعة
الهائلة من الحقائق فإن حقيقة لم نستطع أن تلقى ظلاماً من الفكر على ما يسميه العلماء إلى الآن
بأمر « نظرية » النشوء والارتقاء العضوي . وعلى الرغم من حثيث الكذب والمراء
الذي أذاعه المتنرون المتدينون ، فليس ثمة عقل يحكم الزعة العقلية Rational يستطيع أن
يمس بأى سوء الطبيعة المنمعة لقضية النشوء والارتقاء . وهناك كتيب جدير بالإعجاب
كتبه أ . م . دافيز وأسماء (النشوء والارتقاء وناقده المحدثون ^(١)) ولخص فيه هذه
القضية تلخيصاً وافياً ومقنناً . فإلى ذلك الكتيب ينبغي أن يلجأ القارئ الذى لا يجد
مورداً جديراً بالثقة يتنهل منه .

أما الشيء الذى يظهر الآن بالفعل فهو تباطؤ هذه الحيوية الأرضية في سرعتها
ذلك أن السنوات والأيام أخذت تطول ، والعقل البشرى لا يزال فعالاً ناشطاً يتعقب
النهايات والموت ويدبر لهم الوسيلة .

وكاتب هذه السطور - مع تذكر سنة - يرى أن العالم منبهك خال من كل قوة تعيد
إليه العافية ، وقد أبدى تافى الأقسام السابقة من هذا الكتاب زعة ترجو متطرفة أن يوفق
الإنسان إلى التخلص مما يقيد به من اشتباكات ويبدأ طوراً جديداً أخلاقاً للحياة الإنسانية
ولكن خاب القال في الستين الأخيرتين إزاء ما تجل منام من عدم كفاية عامة ، وحل
حل التنازل حرب من الاستخفاف بالهادى ، فكبار السن يسلكون في معظم أمهم
مسلكاً كاسياً يدور إلى الاشتزاز ، كأن العباب يتصف بالحقاق ومرة الانفعال وسهولة
الوقوف في شرك المعتلين ، فلا بد للإنسان من أن يرتفع إلى السبل أو يهوى إلى
الحضيض وكأن بكل الظروف تعمل على ترويضه إلى حضيض الهوة وإخراجه من مسرح
الحياة فإن هو ارتفع إلى السبك كان التكيف المطلوب منه عظيماً يضطره ألا يظل
إنساناً ؛ ولطعم تذكر من العنوان الثانى لهذا الفصل أن الناس العاديين في أشد
التوتر ؛ فليس فيهم من له يستطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتكيف ، فأما بقيتهم فهم
قوم لن ينجوا بالآخر ، لأنهم يجدون أنواع المخدرات والمزاد التى يحبونها ، لذا ينبغي لنا

أن نختم هذا التأمل التكرى حول الطور الأخير في التدرج العجيب الشيء الذى يسمونه الحياة باستعراض تبدلات النوع الإنسانى التى تحدث في هذه الأيام .

تظهر الحيوانات الراقية كخلوقات غامضات تتصل بصفة اقرب بمجموعات من أكلة الحشرات ، بدأت حياتها شجرة قوا كتسبت بين الأغصان حذقاً لأعين والخواص المثل : كانت ميلة إلى العشرة وازدهرت ازدهاراً واسعاً ، حتى إذا حدث لها الازدياد المتباد في الحجم والوزن والقدرة ، واضطرت إلى القبول إلى ظر الأرض ، وقد بلغت آنذاك من الكبر ما يجعلها تستطيع أن تتحدى وتقاتل وتتوق في الدماء والحياة على آكلات اللحم الكبرى من أبناء عالم الفجاءة ، وقد مكنتها ميشتها القاتمة من أن تنصب على قدمها وتضرب أعداءها بالأسجار ، وهي سلاح جديد لم يسمع عنه أخيراً إلى الإنسان والمخالب . ولكن ميلها إلى التعاشر تناقص لأنها كانت آنذاك بحاجة إلى مساحات رحبة من المواد الغذائية . وفوى الصغار أمام الكبار ، وقاطعت الحياة القديم الأند وطورت القدرة العليا نظام العائلة الخاصة إلى مستوى عالٍ وعل امتداد هذا الخط ساروا حتى أصبحوا ما نراه حولنا في الوقت الحاضر من غوريلا وشبانوى وأورانج بوتانج .

- ٨ -

النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لطرف قاهرة أخرى خارج مناطق القابات في أثناء مرحلة تطورت فيها تلك القابات . فانتشرت مكانها مقسمات ومناحات ملية بالشب والهوب القاحلة . وتخلص مقدار الأطعمة المتخلفة من الحضر ، لذا أصبحت الحيوانات الصغيرة واللحم يورج عام جزءاً متزايد الأهمية في الطعام . وكان أمامهم كما هو الحال دائماً الاختيار بين بدلين : قايما التكيف والإقامة للكم ، وكان من حسن حظ سلسلة جديدة من أشكال الحيوانات الراقية أن نجت من مذبة عالمية لما كانوا أكثر انصافاً من القدرة العليا بالقلية ، وكانوا يهرون ويحطادون وأزوتوا من الذكاء ما جعلهم يتناولون في صيدهم .

كانت هذه القردة الأرضية - هي الفصيلة البشرية *Hominidae* ، وهي سلسلة حيوانية جامدة وكاملة . ولما كانت حيوانات تعيش في العراء ولها قدر كاف من الذكاء يحجبها الفرق كانت البقايا المنقرضة والدالة على ظهورها قليلة المبدئية وسكن فيها السكناية . فلن لم يتركوا كثير من العظام ، لقد تروا في العالم أدواتهم ، ذلك أن رصدها القائم حرر يدما وعينها وأوجد بينهما تعاوناً أدق وأضبط ، كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة . كالف تستطيع القبض على البواوات والأحجار لتستخدمها في أغراضها . وكانت تطرق الأحجار العظيمة لتجعل لها شكلاً أكثر حدة ، فإذا تطاير الشرور بين الأوراق الجافة التي كان يجمع بينها وظهرت النار الحرام كالآثار كان ظهورها هادماً ومألوماً بحيث يبعث في قلبها الخوف ، ولم يكن أي كائن حي آخر قد شهد النار إلا في أثناء النسيكبات الباهتة الرعب في قلوب الحيوانات ، حيث كانت تتمتع كل شئ دون رحمة ، وكالت الديبة - حتى دية الكهوف - تفر من النار والدخان على حين أن الفصيلة البشرية اتخذت من النار صديقاً وأخادعاً ، وكلما قرصها البرد أو هاجها أهدأها من أكلة اللحم ، قابلت ذلك بالزحف إلى داخل المغارات وأشألتها من الأماكن المستورة وتركت نيران الدار موقدة .

وهكذا سادت هذه الوحوش العظيمة الغليظة شبه الإنسانية وانتشرت في أثناء أطوار الزمهرير لمصور الجليد المتعاقبة . كانت تخرج للصيد بصيحاتها وحركانتها الغليظة الشاذة . وكانت وهي في شكلها البالغ أكثر وأقل كثيراً من الإنسان ، فالأيدي الثفيلة التي اقتطعت من الصخر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أية يد بشرية ، ويستطيع مهرة عمال الطران (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرفيعة لسيا التي صنعها رجال العصر الحجري القديم المتأخر بمجتهى النجاح ، بيد أن الآداة الشليانية الزائفة لا تقل صعوبة وتفنناً من أي آلة حجرية شبه إنسانية ، فالآداة الشليانية إنما هي قلب ظرافة عظيمة ، بينما الآداة الإنسانية التالية شعلنة من قلب ظرافة بخرية .

ينخرج المخلوق المسمى بالإنسان العاقل من بين الأنواع المبكرة لفصيلة البشرية خروجا جلياً جداً بوصفه فئة أخرى من فئات دورة الحياة بصورة طفيلية وشكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية ، وهي لمئات لعبت دوراً هاماً جداً في التاريخ المتقلب كالكائنات الحية ، وهو ليس المعادل البالغ القبيح من إنسان مبدل بـجـ أو نيا ندرتال وإنما هو وهو في أطوار الاستئلاية الطفل التجريبي العوب القابل لتعلم السريع النضج

الذي لا يزال مكلفاً بالمتنوع الاجتماعي بعد أن يتجاوز حد البلوغ الجنسي ، ذلك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقل تسامحها أما بعد أن يزاد كل طور بلوغ نمائي وضخم ومستبد ولذا يتر هذا الطور من الدورة ، فالإنسان البدائي البالغ القليظ الضخم يختفي ويحل محله طراز أكثر منه شأبا ، طراز آخر مختلف تماما كما بين السجل ذلك بجلاء تام ، ولكن أطوار الانتقال وطريقته لا تزال موضع التأمل والبحث وجميع أنواع الإنسان العاقل تتزوج وتتوالد ، وربما كان هناك تتزوج وتتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس وربما عادت فترات من الانحلال يحتاج أشكال أخرى محلية شبه ياندرتالية أو شبه زوجية أو شقراء أو قائمة أو حاوية أو قصيرة لا تزال قادرة على الزواج والتوالد على نفس الشاكلة التي أنتج بها الكلاب عددا لا نهاية له من الاجناس التي تستطيع بسهولة أن تتجهن ، بل لا مفر لها من ذلك عندما تنهار الحواجز بينها ، وربما اقتلت المائلات والقبائل فيما بينها ومعا السامرون يميزاتهم الفارقة بالتزاوج مع أسرام من النساء . هذا وإن علم البشريات المتعارن يحمل بيطه معقدات قصة الطريقة التي ذوى بها الإنسان البدائي Homo إلى بلوغ جنسه حد الكهولة والذي لم يعد لوجوده الآن ضرورة تاركا من وراءه الإنسان العاقل الشبيه بجنسه بالطفل، الذي هو في أحسن أحواله محب للاستطلاع قابل للتعلم ميال للتجريب من مهده إلى الحده .

هذا وإن عبارة ، في أحسن أحواله ، هي زبدة هذا القسم . أجل إن من الممكن أن تكون هناك اخلاقيات بعيدة في مدى قابلية البشرية المعاصرة لتكيف العقلي ، ومن الممكن أيضاً أن كتلة البشرية المعاصرة قد لا تكون شبه القليل للأفكار الحديثة كعقول الأجيال الأبركر والأصغر منها والأكثر طفولة ، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الحائل العميق الشديد لم يرد إلى الحد الذي يساير به امتداد الجماعات والمنظمات الإنسانية وتقيدها وتلك هي أحلك ظلال اليأس التي تسقط على آمال الإنسانية .

ولكن روي ومزاجي يجعلاني لا أشك مطلقاً كما قلت آنفاً في أنه ستوجد تلك الاقلية الصغيرة التي ستوفق إلى تتبع الحياة حتى نهايتها .

جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالى عام ١٠٠٠ ق.م في شبه الجزيرة
الإسبانية وفي إيطاليا والبلقان ، كما أنهم كانوا مستقرين في تلك الأثناء بنى
الهند ؛ وكانت يد التدمير قد امتدت آنفا إلى كنوسوس ، كما أن عصور مصر
الترامية ، عصور تحتمس الثالث وأمينوفيس الثالث ورعمسيس الثاني ، كانت ولت
منذ ثلاثين أو أربعة . وكان يحكم وادى النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين
الضعاف ، وكانت إسرائيل متحدة في ذلك الأوان تحت حكم ملوكها الأوائل .
وربما كان شاول أو داود أو لعله سليمان متربعا آنذاك على العرش . وفي ذلك
العام كان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق.م) ملك الإمبراطورية الأكادية السومرية
ذكرى صحيحة في التاريخ البابلي ؛ أبعد في عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من
عالمنا الحاضر . وقد توفي حوراني قبل ذلك بألف سنة . وصار الآشوريون
متسلطين على البابليين الأقل صفات حرية . وكان تجلات بلسر الأول
قد استولى في ١١٠ ق.م على بابل . ولكن لم يدم غزوه لها ؛ وكانت آشور
وبابل لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة
تشو الحديثة العهد ، وكان عمر ستون هنج بالجلته في ذلك الأوان بضع مئات
من السنين .

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وتمزقت
ملكية سليمان العبرانية القصيرة الأجل ، وانتشر اليونان ببلاد البلقان وجنوب
إيطاليا وآسيا الصغرى وكانت أيام عظمة الأترسك بإيطاليا الوسطى . ونحن
نبدا قائمة التواريخ الحقة بالآتي :

قبل الميلاد	قبل الميلاد
الميدى. قورش يقهر كريسوس	٨٠٠ بناء قرطاجنة
٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان	٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر (وتأسيس
وكذلك أيضاً كوكو نفسوس	الأسرة الخامسة والعشرين)
ولا هونى	٧٧٦ إقامة أول أولمبياد بيلاداليونان
٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس	٧٥٢ بناء روما
الإمبراطورية الفارسية	٧٤٥ فتح تيجلاث بلسر الثالث بابل
٥٢١ حكم دار الأول بن هستانس من	وأسس الإمبراطورية البابلية
الفردين إلى نهر السند. حكمته على	الآشورية الجديدة
بلاد الإسكيزيين (روسيا)	٧٢٢ سلح سرجون الثانى الآشوريين
٤٩٠ معركة ماراثون	بأسلحة من الحديد
٤٨٠ معركة ثرموبيلاي وسلاميس	٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم
٤٧٩ معركة بلاتياوميكال تهيان طرد	٦٨٠ أسرحدون يستولى على طيبة بمصر
فارس	ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين
٤٩٤ الإغريق الصقليون يدسرون	الإثيوبية
أسطول الأنرسك	٦٦٤ استرجع أسياتيك الأول حرية
٤٢١ بدء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)	مصر وأسس الأسرة السادسة
٤٠١ تراجع العشرة آلاف	والعشرين (حتى ٦١٠)
٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا	٦٠٨ نحاو ملك مصر يزعم يوشع ملك
٣٣٨ معركة خايرونيا	ي بوذا فى معركة مجدو
٣٣٦ عبور الجند المقدونية إلى آسيا	٦٠٦ استيلاء الكلدان والميديين على
ومقتل فيليب	نيناوى . تأسيس الإمبراطورية
٣٣٤ معركة جرانيكوس	الكلدانية .
٣٣٣ معركة إبسوس	٦٠٤ رد نحاو إلى نهر الفرات وتغلب
٣٣١ معركة أريلا	نيبوخذ نصر الثانى عليه (أرجع
٢٣٠ مقتل دارا الثالث	نيبوخذ نصر اليهود إلى بابل)
٢٣٣ وفاة الإسكندر الأكبر	٥٥٠ خلف قورش الفارسى سياكسارس

قبل الميلاد	قبل الميلاد
٢٠٢ معركة زاما	٣٢١ قيام شندرا جوبتا بالبنجاب :
١٤٦ تدمير قرطاجنة	السينيور يهزمون الرومان تماما
١٣٣ وهب فالوس نلسكة بوجامزوما	بمعركة مفارق كودين
١٠٢ صد ماريوس الألمان	Caudine Forks
١٠٠ انتصار ماريوس . (السينيون	٢٨١ غزا بيروس إيطاليا
يفتحون وادي لير تاديم)	٢٨٠ معركة هرقليا
٨٩ أصبح الإيطاليون جميعا مواطنين	٢٧٩ معركة أسكولم
رومانيين	٢٧٨ أغار الغالة على آسيا الصغرى
٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتاكوس.	واستوطنوا غلاطية
٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته	٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا
٦٦ بومبي يقود الجيش الروماني إلى	٢٦٤ الحرب البولية الأولى (بدا حكم
بحر قروين ونهر الفرات. ويقتل	آسوكا بإقليم بهار حتى ٢٢٧)
بقتال الآلاي .	٢٦٠ معركة ميلاي
٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبي هند	٢٥٦ د إكتوموس
فارسا لوس	٢٤٦ أصبح شي هوانج ق ملكا على
٤٤ مقتل يوليوس قيصر	تس ان
٢٧ تعيين أوغسطس أميرا (حتى ١٤	٢٢٠ صار شي هوانج ق إمبراطورا
ب . م . ٠)	الصين
٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري	٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم
	٢١٠ وفاة شي هوانج ق

بعد الميلاد

بعد الحقبة المسيحية

١٤ وفاة أوغسطس ، وتوليصة

الإمبراطور تمبروس

٣٠ صلب يسوع الناصري

٤١ كلوديو (أول إمبراطور تيمته

الكاتب) يوليوس الحرس البريتوري

المرش بعد مقتل كاليجولا

٦٨ انتحار نيرون (تولى جالبا

وأوتو وفتيلوس على الثعالب)

٦٩ الإمبراطور فسبازيان

١٠٢ بان آشور على بحر قزوين

١١٧ هادريان يخلف تراجان الإمبراطورية

الرومانية في أوسع مدى بلشته

١٣٨ (كان الهند واسكيزيون يقضرون

عندئذ على آخر آثار الحكم

الهندي بالهند)

١٦١ ماركوس أوريليوس يخلف

أنطونيوس ييوس

١٦٤ بدأ الطاعون الكبير ، وامتداده

حتى وفاة ماركوس أوريليوس

(١٨٠) ، كما أنه أفسد آسيا كلها

(بدأ في الإمبراطورية الرومانية

قرن من الفوضى والحرب)

١٣٠ نهاية أسرة مان، بدأ عصر انقسام

بالصين دام ٤٠٠ سنة

٢٢٧ أدرشير الأول أول شاه ساساني

بعد الميلاد

يقضى على الأسرة الارشكية

بقارس

٢٤٢ بدأ ماني تعاليمه

٢٤٧ هجر القوط البانوب في غارة

كبيرة

٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل

الإمبراطور ديكويوس

٢٦٠ سابور الاول ثاني شاه ساساني

استولى على ألكاكية ، وأسر

الإمبراطور فاليريان ، ويقطع

عليه الطريق أثناء عودته

أوديناسيوس ملك تدمر

٢٧٧ صلب ماني بقارس

٢٧٤ أصبح دقلديانوس إمبراطوراً

٣٠٣ اضطهد دقلديانوس المسيحيين ،

٣١١ جاليريوس ينحلي من اضطهاد

المسيحيين

٣١٢ أصبح قسطنطين الأكبر

إمبراطوراً

٣٢٣ قسطنطين يرأس مجلس نيقيا

٣٢٧ تعميد قسطنطين على فراشه موته

٣٦١ - ٣٦٣ حاول جوليان الكافران

يجل المثرائية على المسيحية

٣٩٢ ثيودسيوس الأكبر إمبراطور

لشرق والغرب

٣٩٥ وفاة ثيودسيوس الأكبر ، أعاد

هنودريوس وأركاديوس تقسيم

(٢٨ - تاريخ العالم)

بعد الميلاد

- ٤٠٠ الإمبراطورية تحت حماية
سيفليكو والآريك
٤١٠ استيلاء القوط الغربية بقيادة
الآريك على روما
٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب
أسيانيا ، والمون في پانونيا
والقوط في دالماشيا ، والقوط
الغربية والسويبي في البرتنال
وشمال أسيانيا ، والإنجليز
يفتزون بريطانيا
٤٣٩ الوندال استولوا على قرطاجنة
٤٥١ أغار أتيل على بلاد الغالة وهزمه
الفرنجية ، الألمان والرومان
عند ترويس
٤٥٢ وفاة أتيل
٤٥٥ نجب الوندال روما
٤٧٦ أودواكر الملك على خليط من
القبائل التيبوتونية يطلع
القسطنطينية أنه لا إمبراطور
بالغرب ، نهاية الإمبراطورية
الغربية
٤٩٣ ثيودوريك القوطي الغربي يفتح
إيطاليا ويصبح ملكا عليها ،
ولكنه عاصم (سياً القسطنطينية
(ملوك قوطي إيطاليا ، والقوط
ينزلون أرحاً خاصة يصادونها
بوصفهم حامية)

بعد الميلاد

- ٥٢٧ الإمبراطور جستنيان
٥٢٩ جستنيان أطلق مدارس أثينا
بعد أن ازدهرت حوال ألف
عام ، استولى قائد جستنيان على
فابلي
٥٣١ بدء حكم كسرى الأول
٥٤٣ الطاعون الأعظم بالقسطنطينية
٥٥٣ طرد جستنيان القوط من
إيطاليا
٥٦٥ وفاة جستنيان ، وغزا الومبارد
معظم شمال إيطاليا (تاركين
رافا وروما لبيزنطة .)
٥٧٠ مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم
٥٧٩ وفاة كسرى الأول . يسود
الومبارد في إيطاليا
٥٩٠ الطاعون يقتل في روما بشدة
بدء حكم كسرى الثاني
٦١٠ بدء حكم هرقل
٦١٩ مصر وبيت المقدس ودمشق بيد
كسرى الثاني وجيوشه تطل على
البردنيل . بدء حكم أسرة تانج
بالصين
٦٢٢ الهجرة
٦٢٧ هزيمة الفرس الكبرى عند نينوى
على يد هرقل ، أصبح تانج تسنج
إمبراطوراً للصين
٦٢٨ قبائل الثاني يقتل أباه كسرى الثاني

سنة الميلاد

وحنك على القرش، عهد يكب
الرسائل إلى كل حكم الأرض
٦٣٣ عودة عهد إلى مكة
٦٣٣ وفاة النبي، تولد أبو بكر الخلافة
٦٣٤ معركة اليرموك - المسلمون
يستولون على سوريا - عمر
يصبح الخليفة الثاني
٦٣٥ تاي تنج يستقبل مبشرين من
الفساطرة
٦٣٧ معركة قادسية
٦٣٨ بيت المقدس سلم لخليفة عمر
٦٤٢ وفاة هرقل
٦٤٢ عثمان الخليفة الثالث
٦٥٥ هزيمة الأسطول البيزنطي على
يد للمسلمين
٦٦٨ هاجم الخليفة ملوية مدينة
قسطنطينية بحراً
٦٨٧ بين المرستال بيد توحيد
استرازا ونوستريا
٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من
إفريقيا
٧١٥ أملاك الخليفة الوليد الأول
تتحد من جبال القبايس إلى بلاد
فارس
٧١٧ - ٧١٨ سليمان أخو الوليد
وخلية يقتل في الأسقلاط
قسطنطينية
٧٢٢ هرم شارل حرق المسلمين قرب
بواتية

سنة الميلاد

٧٥١ بين يتوج ملكاً على فرنسا
٧٦٨ وفاة بين
٧٧١ شرلمان هو الملك الوحيد
٧٧٤ • يفتح لومباردى
٧٨٦ هرون الرشيد هو الخليفة العباسي
يغداد (حتى ٨٠٩)
٧٩٥ أصبح ليون الثالث بابا (حتى ٨١٦)
٨٠٠ ليو يتوج شرلمان إمبراطوراً
لقرب
٨٠٢ أجبرت الذي كان لاجئاً إنجليزيا
ببلاط شرلمان، يثبت نفسه على
ملكه وسكس
٨١٠ كروم البخاري يهزم ويقتل
الإمبراطور نفقور
٨١٤ وفاة شرلمان
٨٢٨ أصبح أجبرت أول ملك لإنجلترا
٨٤٢ وفاة لويس الثاني، وتمسوق
الإمبراطورة الكارلوفينجية،
لم يكن هناك نائب مستظم على
عرش الدولة الرومانية المقدسة
حتى عام ٩٦٢، وإن ظهر القبط
بين القبية والأخرى
٨٥٠ وحوالي ذلك الزمن أصبح
روديك (وهو نورمان) ملكاً
على نورجوزو وكيف
٨٥٢ يوريس أول ملك مسيحي للبخاريا
(حتى ٨٨٤)
٨٦٥ أسطول الروس (النورمان)
يهدد قسطنطينية

بعد الميلاد
 ١٠٨٤ لهب روبرت جويسكارد
 النورمانى مدينة روما
 ١٠٧٧-١٠٩٩ أصبح إربان الثانى بابا
 ١٠٩٥ دعا إربان الثانى إلى الحملة
 الصليبية الأولى بمدينة كليرمونت
 ١٠٩٦ مذبح الحملة الصليبية الشعبية
 ١٠٩٩ جودفري البويونى يستولى على
 أورشليم
 ١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية
 ١١٦٩ صلاح الدين يصبح سلطاناً
 على مصر
 ١١٧٦ فردريك بربروسا يعترف بسيادة
 البابا إسكندر الثالث بالبندقية
 ١١٧٧ صلاح الدين يسترد بيت المقدس
 ١١٨٩ الحملة الصليبية الثالثة
 ١١٩٨ تولية البابا انوسنت الثالث (حتى
 ١٢١٦) . أصبح فردريك
 الثانى ملك صقلية تحت وصايته
 (وعمره أربع سنوات)
 ١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم
 الإمبراطورية الشرقية
 ١٢٠٤ استيلاء اللاتين على القسطنطينية
 ١٢١٤ سقطت بكين بيد جنكيز خان
 ١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى
 (مؤسس جمعية القديسين)
 ١٢٢٧ وفاة جنكيز خان بعد أن كان
 خاناً من بحر قزوين إلى المحيط
 الهادى وخلفه أوجداى خان

بعد الميلاد
 ٩٠٤ الأسطول الرومى (النورمانى)
 خارج القسطنطينية
 ٩١٢ رودلف الجانجر يؤسس مملكة
 بنورماندى
 ٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكاً على
 ألمانيا
 ٩٣٦ أوتو الأول يخلف أباه هنرى
 الصياد فى هرش ألمانيا
 ٩٤١ عاد الأسطول الرومى إلى تهديد
 القسطنطينية من جديد
 ٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج
 إمبراطوراً (وهو أول إمبراطور
 سكسونى) بيد البابا يوحنا الثانى
 عشر
 ٩٨٧ هيو كابت أصبح ملكاً على فرنسا
 انتهاء سلالة الكارولنجيين
 من الملوك الفرنسين
 ١٠١٦ أصبح كاثول ملكاً على إنجلترا
 والدنمرك والنرويج
 ١٠٤٢ الأسطول الرومى يهدد
 القسطنطينية
 ١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح إنجلترا
 ١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت حكم
 الأتراك السلاجقة ، معركة
 ملاذكرد
 ١٠٧٣ أصبح هديراند بابا (باسم البابا
 جريجورى السابع حتى ١٠٨٥)

بعد الميلاد	بعد الميلاد
المغولية، وتولية أسرة منج (حتى ١٦٤٤)	١٢٧٨ شرح فردريك الثاني في الحلة
١٢٧٧ عودة البابا جريجوري الحادي عشر إلى روما	العلوية السادسة وحصل على أورشليم
١٢٧٨ الصديق الأعظم، الكنيسة، مع وجود إربان السادس بروما	١٢٤٠ دمر المغول مدينة كيف
وكلنت السابع بأفنيون	الروسيا تصبح تابعة للمغول
١٢٩٨ من يشر بمذهب ويكلف في براغ	١٢٤١ انتصار المغول عند ليختن
١٤١٤ - ١٤١٨ يجمع كولستانس .	بيليزيا
من (١٤١٥)	١٢٥٠ وفاة فردريك الثاني آخر
١٤١٧ انتهاء الصديق الأعظم	إمبراطور من أسرة
١٤٥٢ الأتراك السبائسون يقتلون	مونتشاوفن. العرش الألماني
القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني	شاغر حتى ١٢٧٢
١٤٧٠ إيفان الثالث ، غراندوق موسكو منذ الولاء للمغول	١٢٥١ أصبح مانجوخان هو الخان
١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثاني وهو يستمد لفتح إيطاليا	الأعظم أصبح قوبلاي خان
١٤٨٦ برنلبيدياز يدور حول رأس الرجاء الصالح	حاكم الصين
١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلس إلى أمريكا	١٢٥٨ مولا كوخان يستولى على
١٤٩٣ أصبح مكسليان . الأول إمبراطورا	بنداد ويدهرها
١٤٩٨ فاسكودي جاما يسير إلى الهند حول رأس الرجاء	١٢٦٠ أصبح قوبلاي خانا أعظم .
١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية	١٢٦١ استولى اليونان على القسطنطينية
١٥٠٠ مولد شارل الخامس .	ثانية من اللاتين
	١٢٧٢ انتخب رودلف آل هابسبرج
	إمبراطورا. كون السويسريون
	حلفهم بالنام
	١٢٨٠ أسس قوبلاي خان أسرة يوان بالصين
	١٢٩٢ وفاة قوبلاي خان
	١٢٩٣ وفاة دوجر باكون في العلم التجريبي
	١٢٤٨ الطاعون الأعظم: الموت الأسود
	١٣٦٠ في الصين سقوط أسرة يوان

بعد الميلاد

١٥٠٩ هنرى الثامن على عرش
انجلترا

١٥١٤ ليو العاشر يصبح بابا

١٥١٥ فرنسيس الأول ملك فرنسا

١٥١٩ يلقع ماجلان لطواف حول
العالم .

١٥٢٠ شار سلجان القانونى سلطانا

(حتى ١٥٦٦) ، يحكم من
بنداد إلى المجر . شارل الخامس

يصبح إمبراطورا

١٥٢٥ بابر يقتصر بمركة بانديك ،
ويستولى على دلهى ويؤسس
الإمبراطورية المغولية .

١٥٢٧ استولى الجنود الألمان بإيطاليا .

بقيادة ككونستابل بوربون
على روما وعاثوا فيها فسادا

١٥٢٩ حاصر سلجان فيينا

١٥٣٠ شارل الخامس يتوجه إلى بابا
بدأ هنرى الثامن خلافه مع البابوية

١٥٣٩ تأسيس جمعية اليسوعيين

١٥٤٦ وفاة مارتين لوتر

١٥٤٧ إيفان الرابع الرهيب يتلقب

بلقب قيصر روسيا

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش .

أكبر يصبح المغول الأعظم (حتى
١٦٠٥) . وفاة إغناطيوس ليولا

١٥٥٨ وفاة شارل الخامس

١٥٥٨ - ١٦٠٣ حكم الملكة إليزابيث

بعد الميلاد

١٥٦٦ وفاة سلجان القانونى .

١٦٠٣ جيمس الأول يصبح ملكا على
انجلترا واسكتلندا .

١٦٠٧ جيمس تون يسكنها الإمبريطر

١٦٢٠ بثت السفينة ماى فلورنوس

مدينة نيوبليموث : نزل

أول الزواج بجيمس تون .

١٦٢٥ شارل الأول على عرش انجلترا

١٦٢٦ وفاة السير فرنسيس باكون

(لورد فريولام)

١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكا

دام ٦٢ سنة بفرساي .

١٦٤٤ أنهى المانشو حكم أسرة منج

١٦٤٨ معاهدة وستفاليا ، وبها اعترف

ببولندة وسويسرا كجمهورية

حرة وأصبحت البروسيا أمية ،

ولم تعط المعاهدة نصراً تاماً

لتاج الإمبراطورى وللالأمراء .

حرب القرون ، وقد انتهت

بالانتصار التام لتاج الفرنسى

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك انجلترا

١٦٥٨ أصبح أور انجرب المغول

الأعظم . وفاة كرومويل

١٦٦٠ تولى شارل الثاني على انجلترا

١٦٨٤ نيو استردام تصبح بريطانيا

نهائياً بحكم معاهدات أبرمه

وتسمى نيورويوك

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستوري	١٦٨٣ آخر هجوم للأتراك على فيينا
يُنشئ الحكومة الاتحادية	يُنشد يوحنا الثاني ملك بولندا
الولايات. يتضح إفلاس فرنسا	١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر روسيا
١٧٨٨ أول كونجرس اتحادى بالولايات	(حتى ١٧٢٥)
المتحدة يعقد في نيويورك	١٧٠١ فردريك الأول ملك لبروسيا
١٧٨٩ اجتماع مجلس الطبقات الفرنسي	١٧٠٧ وفاة أورانجزيب . تمزيق
هدم الباستيل	إمبراطورية المغول الأكبر
١٧٨٩ جورج واشنطن أول رئيس	١٧١٣ مولد فردريك الأكبر البروسي
الولايات المتحدة الأمريكية	١٧١٥ لويس الخامس عشر ملك فرنسا
١٧٩١ فرانسوا لافون	١٧٥٥ - ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا
١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا	ثلاثان على أمريكا والهند ،
أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا	بماتحالف مع النمسا والروسيا
معركة فالمي . أصبحت فرنسا	د. بروسيا وانجلترا (١٧٥٦)
جمهورية	(١٧٦٣) حرب السبع سنوات
١٧٩٣ قتل لويس السادس عشر	١٧٥٩ إنجلترا والفرنسا البريطاني يستولى
١٧٩٤ مقتل دويسبرو وانتهاء جمهورية	على كوبيك
البلجيكية	٧٦٠ تولى جورج الثالث عرش
١٧٩٥ حكومة الإدارة ، قضى بونابرت	بريطانيا
على إحدى الثورات وحيز قائد	١٧٦٣ معاهدة باريس . تسلم كندا
عاماً في إيطاليا	لبريطانيا . سيادة البريطانيين
١٧٩٨ دخل بونابرت مصر ، معركة	على الهند .
النيل	١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت
١٧٩٩ عودة بونابرت إلى فرنسا ،	١٧٦٩ بدء عهد لويس السادس عشر
حيث أصبح قنصلاً أول يستمتع	١٧٧٦ إعلان الاستقلال في الولايات
بسلطات حاكمة	المتحدة الأمريكية
١٨٠٣ شراء لويزيانا	١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا
١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً ،	والولايات المتحدة الأمريكية
فرنسيس الثاني ينجذ لقب	الجديدة
إمبراطور النمسا في ١٨٠٥	

١٨٠٦

أسقط لقب الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ١٨٠٦ وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ١٨٠٦ هزيمة بروسيا في معركة يينا ١٨٠٨ عين نابليون أخاه جوزيف على أسبانيا .

١٨١٠ استقلال جمهوريات أمريكا الإسبانية ١٨١٢ تفهقر نابليون من موسكو ١٨١٢ - ١٨١٥ الحرب بين الولايات المتحدة والمجترات .

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش ، تولية لويس الثامن عشر ١٨٢٣ صدور مبدأ مونرو ١٨٢٤ تولية شارل العاشر ملكا على فرنسا .

١٨٢٥ تولى نيقولا الأول على روسيا إنشاء أول سكة حديد من استوكن إلى دارلنجن

١٨٢٧ معركة نوادين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ عام اضطراب وفوضى . لويس فيليب طرد شارل العاشر انفصال بلجيكا عن هولنده . أصبح ليوبولد أمير ساكن كوريج جوتا ملكا على هذه المملكة الجديدة وهي بلجيكا . القسم الروسي من بولنده يشور ثورة فاشة

١٨٢٥

استعمال لفظة الاشتراكية

١٨٢٧

تولية الملكة فكتوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة فكتوريا ألبرت

أمير ساكس كوريج جوتا

١٨٤٦ - ١٨٤٨ الحرب بين الولايات

المتحدة والمكسيك

١٨٥٢ أصبح نابليون الثالث إمبراطورا

على فرنسا

١٨٥٣ اشترت جادز دن وجاتمخوتقة

الولايات المتحدة بقارة أمريكا

١٨٥٤ - ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ القيصر إسكندر الثاني أنزوى

١٨٥٩ غارة جون براون على هاربوري

١٨٦١ الملكة فكتوريا تول أول ملك

لإيطاليا أصبح أبراهام لنكولن

رئيساً للولايات المتحدة . بدء

الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦٥ التعليم عند أبرام توكس كوت

هارس . اغتيال لنكولن . فتح

أبواب اليابان للعالم

١٨٦٧ الولايات المتحدة تشتري ألاسكا

من روسيا

١٨٧٠ أعلن نابليون الثالث الحرب

على بروسيا

١٨٧١ (يناير) سلمت باريس . أصبح

ملك بروسيا إمبراطوراً لألمانيا

صلح فرانكفورت

بعد الميلاد	بعد الميلاد
الأزمة	١٧٧٨ معاهدة برلين بإعتدال أوروبا
١٩٢٠ ظهور حزب هتلر ببطر القوة	القرية عدة سلطة قامت
بالرخصاخ الألمانى	٢٦ سنة
١٩٢١ الأزمة المالية بين ألمانيا والنمى	١٨٨٨ أباطرة ألمانيا فرديك الثانى
والنمى عن ميلاد الشعب .	(مارس) وعلجوم (أقويون)
صبة الأمم رفض البيع بيلم	١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية
اتحاد حركى بين ألمانيا والنمى .	١٩١٧ الثورة فى روسيا . تأسيس
ملوت لسانيا جمهورية	النظام البلشوى بالروسيا دخول
١٩٢٢ أنشأت اليابان دولة امبروكو .	الولايات المتحدة فى الحرب
انتخب فرانكلين روزفلت	العالمية فى صف الحلفاء
رئيساً للولايات المتحدة	١٩١٨ الهدنة
الامريكية	١٩٢٠ أول اجتماع لصبة الأمم فى
١٩٢٣ الإطاحة بالستينوك بالولايات	منعت منها ألمانيا والنمى والروسيا
للمتحدة . انتخب روزفلت	وتركيا ، ولم تمل فى الولايات
للمرة الأولى فى رخصاخ	المتحدة
برلين والاحتلال النازى .	١٩٢١ تجاهل اليونان صبة الأمم
أصبح حذر ديكتاتوراً	وواصلوا الحرب مع الأتراك
ألمانيا . المؤتمر الاقتصادى السلى	١٩٢٢ مرة اليونان الكبرى بانيا
بلندن يتنقل . خرجت اليابان	الحضرى على يد الأتراك
على الصبة فى أبريل وألمانيا	زحف الفاشين على روما
فى أكتوبر	١٩٢٤ وفاة لينين
١٩٢٤ دخلت روسيا صبة الأمم .	١٩٢٧ قائم الخلاف بين ستالين
القتال كيهوف	وتروتسكى ونفى تروتسكى من
١٩٢٥ عودة السرايا لألمانيا . الحجة	البلاد
تجلى إلى صبة الأمم على إيطاليا	١٩٢٨ اجتهد أول مشروع الحس
دون جدوى . حرمان اليهود	سنوات بالروسيا
من حقوق المواطنة الألمانية	١٩٢٩ التفرق روف الأوقاق المالية
وحظر زواجهم بالآرين	فى الولايات المتحدة واجتهد

بعد الميلاد

١٩٣٦ وفاة الملك جورج الخامس .
فتح إيطاليا الحبشة فعلا . ثورة
فرائكو بأسبانيا . تنازل
الملك إدوارد الثامن الإنجليزي
عن العرش

١٩٣٧ حصار مدريد وإصابة قوات
الحكومة الأسبانية بالإهالك
تدريجيا

١٩٣٨ غزت ألمانيا بلاد انمسا وضمته
إليها دون مقاومة مسلحة

١٩٣٩ نشوب الحرب المالية الثانية
١٩٤٠ احتلت ألمانيا الترويج والدانمرك
وهولندا وبلجيكا . سقوط

فرنسا ، وانضمام النجرورومانيا
وسلوفاكيا المحصور . الإيطاليون
يفشلون في غزو بلاد اليونان .

تشرشل يرأس الوزارة البريطانية
روزفلت ينتخب للمرة الثالثة
رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية

أجرت بريطانيا اقراعد الاطلسي
للولايات المتحدة . اغتيال
تروتسكي بالمكسيك

١٩٤١ تقلبات الحرب بشمال أفريقيا .

تقدم البريطانيون في ليبيا ١٩٤١
ثم انسحبوا ثانية في الربيع ،
وتقدموا في نوفمبر وانسحبوا
مرة ثانية في ربيع ١٩٤٢ .

بعد الميلاد

انضمت بلغاريا إلى المحور .
احتلت ألمانيا بلاد اليونان
ويوغوسلافيا وكريت ، تحرير
الحبشة ، البريطانيون والفرنسيون
يحتلون سوريا . ألمانيا تغزو

الروسيا (٢٢ يونيو) . ميثاق
الاطلسي . احتلال البريطانيين
والروس لإيران سقوط كييف

يبدأ الألمان . فشل هجوم الألمان
على موسكو . هاجمت اليابان

الولايات المتحدة . أعلنت
الولايات المتحدة الحرب على

ألمانيا

١٩٤٢ سقوط سنغافورة . فتوح

اليابانيين في المحيط الهادئ
وبورما . معركة جزيرة مدواي

هجوم رومل في ليبيا أوصل
الألمان إلى مصر . معركة مصر

بالمعين . تولد البريطانيون
والأمريكان بشمال أفريقيا .

ظلت تونس بأيدي الألمان
حتى ١٩٤٣ ، عندما طهر شمال

إفريقية تماما . اغتيال الأميرال
دارلان الفرنسي في الجزائر .

سقوط سياستبول بيد الألمان
الذين دخلوا بلاد القوقاز

ولسكنهم أوقروا عند ستالينجراد

بعد الميلاد	بعد الميلاد
استنمبروز قلعة لقرتارابة.	١٩٤٣ موتمر المارالينغاند. الإصرار
الأمريكيون يتولون بالقطن.	على التسليم بلا قيد ولا شرط.
١٩٤٥ تسلم ألمانيا بلا قيد ولا شرط.	احتلال الإنجليز والأمريكيين
وفاة روزفلت . ٦ أغسطس	لتونس . غزو صقلية . غزو
قنبلة هيروشيما الذرية . ٩	إيطاليا . تقدم الأمريكيين في
أعطرت قنبلة ناجازاكي الذرية.	الباسيفيكي . يسترد الروس
الروسياتعلن الحرب على اليابان	غركوف وسويفسكوكيف .
استسلام اليابان رسمياً ٢٠ سبتمبر	موتمر كوبيك . مؤتمر طهران
ميثاق سان فرانسيسكو إنشاء	١٩٤٤ نزول الحلفاء في فرنسا . تحرير
هيئة الأمم المتحدة بمنظمتها :	فرنسا وبلجيكا . الحلفاء يحاربون
الحماية العامة ومجلس الأمن	على حدود ألمانيا . تحرير
لتحقيق السلام العالمي	اليونان . زحف الروس خلال
١٩٤٦ إنشاء هيئة اليونسكو لمنظمة	رومانيا وبلغاريا إلى بلادناجر
الترية والفلم والتلفاز	ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا

أجريت ٢١٤	(١)
أوجداي غلن ٢٢٠ ٢٢٧ ٢٢٨	أبراهام (لراهم) ٩٦٠ ٩٢٠ ٩٠
أجوريس ١٠٧ ١٠٨ ١١٢	٢٣٧ ٢٠١ ١٧٤ ٩٧
أجيثوب ٢٨١	أيسانيك ٨٢
أدب شي (فوكور) ٤٥	ابن رشد ٢٣٢
آدمز ٢١٨	أبو بكر ٢٠٢ ٢٠٣
إدواكر ١٨٩	أبولونيوس ١١٧
أدوات حجرية ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦	الإيباني (الطريق)
إراتوستير ١١٧	أليس ١٦٨
الأراضي المنخفضة	الاتحاد الألماني ٢٩٥
إربان الثاني ٢٢٠	اتحاد الولايات الأمريكية الجنوبية ٢٢٩
إربان السادس (البابا) ٢٢٤	الأتركة السلجوقيون ٢٢٠ ٢٢٣
أودنير الأول ١٥٧ ١٩٤	الأتركة العثمانيون ١٢٩ ١٥٥ ١٩٥
أوستاجوراس ١٠٨	الأترسك ٧١ ٧٥ ٨١ ١٢٤
أرسطوطاليس ١١٢ ١١٣ ١١٦	١٣٥ ١٤٤ ١٥١ ١٦٣
١١٧ ١١٩ ١٢٠ ٢٠٨ ٢١٩	أنكسنون (ج.ج.) ٤٦ ٢١٤
٢٣٢ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣	أنكسنون (س.ف.) ٢٨٩
٢٩٩ ٢١٢	أنو
الأرشكية (الأسرة) ١٥٧	أنيلا ١٨٨ ١٨٩ ١٩١ ١٩٢
أرغيس ١١٧	١٩٧
أوكديوس ١٨٤ ١٨٨	إناسيوس (عقيدة) ١٧٩
أريوس ١٧٩	أينتا ١٠١ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨
الأريون ٧٥ ٧٨ ٧٩ ٨٢ ٨٣	١١٦ ١٢٠ ١٤٣ ١٦٢
٩٥ ١٠٥ ١٢٩ ١٣٨	١٦٥ ١٩٢ ١٩٣
١٤٣ ١٥٠ ١٥٦ ١٩٧	الآثورية ٧٣
الأرض ٢٠٣ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢١٠	أحباب ٩٣
٢٧	

آسيا ٢٧٠٥٢٠٦٠٠٦٤٠١٥٨

٢٠٠

الاشتراكية (الاشتراكيون) ٢٠٢

٣١٦

أشعيا ٩٨٠١٠٣٠١٠٤

أشور (دولة) ٦٤٠٧٣٠٧٤٠٨٢

٨٢٠٨٩

أشقانيون (بارثيون) ١٢٠٠١٥٠

١٥٦٠١٥٧٠١٦١٠١٩٧

أشور بانيبال (أطرساردانا بالوس)

الإصلاح الديني ٢٥٣

إعلان الاستقلال ٢٨٤

أضجار ٦٥

أغناطيوس دي ليولا ١٥٣

الإغريق ٦٩٠٧٠٠٧٥٠٨٢٠٩٥

٩٩٠١٠٠٠١٠٥٠١٠٦

١٠٩٠١٢٣٠١٣٩٠١٦١

١٦٢٠١٦٣٠٢٠٦٠٢٤٤

الإغريق (فلاحة) ٩٩٠١٠٣

١٠٤٠١٣٠١٤٤

الإغريقية (العلوم) ٣٠٢

آفوري ٨١١

الأقاليون ١٥٨

إفريقيا ٤٠٥٣٠٧١٠١٦١

أفلاطون ١١٠١١١٠١١٣٠١٩٢

٢٤٨٠٣١٢

الإقطاع ٢١٠٠٢٦٦

إقليدس ١١٧

الأزوي ٩

الأزبكية - الأذربيجون ٤٤٠٤٩٠٦١

أساطير ٧١٠٥٠

أسبارتا كوس ١٤٨٠١٥٠٠١٦٢

أسبانيا ٣٨٠٤١٠٤١٠٥٣٠٦٩٠٧١

٩٥٠١٤٠٠١٦١٠١٩٢

٢٠٦

إمبراطة ١٠١٠١٠٦٠١٠٨

١٦٢

أستراليا ٢٥

الامر البابلي ٣٢١

إسرائيل (ملكية) ٩٩

الإسكندر الأكبر ١١١٠١١٢

١١٤٠١١٦٠١٢٠٠١٢٦

١٢٥٠١٢٦٠١٤٤٠١٥٥

١٨٨٠١٩٣٠٢٢٢٠٢٤٥

الإسكندر الأول قيصر روسيا

٢٩٢

الإسكندر الثالث (البابا) ٢٢٤

الإسكندرية ١١٤٠١١٦٠١١٧

١١٩٠١٢٦٠١٦٥٠١٧١

١٧٨٠١٧٩٠١٩٢٠١٩٣

الإسكيزيون (الاشقوذيون) ٧٤

٨٢٠١٠٥٠١٠٦٠٢٣٨

الإسلام ١٢٠٢٠٠٠٢٠٣٠٢٠٤

٢٢١٠٢٢٣

أسوكا ١٣٦٠١٣٩٠١٣٨

١٥٧

الإمبراطورية الرومانية القديمة

٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢

٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧

الإمبراطورية الثانية

الإمبراطورية الجديدة

أرمينيا ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤

أرمينيا الشمالية (هند) ٢٢٤

الأمريكية (القبائل) ٢٢٤ - ٢٢٥

أصوغ ١٦

أصوغ ٧٣

ألا جيني ٢٢٣

الأنبياء ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠

الأنبياء العبرانيين ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠

١٦٧ - ٢٠١ - ٢٢١

أنجيوناس ١١٥

إنجلترا ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥

الإنسان البدائي ٤٦ - ٤٧ - ٤٨

٥١ - ٥٥

الإنسان الحق ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

٤٤

إنسان روديسيا ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

الإنسان القوي للقيم ٢٢

إنسان هيدلبرج ٢٢ - ٢٣ - ٢٤

إنسان ياندرال (نظر ياندرال)

أنطاكية ١٩٥ - ٢٠٤

أنطونيو ١٥٢

أنطونيوس يونس ١٥٢

أنطوخوس ١٤٠

الانقلاب الساسي ٢٠٧ - ٢٠٨

الانقلاب الميكانيكي ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨

الألفين ٢٦ - ٢٧ - ٢٨

ألفين ٢٦

أكبر ٢٣٩ - ٢٤٠

أوكسينوفون ١١٦

أوكنافيس (أوغسطس) ١٥٣

ألاريك ١٨٤ - ١٨٥

ألايك ٢٧

ألفريد الأكبر ٢١٤

ألمانيا ١٥٥ - ٢٣٠

ألمانيا (الملك) ١١٣

ألمانيا الرومان ١٦١

إله الشمس الفارسي ١٦٧

الآلة المصرية ١٦٧ - ١٦٨

الإلياذة ١٠٠

إلياذة (الملك) ٢٣٨ - ٢٣٩

إلياذة (الملك) ٢٣٨ - ٢٣٩

إلياذة (الملك) ٢٣٨ - ٢٣٩

الإمبراطورية الآشورية ٧٧ - ٨٩

٩٥

الإمبراطورية الأكادية ٦ - ٨٣

الإمبراطورية البابلية الأولى والثانية

٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١

الإمبراطورية البريطانية ٢٢٢

الإمبراطورية البيزنطية ١٩٢ - ٢٢٠

٢٢٢

الإمبراطورية الحديثة مصر ٢٢

الإمبراطورية الرومانية ١٤٣ - ١٤٤

١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢١ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣٠ - ٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ - ٦٦٠ - ٦٦١ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠ - ٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٣ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٨٤ - ٦٨٥ - ٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٦٩٢ - ٦٩٣ - ٦٩٤ - ٦٩٥ - ٦٩٦ - ٦٩٧ - ٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧٠١ - ٧٠٢ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨ - ٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٥٧ - ٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩ - ٧٩٠ - ٧٩١ - ٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦ - ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩ - ٨١٠ - ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٣ - ٨١٤ - ٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٧ - ٨١٨ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٢ - ٨٢٣ - ٨٢٤ - ٨٢٥ - ٨٢٦ - ٨٢٧ - ٨٢٨ - ٨٢٩ - ٨٣٠ - ٨٣١ - ٨٣٢ - ٨٣٣ - ٨٣٤ - ٨٣٥ - ٨٣٦ - ٨٣٧ - ٨٣٨ - ٨٣٩ - ٨٤٠ - ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦ - ٨٤٧ - ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠ - ٨٥١ - ٨٥٢ - ٨٥٣ - ٨٥٤ - ٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨ - ٨٥٩ - ٨٦٠ - ٨٦١ - ٨٦٢ - ٨٦٣ - ٨٦٤ - ٨٦٥ - ٨٦٦ - ٨٦٧ - ٨٦٨ - ٨٦٩ - ٨٧٠ - ٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٤ - ٨٧٥ - ٨٧٦ - ٨٧٧ - ٨٧٨ - ٨٧٩ - ٨٨٠ - ٨٨١ - ٨٨٢ - ٨٨٣ - ٨٨٤ - ٨٨٥ - ٨٨٦ - ٨٨٧ - ٨٨٨ - ٨٨٩ - ٨٩٠ - ٨٩١ - ٨٩٢ - ٨٩٣ - ٨٩٤ - ٨٩٥ - ٨٩٦ - ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠١ - ٩٠٢ - ٩٠٣ - ٩٠٤ - ٩٠٥ - ٩٠٦ - ٩٠٧ - ٩٠٨ - ٩٠٩ - ٩١٠ - ٩١١ - ٩١٢ - ٩١٣ - ٩١٤ - ٩١٥ - ٩١٦ - ٩١٧ - ٩١٨ - ٩١٩ - ٩٢٠ - ٩٢١ - ٩٢٢ - ٩٢٣ - ٩٢٤ - ٩٢٥ - ٩٢٦ - ٩٢٧ - ٩٢٨ - ٩٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ - ٩٣٢ - ٩٣٣ - ٩٣٤ - ٩٣٥ - ٩٣٦ - ٩٣٧ - ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠ - ٩٤١ - ٩٤٢ - ٩٤٣ - ٩٤٤ - ٩٤٥ - ٩٤٦ - ٩٤٧ - ٩٤٨ - ٩٤٩ - ٩٥٠ - ٩٥١ - ٩٥٢ - ٩٥٣ - ٩٥٤ - ٩٥٥ - ٩٥٦ - ٩٥٧ - ٩٥٨ - ٩٥٩ - ٩٦٠ - ٩٦١ - ٩٦٢ - ٩٦٣ - ٩٦٤ - ٩٦٥ - ٩٦٦ - ٩٦٧ - ٩٦٨ - ٩٦٩ - ٩٧٠ - ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٣ - ٩٧٤ - ٩٧٥ - ٩٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - ٩٧٩ - ٩٨٠ - ٩٨١ - ٩٨٢ - ٩٨٣ - ٩٨٤ - ٩٨٥ - ٩٨٦ - ٩٨٧ - ٩٨٨ - ٩٨٩ - ٩٩٠ - ٩٩١ - ٩٩٢ - ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ - ٩٩٦ - ٩٩٧ - ٩٩٨ - ٩٩٩ - ١٠٠٠ - ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤ - ١٠٠٥ - ١٠٠٦ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨ - ١٠٠٩ - ١٠١٠ - ١٠١١ - ١٠١٢ - ١٠١٣ - ١٠١٤ - ١٠١٥ - ١٠١٦ - ١٠١٧ - ١٠١٨ - ١٠١٩ - ١٠٢٠ - ١٠٢١ - ١٠٢٢ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤ - ١٠٢٥ - ١٠٢٦ - ١٠٢٧ - ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠ - ١٠٣١ - ١٠٣٢ - ١٠٣٣ - ١٠٣٤ - ١٠٣٥ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ - ١٠٣٨ - ١٠٣٩ - ١٠٤٠ - ١٠٤١ - ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤ - ١٠٤٥ - ١٠٤٦ - ١٠٤٧ - ١٠٤٨ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤ - ١٠٥٥ - ١٠٥٦ - ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠ - ١٠٦١ - ١٠٦٢ - ١٠٦٣ - ١٠٦٤ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨ - ١٠٦٩ - ١٠٧٠ - ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ - ١٠٧٥ - ١٠٧٦ - ١٠٧٧ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠ - ١٠٨١ - ١٠٨٢ - ١٠٨٣ - ١٠٨٤ - ١٠٨٥ - ١٠٨٦ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ - ١٠٨٩ - ١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ - ١٠٩٤ - ١٠٩٥ - ١٠٩٦ - ١٠٩٧ - ١٠٩٨ - ١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٠٢ - ١١٠٣ - ١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١٠٦ - ١١٠٧ - ١١٠٨ - ١١٠٩ - ١١١٠ - ١١١١ - ١١١٢ - ١١١٣ - ١١١٤ - ١١١٥ - ١١١٦ - ١١١٧ - ١١١٨ - ١١١٩ - ١١٢٠ - ١١٢١ - ١١٢٢ - ١١٢٣ - ١١٢٤ - ١١٢٥ - ١١٢٦ - ١١٢٧ - ١١٢٨ - ١١٢٩ - ١١٣٠ - ١١٣١ - ١١٣٢ - ١١٣٣ - ١١٣٤ - ١١٣٥ - ١١٣٦ - ١١٣٧ - ١١٣٨ - ١١٣٩ - ١١٤٠ - ١١٤١ - ١١٤٢ - ١١٤٣ - ١١٤٤ - ١١٤٥ - ١١٤٦ - ١١٤٧ - ١١٤٨ - ١١٤٩ - ١١٥٠ - ١١٥١ - ١١٥٢ - ١١٥٣ - ١١٥٤ - ١١٥٥ - ١١٥٦ - ١١٥٧ - ١١٥٨ - ١١٥٩ - ١١٦٠ - ١١٦١ - ١١٦٢ - ١١٦٣ - ١١٦٤ - ١١٦٥ - ١١٦٦ - ١١٦٧ - ١١٦٨ - ١١٦٩ - ١١٧٠ - ١١٧١ - ١١٧٢ - ١١٧٣ - ١١٧٤ - ١١٧٥ - ١١٧٦ - ١١٧٧ - ١١٧٨ - ١١٧٩ - ١١٨٠ - ١١٨١ - ١١٨٢ - ١١٨٣ - ١١٨٤ - ١١٨٥ - ١١٨٦ - ١١٨٧ - ١١٨٨ - ١١٨٩ - ١١٩٠ - ١١٩١ - ١١٩٢ - ١١٩٣ - ١١٩٤ - ١١٩٥ - ١١٩٦ - ١١٩٧ - ١١٩٨ - ١١٩٩ - ١٢٠٠ - ١٢٠١ - ١٢٠٢ - ١٢٠٣ - ١٢٠٤ - ١٢٠٥ - ١٢٠٦ - ١٢٠٧ - ١٢٠٨ - ١٢٠٩ - ١٢١٠ - ١٢١١ - ١٢١٢ - ١٢١٣ - ١٢١٤ - ١٢١٥ - ١٢١٦ - ١٢١٧ - ١٢١٨ - ١٢١٩ - ١٢٢٠ - ١٢٢١ - ١٢٢٢ - ١٢٢٣ - ١٢٢٤ - ١٢٢٥ - ١٢٢٦ - ١٢٢٧ - ١

إريس ١٦٨	٣١٧٠٣٠٨
إسكيلوس ١٠٩	أنكساجوراس ١٠٩
إيطاليا ٧١٠٧٥٠١٠٥٠ ١٣٤	أنكسيندر ١٠٣
١٦٢٠١٩٢٠ ٢٣٠	أنونيس ١٦٨
الإيطاليون (الفة الإيطالية) ١٦١	أنونسث الثالث ٢٢٦٠٢٢٨٠ ٢٣٠
إيفان الرابع ٢٧١	أنونسث الرابع (البابا) ٢٣١
إيفان الأعظم ٢٧١	أهرام الجزيرة ٥٢٠٦٣٠٦٨٠ ٧٦
(ب)	أهل الشمال (الفر) (التورمان)
باباوات روما ١٩١٠٢١٢	أوجر برج (صلح) ٢٥٨
بابر ١٣٩٠٢٧٦	الأوديسيا (أوديسيوس) ١٠٠
بابل (بابل) ٧١٠٧٠٠٥١٠ ٧٣	أورانوس ٤
١٠٥٠٨٣٠٨٢٠٨١٠٧٩	أوربا ٣٢٠٢٣٠٣٧٠٤١٠ ٤٣
٢١٥٠١٦٧٠١٠٨	٢٠٠٠١٩٧٠١٥٨٠١٥٥٠٦٤
البابلية (الإمبراطورية) ٦٤٠٨٢	أورشليم ٨٩٠٩٠٠٩٣٠٩٢٠ ٩٥
٨٧	١٩٥٠١٧٣٠١٤٢٠١٠٥٠٩٧
البارود ٢٣٦٠٢٦٦	٢١٩
باريس ٢٨٧	أورليان (الإمبراطور) ١٥٩
الباسقيل ٢٨٧	أوزيريس ١٦٨٠١٧٩
باسك (باشكنس) ٦٩٠٨١	أوسكولوم ٣٦
باكون (روبر) ٢٤٢٠٢٤٣٠٢٩٨	أوغسطس (قيصر) ١٦٠٠١٧٢
باكون (السير فرانسيس) ٦٦	الأولمبياد ١٣٥
بالبوزي ١٤	الأولية (الألعاب) ١٠٢٠١١٢
بالبولي (الفر القصر الحجري القديم)	١٣٤
بين ٢١١	إبيرت (الزئيس)
البحر الأحمر ٢٧٠٦٨٠٩٢٠١٥٥	إيبيري (الجنس) ٥٤
البحر الأسود ٣٧٠٥٤٠٧١٠٧٥	الإيجية (الشعوب والحضارة) ٦٩
٢١٥٠٢١٤٠١٥٨	١٣٣٠١٠٢٠١٠٠٠٩٢٠٨٢
	١١٧
	إيزابلا (الملكة) - (الفر فرديناند)
	إيزوقراطيس ١١٢

البلاشفة (الاشتراكيون) ٢٦٠٠٣٥٩

بلدوين الفلندري ٢٢٣

البليان ١٣٤ ١٣٥ ١٤٥٠

بنارس ١٢٤

بنش (الذكور) ٢٨٧

البنادقة (البندقية) ٢٩٥

بهرنج (مضيق) ٦٨ ٥٦ ٥٤

بوانكاره

بوث (جون) ٣٢٨

بوذا (الطرجوتاما بوذا)

البوذية ١٣١ ١٧٢ ١٩٨ ٢٠٦

بورجون (الجنرال) ٢٨٤

بورخ ١٨

بولس الرسول ١٦١ ١٨٧ ١٧٩

١٨٠

بوليفاد (الجنرال) ٢٩٣

بومي الأكبر ١٤٩ ١٥٠ ١٥٥ ١٥٦

بوتيفاس الثامن (البابا) ٢٢٣

بيبي الثاني ٦٣ ٢٠٦

بيت المقدس ٢٢٠ ٢٢٢ ٢٢٤

٢٤٦ ٢٣١

بيتان (المارشال)

بيرو ٥٦ ٥٨ ٦٠ ٢٥٩ ٢٦٦

بيروس ١٣٦

بيزارو ٢٥٠

بيزنطة البيزنطى ١٨٤ ١٩٣ ١٩٥

٢٠٠ ٢٠٤ ٢٢٠ ٢٢٨

بيكونوفيلد (الورد) ٢٣٦

(ت)

الناوية (العقيدة) ١٣١ ١٧٨

بحر المانش ٣٧

البحر المتوسط ٢٧ ٥٠ ٥٢ ٥٤

٦٦ ٦٨ ٧٥ ١٣٤ ١٥٤

١٥٦ ١٨٨ ٢٤٠

بخارى ٢٠٦

بدايات الخلية ١٢٠٩

بدور (الأول) ٢٨٥

البرازيل ٢٨٥

برجامة ١١٩ ١٣٠ ١٣٨ ١٤٠

البردى ١١٩

برسيبوليس ١١٤ ١٢٠

بركليس ١٠٩ ١١٠ ١٤٣

برمائيات ١٧ ١٨ ٢٠

برهانية (العقيدة) ١٣٧

بروسيا (عسكر) ١٧٠

برى (القومودور)

بريطانيا العظمى ١٦١

بساو (معاهدة) ٢٥٩

بسم (هنرى) ٣٠٢

بعل مردوخ ٨٣

بنفاد ٢٠٦ ٢٤٠

البطارقة ١٣٤ ١٣٥ ١٤٥

البطالة ١٢٩ ١٤٠ ١٥٢

بطرس الأكبر ٢٧١

بطرس التاسك ٢٢١ ٢٢٢

بطليوس الأول ١١٥ ١١٦ ١١٨

١١٩ ١٦٩

بطليوس الثاني ١١٩

بلاد ب

تأنيج (أسرة) ١٩٧، ١٩٨، ٢٣٦	تكييف ١٨، ٢٤٠
تاي تسنج ١٩٩، ٢٠٢	التوراة ٧٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩٦، ٩٧
التار ١٢٩، ١٥٥، ١٨٦، ١٩٥	١٤٢، ٩٧
٢٣٧	تيريروس قيصر ١٥٢، ١٧٢
تجارة ٦٨	تيمورلنك ٢٣٩، ٢٧٩
تجار الرقيق العرب ٢٣٩	توحيد الآلهة (انظر مزج) ١٦٧، ١٦٨، ٢٦٥
تجلات بلسر الثالث ٨٢، ٨٣	(ث)
تحتس ٨٣، ٩٩، ١١٤	التدييات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٨
التحليل النفسي ٤٥	٤٦، ٣١
تراجان ١٥٢	ثقافة العصر الشمسي الحجري ٥٢
ترافيا ١٠٦	١٣٢، ١٢٨، ٨١، ٥٤
ترويسكي ٣٦٠	الثورة الفرنسية ٢٨٦، ٢٩٢، ٣١٥
تريفيليك ٢٩٩	٣٣١
التريويت ١٠	ثيودورا (الإمبراطورة) ١٩٢
تس ١٢٢، ١٥٤	ثيودوريك ١٩٠
تسمانيا (التمانيون) ٤٤	ثيودوسيوس ١٨١، ١٨٤، ١٨٦
تشانج تسون ٤٧٤	١٩٠، ١٨٩
تشاو (أسرة) ١٢٩، ١٣٢	(ج)
تشراننا ٧٤	جالريوس (الإمبراطور) ١٨١
تشرشل (ولستون)	جالفاني ٣٠١
تشمبران (نيل) ٢٨٦، ٢٨٧	جبال دوكي ٢٧
٢٨٨، ٢٨٠، ٢٨٢	جرافيت ١١
تشوتو ١٣٢	جرانت (ي. س) ٢٤٧
التطور الفكري ٢١١	جريجوري الأول (البابا) ٢٢٤
تفكير (انظر فكر)	جريجوري السابع (البابا) ٢٢٠، ٢٢٢
تقدم العلوم ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠ الخ	٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨
تقويم ٥١	(٢٩ - تاريخ العالم)
تسكساس ٣٣٦	

(ج)	جرموري التاسع (البابا) ٢٣١٠٢٣٠
الجبهة ٢٧٦٠٢٧٥	جرموري الحادي عشر (البابا) ٢٣٤
حقشبوت (الملك) ٧٥	الجرمالي (الشعب) ٤٢٠٢٨٠٤٩٠
الحرب الاسبانية	جزويت (انظر يسميون)
الحج ٢٠٢	جستيان الاول ١٩٢٠١٨٦٠١٩٢٠
حرب الاستقلال الامريكية ٢٨٤٠	١٩٥
٢٩٢	جلبرت (الذكور) ٢٦٦
الحرب الاحلية الامريكية ٢٢٨	جليد ١٦٠١٥
حرب البليونيوز ١١١٠١١٢	الجماعة البشرية ٤٥
حرب الثلاثين سنة ٢٧٠	الجمعية القورلدية ٢٦٦
الحروب الروسية التركية ٢٣٣	الجمعية الملكية بلندن ٢٢٦٠٢٢٨٠
الحرب العالمية ٣٦٩	الجمعية الوطنية ٢٨٧٠٢٨٨٠
الحرب البوقية ١٣٨٠١٤٠٠١٤٣٠	الجمهورية الرومانية ٢١٠٢٤٨٠١٧٨٠
١٤٥٠٠١٤٧٠٠١٤٨٠٠١٥٠٠	الجفر القوردي ٥٧٠٦٣
١٦٣٠٠١٩٠	جفر ١٨٢
الحروب الصليبية ٢١٩٠٢٢٠٠٢٣١	جنكيز خان ٢٢٠٢٢٠٢٢٢٠٢٢٣٠٢٢٤٠٢٢٥٠٢٢٦٠٢٢٧٠٢٢٨٠
٢٢٢٠٢٢٣٠٢٢٤٠٢٢٥٠٢٢٦٠٢٢٧٠٢٢٨٠	جوار (جول) ٢٨٧
٢٢٩٠٢٣٠	جوتاما بودا ١٠٤٠١٢٠٠١٢١٠١٢٢٠١٢٣٠
حروب الفرس ١٠٥٠١٠٨٠	٢٢٢٠٢٢٣٠٢٢٤٠٢٢٥٠٢٢٦٠٢٢٧٠٢٢٨٠
حزازيات ١٩٠٢٦٠	١٢٣٠١٢٤٠١٢٥٠١٢٦٠١٢٧٠١٢٨٠١٢٩٠
الحوب الشيوعي ٢٥٧	جورج الثالث ٢٦٨٠٢٨٢٠٢٠٣٠
حرب المال البريطاني ٢٥٧	جوركي (مكسيك) ١٦٣
سيزيغال ٩٧	جورنيج (مرمان) ٢٧٥٠٢٧٦٠
حشرات ١٦٠٢٠٠٢٤٠	جورستاف أدولف ٢٢٥
الحضارة العازقية ١٨٠١٢٩٠	جون لوك ٢١٢
الحضارة الرومانية ٣٠٧٠٣١٠	جيرون (ادوارد) ١٨٩
الحضارة الكريكية الإيجية ٧٠٨٢٠	جيمس الاول ٢٦٧
١٨٨	جيولوجيا (جيولوجيا) ٨٧٠٨٨٠

دنديانوس (الإمبراطور) ١٤٥٠

١٨٢٠ ١٨٠

دشوق ١٩٥٠ ١٩٦٠ ٢٠٤٠ ٢٠٦٠
دسرك

دسكين (المتركة) ٢٥٧

دوجلاس (مفتي) ٢٢٧

دولة مدينة ٦٤

دولة القوم القرية ٢١٩

الدولة (التبوية) ٢١٢٠ ٢١٨٠

٢٢١

دومينيك (القدس) ٢٣٥

دومينيكيون (الربان) ٢٢٧٠ ٢٢٤٠

ديبول (المتركة)

ديغروس ٧٠

ديغو (دايال) ٢٠٨

ديكوس (الإمبراطور) ١٥٨

الدين ٤٨٠ ٤٧

دينامور (انظر عطايا) ٢١٠ ٢٢٠

٢٥

ديوتيسوس ١٢٠

(د)

دب (دبة) ٤٧

داسيون (مجلس دايت) ٢٥٧

داسيون ٢٧٤٠ ٢٥٥٠ ٢٥٥٠ ٢٥٧٠

دلف القعد ٢١٤

دبل (انظر انسان)

دسم ٢٠٤

دما (انظر مكوس)

دخارة المايا ٧٨

دخارة ماوراء النهر ١٦٦٠ ١٦٧٠

الدخريات ١١٠٩

دلف شلكد ٢٥٧

دوران ٦٧٠ ٦٩٠ ٧٠٠ ٧٩٠ ٩٠

دورس ١٦٨

الحياة ١٠٠٠ ١٠٠٠ ٢٦٠

المحيثون ٧٢٠ ٧٤٠ ٨١٠

سهرام (الملك) ٩٢٠ ٩٥٠

المحيوانات ١٢

المحيوانات العليا

(خ)

خروصات ١٦

خياشم ١٧٠ ١٨٠ ١٩٠

(د)

دارا الأول ٨٢٠ ١٠٥٠ ١٠٦٠

دارا الثالث ١١٣٠ ١١٩٠

دافيد جرسون ٢٢٦

دالاديه

دانوتير ٢٧٢

دايال النبي ٨٦

الدارفديون ٥٤

دستور الجنوب

ريشليو ٣٧٦	رغوية (نباتات) ١١
رينو (بول) ٣٨٩	الرق (رقيق - أرقاء) ١٠٢، ٧٧
(ز)	١٦٣، ١٦٢، ١٤٨، ١٤٦
زافير (فرلنيس) ٣٤١	٣٢٨، ٢٦٥، ١٧١، ١٦٤
زاما (معركة) ١٤٠	رئيس الثاني ١١٤، ٧٣
زحل ٤	روبرت لى ٣٤٧
زرادشت ٢٠٦، ١٩٤	روبيير ٢٩٠، ٢٩١
زراعة ١٦٢، ٤٩	روبير الأول (ملك) ٢٢٩
الزمن الآزوى ٢٠	رودلف آل مايسبرج ٢٢٣
الزمن الباليوزوى ٢٢، ٢٠، ١٠	روزفلك (فرانكلين) ٣٩٠، ٣٨٧
الزمن الكاينوزوى ٣٠، ٢٧، ٢	٢٩٣
٣٢	الروس ٢١٤
الزمن الميزوزوى ٢٢، ٢١، ٢٠	الروسيا ١٥٨، ١٥٥، ١٠٥، ٥٤
٣١، ٢٧، ٢٥، ٢٤، ٢٣	٢١٥، ١٨٨
الزواحف ٢٩، ٢٣، ٢٠	روما ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٣
زورق بخارى ٣٠٢، ٣٢٤، ٣٢٤	١٥٤، ١٤٦، ١٤٣، ١٣٩، ١٣٨
٣٢٩، ٣٣٨، ٣٣٧، ٣٣٦، ٣٣٥	٢٥٢، ١٩٠، ١٨٦، ١٨٤
الزهره ٤	الرومان ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ٨٤
زينوفون (انظر اكسينوفون)	١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤
زيوس ١٦٩	١٩٢، ١٩٣
(س)	رومايا
الساحر الطيب ١٤	الرومانى (القانون) ١٠٥
سارداغابالوس ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٧٤	الرومانية (الآثار) ١٦٦
ساسان (آل ساسان) ١٥٧، ١٩٢، ١٩٤	الرومانية (الجمهورية) ٣١٠
١٩٤	الرومانية (الحضارة) ٣١٠، ٣٠٧
سالرنو (مدرسة الطب) ٢٣٢	الرومانية (الديانة) ١٧١، ١٦٦
	رومولوس وأغسطس لوس ٢١٦، ١٩٠
	ريبنتروب ٣٨١
	ريش ٢٣

طمان صر ٢٢٢ • ٢٤٢
 سلوقس ١١٥ • ١٢٦
 السلوقيون ١٤٢ • ١٤٤ • ١٥٤ •
 ١٥٦ • ١٦١
 سليمان ٩٢ • ٩٣ • ٩٥
 سليمان الثاني ٢٥٥ • ٢٥٧
 سمح (آدم) ٢١٨
 سمح (الميت)
 سمرقند (الأمير)
 سمك ١٤ • ١٧ • ٢٩
 سحاريب ٧٤
 السفركية ٧٢ • ٨١
 سويطاي ٢٢٨
 سوريا ٦٦ • ٧٣ • ٨٢ • ٨٩ •
 ١٩٢ • ١٩٥ • ٢٠١ • ٢٠٤ •
 ٢٢٢ • ٢٢٨ • ٢٢٩
 سومر (السميريون) ٦ • ٦١ • ٦٢
 ٦٣ • ٦٥ • ٦٧ • ٦٨ • ٩٥ • ١٢٨
 ١٤٤
 سوفكليس ١٠٩
 السوفييت ١١٠
 سوك (أمة) ١١٧ • ١١٨
 سويتون (الملك) ٢٩٠
 سويتون (الورد) ٢٩٠
 سياغار (أنظر كياسوس) •
 سحاقرة ١٢٠ • ١٢٥ • ١٣٦ •
 ١٣٧ • ١٣٨
 سيقان ورقية (أنظر خوصاص) ١٦
 ٢١ • ٢٤
 سيلوي ١٤

الساميون (الأجناس السامية) ٦٧
 ٦٩ • ٧١ • ٩٥ • ١٢٢ • ١٢٨ •
 ١٩٧
 ستيغوس سفيروس ١٦١
 سبيون الأفريقي الأسن ١٤٠ • ١٤٥
 ستالين ٢٥٧ • ٢٥٨ • ٢٥٩ • ٢٦٠
 ٢٨١ • ٢٨٤
 ستروزي مان (الذكور) ٣٦٩
 ستون منج (نصب) ٥٢ • ٨١
 ستيفتسون (جورج) ٢٩٩
 ستيكوي ١٨٤ • ١٨٨
 سحالي (أنظر خطابا)
 سجنريد (خط) ٢٨٢
 سجل الصخور ١٠٠٩ • ١٢٠ • ١٦٠ •
 ١٩٠ • ٢٦٠ • ٢٨٠ • ٢٩٩
 حديم ٦
 سرايس ١٦٩
 سرايس ايريس (خليفة) ١٦٩
 سرجون ٦٦ • ٨٢ • ٨٤ • ٩٥
 سرجون الثاني ٧٤ • ٨٢ • ٨٣
 سرغن ١٦ • ٢٠ • ٢١
 السفطائيون ١١٠
 السفن (بناء) ٦٨
 سقراط ١١٠
 السكك الحديدية ٣٠٠ • ٣٣٤ •
 ٣٣٥ • ٣٣٦ • ٣٣٧ • ٣٣٨ • ٣٣٩
 سكوت (ميشيل) ٢٢٢
 سلا ١٤٩ • ١٩١
 السلاجقة (الأتراك) ٢٢٠ • ٢٢٢ • ٢٢٤
 السلاف

شيتروان ١٥١
 شيشق ٩٣
 شى موائج فى ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٥٣
 ١٥٤
 الشيوعية ٣٢١
 الشيوعيون ٣١٧
 (ص)
 الصنوبر الطباقية ٩
 الصنوبر الاكظم ٢٣٤ ، ٢٥٠
 صقلية ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٢
 (الصقلتين ٢٥٤)
 صلاح الدين ٢٢٣
 صن يات صن : ٢٧٤
 صنع (امبراطورية) : ٢٣٦
 صور الصنوبر : ٤٣
 صيد ٤٥
 الصين ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٢١
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨
 ٢٣٦ ، ٢٤٥
 الصين (تاريخ) : ٧٨
 (ط)
 الطابور الخامس (نشاط)
 طاليس ١٠٣ ، ١٢٥
 الطباخة ١١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٦٧
 ٢٦٩
 طحلب (طحالب) : ١٠ ، ١٥ ، ١٦

(ش)
 شامول : ٩٢ ، ١٧٨
 شامول الطرسوسى ١٦٠
 شاول الاول (الملك) ٢٥٢
 شاول الثانى ٢٦٩
 شاول الخامس (الإمبراطور شرلكان)
 ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
 ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
 شارل العاشر ٢٩٤
 شارل مارتل ٢١١
 شامج (أسرة) ٧٨ ، ١٢٩
 شاندرا جويتا موريا ١٢٦
 شبه الإنسان ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
 شبه زنجى (تجريدى) ٤٢ ، ٥٥
 شبه المغول انظر المغول (شبه)
 شركة الهند الشرقية البريطانية ٢٨٢ ،
 ٢٣٤
 شرلكان ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣
 ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢
 الشمر ٢٤
 الشموب البحرية ٦٨
 الشموب المقرحة ٦٤
 الاشخانيون (الملك) : ١٠٧
 الشمس ١٥٠ ، ٧٠٦ ، ٧٠٤
 شمشون ٩٠

العصر الحجري القديم ٤٧٠٠٤٤٠٤٢	طروادة ١٠٠
٣٠٦٠٤٩	الطوفان ٩٠٠٦٨
عصر الرواسب النجمية ١٨٠١٩٠٢٠٠	طاية ١٠٧٠١٠١
عصر الزواحف ١٩٠٢٠٠٢٥٠	(ع)
٣١	
عصر القوضى ١٢٩	العالم ١٢٠٦
عصر المستنقعات ١٧	العالم الرومانى واللاتفى ١٨٥٠٢١٠
المصور الوسطى ٢١٣	٢١٣
عطاردة ٤	عالم المسيحية ٢١٠٠٢١٣٠٢١٤
عظايا (بأنواعها) ٢١٠٢٢٠٢٥٠	٢٢٤٠٢٢٠٢٢٠
٢٦	عاموس ٤٧
عقارب ١٠٠١٤٠١٦	العبرانيون ٧٥٠٩٢
علماء الآثار ٢٤	العرب ٤٠٠٢٠٨٠٢١٥
علماء السلالات البشرية ٣٩	٢١٦ ٢١٠٠٢٢٣٠٢٤١
العلوم ٦٠١٩٣٠١٩٤	بلاد العرب ٢٠٠٢٣٩٠٢٤٥
العموديون ٦٦	العربية (لغة) ١٩٦٠٢٠٦
العموديات ٢٢٠٢٥٠٢٦	عشب ١٩٠٠٥
عناكب ١٦	حصى ٣٥٤٠٣٨٢٠٣٧٢
هيبى ٢٢١	العصر الآرى ١٦
العهد القديم ٥١٠٨٠	عصر الآك ١٦
الغلاميون ٦٦٠١٣٣	العصر البابليوزوى السفلى ١٣٠٢٠
(غ)	عصر التدييات ٢١٠٣٠
الغاة ١٣٥٠١٣٦٠١٣٧٠١٣٨٠	العصر الجليدى ١٦٠٢٧٠٢٣٢٠٤٦٠
١٦١٠١٤٠٠١٣٩	٤٠٠٢٨
الغالب ١٥٩	العصر الحجري الحديث ٤٤٠٤٩
غليوم الثانى (الإمبراطور) ٢٨٧	٥١٠٥٠٠٠٥٣٠٥٥٠٦٨
	العصر الحجري التمسى ١٦٩

فرانسيس الاسبى (القدس) ٢٢٧
 ٢٢٤
 افرانسيس كايون (الربان) ٢٢٧، ٢٢٤
 فريود ج. ج. ٥٠
 افرود فراطيون ٢١٢
 قاريات ١٠، ١٤، ١٦، ١٩، ٢١
 ٢٩
 فكر ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٥٩، ١٠٩، ١١٠
 ١٢١، ٢١٩، ٢٧٢
 الفلطينيون ٧٥، ٩٢، ٢٢٩، ٢٤٦
 فلسفة فلاسفة ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٢
 ٢٤١
 فلك ٥٦، ٥٩
 فلك نوح ٦٨
 فن (فنون) ١٧٢، ٢١٩
 فنج (الجزال) ٢٧٤
 فلتنه ١٩٧
 فود كورد (الطرا اديب شعبي)
 فولتير ٢٧٤
 فيشر (لورد) ٢٥٦
 فيكتوريا (الملكة) ٢١٨، ٢٣٥
 فيليب (الثاني) ٢٥٩
 فيليب (دوق اذوليان) ٢٩٤
 فيليب المقدوني (امير ميس) ٢٥٨
 فيليب المقدوني ١١٢، ١٣٦
 الفينيقيون ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٧٧
 ٩٦، ١٤٢
 فيوى ٣٧٤
 فيينا ٢٤٠، ٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٤
 ٢٩٨، ٢٣٥

(ف)

فرايدى (ميشيل) ٢٠١
 فرس (فرس) ٧٥، ٨٢، ٨٦
 ١٢٨، ١٤٤، ٢٢٦، ٢٢٨
 فسكرى جانا ٢٧٥، ٢٨٠
 فنانس ٢٧١
 فانون (دوبرت) ٢٠٠
 فاور (الإمبراطور) ١٨٤
 فرعون (الفراتة) ٦٢، ٨٠، ١٠٢
 ١٦٨
 فرانكو (الجزال) ٢٧٠
 فردريك الثاني (الإمبراطور) ٢٢٤
 ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣
 ٢٢٧، ٢٣٨، ٢٥٠
 فردريك الثالث ٢٥٤، ٢٧٠
 فردريك يربوسا ٢٢٤
 فرديناك (الملك) ٢٤٠، ٢٤٨
 ٢٥٤، ٢٥٩
 فرديناك (الإمبراطور) ٢٥٩
 فرساى ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٦
 القرية (قبائل) ١٥٩
 فرسا ٢٨، ٤١، ٤٤، ٢٠٤، ٢٠٨
 ٢٥٧
 فرانسيس الاول (فرانسوا) ٢٥٥
 ٢٥٦، ٢٥٧

القوط الغربية : ١٢٣٠ - ١٢٥٠	(ق)
(ك)	القاهرة ٢٠٦
الكاثوليكية (الكنيسة) ١٩١	قباد ١٩٤ - ١٩٦ - ١٩٩ - ٢٠٢
كارل ملوكس ٢١٧	قبلاي خان ٢٢٨ - ٢٤٦
الكارلوتجيين (أسرة الملوك) ١١٧	القرآن ٢٠٢ - ٢٠٦
كاليولا ١٥٢	قربان ٥٠ - ٥١ - ٧٧ - ٧٨ - ١٢١
كامبالا ٢١٢	١٢٨ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٩ - ١٦٦
كانوت ٢١٤ - ٢١٥	١٦٩ - ١٩٣ - ٢٠٢
كاهن (الكتابة) ٥١ - ٥٢ - ٥٩	قرطاجنة (قرطاجيون) ٦٩ - ٧٧
٦٣ - ٦٥ - ٨٠ - ١٠٢ - ١٠٣	٩٥ - ٩٦ - ١٠٥ - ١٣٤ - ١٣٦
١٢١ - ١٢٨ - ١٣٣ - ١٦٠	١٢٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤٢
١٧٦ - ٣٠٢	١٤٣ - ١٨٦ - ١٩٠
الكينزوي (الزمن) ٢٠ - ٢٨	قسطنطين ١٤٥ - ١٨١ - ١٨٢
٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣	١٨٤ - ١٩٤
كتابة ٦٠ - ٦١ - ١٠٠ - ١٣٤	القسطنطينية ١٨٤ - ١٨٦ - ١٨٨
الكتاب المقدس العبراني ٢٤٤	١٩٣ - ١٩٣ - ١٩٥ - ٢٠٤ - ٢١٠
٢٥١ - ٢٥٢	٢١٤ - ٢١٥ - ٢٢٠ - ٢٢٢ - ٢٢٣
الكتابة المسارية ٦١	٢٣٩ - ٢٤٧ - ٢٦٦
الكتابة المهدوظيفية	قشريات ١٠
الكتابة بالصور ٦١	قبيز ٢٠٥
كراسوس ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٦	القمر ٤ - ٧ - ٨
الكرملين ٣٦٠ - ٣٦١	غوروش ٨٦ - ٩٠ - ٩٤ - ٩٦ - ١٠٥
الكرنك ٧٦	القوط ١٥٨ - ١٥٩ - ١٨٤ - ١٩٢
الكرمانيون ٤٢ - ٤٩	٢١١
كرويسوس ٨٦	القوط الشرقية ١٢٣ - ١٢٥

كوليس (كرستوفر) : ٢٤٨٠ ٢٤٧	كرينسكي ٢٥٧٠ ٢٥٦٠ ٢٥٥
٢٨٢	كسرى الأول ١٩٥
الكومستانج ٢٥٨	كسرى الثاني ١٩٥
كوفينوس (الكسيوس) ٢٢	كلايف (روبرت) ٢٧٦
كولستالس مجمع ٢٥٠	الكلك (البريشونيون والجويديليون
كوفشيوس ١٠٤٠ ١٢٧٠ ١٣٠	الخ) ٨١
١٣١	الكلدان ٨٤٠ ٨٣
الكومكرد (مركه) ٢٨٤	كلنت الخامس (البابا) ٢٢٤
الكويكيات ٤	كلنت السابع (البابا) ٢٢٤
كيا كارس ٨٣	كلوديوس ١٥٢
كهوف ٣٦٠	كلوفس ٢١١
الكيمياء (علم) ٢٠٨	كليو بطرة ١٥١
الكيميائيون القدماء ٢٠٨٢ ٢٠٩	كل (مصطفى) ٣٦٩٠ ٣٦٨
٢٤٢	كن (إمبراطورية) ٢٣٦٠ ٢٣٧
(ل)	كندا ٢٢٥٠ ٢٢٤٠ ٢٢٥
اللاتينية (الإمبراطورية) ٢٦٧ ٢٧٥	كندان ٩٢٠ ٩٠
اللاتينية (الكنيسة) ٢١٦ ٢٢٠	كنج (جورج) ٣٩١
٢٢٢ ٢٤٩ (إصلاح) ٢٥٠	كنوسوس ٧٦٠ ٧١٠ ٧٢٠
اللاتينية (لغة وشعوب) ١٦١٠ ٧٢٠	٩٩٠ ٨٢٠ ٧٦
٢٤٦	الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية
لانجل (الاستاذ) ٣٠٥	١٧٨
لاهورتي (لاوتس) ١٠٤٠ ١٢٨	الكواكب ٦
١٣٠ ١٣١ ١٣٢	كورتيز ٢٥٩
لييدوس ١٥٢	كوردنواليس (الجنرال) ٢٨٤
لغيفوف ٢٧٩ ٢٨١ ٢٨٢	الكوشان (أسرة) ٥٨١
لتوانيا	الكولاك ٢٥٨
اللغة الإنجليزية ٧٢	كولتسك (الأميرال) ٢٥٧
لقوف (الأمير) ٢٥٥	

ماجنو (خط) ٢٨٢
ماراتون ١٠٦ ، ١٠٧
مارتن الخامس (البسبا) ٢٢٥
٢٥٠
مارشان (الكولونيل) ٢٣٩
مارك الطون
ماركو الطوان ١٥٢
ماركو بولو ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
ماركو أوريليوس ١٥٢
ماريوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩١
الماركسية (كارل ماركس)
٢١٧
مازارين ٢٦٨
ماكولي (الورد) ١٤٥
مانجو خان ٢٣٨
ماني ١٩٤ ، ٢٢١
ماهافي (الاستاذ) ١١٧
مايا ٥٦ ، ٥٩ ، ١٢٨
ماتكاس (الرئيس) ٣٩٢
متحف الإسكندرية ١١٦ ، ١١٧
١٣٨ ، ٢٠٨
مترا ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩
المترامية (المقيدة) ١٦٩ ، ١٧٨
المجر (المجريون) ١٦١ ، ١٧٨
محارب ١١ ، ١٤
مهد (النبي) ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

٢٢١ ، ٢٠٣

لنكسبرج ٢٨٧
لنكسجتون (مركبة) ٢٧٥
لندن ١٤٥
لنكولن (أبراهام) ٣٢٨ ، ٣٢٩
لوثر (مارتن) ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥
٢٥٨ ، ٢٦٧
لودندرف (الجنرال) ٢٧٦
لوزان (مساعدة) ٣٦٨
لو كريكوس ٢٤١
لو كوفوس ١٤٩
لويد جورج ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
لويس الورع ٢١٧
لويس الرابع عشر (الملك) ٢٦٩
٢٧٠ ، ٢٨٩
لويس السادس عشر ٢٨٧
لويس الثامن عشر ٢٨٧
لويس فيليب ٢٩٤
ليديا ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٤٠
لينين ٣٥٦ ، ٣٥٧
ليو الثالث (البابا) ٢١٦
ليو العاشر (البابا) ٢٥٥
ليوبولد الأول ٢٩٦
ليوبولد (ملك البلجيك) ٢٨٧
ليوناردو دافنشي ٢٩٩
ليونيداس ١٠٧

(٢)

ماجلان ٢٤٨

١٣٦٠ ١٣٥	عقد الثاني ٢٣٩
المكايون (الأمراء) ١٤٢	المخطوطات ٤٦
مكتبة الإسكندرية ٢٠٤	المجلد ٨٠٥
مكسليان (عامل الماكسليك)	المخطوطات ٢٦٠ ١٩
٢٣٢	المرئخ ٤
مكسليان الأول (الإمبراطور)	المسيحية ١٢٠ ١٧٨٠ ١٧٩٠ ١٩٣
٢٥٥٠ ٢٥٤	٢٧٢٠ ٢٤٢٠ ٢٣٦٠ ٢٢١٠ ٢٠٦
المكسيك ٥٣٠ ٥٦٠ ٥٨٠ ٥٩٠	المسيحية اللاتينية ٢٨٥٠ ٢٨٠
٢٦٦	المسلمون ٢٣٩٠ ٢١١٠ ٢٠٤
مكة ٢٠٢٠ ٢٠١	مسوري ٣٢٥
مليورون ١٩١	مسينا ١٣٨٠ ١٣٧
ملتون ١٠٠	مسينا ٨٢
الملوك القبرصيين (عظمة) ٢٢٣	مسينوس ٦٣
٢٣٤	المشترى ٤
ملن (الجنرال) ٢٥٨	مشروع السنوات الخمس بالروسيا ٢٥٩
مل ٢٨١	مصر (مصريون) ٦٠٠ ٦١٠ ٦٣٠
ملك السموات (مذهب) ١٧٣	٧٥٠ ٧٤٠ ٧٣٠ ٧١٠ ٧٠٠ ٦٨٠
١٧٨٠ ١٧٥٠ ١٧٤	١٢٨٠ ١٠٨٠ ٨٩٠ ٨٣٠ ٨٢
منتسكرو ٢١٢	١٩٢٠ ١٦٢٠ ١٤٣٠ ١٣٥٠ ١٢٣
منج (أميرة) ٢٧٨٠ ٢٢٩	٢٣١٠ ٢٠٤٠ ٢٠٠٠ ١٩٣
مور (السير توماس) ٢١٢	ممرقة ٢٦٥٠ ١٢٣٠ ١١٩٠ ٥١
موسى ٩٢٠ ٩٠	المغول ١٢٣٠ ١٢٩٠ ٦٦٠ ٥٦٠ ٥٥
موسوليني (بنيتو) ٢٧١٠ ٢٧٢	٢٧٨٠ ٢٠٠٠ ١٨٧
٢٩١٠ ٢٨٨	المغول (شبه) ٥٢
مولوتوف ٢٧٩٠ ٢٨٩٠ ٢٩٠	المغولية (الشعوب) (الفتوح) ١٥٥
مولرو (الريس) ٢٩٣	١٩٧٠ ٢٣٦٠ (الإمبراطورية ٢٧٦)
مولرو (مبتدا) ٢٢٩	مقدونيا (المقدونيون) ١٠٢
ميتاني ٧٤	١٠٦٠ ١٠٩٠ ١١٩٠ ١٣٠

نوجارت (غليوم : ٢٣٤)
 نوردى ١١٩٠٠٥٥ ١١٩ ١٣٩ .
 ١٥٨ ١٥٦ ١٥٥ ١٣٣
 نورماندى ٢١٤ ٢١٨
 نورمبرج (صلح : ٢٥٨)
 نو ميديا (النوميديون) ١٤٠ ١٤٩
 نياندرتال (النياندرتاليون) ٣٥ ٣٦
 ٢٨ ٤٠ ٤٣ ٤٧

نيرون ١٥١
 نيقولا الاول ٢٩٦ ٢٣١
 نينوى ٧٣ ٧٤ ٨٣ ١١٤ .
 ١٩٥ ١٩٨
 نيوزيلند ٢٢٧
 النيوليثى (انظر العصر الحجري الحديث)

(٥)

آل هابسبرج (أباطرة) ٢٥٥
 هاتور ١٦٨
 هادريان ١٥٢ ١٥٣
 هارولد (ملك إنجلترا) ٢١٨
 هارولد هاردرادا (ملك النرويج)
 ٢١٨
 هاستنجز (معركة) ٢١٨
 هاستنجز (وارن) ٢٧٦
 هاكون الاول (الملك) ٢٨٥
 هان (أميرة) ١٥٤ ١٥٨ ١٦٠ .
 ١٩٧

الميدون ٧٥ ٨٢ ٨٣ ٨٩ ٩٥ ،
 ١٠٥ ١١٤ ٢٠ ١٣٣
 ميشيل السابع ٢٢٠
 ميخائيل الثامن (الملك) ٢٣٣
 مينوس ٨٠ ٩٩ ١٠٣

(ن)

نابول (جامعة) ١٣٥ ١٣٦
 نابوليون الاول ٢٦٢ ٢٨٥ ٢٨٩
 ٢٩١ ٢٢٥
 نابوليون الثالث ٢٣١
 نابوبداس ٨٤ ٨٦
 النازية ٣٧١
 نبات ٣٣ ٣٧
 نبتيون ٤
 نبوخذ نصر ٨٤ ٨٩ ٩٥ ١٤٤
 نجرىدى (انظر شبه زنجى)
 النجوم ٤٥٥
 نهار الثاني ٨٣ ٨٤ ٨٩ ١١٤
 نرقانا ١٢٤
 النرويج ٢٨٥ ٢٨٦
 النشوء والارتقاء المصنوع
 النصرانية (انظر مسيحية)
 النفاس الزائف ٥٣
 نلسن (الاميرال) ٢٩٢
 النسا ٣٧٩

الحوتوت ٤٢	هانيبال ١٤٠
هولاكو خان ٢٣٨ ، ٢٣٩	هتلر (أدولف) ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
هولده ٢٨٦	٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ،
هوميروس ١٠٠	٢٨٥
الحون ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٨	هرقل (الإمبراطور) ١٩٥ ، ١٩٨ ،
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٧	١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨	هرقلييا ١٣٦
الهرنية (الشعوب) ٦٦ ، ١٥٥	هرقائيتوس ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٥
هونوريوس ١٨٤ ، ١٨٨	هرون الرشيد (الخليفة) ٢١٩
هونوريوس الثالث (البابا) ٢٣٠	حسن (جرن) ٢٥٠ ، ٢٥٢
آل هونزولرن ٣٦٩	هسيا (إمبراطورية) ٢٣٦
آل هونشتاوفن ٢٢٢	هكسوس ٦٧ ، ٧١ ، ٧٣
هياكل عظيمة ٤٣	هل (كوردل) ٣٩٠
هبارخوس ١٢٢	هلد براند ٢٢٨
هيرودوت ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢	الهلبيني (العالم) ١١٩ ، ٢١٠
الهيروغليفية ٦٢ ، ٩٧	الهلوطية
هيروفيلوس ١١٧	هليوليث (هليوليشية) - (انظر الثقافة
هيرون ١١٧ ، ١٣٩	الشمسية الحجرية)
هيستاسبس ٨٨	الهملايا (جبال) ٢٧ ، ١٢٢ ،
هيوكابت ٢١٧	الهند ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ،
	١٥٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠
	الهند وإسيكليديون ١٥٨
(و)	الهندوكية (الديانة) ١٢٧
واط (جيمس) (ماكينة) ٢٩٩	هنري الرابع (الإمبراطور) ٢٢٤
واتلو ٢٩٢	هنري السادس (الإمبراطور) ٢٢٩
واشنطن (جورج) ٢٨٤ ، ٢٩٢	هنري الثامن (ملك إنجلترا) ٢٥٥ ،
والدر ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٥١	٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
	هنري الصياد ٢١٧

يسوع ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦،

٢١٣، ٢٥٢، ٢١٥

اليسوعيون (الرهبان) ٢٥٢، ٣٠٤

(الآباء) ٢١٢

اليهود ٨٩، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٢١،

١٣٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٨، ٢١٩

يهودية (يهودا) ٨٤، ٨٩، ٩٩، ١٤٢،

١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ٢٤١

يوان (أمره) ٢٣٨، ٢٣٩

اليوناني ١١٠

يوحنا الحادي عشر (البابا) ٢٢٤

يوحنا الثاني عشر ٢٢٤

يوريديس ١٠٩

يوشع (الملك) ٨٤، ٨٩، ٩٠

يوليوس الثالث ٢٦٠

يوليوس قيصر ١٤٥، ١٤٩، ١٥٠

يوانان (أنظر إغريق)

اليونانية (اللغة) ٢٠٦

ووق ٢٦٥، ٢٦٦

وستفاليا ٢٧٠، ٢٩٨

الولايات المتحدة الأمريكية ٢٢٢، ٢٢٥

ولزي (السكر ديتال) ٢٦٨

ولسن (الرئيس) ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٥

وانجتون ٢٩٢

انوندال ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ٢٩٢

ويجانيد (المارشال) ٢٨٩

ويفل (الجنرال)

ويكليف ٢٣٥، ٢٥٠

ويلز ٢٢٥

(٥)

اليابان ١٢٧

الحرب اليابانية الصينية ٢٤٤

البرموك (مفرقة) ٢٠٤

